

سلسلة الدراسات الكبرى

اسماعيل العربي

الصحراء الكبرى وشواطئها

المؤسسة الوطنية للكتاب

إسماعيل العربي

الصحراء الكبرى وشواطئها

المؤسسة الوطنية للكتاب
3 ، شارع زيروت يوسف
الجزائر

رقم النشر 81/1043
©المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر 1983

مقدمة الكتاب

لم تكن فكرة بحث موضوع الصحراء فكرتي ، وانما هي فكرة هيئة الاذاعة والتليفيزيون التي اقترحت علي القاء سلسلة من المحاضرات عن الصحراء الجزائرية في وقت سلطت فيه الاضواء على هذه المنطقة في سياق الجهود التي كانت تبذل لمقاومة التخلف في هذه المناطق المحرومة ، وقد استجبت لهذا الاقتراح وطلبت مهلة لدرسه .

ومنذ المرحلة الاولى خطرلي أنه لا يمكن فهم شيء من مشاكل الصحراء ووضعها الخاص دون محاولة التعرف عنها عن كثب ، ودون مخالطة سكانها والمداولة معهم لاستطلاع آرائهم ، على الاقل ، فيما يتعلق بشؤونهم .

وهكذا قررت القيام بجولة استطلاعية في الصحراء ، افضت بي الى عدد من مدنها وواحاتها ، بما في ذلك بوسعادة وسوف وتوقرت والجلفة وورقلة ووادي مزاب وبسكرة وتمنغست ، وغيرها . وكذلك قمت في مرحلة تالية بزيارة باماكو (مالي) ونيامي ، عاصمة النيجر . حيث أقمت بضعة أسابيع في مجموع هذه الرحلة . وأما الصحراء الليبية ، فقد عرفتها وتجولت فيها أثناء إقامتي في تلك البلاد ، ولا سيما في غضون رحلة عن طريق البر من الأسكندرية الى طرابلس .

كان أملي من وراء هذه الرحلة أن استنطق العقول وأربط الحوار مع المثقفين والطبقة المستنيرة من السكان ، واكتشف عادات وتقاليد لا أعرفها ، وباختصار ، أن أجمع انطباعات حية تكمل وثائقي،وبذلك أتمكن من تسجيل شهادة شخصية عما يعانيه هؤلاء السكان من الآم والمشاكل وما يعتلج في نفوسهم من آمال للخروج من حالتهم التي فرضتها عليهم الطبيعة والتاريخ ، وفي تلك الظروف نفسها ؛ يجب أن اعترف للقارىء بأنني كنت أعاني همًا وغمّا في ازمة نفسية لم اعرف لها مثيلا من قبل ، وكنت أرجو أن يكون الابتعاد عن البيئة التي تضايقني ، وفي انفتاح آفاق الصحراء ، برمالها

وسمائها غير المتناهية ، وفيما اشتهر به سكانها من النبل وكرم النفس ، شيئا من العزاء والسلوان ، ولِمَ لا ! فان الكثيرين من قبلي قد لاذوا بالصحراء لضمد جراحهم ، أو ليتخففوا من اثقال آلامهم وليتحرروا من وطأة فشلهم في الحب أو في الحياة ، أو في كلا الامرين معا . و «ثاييس» الذي خلد آلامه واحزانه فيكتور هيجو وماسني لم يكن أول من فتح قلبه للصحراء وناجى نجومها ، ولا آخر من اعتصم بالاديرة في الفيافي طلبا للعزاء والنسيان .

وبالفعل ، فقد جمعتني الصدفه ببعض المعارف وغير المعارف من سكان الصحراء ، وتجاذبت اطراف الحديث مع من التقيت بهم ، ولكن اتصالاتى الشخصية السطحية ، مثل استفساراتي عن الشؤون العامة ، كان يشوبها النفاق في بعض الحالات ، والجهل في حالات اخرى ، وقد كانت في مجموعها تمثل خيبة الامل وتثير الحسرة في النفس على الهوة التي انحدر اليها سكان الصحراء وشواطئها ، وذلك على المستوى الثقافي والاخلاقي معاً .

لقد كانت الصحراء في مختلف عهودها أرض الجفاف والحرمان ، وباستثناء القليل من التجار وشيوخ القبائل وأعوان السلطان ، كان سكانها يعيشون في شظف وتقشف ، ولكن حياتهم كانت دائما يسودها النبل وتخضع لقواعد الشرف وتدين بمبدإ الكرم والسخاء وحسن استقبال الضيف ، وهذه ، فيما تعرف ، خصائص عامة ، ومبادىء مشتركة بين سكان الصحراوات في جميع مناطق العالم ، ولايشذ عنها حتى الربع الخالي وأنا لاأعرف الوضعية السائدة في الوقت الحاضر في المناطق الصحراوية الاخرى ، ولكنني لمست التطور الذي وقع في الصحراء الكبرى وفي بعض شواطئها بنفسي وكنت شاهد عيان لبعض الاحداث الدالة على الاتجاه ، واظن انني لوحاولت تسجيل مشاهداتي في هذه الرحلة ، كما يصنع الرواد والرحالة ، لا حتجت لاستيعابها الى سفر مستقل ، وهي بالتأكيد ، سيتغلب الجانب السلبي فيها على الجانب الايجابي ، على أن قلة رغبتي في الخوض في هذا الموضوع لاتعفيني من عرض بعض الامثلة هنا بطريقة موضوعية لياخذ القارئ فكرة عن نوع الانطباعات التي عدتُ بها من رحلة الصحراء .

ـ أقمنا في أكبر فنادق بوسعادة ثلاثة أيام . وكان الوقت شتاء (شهر فبراير) وهو موسم السياحة في الصحراء ، وكان النزلاء كلهم من الأجانب . وقد عانينا من مضايقات كثيرة لم يكن أقلها شانا الحرمان من الماء . ولكنه لحسن الحظ ، كانت زجاجات سعيدة متوفرة للحلاقة في الصباح !

ـ سعيت أثناء إقامتي في تمنغست لشراء بعض الأقمشه المطبوعه مما يصنع في البلدان الواقعة على الضفة الجنوبية للصحراء ، وقد اخبرت بانها متوفرة بكثرة .

ولدهشتي كنت كلما طلبتها في متجر كان الجواب : «ماكانش !» . وفي مرحلة تالية ادركت السبب . فانت اذا كنت غريبا عن البلدة تحتاج لشراء شيء من ذلك ومن غيره الى شخصية كبيرة من أهل البلد ليكون ضامنا لك عند التاجر الذي يقسم له باغلظ الإيمان انك لست «مخبرا» ولا من أعوان الشرطة !

ــ نزلنا في سوف في أحسن فنادق المدينة واحدثها . وفي ليالي الصحراء القارسة التي قد تنزل درجة الحرارة فيها الى 30 تحت الصفر ، كانت امكانية التدفئة الوحيدة هي موقد قاعة الاستقبال الذي يستعمل الحطب . ولما عاد النزلاء من المطعم عقب الانتهاء من تناول العشاء ، وجدوا صفين من المقاعد تحيط بالموقد ، وهي كلها مشغولة بأهل البلد ، وأمام كل واحد منهم زجاجة من الخمر الأحمر . وأما النزلاء ، وكلهم من الأجانب (ومن بينهم بعض السيدات) ، فقد اضطروا الى الجلوس في وسط القاعة وهم يرتعدون من البرد ، حيث اتيح لهم أن يمتعوا انفسهم بمناظر عجيبة ، مناظر الشباب الصحراوي وهو منهمك في الشرب من الزجاجات ويأتون بحركات ويتلفظون بفاحش القول ، ريثما تعبث الخمر بعقولهم وتقوم شجارات تنتهي بالعراك . وفي منتصف الليل ، خرج بعض الأجانب ، وكنت من بينهم ، ليطلبوا الى القائم بالأعمال أن يمدهم ببعض الاغطية حيث أن ماكان لديهم غير كاف ولكن القائم أخبرنا ، وكله أسف أنه لايستطيع اتخاذ قرار خطير كهذا دون ان يتلقى أوامر مدير الفندق ــ مدير الفندق الذي لايمكن إزعاجه ، وخصوصا ، وأنه في حالة سكر متقدمة (Ivre mort.) ، حسب تعبيره .

ــ كان شيخ من منطقة غرداية كثيرا ما يزورني في منزلي لأغراض علمية واحيانا يصطحب معه بعض طلاب العلم من بني قومه . وقد وجه اليّ الدعوة أكثر من مرة لزيارته وللاطلاع على مكتبته التي كنت أعرف أنها تحتوي على كثير من المخطوطات . ولما وصلت الى غرداية اتصلت به من الفندق للسؤال عن أحواله . الحق أنني كنت أنتظر منه أن يقوم بزيارتي في الفندق ، وأنا الضيف في بلده . ولكنه بدلا من ذلك دعاني هو لزيارته .ولما كنت اعرف ان الاباضيين يعارضون في خطط السياحة في بلدهم ، بل وعارضوا خصوصا ، في بناء فندق الرستميين الذي نزلت فيه فقد تغاضيت عن اعتبارات البروتكول . ثم انني كنت اتصور انني مقبل على زيارة مكتبة المخطوطات الموعودة ، والعلم دائما يؤتى اليه . ولهذه الاعتبارات ، فقد تناسيت الشكليات وقبلت الدعوة . ولشد ما كانت دهشتي حين وجدت أن العنوان الذي أعطاني إياه ، لم يكن عنوان منزله ، بل هو عبارة عن مقهى شعبي مليء بالكعك والناس وبالذباب أيضا !

ــ نزلنا الفندق الوحيد الذي توجد فيه بعض وسائل الراحة في نيامي (عاصمة النيجر) ، وبعد العشاء في اليوم الأول ، نزلنا الى مقهى الفندق الذي يقع في الطابق

الأرضي ، وقد كنا عشرة من الرفقاء . جلسنا حول مائدتين ، وبينما كنا في انتظار فنجان القهوة ، استلفت نظرنا عدد الغاديات والرائحات من «جميلات الليل». وقريبا من مائدتينا اللتين أصبحتا واحدة ، كانت تجلس فتاتان تتجاذبان أطراف الحديث . لم يلبث اثنان من الزملاء الشجعان أن قاما واستأذنا الفتاتين لمسامرتهما — بدافع من النخوة والفروسية ، بدون شك ! وسواء أردنا او لم نرد ، فان قرب المسافة جعلتنا نسمع كل ما يدور في ذلك المجلس حول كؤوس «الكولا» ..

— الفتيات في مثل سنكما ينعمن بالاحلام اللذيذة في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ...

— ماذا تريد ياصديقي ... هذه هي الحياة ، العمل هو العمل !

— بالتأكيد ، لستما من هذا النوع ...

— تقصد من هذا النوع من النساء ؟ كلا ، كلّا ! فنحن تلميذتان في السنة الرابعة في الثانوي .

— ووالدكما ، الا يعارضان في هذا السهر ؟

— لوعارضا ، فكيف يعيشان هما واخوتنا . إن السهر معناه الخبز !

وحتى لا يبدو هذا التقرير مجحفا وكأنه ينطوي على تحامل على الأوضاع السائدة في البلد المستضيف لنا ، يجب أن أضيف اننا عرفنا في نهاية هذا الحوار أيضا ، أن كلتا «الجميلتين» تنتمي الى أسرة من المهاجرين الجزائريين الصحراويين الى النيجر .

تلك لمحات من حياة الصحراء والتي تمثل ايضا بعض الانطباعات التي جمعتها في غضون رحلتي فيها ، ولو شئت لوسعتها وقدمت غيرها . والخلاصة انه اذا استمر انزلاقها في هذا الاتجاه ، بعيدا عن الضمير الاجتماعي وعن كل رقابة من الدين والقانون والعرف ، فان الصحراء لن تلبث ان تصبح مزبلة ومستودعا لقاذورات الحضارة الحديثة . فان كل مايوجد في المدن الكبرى من الاوساخ والسموم وانواع الشذوذ والانحراف منتشر في مدنها وقراها ، مضافا اليه نشاط التهريب في الاتجاهين ، والسوق السوداء بالجملة والقطاعي . وسواء نجحت مشروعات التنمية الاقتصادية والجهود التي تبذل لانقاذ الصحراء من وهدة الفقر والجهل ، أم فشلت ، فان كل شيء يدل على ان الأوان قد فات ، أو كاد ، لاعادة النبل وكرم النفس الى هذه المناطق ، وأن القضية هي : هل يمكن انقاذ الانسان الصحراوي من نفسه ؟

⋆ ⋆ ⋆

سيجد القارىء في قائمة المراجع والبيبليوغرافيا الملحقة بالكتاب كثيرا من الدراسات والتقارير والرحلات الاستكشافية والكتب ، وكل منها يعالج ناحية معينة أو عدة نواحي من الصحراء ، وقد اخترتها لتكون دليلا ومعينا للباحث في موضوع الصحراء وشعوبها وحضارتها ، حينما تتجه الانظار إلى هذا الموضوع الذي يتصل بتاريخنا أوثق الاتصال . وقد يرى البعض ان الوقت قد حان لابراز طابع هذه البحيرة وشواطئها العربي الاسلامي . وسيكون ذلك بدرس تاريخها وجغرافيتها وقبائلها وشعوبها التي تشكل وحدة عضوية مع شعوب المغرب . والجانب الآخر الذي يستحق العناية والدرس ، هو دور الصحراء بوصفها منطقة عبور للافكار والعقائد والمنتجات إلى افريقيا السوداء . وهذه كلها ، وغيرها تصلح محاور لاطروحات جامعية وملتقيات علمية بين الذين تهمهم الصحراء . ومايواجهه الباحث من نقص في الاحصاءات ، اوعدم وجود احصاءات ، يمكن التغلب عليه ، ولا سيما في المجال الاجتماعي ، بالدراسات الميدانية المحدودة الموضوع والاهداف ، والتي لابدّ وأن تبرز كثيرا من الحقائق التي غفل عنها الدارسون الاروبيون ، أو اهملوها لاغراض معينة .

أتيح لي أثناء ملتقى التعرف على الفكر الاسلامي الذي انعقد في تمنغست في سنة 1979 ، الاجتماع وتبادل الحديث طويلا مع ثلاثة من الكتاب يعتبرون أكبر المتخصصين في الصحراء وفي تاريخ افريقيا ، وهم : السيد «لهوط» (lhote)صاحب المؤلفات العديدة والذي ظل يتردد على الصحراء بانتظام ويهتم بها علميا خلال نصف قرن كامل ، والسيد والسيدة كورنفان (Cornevin) مؤلفا كتاب «تاريخ افريقيا» (جزان) الذي يعتبر أكمل واشمل تاريخ للقارة ، وقد تناول حديثنا في عدة مناسبات موضوعات تتعلق بالدراسات الصحراوية . ولعل أهم النقاط التي اتفق رأينا بشأنها ، هي أن الرائد الأروبي القديم ، مثل السائح الأروبي الحديث ، كلاهما يواجه عقبة كبيرة بسبب عدم معرفته باللغة العربية واللهجات البربرية الكبرى (مثل لهجات الطوارق والتبّو) ، وذلك بالاضافة الى جهله بالعناصر الأساسية في الحياة الاجتماعية التي تختلف بين منطقة ومنطقة ، وأن هذا الاعتبار يفسر بعض الفجوات الموجودة فيما كتبه الأروبيون عن الصحراء وشعوبها ، وأن ظهور باحثين من ابناء الصحراء سوف يكون عاملا يساعد على تلافي هذا النقص في المستقبل .

* * *

قلت ان الفكرة الاولى للكتابة عن الصحراء قد أوحت بها الي هيئة الاذاعة والتليفيزيون لالقاء سلسلة من المحاضرات عن الصحراء الجزائرية . وهذه المحاضرات في

القيت نطاق برنامج استمر وقتا من الزمن حتى مللته ، قبل ن يخطر ببالي أن الموضوع يستحق درسا أعمق مما يفترضه برنامج اذاعي ، وانه من الممكن توسيعه ليشمل الصحراء الكبرى كلها وشواطئها الجنوبية التي ترتبط بها ارتباطا قويا . ولذلك عكفت في مرحلة تالية على البحث لوضع هذا الكتاب وقد استغرق هذا العمل مدة غير قصيرة ، قطعته عدة اسفار الى الخارج حيث تمكنت ، لحسن الحظ ، من استكمال مراجعي .

والكتاب في حجمه المقدر له لم يكن ليحتمل تفاصيل اخرى عن البلدان الواقعة على الضفة الجنوبية للصحراء الكبرى (وهذه التفاصيل ، على كل حال ، يمكن الذي يبحث عنها أن يجدها في كتاب أحدث لهذا المؤلف ، وهو : «حاضر الدول الاسلامية في القارة الافريقية») . ولنفس الاعتبار لم أشأ أن أثقله بهوامش وتعليقات وإحالات بيبليوغرافية ـــ الامر الذي سيتطلب ضعفي حجمه . وسيلاحظ القارىء ايضا انني اقتصرت على الحد الادنى من الاقتباسات من وصف الجغرافين العرب للصحراء وللبلدان الواقعة على شواطئها الجنوبية ، لان هذا الوصف يمثل ثروة طائلة وحجما معتبرا . وانا أتمنى ، لو يتاح لي الوقت ، أن أجمع هذه النصوص وانشرها في سفر مسقل ، وهي بالتأكيد ، ستلقي ضوءا خاصا على الصحراء التي هي بحيرة عربية اسلامية ، وعلى دورها في نقل الافكار ، لو احسن ترتيب مادتها وتنظيمها ، مع القدر الضروري من التعليق والتوضيح .

اسماعيل العربي

الجزائر ، ديسمبر 1982

القســم الأول

الفصـــل الأول

طبيعـــة الصحـــراء

عرف كل من الزبيدي في تاج العروس وابن منظور في لسان العرب الصحراء من الأرض بأنها « المستوية في لين وغِلظ دون القف ، وقيل إنها الفضاء الواسع » . وقال ابن شميل : « الصحراء من الأرض ، مثل ظهر الدابة الاجرد ليس بها شجر ولا أكام ، ولا جبال ، ملساء» . وجمع الصحراء ، فيما قال ابن سيّده ، سحروات وصَحَارٍ ، وفيما قاله الجوهري ، صحاري وصحروات . وقد نقل عن علي بن أبي طالب (ض) قوله : «فاصْحِرِ لعـدوك وامض على بصيرتك» . وصحراء مؤنث الصفة ، ويقال أصحر ، أي الذي يضرب لونه من الحمرة إلى الغبرة .

والصحراء الكبرى ، هي أوسع صحاري العالم ، حيث أنها تمتد شرقا من البحر الأحمر ، عبر النيل ، حتى المحيط الاطلسي غربا ، ومن الجنوب الى الشمال بين بلدان افريقية الشمالية وبلاد السودان (أو بلاد الزنج) .

وحدود الصحراء من الشمال ، غير واضحة المعالم ، حيث أنها تتصل في بعض المناطق (مثل مرسى مطروح وبنغازي) بالبحر الأبيض مبَاشرة ، بينما هي تمتد وراء الهضاب العليا في الغرب وتتوغل نحو الشمال حينا ، وتنحسر الى الجنوب حينا آخر . وهذا الغموض والاضطراب ، هو الطابع الذي يميز حدود الصحراء الجنوبية أيضا ، ولكنها ، بصفة عامة ، تنتهي عند الخط الذي يُشكله امتداد هضاب النيجر الذي يتفق مع انتشار النبتة التي تسمّى «كرام ـ كرام» .

وكذلك نرى أن حدود الصحراء الشمالية والجنوبية (على عكس حدودها الغربية والشرقية التي تقف عند البحر) لا تمثلها أية حواجز طبيعية ، مثل الأنهار والجبال ، بل هي تمتد بصورة اعتباطية وغير مستقرة ، يزيد من عدم استقرارها زحف الرمال نحو الشمال لتغطي مساحات من التل (فقد كانت الاغواط ، مثلا تعتبر في اواخر القرن الماضي من الصحراء) .

وإذا جردنا الصحراء من صحاري القطر المصري ، نجد أن مساحتها تمتد على ثلاثة ملايين كيلو متر مربع ، وبذلك ، فهي تشكل ربع القارة الافريقية .

وسطح الصحراء ، على عكس ما يتوهم البعض ، أبعد ما يكون عن التجانس ، حيث أننا نشاهد فيها مستويات كبيرة الاختلاف في الارتفاع والانخفاض . فالاجزاء التي تمتد في جنوب ، وعلى الحدود الليبية المصرية ، تقع تحت مستوى البحر ، في الوقت الذي يبلغ فيه ارتفاع أعلى قمم جبال تيبستي والهجار 4400 و 3000 متر على التوالي ، وبين هذا الارتفاع وذلك الانخفاض ، نجد هضابا وسلاسل من الجبال ذات ارتفاع واحجام مختلفة ، ولكن الملاحظ ، بصفة عامة ، هو أن المناطق الشرقية يسودها الانخفاض ، بينما تسود المرتفعات في المناطق الغربية . وتخترق الصحراء الوسطى سلسلة من البراكين التي تتجه بصورة تقريبية ، من الشرق الى الغرب ، بين تيبستي وعين زيز ، بر الهجار . وهذا أيضا ، هو الاتجاه الذي تتخذه جبال الاطلس .

وتمتد في الصحراء ثلاث سلاسل كبيرة من الجبال الصخرية ، وهي سلسلة «آغلب» في الغرب ، وهي تمثل امتدادا نحو الشرق لمرتفعات موريطانيا ؛ وسلسلة جبال الهجار التي تشكل سلسلة الجبال الوسطى الصحراوية ، وتتفرع عنها جبال ادرار وايفورا في الجنوب الغربي وجبال آيـرْ في الجنوب الشرقي ؛ حيرا ، سلسلة جبال تيبستي التي تمتد في الشرق ، على الحدود بين ليبيا وتشاد .

والمحل والقفر الذي اشتهرت به الصحراء ، لا يعود الى طبيعة التربة نفسها ، بل إلى المناخ الصحراوي ، فالأمطار قليلة في الصحراء ، بحيث أن بعض المناطق تمر عليها سنوات دون أن ينزل فيها المطر . والمعدل السنوي لتساقط الأمطار في القاهرة ، مثلا ، لايتجاوز 32 مليمتر ، وفي المناطق الواقعة على ساحل

المحيط الاطلسي من موريطانيا ، لم يكن يتجاوز خلال مدة عشر سنوات معدل 20 مليمتر في السنة .

والامطار التي تهبط في المناطق الصحراوية ، على قلتها ، ليست ذات فائدة تذكر للزراعة ، حيث انها سرعان ما تتبخر بعد ملامستها للارض (بل ولربما رؤي المطر ينزل ولكنه يتبخر قبل أن يصل الى الارض) ، وذلك بفعل ارتفاع درجة الحرارة . ومن المعلوم أن الصحراء الكبرى أشد المناطق تبخرا في العالم ، وماء المطر الذي يقدر له الوصول الى الارض ، سرعان ما يغوص في الرمال وتبتلعه الارض المتعطشه .

والميزة الاخرى التي تميز المناخ الصحراوي ، هي الفارق الكبير في درجة الحرارة ، فقد ترتفع إلى 50 درجة في النهار وتنحدر في الليل إلى ما يقرب من 20 درجة تحت الصفر .

ويزيد من قسوة المناخ الصحراوي وعدم استقراره أيضا شدة الرياح التي قد تبلغ درجة عالية من السرعة بحيث تفتت الصخور وتعري سطح الارض وتعرقل مجرى الحياة اليومية ، الأمر الذي يفرض قيودا ويشكل ضغوطا على الانسان والحيوان .

وكذلك نجد مناطق شاسعة في الصحراء ، يمكن تسميتها « صحراء الصحراء » غير آهلة وغير مجهزة لايواء الحياة بتاتا . ومن اشهر هذه المناطق وأشدها قسوة ، أراضي « تنزروفت » التي تمتد في غرب الصحراء عشرات الآلاف من الكيلوميترات ، والتي ظلت منطقة مستعصية مجهولة لدى المستكشفين الأروبيين حتى سنة 1936 .

وعلى نفس النمط من المحل والقفر أيضا ، الصراء الليبية التي تحيط بواحة « كفرة » وتعزلها في محيطها عن العالم عزلا تاما .

ومع ذلك ، وبالرغم من ظاهرة الجفاف التي يتسم بها مناخ الصحراء يجب أن نلاحظ أن الامطار التي تهطل في الشمال قد تتسرب الى حافة الصحراء وتنشأ عن ذلك منطقة من السهوب التي ينمو فيها العشب وتشكل منطقة رعوية مثالية . وهذه هي حالة الهضاب الجنوبية الجزائرية ، وهي أيضا حالة سلسلة

من الادغال تمتد في جنوب الصحراء بدون انقطاع تقريبا ، من شواطيء المحيط الأطلسي حتى حوض النيل الاعلى ، وهي تشكل منطقة انتقالية بين الصحراء والمناطق الخصبة في افريقية الاستوائية .

ونحن نعرف أنه توجد عند خط الاستواء ، حيث يكون الطقس دائما شديد الحرارة ، منطقة ضغوط جوية منخفضة يجذب إليها تيارات هوائية من كلا جانبي الخط ، وتتولد في مقابلها ، على مستوى القطب مناطق ضغوط جوية مرتفعة تنجم عن الهواء المتجمع العائد من خط الاستواء والمتوقف بسبب حركة دوران الأرض ، في طريقة الى القطب. ومن هذه الحركة تتكون منطقتان رئيسيتان لاعصار معاكس ، احداهما على المحيط الاطلسي ، فى منطقة جزر «الأصور» والأخرى في الصحراء الوسطى .

والاعصار المعاكس ، هو السبب ، الى حد كبير لعدم نزول الامطار في الصحراء .

*
**

إن الرياح الصحراوية التي تهب خفيفة ولكنها لا تلبث أن تتحول الى اعصار وزوابع ، مشهورة بعتوها وأخطارها لا في خيال كتاب القصص وروايات المستكشفين الاجانب فحسب ، بل وبين سكان الصحراء أيضا ، ومن هذه الروايات ما يزعم أن الاعصار الصحراوي قد يبلغ من العنف والشدة أن يطوي قافلة ويدفنها تحت الرمال. وبالفعل ، فقد عثر المستكشفون الاروبيون على هياكل عظمية لقوافل باسرها في الصحراء الليبية ، ولكنه لم يمكنهم التأكد ممّا اذا كان موت المسافرين التعساء نتيجة للزوابع الرملية أو نتيجة للعطش بعد ما ضلوا طريقهم .

والريّاح الصحراوية تحمل أسماء تختلف باختلاف المناطق الصحراوية . فهي تسمى « الشهلي » في وسط الصحراء وفي الصحراء الجزائرية ، ومعناه الريح الجنوبية ، وأما الرياح الخطيرة والزوابع المثقلة بالرمال والغبار ، والتي يسميها الفرنسيون « سيروكو» (sirocco) ، فهي الرياح الجنوبية الشرقية

الحارة . والرياح التي يسميها المصريون «الخمسين» ويزعمون أنها تستمرّ في الهبوب خمسين يوما بدون انقطاع ، هي رياح عاتية جنوبية غربية . وهذه وغيرها كلها اسماء محلية لرياح متقاربة النوعية والخطورة .

ومن المعروف أن هذه الرياح القوية تدفع أمامها تلال الرمل بالسهولة التي يحرك بها الطفل العابه ، وتنقلها من مكان الى مكان ، فتمحو معالم الطرق وتملؤ المنخفضات وتقتلع جذوع النخل وتغطي بساتين النخيل وتدفن القرى تحت الرمل وتغير وجه الصحراء ، وكل ذلك في وقت قد لا يتجاوز يوما واحدا .

صحيح أن هذه الظاهرة إنما تشاهد بتلك الدرجة من العنف في مناطق معينة ، مثل توات وفي بعض المناطق الجنوبية من صحراء ليبيا ، ولكن آثارها مع ذلك ، حقيقة لا ريب فيها . فان الاهالي في بعض الواحات يقومون بمجهود مستمر لإزالة أكوام الرمال التي تغزو بساتينهم وتتراكم على سقوف منازلهم . وبعض المدن الصحراوية ، مثل توقرت قد اضطرت في محاولاتها لمقاومة رمال الصحراء الى اختراع طريقة في الفن المعماري تقوم خصوصا ، على تتويج سقوف المنازل بقِبَب مخروطية الشكل تمنع الرمل من التراكم على سطوح المنازل ، مما يهدد بسقوطها تحت اثقاله .

وفي منطقة الوادي ، يعمل السوفيون بصبر وبدون توان في مواسم الرياح لرفع أكداس الرمال التي قد تغطي النخلة حتى رأسها في بساتين النخيل .

تحدث ابن سعيد المغربي الذي عاش في القرن السابع الهجري (13 ميلادي) في كتاب الجغرافيا عن رياح الصحراء التي تمتد بين غانة وسجلماسة والتي تجفف حتى المياه التي يحملها المسافرون في قربهم ، فقال في الجزء الثاني من الاقليم الاول مايلي ، نقلا عن البحار ومؤلف الجغرافيا ، ابن فاطمة : في وضعه (أي هذا الجزء) ، لا ماء ولا مرعى ولا عمارة ، بل رمال سائلة وطرق مُضَلة طامسة ، واكثر ما يكون فيه اللمط ، (وهو حيوان) صابر على العطش ، وهو على شبة الغزال ، ولكنه اغلظ منه ، وأول ما يلقاك من هذا الجزء ، صحراء سير التي يقطعها المسافرون ما بين سجلماسة وغانة ، وهي طريق عريضة يكابدون فيها شدة العطش ووهج الحرّ . وربما هبّت ريح جنوبية ونشفت المياه

التي في القرب ، فهم يعيدون إليها المياه التي في بطون الابل ويجعلون على أفواهها الكمائم لئلا تأكل شيئا ، فإذا انشفت الريح مياههم ، نحروها جملا جملا وشربوا ما في بطنها ، وليس في هذا الجزء مدينة مذكورة غير أوْدغست ، وسكانها اخلاط من البربر المسلمين والرئاسة لصنهاجة.»

وللاخطار الناجمة عن الزوابع والرياح الصحراوية والجفاف ، شعر الانسان الصحراوي منذ أقدم العصور ، بالحاجة الى اتقاء الظواهر الطبيعية العنيفة ، فأخذ يلتجيء الى الجبال الصحراوية التي ، الى جانب كونها تؤمن سلامته ، تتلقى كميات من الامطار اكبر مما تتلقاه الوهاد والسهول الصحراوية.

وكذلك نرى عددا من الجماعات الصحراوية والشعوب والقبائل تعيش الآن على قمم الجبال الصحراوية ، وفي مقدمتها الطوارق الذين اختاروا سلسلة الهجار ، والاجّار الذين يقيمون على التاسيلي ، وإيفوراْ الذين التجأوا الى أدرار. وأما شعب التبّو ، فقد فضل هو ، منذ عصور لاتعيها ذاكرة التاريخ ، العيش على جبال تبيستي الصخرية التي تشكل قمة «الامير قوسي» فيها أعلى قمم جبال الصحراء ، حيث يبلغ ارتفاعها 3400 متر.

فهذه الجبال كلها تحتوي ، بكميات مختلفة باختلاف المناطق ، على موارد المياه التي تتبجس على سطح الأرض ، وتسمح بتربية الحيوانات وبالاستقرار للسكان.

والكتاب والجغرافيون العرب ، وفي مقدمتهم أبو عُبيد البكري والشريف الادريسي وابن سعيد المغربي وابن خلدون والمقريزي والحسن بن محمد الوزان وابن بطوطة ، كلهم تحدثوا عن الصحراء الكبرى وتركوا لنا وصفا شيّقا لمختلف أطراف الصحراء ، ولا سيما للمناطق الواقعة على حافاتها الجنوبية والشمالية التي كانت تجوبها قوافل التجار والتي زرع دعاة الدين الاسلامي فيها بذور حضارة نمت وتَرعْرعت في مراكز للعمران لا يقلل من عظمتها كونها قد اندرست الآن وطمستها الرمال ، مثل أودغست وسجلماسة وتمبكتو. فقد كانت هذه المدن مقصداً للقوافل من مختلف أطراف المشرق والمغرب تنقل إليها منتجات الشمال ومنتجات

لاندلس التي تعبر بالمغرب وتحمل منها العبيد والتبر والعاج وغير ذلك مما سنتعرض له بالتفصيل في فقرات مقبلة .

وقد لخص الحسن بن محمد الوزان المعلومات التي وصلت الى عهده عن طبيعة الصحراء واوضاعها ، وحاول تقسيمها على أساس عدد السكان المعروف في وقته الى خمس مناطق متميزة ، وهي :

1) صحراء زناتة التي تمتد من المحيط الى سبخات تغازى 2) صحراء ونزيغة التي تمتد من تغازى التي كانت تمد كثيرا من بلاد السودان بالملح ، حتى آير في الشرق وصحراء تافيلالت في الشمال 3) صحراء الطوارق التي يحدها عرق الغيدي من الغرب ، وقورارة ووادي ميزاب من الشمال ، وأغاديس من الجنوب 4) صحراء لمطة التي تحدها ورقلة وصحراء غدامس من الشمال والصحاري التي تمتد حتى «كانو» من الجنوب 5) صحراء البرداوة التي تقع بين صحراء لمطة في الغرب وصحراء أوجلة في الشرق ، وفزان في لشمال ، وبرنو في الجنوب .

الماء عنصر الحياة :

وجود الماء في شكل آبار أو أنهار أو بحيرات هو الشرط الأول لكل وجود نباتي أو حيواني في الصحراء . وأما مياه الامطار ، فهي قليلة ولا يكاد معدل لتساقط منها يتجاوز 200 مليمتر في السنة ، ومع ذلك ، فإن هذا المعدل ، على ضئالته لا تحظى به جميع المناطق بالتساوي ، فإن النسبة التي سجلت في منطقة أدرار لتساقط المطر في ظرف عشر سنوات ، مثلا ، لم يكن يزيد عن 254 مليمتر (هطل معدل 90 مليمتر منها في يوم واحد !) ، وفي تيميمون 35 مليمتر في ظرف ثلاث سنوات .

وهكذا يمكن القول بان الحياة نفسها في الصحراء تتوقف الى حد بعيد على الحظ والصدفة .

والعطش في الصحراء لا يهدد النبات والحيوان فقط . بل إن كل منطقة من مناطقها قصتها للفناء ومقبرتها للموتى بالعطش ، وركب السنوسيين الذين

هربوا من واحة الكفرة وماتوا في طريقهم بالعطش ، ما هو الا واحد من الجموع الكثيرة التي لقيت مصيرها بتلك الطريقة الفظيعة .

وسير القوافل في الصحراء غير ممكن اذا لم تسلك طريقا معروفة المعالم تتخللها آبار ومواقع للمياه ، ولكنه متى قدر للمسافر أن يجد البئر التي يقصدها قد جفّت ، أو وقعت تحت رحمة عدوّ مصمّم على أن يمنعه عنها ، فما عليه عندئذ الا أن ينطق بالشهادة ، لان مصيره محتوم ،

وهطول الامطار في الصحراء لا يتخذ نمطا عاديا ، وإنما هو يقع دائما في صورة طلّ أوْوَابل يرافقه رعد وبرق . وهذه العواصف كثيرا ما تكون لها عواقب وخيمة على الانسان والزراعة ، بل والحيط كله ، فقد ينجم عنها فيضان أنهار صغيرة تنتفخ في لحظات معدودة وتغرق مناطق باسرها ويذهب الانسان وعمله الدائب ضحية بريئة للغيث الذي كان ينتظره بفارغ الصبر ، كما قد يؤدي الفيضان الى عزل بعض المناطق عزلا تاما عن العالم بصورة تعرضها للمجاعة والأوبئة .

وهكذا ، فإن الانسان الصحراوي الذي يواجه الموت بالعطش قد يكون مصيره الموت غرقا . فإن الجداول ومجاري المياه التي يمرّ بها الانسان ولا تستلفت نظره في الاوقات العادية لاتلبث أن تصبح أنهارا كبيرة وسيولا جارفة تدفع كل ما يعترض طريقها بمجرد هطول الامطار فوق نسبة معينة .

ولكن مياه الامطار الخفيفة والغزيرة سرعان ما تغوص في الرمال ، فتستعيد الصحراء مظهرها الطبيعي القاسي ويسود الأرض الجفاف والقيظ من جديد .

على أن الماء الذي تبتلعه الارض لم يَضِع كلية ، فهو حتما سوف يترك أثرا من الغيث كما يروي الأشجار والنباتات الموجودة . ثم إن الإنسان سيتعقبه إلى أعماق الأرض ليستعده إلى السطح في شكل آبار وفجارات الخ .

وموارد المياه في الصحراء من ثلاثة أنواع :

1) العيون التي تتبجّس من تلقاء نفسها ، أو التي تجرى في قنوات جوفية يطلق عليها اسم الفجّارات (ونحن لا نعرف أصل اشتقاق هذه الكلمة) .

2) الآبار (المؤقتة أو الدائمة والارتوازيه) .

3) الاحتياطي السطحي الذي تغذيه مياه الامطار . والبئر هو أعمّ الاشكال التي تتخذها الموارد المائية في الصحراء الكبرى . والبئر ، الى جانب كونها وسيلة للحياة هي أيضا نقطة التقاء ومركز اجتماعي وثقافي وتجاري عظيم القيمة في الصحراء . فعند البئر يلتقي الناس ويتبادلون الاخبار العامة والخاصة ، وقد يتبادلون البضائع والمنتجات أيضا . ولكن البئر كثيرا ما تكون موضع نزاع وسببا مبررا للحرب بين قبيلتين أو مجموعة من القبائل . ولأهمية البئر الاجتماعية ولخطورة شانها في الحياة العامة ، فإن منطقة باسرها قد تحمل اسمه (مثل الاحساء وحاسي مسعود وحاسي المثلة الخ .) .

ومع ذلك ، فإن ما يطلق عليه اسم البئر ويكون محل الاهتمام وقبلة الانظار ، قد لا يتجاوز كونه مجرد حفرة على مستوى سطح الارض ـ حفرة قد يمرّ بها المسافر العطشان ولا ينتبه إليها ، أو يصل إليها بعد مسيرة طويلة فيجد أن الرمال قد طمستها وعفا أثرها .

وبعض الآبار تحتفظ بكل أسرارها ولا يعرف موقعها سوى عدد صغير من الناس ويحرصون على كتمانها في أنانية مشروعة ، ولكن البعض الاخر ذو شهرة واسعة وياتيها الناس من كل فجّ عميق ويختلط عندها الناس والحيوانات في صخب وجلبة وكأنها سوق عامرة .

والبئر بصفة عامة (بئر الرَّحّل وليس البئر الذي يقع في ملكية شخصية لبستان) ملك شائع للغادي والرائح في الصحراء ، فكل مسافر يقصده له حق تحميه العادات والتقاليد في الشراب وفي ارواء حيواناته بحرية ، دون أن يجد معارضه من أحد (فيما عدا اقطاع الطريق أو في حالة الحرب) .

ومياه آبار الصحراء متنوعة التكوين والمذاق ، ولكن بعضها مرّ أو مشبع بالملح ، والصحراوي ، على كل حال ، مضطر الى استعمالها والاكتفاء بها ، بحكم الضرورة .

والصحراوي ، في معظم الحالات لا يعني بتقطير المياه وتصفيتها ، بل يستعملها على الحالة التي يجدها عليها ، ولكنه ، مع ذلك قلما يشكو من ضرر في أمعائه .

لقد شهدتْ الصحراء منذ بداية هذا القرن جهودا كبيرة وتقدما عظيما في تقنية حفر الآبار في الواحات كما شهدت ظهور عدد كبير من الآبار الارتوازية التي تروي بساتين وادي ريغ وغيرها من المناطق . ولكن الانسان الصحراوي بدأ في اختراع طرق فعالة لاستكشاف مواقع الماء ولحفر الآبارمنذ عهد الفراعنة . أما الآن فيمكن القول ، على العموم ، بأن وسائل الحفر الالية قد حلت محل الوسائل التقليدية التي تعتمد خصوصا ، على يد الانسان وعلى قوته العضلية .

على أنه في بعض المناطق المنعزلة لا يزال الانسان يحفر البئر بيده حتى يصادف الماء ، ثم يقوم ببناء حيطان البئر بجذوع النخيل والطين ليحول دون تساقط التراب .

وعملية ،حفر الآبار ، ولا سيما الآبار الآرتوارية ، تحتاج الى خبرة ومهارة والى شجاعة العامل الذي يواجه مخاطر حقيقية يعرفها جيدا ، حيث أن الماء قد يتدفق بقوة وغزارة فجأة في أية لحظة اثناء الحفر ، فيدفع العامل ويغرقه قبل أن يدرك ما يحدث أمامه .

والفجارة التي يسميها الأروبيون foggoras هي المورد المائي المهم بعد البئر . ونحن ، كما قلنا لا نعرف اشتقاق هذه الكلمة ، والقول بأنها مأخوذ من كلمة « فقراء » لان الفقراء هم الذين يحفرون الفجارات ، قول لا يدعو الى الاطمئنان .

والفجارات عبارة عن قنوات أو سراديب تحفر تحت الارض وتلتقط المياه الجوفية على عمق مختلف قد يبلغ 70 مترا ، ويجرى فيها الماء الى منحدر حتى يصل الى الواحة التي تقع في مكان منخفض . والفجارات يكثر انتشارها كلما توغلنا في الجنوب ، وهي توجد بكثرة ، خصوصا ، في صحراء وهران ، ولا سيما في زوسفانة والساورة وتوات وقرارة ، والى الشرق من ذلك ، في تيدكلت .

وهذه القنوات والسرادب الجوفية معروفة في المشرق أيضا ، فهي موجودة في صحراء مصر الغربية وفي إيران وفي الصحراء التي تمتد وراء قزوين ، غير بعيد من الحدود الايرانية حيث تحمل اسم «كجَارِيزن» . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن الايرانيين هم الذين حملوا الى الصحراء الجنوبية الغربية في

عهد الرستميين الذين هم من اصل ايراني ، كما هو معروف . في ولاية نيسبور وحدها كان يوجد أكثر من اثني عشر ألفا من هذه القنوات ، بعضها يبلغ طولها عشرون كيلو مترا .

وواحة توات هي التي انتشرت فيها تقنية الفجارات اكثر من غيرها من مناطق الصحراء الجزائرية . فان عدد الفجارات في هذه الواحة يبلغ بضع مئات ويبلغ طول بعضها عدة كيلومترات ، بحيث يقدر طول مجموع هذه الشبكة المائية بأكثر من ثلاثة آلاف كيلو مترات .

وأما استعمال مياه الفجارات ، فهو يجري على أساس نظام نُمّي وطُوّر في ظل التقاليد الصحراوية ويخضع لقواعد دقيقة متفق عليها ، وهذا النظام يقوم إما على اساس الوقت المحدد لجري الماء ، أو على أساس حجم الماء السائل المسموح باستغلاله لكل واحد من الملاك .

أنهار الصحراء

ترتكز الحياة في المناطق الصحراوية العامرة اساسيا على موارد المياه ، ومتى توفر الماء ازدهر العمران واشتدت كثافة السكان وساد الرخاء ، تبعا لاهمية هذه الموارد وامكانيات استغلالها ، وهذه الموارد تتجمع من مياه الامطار التي تنزل في مختلف أطراف الصحراء وجبالها ، ومن المياه الجوفية . ومياه الامطار تجري في أودية صغيرة لبضعة أيام أو لبضع ساعات في السنة ، ولكنها قد تكوّن أنهارا كبيرة أيضا ، وبعضها من أكبر وأشهر أنهار العالم .

وأهم هذه الانهار هي التي تتلقى مواردها من ينابيع تقع خارج الصحراء وفي مناطق أكثر تعرضا لهطول الامطار . وفي هذا السياق ، ينبغي أن نتذكر أن مستوى الصحراء في مجموعه مستوى منخفض بالقياس الى مستوى البحر . وسهول الصحراء ووهادها تشرف عليها أو تخترقها سلاسل من الجبال : فمن الشمال الغربي ، تشرف عليها جبال الاطلس العاتية ؛ ومن الجنوب ، سلاسل جبال افريقيا الوسطى ، وأهمها فوطه ـ جالون (Fouta Djallon) وأدماوا ، الخ .

وفي الشمال ، مثلما في الجنوب ، تنحدر مياه الامطار من سفوح هذه الجبال الى منخفضات الصحراء . وهذه المياه ، سواء غارت في الرمال لتعود الى سطح الأرض في شكل آبار أو غيرها ، أم شكلت روافد لانهار الصحراء المختلفة الطول والحجم ، هي التي توفر الظروف الملائمة وتجعل بعض مناطق الصحراء قابلة لحياة الانسان والحيوان .

وجبال افريقية الوسطى التي تشغل مساحة واسعة من الصحراء ويجعل منها ارتفاعها مناطق استوائية ، هي التي تسهم بالحظ الاوفر في مدّ أنهار الصحراء بموارد المياه . .

وأنهار الصحراء الكبيرة خمسة أنهار هي ، من الغرب الى الشرق :

1 ـ **نهر النيجر** : الذي تقع على ضفته اليمنى في مالي ، مدينة تمبكتو المشهورة ينحدر من جبال فوطه ـ جالون ويبلغ طول مجراه 4200 كيلو متر . وعند ما يقترب النهر من جون غينيا الذي ينصب فيه ، يتحول في المرحلة الاولى عن هذا الجون في اتجاه الشمال ليروي مناطق صحراوية ، ثم يغير اتجاهه نحو جون غينيا .

والنيجر ينقسم الى فرعين اساسيين : النيجر الاعلى والنيجر الاسفل ، يجريان منفصلان مسافة طويلة ثم يجتمعان .

والمنطقة التي تمتد في أعالي النهر بين جنّى وتمبكتو ، عبارة عن مجاري ومستنقعات صحراوية ضخمة ، وهنا تقع المنطقة التي تحمل اسم الجرف والتي تعتبر من أصعب المناطق الصحراوية . وهي ، على الرغم من الجهود التي بذلت في نطاق مشروع حوض النيجر الذي يضم البلدان الواقعة على ضفاف النهر ، لا تزال مجهولة الى حد بعيد وتتحدى جهود الانسان .

والخصائص الأساسية المميزة لمنطقة الجرف ، هي وجود عدد من السبخات ومعادن الملح فيها لعبت دوراً اقتصاديا كبيرا في مالي في العصور الوسطى . ومن أهم هذه السبخات ، تلك التي يذكرها ابن بطوطة باسم تغازى ويسميها المستكشفون الاروبيون Taraza ، والتي يسميها ابن سعيد المغربي (من مؤرخي القرن السابع الهجري) « حصن الملح » .

وابتداء من القرن السابع عشر ، حلت محل تغازى بوصفها موردا كبيرا للملح في المنطقة ، تاوْديني التي تسمّى حاليا «سمايدا» ، وهي تقع في اتجاه الشمال ، غير بعيد من الحدود الجزائرية .

وبين تاوديني وتمبكتو تمتد سهول صحراوية شاسعة لا تفصل بين مختلف جهاتها سوى سهول رملية صغيرة ، وتنتشر فيها هنا وهناك مستنقعات من المياه غير الجارية . ومياه هذه المستنقعات ، مثل المياه التي تشكل سبخات تاوديني ، يسود الاعتقاد بأنها من مياه نهر النيجر الاعلى التي تتسرب تحت الأرض . وذلك على الرغم من المسافة الشاسعة التي تفصل بين تاوديني والنهر الأفريقي الكبير .

وقبل أن ينصب النيجر في جون غينيا ، يشكل دلتا واسعة تستغل كميات مهمة من مياه النهر فيها للري .

2 ـ **نهر شاري** (chari) : ينحدر نهر شاري الذي ينصب في بحيرة تشاد والذي يبلغ طول مجراه ـ 1200 كيلو متر ، من جبال المناطق الاستوائية ، ولكن نصف شبكة روافده الغربية تنزل من جبال أداماو . ونهر شاري ، مثل النيجر ، يحمل الى الصحراء كميات كبيرة من الامطار التي تنزل في المناطق الاستوائية .

ونهر شاري هو أكبر الانهار التي تغذي بحيرة تشاد ، وبحيرة تشاد بحيرة واسعة كثيرة المياه ، ولكنها غير عميقة ، وهي تمتد على مساحة 25000 كيلو متر مربع في افريقية الوسطى ، بين نيجيريا والنيجر والكامرون وجمهورية تشاد التي تحمل اسمها . ومياه بحيرة تشاد مياه عذبة ، والمعتقد أنها تتلقى موارد اخرى تحت الأرض ، بالاضافة الى المياه التي تنصب فيها من الشاري .

الى أين تذهب مياه بحيرة التشاد المغلقة على نفسها بعدما يتبخر جزء منها ؟

الاعتقاد السائد هو أنها تتسرب تحت الأرض في اتجاه مجهول في الصحراء ، ولربما كان هذا التسرب من الزاوية الجنوبية الشرقية للبحيرة ، أي في اتجاه بحر الغزال .

3 ـ **نهر النيل** : الميزة الاساسية التي يمتاز بها نهر النيل عن كل من النيجر والشاري ، هي أن نهر مصر والسودان العظيم ، هو وحده الذي استطاع ، بفضل موارده المتدفقه ومنحدره الطبيعي ، اختراق الصحراء في عرضها ليصل الى البحر الابيض المتوسط ، حاملا معه مياه الامطار الاستوائية ورواسب تربتها المخصبة (الطمي) ليخلق في الصحراء جنات وارفة الظلال ومزارع ممتدة الاطراف في البلدان التي يمر بها .

كيف حقق النهر الافريقي العظيم الذي يبلغ طوله 6700 كيلو متر معجزة اختراق الصحراء الكبرى وتخطي الجبال التي تعترض طريقه من بحيرة فيكتوريا التي تقع بين اوغندا وتانزانيا وكينيا ، ليصل الى البحر الأبيض بعدما يمرّ ببحيرة كيوجا (Kioga) وبحيرة البرت ؟ إن النيل يشكل معجزة الصحراء الكبرى ، وذلك بأكثر من معنى واحد .

نحن جميعا نعرف أنه يوجد نهر يحمل اسم النيل الابيض ، ونهر آخر يحمل اسم النيل الازرق ، وأن لكل من النهرين شخصيته ومميزاته الخاصة ، والنيل الأبيض هو النيل الاستوائي الذي يشبه نهر النيجر ونهر الشاري ، فهو مثلهما يتلقى موارده من المناطق الواقعة خلف خط الاستواء ، أي أنه يأتي من نصف الكرة الأرضية الجنوبي . ومثلهما ينتشر في بطائح ومستنقعات عندما يلتقي بالصحراء الكبرى ، وبطائح النيل مشهورة منذ أقدم العصور ، وقد تعرض كثير من الجغرافيين العرب لوصفها وصفا دقيقا ، وفي مقدمتهم الشريف الادريسي وابن سعيد المغربي . وهذه البطائح تمتد على خرائطنا الحالية بين خطي الطول 28 و 30 ، وخطي العرض الشمالي 6 و 10 . وهي تخرج منها عدة أنهار تجري في تردد ومشقة وكثيرا ما تختلط مياهها وتشكل مستنقعات .

وبطائح النيل التي وصفها ابن سعيد بشيء من التفصيل والتي تمتد في جنوب فاشودا (Fachod) تذكرنا ببطائح الشاري في التشاد وببطائح النيجر ومستنقعاته في منطقة تمبكتو . وهذا معناه أن النهر الكبير الذي ينزل من المناطق الاستوائية يتردد ويتوقف حائرا قبل أن يقرر مجراه واتجاهه نهائيا ، عندما يلتقي بسهول الصحراء ويقع تحت تأثيرها .

والنيل الازرق يتلقى مجموع موارده من سلسلة جبال الحبشة المرتفعة والتي يبلغ علو بعض قممها 4000 مترا . وهذه الجبال الشديدة الانحدار تعطي النيل قوة جارفة في اندفاعه يحمل معها في وقت الفيضان شحنة كبيرة من التراب الاحمر المخصب . وعند ما يمرّ النيل الازرق بمنطقة بربرا يتلقى آخر روافده التي تنحدر من جبال الحبشه ، وهو نهر اتبرا ، ومن منطقة بربرا الى البحر الابيض يجتاز نهر النيل ، بعدما يلتقي فرعاه في السودان 2300 كيلو متر . وهذه المسافة يقطعها النهر في واد يشكل منخفضا طبيعيا لا يزيد ارتفاعه عن مستوى البحر على 500 متر . وبعبارة اخرى ، فإن قوة النهر الاندفاعية الاولى سوف لا تجد أمامها عوائق وحواجز كبيرة تحطمها . بل ان هذه المياه سوف يستقبلها مهد حفرته وأعدته الطبيعة لها لكي تجري في يسر واسترخاء نسبي ، الامر الذي سهل على النهر الانتصار على الصحراء واجتيازها من طرفها الجنوبي الى طرفها الشمالي .

4 ـ **وادي السَّاورة** : هو النهر الذي اخذت اسمه الولاية الجزائرية الواقعة في أقصى الجنوب . وهذا النهر ، على عكس الانهار الانفة الذكر ، لا يستمد موارده من المياه من المناطق الاستوائية ، بل من شمال الصحراء ، وخصوصا ، من جبال الاطلس المغربي الذي تبلغ أعلى قممه 4000 مترا فوق سطح البحر .

ونهر الساورة ، مثل بقية الاودية الاصغر منه والتي تأتي من الشمال لتروي الصحراء ، هو أقل من الانهار الافريقية المتقدمة مياها . والسبب في ذلك أن جبال الأطلس لا تتلقى كميات كبيرة من الامطار ، مثل الجبال الاستوائية . والسفوح الجنوبية للأطلس التي تمدّ الساورة والانهار الشمالية الاخرى بمواردها ، هي نفسها لا تكاد تفلت من تأثير المناخ الصحراوي ، وذلك على الرغم من أن الاطلس المغربي يتلقى كميات من الامطار أغزر من التي يتلقاها الاطلس الصحراوي الجزائري .

وأهم الاودية التي تنزل من الاطلس وتروي صحراء المغرب الاقصى هما واديان : وادي درعة ووَادي تافيلالت ، وكلاهما يروي واحات خصبة جميلة ، ولكن الوادي أو النهر الأكبر الذي ينزل من الاطلس ويخترق الصحراء الجزائرية ، هو نهر الساورة .

وبفضل الامطار والثلوج التي تنزل في جبال الاطلس ، يحمل نهر الساورة مياها ذات فائدة عظيمة حتى قلب الصحراء الجزائرية لعمق يتراوح بين 300 و 600 كيلو متر . .

وهذا التوغل في قلب الصحراء ظاهرة لا تشبهها سوى ظاهرة توغل النيل في الصحراء المصرية . ومن هنا تسمية البعض له « النيل الصغير » .

ونهر الساورة يصل الى الطرف الجنوبي الاقصى لجبال « أوجرتة » بعدما يمر بمضايق «فم الخنق» ثم يتردد مجراه لكي يشكل الدلتا التي سيرويها ، ومعظم مياه النهر تستمر في فرع له يتجه نحو الجنوب حتى يبلغ أعالي واحة توات . وأما الفرع الشمالي من هذه الدلتا ، فينتهي عند حوض كبير ويغوص في سبخة تمودى . وسبخة تمودي مشهورة بملحها النقي الذي يشبه البلور في صفائه .

والنهر يجري في المنطقة الغربية مسافة 300 كيلو متر في منعرجات بين هضاب صخرية كلسية في أعالي «إيجلي» . وعلى الضفة اليسرى منه ترتفع جبال رملية كبيرة .

ونهر الساورة يتكون عندما يحمل هذا الاسم من نهرين أساسيين ، «جوير» الذي هو أهمهما والذي ينزل من الأطلس ، ووادي «زوسغانة» . وبعدما يلتقي الواديان يستمران في مجرى واحد بدون انقطاع حتى «فم الخنق» ، مارا بواحة تاغيت الصغيرة .

5 ـ **وادي أغرغار** : إن سلاسل الجبال العالية التي تمتد في داخل الصحراء نفسها ، هي أيضا تتلقى كميات من الامطار لا تلبث أن تتحول إلى جداول وأودية . وسلسلة جبال التبيستي التي يبلغ ارتفاع أعلى قممها 3400 أو 3500 مترا على مستوى البحر عند قمة الامير قوسي ، هي أشد الجبال التي تخترق الصحراء ارتفاعا . وهذه القمة أعلى بـ 500 متر من قمة «إيلا» التي تتوج جبال الهجار . وأما جبال آير ، فأنها ذات ارتفاع محدود ، حيث لا تتجاوز أعلى قممها 1700 مترا . ومع ذلك ، فإن عددا من الاودية إنما تأخذ مواردها من هذه الجبال . وكذلك تنزل عدة اودية من جبال الهجار . نذكر منها وادي «تافساسيت» الذي يستقبل عددا من الروافد ، ووادي «تامنراست»

ولكن أهم هذه الاودية جميعا ، هو وادي أغرغار الذي يبلغ طول مجراه على خط مستقيم منذ منابعه في المناطق الاستوائية حتى يغوص في شط غير بعيد من بسكرة ـ 1,000 كيلو متر . ومجرى النهر شديد الانحدار ، حيث أن مستوى منابعه يقع على 2000 مترا فوق مستوى البحر ، بينما يقع الشط الذي يغوص فيه تحت مستوى البحر.

وأغرغار يتجه من الجنوب الى الشمال نحو الاطلس على عكس نهر الساورة . ونظرا لأن الهجار ، باعتباره جبلا يمتد في قلب الصحراء ، يتلقى كميات من الامطار اقل كثيرا مما يتلقاه الاطلس ، فان موارد نهر أغرغار أقل من موارد الساوره ، ومستواه أقل ثباتا منه كذلك .

والمنطقة التي يحمل إليها وادي أغرغار التراب المخصب (الطمي) ، منطقة مهمة لأكثر من سبب واحد . فهي تقع عند اقدام سلسلة جبال أوراس الصحراوي التي تتلقى كميات من الامطار تنزل إليها في شكل جداول وأودية . وبالاضافة الى ذلك ، فإن وادي جدي الذي يجرى موازيا لسفوح جبال الاطلس يحمل الى هذه المنطقة كثيرا من مياه الامطار التي تنزل على الاطلس الصحراوي في نصفها الشرقي ، ابتداء من الاغواط .

وهكذا نجد أن هذا المنخفض من الأرض يحتجز تحت سطحه طبقة مائية كبيرة القيمة ، لا تلبث أن تصعد الى سطح الأرض وتتفجر في شكل آبار أرتوازية ، ولا سيا في منطقة وادي ريغ والجريد والزاب التي تنتج ارفع أنواع التمور في المغرب (دقلة النور) .

لقد سبق أن أشرنا إلى وجود آثار أودية وأنهار كبيرة كانت في الصحراء في العصر الربعي ، أو ما يسمّى في اروبا بعصر الجليد (وهو يوافق بداية تطور الانسان) . ومن المعلوم أن مناخ الصحراء في ذلك العهد كان اكثر رطوبة مما هو الآن ، ومن ثم ، فقد كانت تخترق مختلف أرجائها وتبدو الأنهار الصحراوية الحالية اقزاما بالقياس إليها . وهذه كانت الحالة خصوصا ، بالنسبة الى الصحراء التي تمتد بين الجزائر والاطلس الصحراوي .

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن في هذا السياق وعلى ضوء هذه المعلومات ، هو ما اذا كان موت الانهار والوديان القديمة نتيجةلاتجاه مناخ الصحراء الى الجفاف مع مرور العصور ، بطريقة بطيئة ليس في استطاعة الانسان ان يلاحظها أو يسجل درجتها ؟

لقد طرح الباحثون نفس السؤال بشأن المناطق الداخلية في آسيا وعزوا إلى ظاهرة تزايد الجفاف فيها بعض أمواج الهجرة التي غيرت وجه أروبا في عدة عهود ، مثل هجرة الرحل الصُّفْر ، والهانز ، والمنغول والترك . وظاهرة تزايد جفاف المناخ قد لوحظت ، على كل حال ، بصورة اكيدة في صحراء قلهري التي تمتد بين حوضى زامبيز وأورانج ، منذ أوائل هذا القرن . والمعروف كذلك أن مناخ الأرض ، بصفة عامة ، قد شاهد تحولا قويا وميلا الى الجفاف ، منذ العصر الجليدي .

ولكنه فيما يتعلق بالصحراء الكبرى ، يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن واجهتها التي تطل على البحر الأبيض (أي مصر والمغرب) كانت مهدا لحضارات ترجع عهودها إلى أقدم الحقب التاريخية التي تعيها ذاكرة الانسان . والجغرافيون اليونان والرومان والعرب قد تركوا لنا في وصفهم للصحراء صورة لا تختلف عن الصورة التي نشاهدها بها الآن . ومناطق العمران القديمة على ضفاف وادي النيل وفي الواحات الجزائرية ، بل وفي صحراء ليبيا أيضا ، لا تزال مراكز للحياة والعمران كما كانت من قبل دون أن يمسها أثر الجفاف المغزو إلى الصحراء .

ونحن نعرف أنه عندما عثر المنقبون في أواخر القرن الماضي على عدد كبير من أحجار المعاصر الرومانية في بعض الهضاب الصحراوية ، استنتجوا من ذلك أن هذه المنطقة كانت منطقة زراعية تنتشر فيها حقول الزيتون في عهد الرومان . وكذلك سارعت إدارة الزراعة في ذلك العهد الى استكشاف منابع المياه والى غرس المنطقة باشجار الزيتون التي لم تلبث أن نمت وترعرعت وأتت بثمار رائعة .

ونفس الظاهرة شوهدت في الصحراء الشمالية الليبية التي غزت رمالها السهل وأكلت المزارع وقتلت الاشجار وردمت الابار ، عقب رحيل الايطاليين أثناء الحرب العالمية الثانية .

وهكذا ، فإن علماء الاثار والجغرافيين لا يقدمون دليلا واحدا يثبت اتجاه المناخ الصحراوي الى الجفاف عبر القرون ، ولكن الملاحظات التاريخية والمشاهد واقعيا تدل على أن ما يسمى في عصرنا بغزو الرمال ، ظاهرة مرجعها الى اختفاء بعض منابع المياه وتقلص العمران وتوقف الأعمال الزراعية ، على تخوم الصحراء ، نتيجة لاهمال الانسان أو لظروف طقسية مثل التي تعترى السهوب والسواحل ، وهي ذات طابع طاريء .

وهذه المشكلة ـ مشكلة زحف الصحراء على التل ـ هي التي تحاول الجزائر مواجهتها بطريقة جذرية تتسم بالاصالة والجرأة معا ، وذلك بمشروع السدّ الاخضر الذي يمتدّ على نحو ألفي كيلو متر في طول الصحراء ، والذي سيكون حاجزا في وجه الرمال في الوقت الذي يوفر فيه ظروف الحياة والخضرة التي تسمح بتراكم السحب ونزول الامطار.

*
* *

الفصــل الثــاني

الجمل مطية الرحل

موطن الرُّحل :

على عكس الحالة بالنسبة الى الصحراء الامريكية والصحراء الاسترالية ، نجد أن الصحراء الكبرى من المناطق العالمية التي عرفت الاستيطان ، أو بعبارة أدق ، العمران ، منذ اقدم العصور . وآثار هذا العمران من الادوات والاسلحة الحجرية منتشرة حتى في أشد المناطق قحلا في الصحراء .

وسكان الصحراء الكبرى الاوائل ، حسبما تسمح باستنتاج ذلك أحدث عمليات التنقيب والاستكشاف ، ليسوا من البيض . والادلة الاساسية التي استند عليها العلماء في هذا الاستنتاج ، تتصل ، خصوصا ، بالاسلحة التي كانت تستعمل في الصحراء في العصور القديمة ، وأشهر هذه الاسلحة وأكثرها انتشارا هي الرمح الذي هو أيضا أوسع الاسلحة انتشارا في بلاد السودان ، وأما البيض من بربر الشمال ، فكانوا يستعملون الحربة .

وأما توغل البيض في الصحراء من الشمال فقد وقع في وقت متأخر نسبيا ، ولربما كان ذلك في أواخر الامبراطورية الرومانية . وقد كان الجمل الوسيلة الاولى والهامة للتوغل من الشمال الى الجنوب .

والجمل مخلوق جديد ودخيل على الصحراء ، وليس ملازما لها ، كما يعتقد البعض . ونحن نعرف أن دخول الجمل إلى مصر إنما وقع نتيجة لغزو

الفرس لذلك البلد ، ذلك الغزو الذي تم قبل الميلاد بنحو خمسة قرون .. ونظرا لأن مصر ليس لها صحراء ، بالمعنى المتعارف لهذه الكلمة في شمال افريقية ، فإن دخول الجمل إلى صحراء المغرب وتوغله في الجنوب لابد وأن يكون قد استغرق بضعة قرون . وأما حيوان الأثقال في الصحراء قبل الجمل ، فقد كان الثور ذو السنامة . ولكنه نظرا لأن الثور ضعيف البنية ، فليس من المحتمل أن يكون هو الحيوان الذي استعمله البيض الشماليون للتوغل في الصحراء .

والمرجح أن تكون جماعات من هؤلاء البيض قد جاءت إلى الصحراء مع الجمل من الشرق ، وربما كانوا من الهيكسوس الذين جاءوا من آسيا وغزوا وادي النيل ، وهزموا جيوش طيبة الفرعونية في عهد الاسرة الرابعة عشرة ، في منتصف القرن السابع قبل الميلاد .

والرحل من العرب والبربر في الصحراء يمتازون ، خصوصا بضمور الاجسام وبارتفاع القامة ـ وهذا يصدق بصفة خاصة على الطوارق ، سكان الهجار . وهزال الرحل وضمور أجسامهم ليس نتيجة لمرض أو لاعتلال الصحة ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، لأن البدو الرحل ، على العكس ، رجال أقوياء مفتولو العضلات ولا يكاد يعتريهم المرض . والبدو الذين يتصفون بالسمنة ، هم ، عادة ، من ذوى المركز الاجتماعي ، ومن شيوخ القبائل والاقيال .

والمقدرة على تحمل العطش والجوع والتعب والاكتفاء بالقليل من الطعام ، وهي من أسباب الهزال ، هي من الخصائص الاخرى المميزة للبدو الرحل . فإن الرجال من الطوارق ، مثلا ، يستطيع أن يتحمل العطش ويبقى أربعة أيام بدون شراب . وهم قد يقتصرون في غذائهم اليومي على عدة تمرات أو خبز من الدقيق .

على أن هذا النظام البالغ في التقشف لا يؤثر على قوة البدوي العضلية ولا على مناعة جسمه وعلى مقدرته النفسية والجسدية على تحمل التعب ومشقة التنقل . وكذلك نجد أن الرحل الذين يعيشون في الهواء الطلق ويمارسون رياضة المشي يعمرون طويلا . وقد لاحظ الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الافريقي ، أنهم يعيشون حتى الستين وما فوقها . بل أن الرحالة دوفيريي لاحظ أن عدد الاشخاص الذين تتجاوز اعمارهم المائة من الطوارق ليس بالقليل .

ونتيجة للنضال الطويل مع قوى الطبيعة ، تكيّف الرحل لطقس الصحرا وأكتسبوا أجساما رشيقة مرنة وقوة بدنية ، كما اكتسبوا صفات وخصالا أدبية ، مثل النبل والوقار والكرم الخ .

والخصائص الجسمية التي تميز الرجل من البدو الرحل ، هي سواد العينين ولمعانهما ، وسواد الشعر غير المجعد ، والأنف الأقنى ، ورقة الشفاه وبياض الاسنان واللون البرونزي والوجه الذي يتخذ عادة شكلا اهليجيا جميلا تعلو ملامحه مظاهر الحيوية والذكاء الفطري .

والبدوي من الرحل يَملك الى جانب حواسه الخمس ، حاسة يمكن تسميتها «حاسة الاتجاه» ، وهي عبارة عن شعور قوي اكتسبه من طول الممارسة يهديه ويرشده في طريقه الى المكان الذي يقصد إليه ، وكذلك يملك البدوي من الرحل ذاكرة صافية قوية بحيث أنه يذكر منظرا واحدا رآه من بين مختلف المناظر ، بعد مرور سنوات عديدة على تلك الرؤية ، وهذه الحاسة وتلك الذاكرة هما اللتان يستخدمهما الرجل من الرحل ليهتدي بهما في بحر الرمال كما يستخدم الملاح البوصلة ليسترشد بها في المحيطات .

وتكيف البدوي من الرحل لظروف الصحراء التي لا يوجد فيها ما يبعث على النشاط الانتاجي ، وتعلقهم بالرعي الذي لا يكلف مجهودا ، وعادته في التنقل المستمر يجعله يحتقر الاعمال الزراعية وغير ذلك من الحرف والمهن التي يمارسها سكان المدن . والرحل يزعمون أنه ما دخل محراث منزلا إلا ودخلت النذالة الى نفوس اصحابه ... .

وكذلك نجد أن الطوارق الذين يملكون الأرض يستاجرون الخدم من السود ليتولّوا حرثها لحسابهم ، وهؤلاء السود الذين يسمون «الحراثين» (وهو اسم مشتق من المهنة الأساسية التي يمارسونها) هم الذين يتولون أيضا حرفة الحدادة والنجارة وغير ذلك من الحرف الضرورية في الصحراء ، مثل صناعة السروج والأواني والأدوات التي تصنع من النحاس الخ .

والرحل قوم يعيشون أساسيا على الرعي ، وخصوصا ، رعي الجمال ، ويقومون بتربية الغنم والماعز . وحينما تأتي الحيوانات على ما في المرعى من العشب ،

يكون الأوان قد حان لكي تنتقل القبيلة للبحث عن مرعى أخصب وأجدى . ولكن الرحل لا يهيمون على وجوههم في البحث عن مرعى جديد تاركين مقودهم لمجرد الصدفة . كلا ! فهم قلما يخرجون من المنطقة الواسعة التي امتدت فيها جُذورهم والتي ينتمون اليها روحيا واجتماعيا .

والهجرة من المنطقة الواسعة التي استوطنوها ، لا يقوم بها الرحل الا عند الضرورة القصوى وفي حالة القحط الشديد . وحينئذ تتخذ الهجرة شكلا جماعيا عارما ، فيتجه الرحل الى مناطق بعيدة .

وفي فترات محددة من السنة يتحول الرحل من مربي المواشي الى تجار ، فيسيرون في قوافل لبيع منتجاتهم في اسواق الواحات حيث يشترون ما يحتاجون اليه من التمر والملابس والأسلحة والادوات والتوابل والملح الخ .

والملح كان من المواد التجارية الهامة في الصحراء في جميع العصور . ونحن نعرف عددا من الملاحات التي يستخرج منها الملح ويعتمد الرحل على انتاجها لتحسين مذاق طعامهم ، وأهمها ، ملاحات تاوديني وإيجل وامدرار (في الهجار) وبيلما ، عند قبائل التبّو (في التشاد) . فسكان هذه المناطق يحملون الملح الى اسواق الواحات والى حافات الصحراء حيث يبيعونه ويشترون في مقابله ما يحتاجون إليه من منتجات الرحل ومنتجات التل .

وإلى جانب ما يجنونه من نشاطهم في الرعي والتجارة ، كان الرحل يحصلون على دخل إضافي مهم من الغارات على القوافل ومن الغزوات التي يشنونها على جيرانهم من القبائل الضعيفة . والغارة قد تدعو الى القيام بها حزازات بشأن المياه والمراعي ، أو نزاعات يسببها الاحتكاك بين أفراد القبيلتين ، ولكنه ربما كان الباعث عليها مجرد الرغبة في السلب والنهب وزيادة موارد القبيلة .

والمشروبات الأساسية عند الرحل ، هي الماء واللبن بجميع انواعه ، ولكن الرحل مغرمون أيضا بالشاي الذي تدل إحصاءات اصدرتها أجهزة متخصصة في الأمم المتحدة مؤخرا على أنهم يستهلكون من هذه المادة كميات أكبر مما تستهلكه مناطق التل . وهذا أمر لا غرابة فيه إذا اعتبرنا انعدام وسائل الترفيه والتسلية في الصحراء بصفة عامة . والشاي يمثل عملية معقدة للتسلية .

فإن «الكانون» ، أو الموقد الذي يغلي عليه الماء يعتبر بمثابة خلية إجتماعية للسمر والتدفئة في ليالي الصحراء الباردة .

وإبريق الشاي نفسه يمثل عقدة كاملة من العادات والتقاليد ، وحوله يدور الحديث الطلي وينشد الشعر وتروي القصص وتحكي التواريخ . وأي شيء أجمل وأروح الى النفس من السمر حول إبريق الشاي في ليالي الصحراء المقمرة !

وأما ملابس الرحل ، فانها تختلف من حيث الاشكال ومن حيث المادة التي تصنع منها بين منطقة وأخرى . فإذا كانت ملابس الرحل في الماضي تصنع من الصوف أو من القطن وتنسج محليا ، فهي الآن تصنع في المدن أو تستورد من الخارج ، وتغزل من هذه المواد أو من الخيوط الصناعية مثل « النايلون » والترلين وغير ذلك .

ونساء الرحل لهن غرام وولع كبير بشيئين أساسيين : إنجاب الاطفال وامتلاك الحلي ، مثل الاساور والخلخال والخواتم والقلائد ، إلخ ، من مختلف المعادن ، ولو أن الذهب والفضة لا يزال كلاهما يتمتع بمكانة الشرف .

ومساكن الرحل هي الخيم التي تصنع من الوبر ، أو من الجلد (وهي خيم الاشراف ورؤساء القبائل) أو من شعر الماعز . والخيمة تمثل قاعة الجلوس وغرفة النوم وغرفة السّفرة ، في نفس الوقت . وهي قد تكون صغيرة متى كانت الاسرة فقيرة ، ولكنها قد تكون واسعة جدا متى كان صاحبها من الاغنياء أو من شيوخ القبيلة . وأثاث الخيمة عادة بسيط ولا يكاد يتجاوز حشية وسجادا وما الى ذلك من الوسائد والصناديق الضرورية المصنوعة من الخشب ، وذلك بالاضافة إلى قربة الماء التي لاغنى عنها .

والرحل يسيطرون اقتصاديا على الواحات ، لان الكثيرين منهم يمتلكون بساتين النخيل فيها ويعهدون بالعناية بها الى « الحرّاتين » في مقابل خمس الغلة ، ولا يعودون الى الواحة الا في موسم نضوج التمر لجنيه أو للاشراف على جنيه .

والواحة في معظم الحالات تخضع لنفوذ قبيلة من الرّحل (هذا على الاقل ، في الأزمنة القديمة) تدير أمورها على طريقة الاقطاع وتتولى مسؤولية حمايتها سياسيا وعسكريا ضد عدوان القبائل الاخرى .

ونحن نعرف أن الرّحل يشكلون في الصحراء الكبرى (بل وفي مختلف صحراوات العالم أيضا) قوة حربية مهمتها الأساسية الحرب والقتال وقد تنبثق عنها دول وامبراطورية مثل أمبراطورية لمتونة المرابطين التي امتد سلطانها من الصحراء الغربية حتى مدينة الجزائر شرقا وحتى الاندلس وجزر البيليار غربا وشمالا ، والقصور التي لا تزال منتشرة حول الواحات ، عبارة عن قرى صغيرة محصنة تابعة للواحة القريبة منها وتتمتع بحماية القبَيلة الكبرى التي تحمي الواحة .

وقبائل الصحراء الكبرى أكثر من أن تعدّ أو تحصى ، وإطار هذه الدراسة لا يسمح حتى بذكر اسماء القبائل الكبرى ومجالاتها . ولكننا مع ذلك ، نشير الى قبيلتين كبيرتين من الرحل في الصحراء الجزائرية تعيش كل منهما في منطقتها الخاصة .

والقبيلتان تختلفان من حيث الأصل والعرق ، لان احداهما ، وهي الشعانبة ، عربية وتمتد مجالاتها عند أقدام جبال الاطلس الصحراوي ، وهي على اتصال بالمناطق الشمالية من المغرب . والقبيلة الاخرى (أو بعبارة أدق ، مجموعة القبائل) هي الطوارق البربرية التي لا تزال بعيدة عن التأثير الحضاري العربي ، ولا تزال تعيش في عزلة جغرافية وثقافية عن المغرب في أقصى الجنوب .

والشعانبه هم الذين يسيطرون على مجموعة الواحات الشرقية الجزائرية ، وخصوصا ، واحة وارقلة . وأكبر مجالات رعيهم وأهمها تقع في وادي تامديت ، وقد اشتهر الشعانبة بمعرفتهم لطرق الصحراء واوضاعها مما جعل الفرنسيين يتخذون منهم العمود الفقري لفرقة « المهارى » العسكرية الصحراوية المشهورة والتي لعبت دورا كبيرا في اخضاع الصحراء .

* * *

قسَّم البحاثه الالماني بول جيرهارد ميرنر (P.G. Merner) في كتابه القيم عن الرحل في شمال افريقية « الرّحّل » الى اربع فئات أساسية : رحّل الهضاب ، ورحل الصحراء واشباه الرحل ، ورحل الجبال . والفئة الاخيرة تعيش ، خصوصا في منطقة جبال الاطلس ، بالمغرب الاقصى ، وفي الشطوط التونسية على حافة المناطق المزروعة ، وهم يمارسون زراعة الحبوب ويملكون

مطامير يحتفظون فيها بانتاجهم من القمح والشعير . وكذلك يقومون بتربية الغنم والماعز ، واحيانا يعنون أيضا بتربية الابقار . وهذه الفئة من الرحل لا يرحلون الاجزءا من السنة لرعي مواشيهم حيث يتوفر العشب ثم يعودون الى ديارهم ومكان إقامتهم الدائمة . وهذه الفئة من الرحل لا تهمنا لان صلتها بالصحراء موسمية وغرضية ، وهم ليسوا من ابناء الصحراء .

وقد عرّف الباحث المذكور نشاط انتجاع الرحل في الصحراء بانه « عبارة عن تنقل مستمر ، وكثيرا ما يكون موسميا ، لقبيلة باسرها تملك ماشية طلبا للكلا » .

والخاصية التي تشترك فيها جميع فئات الرحل ، بما في ذلك الفئة المذكورة ، هي أنهم جميعا يعيشون في نظام اقتصادي يقوم أساسيا على تربية الحيوانات وينتجعون مناطق الرعي تبعا لما تمليه ظروف الطقس وتوفر العشب والماء .

وأما رحل الهضاب ، فيقيمون في المناطق الواقعة جنوب الاطلس الصحراوي في الشتاء والربيع حين تهطل كميات كافية من الامطار في هذين الفصلين . وأما في فصل الصيف والخريف ، فهم مضطرون الى التنقل في اتجاه الشمال ، حتى يصلوا ، في كثير من الاحيان الى التل . وهذه تمتد مسافة طويلة قد تصل أحيانا الى 700 كيلو متر .

وفي مقابل ذلك ، نجد أن انتجاع الرّحل من العرب والطوارق لا يخضع للتغيرات الموسمية ، بل هم ينتجعون كلما نفد الكلأ في المنطقة التي يقيمون فيها ويسيرون في اتجاه المناطق التي هطلت الامطار فيها ، وذلك بصفة عفوية . وهذه الفئة من الرحل لا يتنقلون مسافات طويلة ، مثل رحل الهضاب . فإن تنقلهم في السنوات الحسنة الامطار ، لا يتجاوز نطاق نحو خمسين كيلو مترا ، وهذا يصدق بصفة خاصة على الرحل من الطوارق .

ومع ذلك ، فإن قبائل هذه الفئة من الرحل ، قد تقوم برحلات طويلة جدا لاغراض التجارة والغزو والنهب ، أو في أوقات القحط الشديد الذي يضطر الرحل الى الهجرة الى المناطق البعيدة . وكذلك يتنقل طوارق الهجار في جماعات صغيرة لرعي مواشيهم في آير . ولكن طوارق الشمال الذين يحرصون على عدم

مغادرة أوطانهم ، يكتفون بارسال قطعانهم مع الرعاة الى الجنوب ، دون أن يتنقلوا هم أنفسهم مع عائلاتهم .

وانتجاع الرحل قد يقع في أوقات معلومة وشبه منتظمة كما يحدث أن تتجه جماعات من الرحل في نفس الوقت الى منطقة رعوية واحدة ويقع التزاحم والتسابق بينها . وفي هذه الحالة تحكم قواعد العرف المتبع ، فتعطى الاولوية في استغلال المراعي للأوائل بدون نزاع . وهذه القواعد ذات أهمية قصوى ، ولاسيا بالنسبة إلى أصحاب قطعان الغنم الذين يملكون كثيرا من الرؤوس ولا يجدون تحت تصرفهم سوى مساحات محدودة من المراعي ، وذلك في مقابل رعاة الجمال الذين يتنقلون في مساحات شاسعة ولا يلقون منازعا في طريقهم .

وعلى الرغم من حاجة الرحل الغريزية الى التنقل باستمرار ، فان لهم مناطق يعتبرونها ، دون سواها ، «أوطانا» لهم ، ويعودون إليها بشوق وحنين كلما مكنتهم حالة توفر العشب والماء من ذلك ، ولكن هذه الظاهرة تصدق على المشتغلين بتربية الغنم أكثر مما تصدق على القبائل التي تمارس تربية الجمال والتي تهاجر الى مناطق بعيدة وقلما تعود الى أوطانها الاصلية .

والبئر هي النواة التي تجتمع حولها قبيلة من الرحل . ولكنه قد تنزل قبيلتان أو أكثر حول نفس البئر وتتوقف حياة جميع أبنائها على مياهه . وفي هذه الحالة أيضا يطبق العرف وقاعدة الاولوية للقبيلة التي حطت رحالها حول البئر قبل غيرها .

وفي فصل الشتاء لا تحتاج حيوانات الرحل الا الى كميات قليلة من الماء ، حيث أن العشب يسدّ كثيرا من حاجتها الى ذلك . ولكنه في الصيف تصبح الحاجة الى الماء لريّ الحيوانات ضرورة قصوى . ومن المعلوم أن حاجة الحيوان الى الماء أقوى من حاجة الانسان ، لان مخيم القبيلة يمكنه استجلاب الماء الذي يحتاج إليه لبضعة أيام من بئر قد تقع على مسافة خمسين كيلو متر بواسطة جملين أو ثلاثه محمّلين بالقِرَب ، ولكنه حينما تكون المسألة مسألة إرواء المواشي يحتاج الامر الى السير مع القطعان كلها بالخيم والمتاع .

ومربي الاغنام أكثر ارتباطا بحكم الضرورة بالآبار ومواقع المياه من مربي الجمال ، لان الغنم يحتاج الى الماء في كل يوم في فصل الصيف ، وكل يومين

أو ثلاثة في فصل الشتاء . وأما مربي الجمال انفسهم ، فهم يكادون يستغنون عن ماء الشرب بحليب الناقة في الشتاء ، وحاجتهم الى الماء في الصيف اقل من حاجة مربي المواشي ، ونحن نعرف أن الجمل صبور متقشف ويستطيع أن يبقى عدة أيام بدون شراب .

وعلى صعيد العلاقات الاجتماعية نلاحظ في مجتمع الرحل اختفاء كل أثر للتفرقة والتمييز العنصري الذي يوجد في بعض مناطق التل . فإن العربي والبربري والابيض والأسود يتعايشون جنبا الى جنب في ظروف اقتصادية وطبيعية متشابهة دون ان يكون جوارهما مثارا للاحتكاك والنزاع أو لشعور النعرة والتفوق العنصري ، والطريف أن هذه الروح الديمقراطية تسود لا في الصحراء الكبرى وحدها ، بل هي منتشرة أيضا بين الرحل في هضاب آسيا وفي الجزيرة العربية .

ولكن الرحل يشعرون مع ذلك بتفوقهم بالقياس الى سكان المدن والارياف المقيمين ، وهو شعور مرجعه الى قوتهم الحربية التي تقوم على التنظيم القبلي وعلى شجاعة الفرد ومقدرته على التنقل بسرعة ، بفضل الجمل ، وهي ترجع كذلك إلى اعتزاز الرحل باستقلالهم وعدم اعترافهم بسلطان القانون الذي يضبط الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الواحات حيث يقيم ، عادة « الحراثون » والتجار وذوو الحرف والمهن المختلفة وهي فئات اجتماعية يحتقرها الرحل .

والسؤال الذي يتوارد الى الذهن في سياق الحديث عن الرحل ، هو ما هو الدافع الذي يدفع الناس إلى الصحراء لممارسة حياة التنقل والترحل مدى الحياة ؟

ليس من شك في ان العوامل الطبيعية والجغرافية (مثل وجود القبيلة على اطراف الصحراء) تغرى الناس بالتنقل في الفيافي للاستفادة من مراعيها . ولكنه توجد عوامل تاريخية أيضا تكون دافعا للبقاء في الصحراء (مثل حالة بني ميزاب) كما توجد عوامل سياسية تدفع القبائل إلى الهجرة إلى الصحراء هربا من جور الحاكم ومطاردة العدو المنتصر (وهذه حالة زناته بعد انتصار العبيديين واعوانهم من صنهاجة وكتامة في المغرب الاوسط) . والرغبة في الفرار من طغيان الاستعمار الرماني طلبا للحرية هو الذي حدى بكثير من قبائل البربر إلى الالتجاء إلى الصحراء مستعينة بظهور الجمل على مسرحها .

وفي القرن الرابع الهجري وقع غزو العربان من بني هلال وبني سليم للمغرب ، وهي قبائل من البدو الرحل التي كانت قد طردت من الجزيرة العربية الى الصعيد . ومن هناك وجهها الخليفة الفاطمي الى افريقية الشمالية لتقويض دعائم حضارة بني زيري انتقاما لقطعهم الخطبة والولاء للقاهرة . وفي طريقهم طارد العربان البربر الذين احتمى بعضهم بجبال القبائل وجبال الأوراس ، بينما التجأ آخرون إلى المناطق الصعبة المداخل من الصحراء . وبذلك أصبحت الصحراء والهضاب العليا مجالات للعربان بعدما انتهوا من تخريب المدن والحقول الزراعية التي اغترضت طريقهم وعادوا إلى حياتهم التي ألفوها في مصر العليا .

وقد ترتب على غزو الهلاليين للصحراء (الى جانب النتائج الوخيمة التي ترتبت على غزوهم للتل) إعادة الهضاب العليا التي كانت في العهود الاسلامية السابقة مناطق زراعية الى الصحراء .

وقبل بني هلال شهدت الصحراء هجرة ايديولوجية نادرة المثال في تاريخها ، وتلك هي هجرة الخوارج عقب مقتل أبي الخطاب (ت 144 هـ) واستعادة جيوش العباسيين للقيروان في المرحلة الأولى ، ثم بعد تدمير العبيديين لتيهرت (سنة 296 هـ) في مرحلة تالية ، وقد استقر الخوارج في عدد من الواحات في صحراء شمال افريقية ، اشهرها واحة ميزاب وواحة وادي ريغ .

الجمل :

الجمل الذي يعيش في الصحراء الكبرى ذو سنّام واحد . ومجالات هذا النوع من الجمال تمتد من الصحراء الغربية على شواطيء المحيط الاطلسي حتى حدود العراق وإيران ، حيث تبدأ مجالات الجمل ذى السنامين . ووطن الجمل في كل مكان في العالم ، هو الصحراء التي تكيف لمناخها ولطبيعتها ونباتها منذ عهود لا تعيها ذاكر التاريخ .

والجمل لا يتحمل المناخ الرطب ، ولا الارض الخصبة حيث تعيش المثْقَبيّات التي لا طاقه له على مقاومتها . وقد تعود جهاز الجمل الهضمي على العشب الخفيف كما تعود كيانه على المناخ الجاف والاكتفاء بالماء القليل يشربه متى اتيح له ، ويصبر متى عدمه أياما ، بل واسابيع متوالية .

والجمل من أكثر الحيوانات مقدرة على المشي مسافات طويلة دون أن يناله تعب أو يحس بالعياء . ومتى كان في طريق السفر لا يحتاج الى رعي وإنما هو يخطف الاعشاب الخفيفة هنا وهناك ليتلذذ باجترارها عندما يحط اثقاله في وقت الراحة والاستجمام .

وعلى الرغم من أن الجمل يتصل في أذهاننا أوثق الصلة بالصحراء ، فهو في حقيقة الأمر دخيل عليها وغريب على فضائها ، حيث أنه حديث العهد نسبيا بنزوله في أرجائها .

وأما تاريخ دخول الجمل إلى الصحراء الكبرى ، فهو لا يزال موضع جدال بين الباحثين ، ولو أن المؤرخ الكبير لعصور شمال افريقية القديمة ، العلامة ستيفان جزيل ، يرجح أن يكون قد دخل الى صحراء المغرب مع القوات الرومانية التي تنتمي الى أصل سوري ، في عهد أسرة الاباطره الرومان التي حكمت خلال الفترة بين 193 ـ 235 م .

والجمل في عهد الرومان كان من ضمن الحيوانات التابعة للجيش وتستخدم لمختلف الاغراض العسكرية ، فيما عدا القتال . ولكن الجمل لم يلبث حينما وصلت ملكيته الى أيدي المدنيين أن تحول الى وسيلة للهروب طلبا للحرية بين الجماعات والقبائل البربرية التي رفضت الاستعمار الروماني ، وخصوصا ، القوانين التي تتعلق بتوزيع الأرض .

وكذلك كان الجمل الذي يستحق أن يطلق عليه لقب « حيوان الحرية » عونا ثمينا للقبائل لتحمل على ظهره العائلات والأثقال في طريق هجرتها الى الهضاب العليا والى الصحراء فرارا من القهر والتعسف الروماني .

ولكن الجمل الذي كان أداة الحرية في يد البعض كان أيضا وسيلة الاستعباد والاسترقاق للبعض الآخر . فان البربر الهاربين من حكم الرومان سارعوا لدى وصولهم الى الواحات الى استرقاق السود الذين كانوا يقيمون فيها ، وقد استقروا فيها بعدما تملكوا الارض والانسان ، ثم راحوا يجوبون الصحراء طولا وعرضا لاشباع غريزة الحرية في انفسهم ، وللنهب والسلب أيضا متى واتتهم الفرص .

ومهما يكن من أمر ، فان مناطق شاسعة من الهضاب أفلتت ، بفضل دخول الجمل ، من يد الرومان الذين بقي احتلالهم منحصرا في الشواطيء في مساحات ضعيفة العمق في داخل البلد .

وكذلك ساهم الجمل مساهمة فعالة بخلق ظاهرة الرحل الذين لا يخضعون لقانون ولا يعترفون بحدود ، على تقلص نفوذ الاباطرة الرومان في مناطق شاسعة في الجنوب ، وذلك قبل أن ينهار هذا النفوذ نهائيا في شمال افريقية كلها . وهذه الظاهرة تبلو لنا واضحة جلية إذا قارنا حدود الجزائر في عهد الرومان وفي عهد البيزنطيين . فإن هذه الحدود قد تقلصت تقلصا كبيرا في اتجاه الشمال في عهد بيزنطة ، الامر الذي يثبت تزايد ضغط قوة الرحل الصحراويين وتوغلهم تدريجيا في اتجاه الساحل .

وفي نفس الوقت ، خلق ظهور الجمل فرصا مثالية لتعمير الصحراء ولاستغلال مواردها الطبيعية ولجعل الصحراء منطقة عبور للتجارة بين البحر الابيض والعالم الاسود .

وقبل ظهور الجمل ، كان الفرس هو الحيوان المستعمل للركوب ولنقل الاثقال . ولكن استعمال الفرس كان محصورا ، حيث أن هذا الحيوان يحتاج الى الماء في أوقات منتظمة ، كما يحتاج الى التبن والشعير للعلف ، وهي أمور ليست متوفرة دائما في الصحراء . وعلى عكس ما حدث في هضاب آسيا الوسطى حيث يتوفر الماء والعشب باستمرار ، فان الصحراء الكبرى لم تعرف ظاهرة الرحل التي ترتكز على استعمال الفرس .

وقبل أن يفرض الرحل سلطانهم على الصحراء ، بفضل الجمل ؛ كانت المناطق المأهولة في الصحراء محدودة ، وكان سكان المناطق التي يتوفر فيها الماء من المقيمين لا ترتبط جماعاتهم بأية روابط أو علاقات ، لان الفرس لا يستطيع أن يعمل أو يتحرك الا في نطاق محدود .

ولكن الفرس مثل الجمل ، لا ينتمي ، هو الآخر إلى أصل صحراوي بل هو مهاجر جاء من أقطار آسيا إلى مصر ، ثم إلى شمال افريقية في بداية الألف الثانية قبل الميلاد .

وأياً ما كان الأمر ، فإن الجمل كان عاملا مهما لا في زيادة العمران في الصحراء فحسب ، بل وأيضا في تحسين ظروف المعيشة والاتصال والتبادل الثقافي والاجتماعي والتجاري بين مختلف أطراف الصحراء وبينها وبين التل ، وبدون هذا الحيوان ذي الشكل الغريب والنبيل ، في نفس الوقت ، كان من المحتم أن تظل الواحات مغلقة على نفسها ، محرومة من كل مدد خارجي ومن كل اتصال بالعالم غير الصحراوي . ومن هنا ، فلا غرو أن تتوقف حياة الرحل كلية على هذا الحيوان الذي لا استقلال ولا حركة ، بل ولا عيش لهم بدونه .

ولكن حياة الجمل ، هي الاخرى ، متوقفة على الانسان ، فهو الذي يعني به ويرعاه ويسقيه ويوجهه الى المراتع وأماكن العشب في مختلف المواسم ، وبالتالي فإن الجمال لا يمكن أن تشكل قطعانا وحشيه مستقلة عن الانسان على غرار ما نشهده من قطعان الخيول الوحشية في مجالات أمريكا واستراليا ، مثلا .

والجمل في مجتمع الرحل ، رمز للثورة والجاه ، وعنوان للرخاء الذي يرافق النفوذ والسلطان بين العشائر والقبائل . فإن الديّة مثل المهر ، إنما تدفع بالجمال ، واثقال العائلات وخيمها إنما تنقل على ظهور جمالها . وكلما كانت الخيم كبيرة والأثاث ثقيلا وعدد الحريم كبيرا ، احتاجت العائلة الى عدد أكبر من الجمال .

والجمل يمثل مورداً اقتصاديا هاما للرجل الصحراوي ، فهو ، كما أشار القرآن الكريم الى ذلك ، ينتفع بلبن الناقة ، ويلبس ثيابا مصنوعة من وبر الجمال ، ولكنه لا يذبح الجمل الا عند الحاجة القصوى ، أو متى بلغ سن الهرم ، وحينئذ يستفيد من لحمه ومن عظامه التي يقيم بها خيمته ، ويستعمل جلده لمختلف الاغراض .

والجمل يستعمل لنقل الامتعة الثقيلة ومختلف انواع البضائع ، ولكنه يستعمل أيضا بسرج أو راحلة للركوب . وهذا النوع هو الذي يسمى المهري والذي استخدمه الفرنسيون بكفاء لاخضاع الصحراء ولسلب الرجل الصحراوي حريته التي تحمل المشاق وناضل من اجلها قرونا طويلة .

الفصل الثالث

التجارة في الصحراء

كان الأنسان الصحراوي قبل دخول الجمل إلى الصحراء الكبرى يعيش في عزلة عن العالم في جماعات ، وكل جماعة منطوية على نفسها في إطار اقتصاد الواحات الذي هو اقتصاد الكفاف . وقد كان يعتمد على موارد منطقته دون سواها لسدّ حاجاته المادية . فالى جانب التربة التي كانت تمده بالحبوب والخضروات والفواكه ، كانت الحيوانات التي يربيها تمده باللحم واللبن والصوف والوبر الذي ينسج منه ملابسه وغطاءه وفرشه ويصنع منه خيامه . ومن جلود الحيوانات كان يصنع نعاله وسروجه ، وخصوصا ، قرب الماء التي لا يستغنى عنها الصحراوي.

ولكن ظهور الجمل يمثل ثورة في المواصلات بصفة عامة ، وفي علاقات التبادل التجاري ، بصفة خاصة . وبفضل هذا التطور أصبح من الممكن نقل البضائع والمنتجات بين أية منطقة وأخرى في الصحراء نفسها ، وبين الصحراء والتل ، وبينها وبين المناطق الواقعة عبر الصحراء . وكذلك تشكلت شبكات معقدة للمواصلات وتكونت مراكز تجارية في الصحراء نفسها وفي البلدان الواقعة على شواطيء الصحراء ، تتلقى منتجات الصحراء وتعيد تصدبرها ، كما تتلقى منتجات العالم الخارجي الموجهة لاستهلاك الصحراء .

ونحن نَذْكر ، على سبيل المثال ، شبكة التجارة الداخلية التي كانت نشيطة قبل حلول الاستعمار الذي خرب العلاقات التجارية الصحراوية ، على الشواطيء

الجنوبية والشمالية معا ، تلك الشبكة التي كانت تربط طوارق الهجار بتيديكلت وبتوات ، حيث يشتري الطوارق التمر والمنتجات القطنية والشاي والسكر ، وحيث كانوا يبيعون الحيوانات والسمن وبعض المنتجات التي تاتيهم من آير ؛ والطريق التي تربط الطوارق بجبال آير والدمرجو (Damergou) حيث كانوا يبيعون ، خصوصا ، الملح الذي يستجرجونه من ملاحة أمدرور ، في مقابل الاسلحة والسروج والاكياس وبعض المنتجات المصنوعة ؛ والطريق التي تصل الطوارق بادرار إيفورا والنيجر ، حيث كانوا يشترون الحيوانات والارز؛ والطريق التي تتجه من الطوارق الى غات وغدامس وغيرها من المراكز والمناطق الصحراوية .

وأما طرق القوافل الكبرى التي ازدهرت في العهد الاسلامي عبر الصحراء ، فقد كانت أهم محطاتها تومبكتو وفاس وسجلماسة وقلعة بني حماد والقيروان والقاهرة وبغداد . وبواسطة هذه الشبكة من طرق القوافل ، كانت الصحراء تتلقى منتجات العالم المصنوعة وتتبادلها بالعبيد والتبر .

وبصفة عامة ، كان الميزان التجاري الصحراوي في مختلف العهود يشكو من عجز مُزْمن ، حيث كان سكان الصحراء يشترون من الخارج أكثر مما يبيعون .

والمنتجات المصنوعة من الثياب والادوات والاسلحة والاواني تشكل أهم باب في واردات الصحراء ، ولكننا نلاحظ أن المنتجات التي تصدرها الصحراء (بعد اختفاء تجارة التبر وتحريم الرقيق) محدودة وذات قيمة غير مهمة ، حيث أنها لا تكاد تتجاوز التمور والجلود . وفيما يتعلق بالتمور ، فاذا كانت بعض المناطق مثل الزاب والجريد ، تنتج فائضا للتصدير ، فإن بعض الواحات لا تكاد تنتج ما يفي بحاجة سكانها للاستهلاك ، والحيوانات الصحراوية (مثل الجمل) من الصعب تصديرها ، حيث أنها لا تجد المناخ والغذاء الملائم لها خارج الصحراء .

وأما الثروة المعدنية التي رفعت من شأن الصحراء في العصر الحاضر والتي تشمل النفط والغاز الطبيعي والاحجار الكريمة والفسفاط ، فإن تاريخ ظهورها لا يكاد يتجاوز جيلا أو جيلين . ولكنه قبل ذلك ، وفي غضون العصور الوسطى كلها ، كان الانتاج المعدني الصحراوي الوحيد هو الملح الذي كان المادة الاولى للتبادل التجاري في الصحراء .

ولكن الصحراء الكبرى التي تمارس تجارة التصدير والاستيراد تمارس أيضا تجارة العبور (الترانزيت)، خصوصا، بين افريقيا الشمالية وافريقيا السوداء. وقد كان هذا التيار التجاري قويا خصوصا، عبر الصحراء المغربية (المغرب الاقصى).

والميزة الأساسية التي تتمتع بها التجارة الصحراوية، هي أنها لا تجد في طريقها العوائق التقليدية ولا تضبطها (على الاقل، في الماضي) قوانين السجل التجاري. والتبادل التجاري بين مختلف مناطق الصحراء في الماضي قلما كان يخضع لأية قيود. فالتاجر الذي يريد أن يغزو أسواق الصحراء لم يكن يحتاج الا الى جماله والى البضائع التي يريد أن ينقلها على ظهرها.

ولكنه، بالضبط، لان التجارة في الصحراء لم تكن تخضع لاجراءات الحدود من التفتيش والتعرفة الجمركية الخ. وللاشراف الحكومي، فإن التاجر يواجه دائما مخاطر في طريقه، بما في ذلك خطر السطو والنهب. فالقوافل تقطع مسافات شاسعة في ظروف مناخية صعبة. وهي مضطرة الى سلوك طرق معينة تقع على جنباتها آبار ونقاط المياه. وهذا الاعتبار يسهل كثيرا مهمة قطاع الطريق والقبائل التي تعيش على السلب والنهب.

على أن الطرق التجارية كانت تتمتع عادة بحماية فعالة من بعض القبائل التي يهمها استمرار تيار التبادل التجاري الذي يمدها بما تحتاج إليه من منتجات الخارج. بل إن حالة الامن في الطرق التجارية بلغت في القرن الماضي في بعض المناطق درجة قال معها المستكشف دوفيريي، إنه حينما ينفق جمل أو يعجز عن حمل عبئه، يودع التاجر ذلك الحمل على حافة الطريق، وهو واثق من أنه سوف يجده في مكانه عند عودته من رحلته، ولو استغرقت عاما كاملا.

وكبار التجار يحصلون على ضمانات للأمن بعد ما يدفعون إتاوة مهمة لقبائل الرحل. وهذه الحماية قد تتخذ شكل اتفاقية يقوم بتحرير بنودها طالب المنطقة، ويصبح شيخ القبيلة الحامي بموجبها مسؤولا عن كل ضرر يلحقه مواطنوه بمصالح التاجر المحمي، وهو يتعهد بأن يعيد إليه كل ما قد يسرق منه من البضائع والاموال. وعملية «التعاقد» كثيرا ما تختم بحفلة يقيمها التاجر المحمي ويذبح

خروفا على باب الحامي الذي هو عادة شيخ أو أمير القبيلة ، على مشهد من أبناء قبيلته ، ولكن الحماية قد يسبغها على التاجر أيضا مرابط كبير ، أو شيخ طريقة يتمتع بتقدير واحترام عام في المنطقة .

وفي مختلف أطراف الصحراء توجد مراكز عمرانية كبيرة ليس لها أهمية فيما عدا دورها التجاري ، حيث تنعدم فيها حتى مقومات الحياة نفسها . ومثال ذلك أن غدامس التي هي واحة فقيرة للغاية ، لم تعرف مانالها من الرخاء والازدهار الا بفضل براعة أهلها في التجارة . وقد لاحظ المستكشف دوفيريي أنه ليس من النادر أن تجد في غدامس بيوتا تجارية لها فروع في «كانو» (المدينة الثانية بنيجيريا) وفي تمبكتو في مالي ، وفي عين صالح ، بالجزائر ، بل وفي طرابلس وتونس أيضا .

* * *

وبصدد وضع غدامس التجاري ، كتب دوفيريي يقول : «إن علاقات الاولوية والولاء المتبادل والعبقرية التجارية والثروات الطائلة التي أكتسبت ونميت ، والتحالف الوثيق مع الطوارق ، عوامل لا تكفي لتفسير كيف أن قرية معزولة عن العالم ، وفي قلب الصحراء ، استطاعت أن تضمن عبر عدة قرون تتخللها الثورات ازدهار مؤسسات تجارية عظيمة فيها . بل إن تفسير ذلك يتطلب منا أن نأخذ بعين الاعتبار أيضا ضرورة العلاقات بين الجنوب والشمال ، وكون التجارة مورد عظيم للربح ، وهي مهنة محترمة ، وكون التاجر لا يتعرض لاهانة أو لخطر تكبد خسائر مالية» .

وكون التجارة الداخلية والتجارة عبر الصحراء تدرّ أرباحا طائلة على من يمارسها ، أمر لا شكّ فيه ، فإن ثروات عظيمة جمعت في غدامس ومرزق وتمبكتو وغيرها من المراكز التجارية في الصحراء .

ونحن للتدليل على مدى نشاط الاستثمارات في المراكز التجارية في الصحراء ، نورد قصة المستكشف الالماني ، بارث ، الذي استلف من تاجر من مدينة كانو ، لدى عودته من رحلته الى تمبكتو مبلغا من المال لمدة اربعة أشهر بفائدة بنسبة 100/100 . ولما لوحظ للتاجر مدى ارتفاع هذه النسبة ، أجاب

بأنه لم يطالب السائح الاوربي الا بالمبلغ الذي يجنيه ربحا في تلك المدة من استثمار المبلغ الذي سلفه .

وقبل السائح الاوربي ، ذكر الجغرافي والتاجر العربي ، أبو القاسم بن حوقل الذي عاش في القرن العاشر الميلادي انه قد رأى باودغست (احد المراكز التجارية الكبرى في الصحراء) «صكا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أو دغست ، وهو من سجلماسة ، باثنين وأربعين ألف دينار» وأضاف الكاتب معبرا عن تعجبه قائلا : «وما رأيت ولا سمعت لهذه الحكاية شبيها ولا نظيرا في المشرق ، وقد حكيتها بالعراق وفارس فاستطرفت» .

وفيما يتعلق بالربح الذي يجنيه التاجر من مادة معينة ، ذكر السائح بنهزره أن الكيل من الملح الجيد الذي يستخرج من ملاحة امدرور ، في شمال الهجار ، يباع مقايضة بستة أو ثمانية أكيال من الذرة في آير . ولكن هذه النسبة ترتفع لتبلغ اربعين كيلا في دمرجو . وكذلك كان لوح الملح يساوي فرنكين في بيلما بالتشاد ، بينما هو يباع بما يتراوح بين 10 و 12 فرنك في زيندر بالنيجر .

تلك أمثلة من بين الامثلة الكثيرة التي يمكن ايرادها لمستوى الارباح والفوائد الذي يحققه التجار في العمليات التجارية في الصحراء .

وكذلك مارست بعض المراكز التجارية الصحراوية نوعا من الاحتكار الفعلي للتجارة ، الأمر الذي يضاعف مستوى الارباح الذي يحققه سكانها . فقد ذكر المستكشف ريشارصون ، مثلا ، أن غات وغدامس كانت كل منهما تلعب دورا خطير الشأن في تجارة الصحراء ، بحيث أن السلع التي تصدرها مدينة كانو ، في نيجيريا ، الى تمبكتو كانت تمر ، بالضرورة . بالمدينتين المذكورتين ، بدلا من أن يسمح للتجار باختصار المسافة بالسفر مباشرة من نيجيريا الى مالي .

ولكن القسط الاكبر من التجارة الصحراوية ليس هو الذي يجري تبادله بين المدن الداخلية ، بل هو ذلك الذي يمثل تجارة العبور ، بين البحر الأبيض المتوسط وافريقية السوداء . وكذلك كان التجار منذ العصور الوسطى يقصدون من افريقيا الشمالية الى النيجر ومالي وغيرهما من البلدان الواقعة على الشواطيء الجنوبية للصحراء . بل إن القوافل كانت تتجه من المغرب الى نيجيريا وغانه أيضا .

ولما قامت ممالك السود في غرب افريقية كان رعايا هذه الممالك من السودانيين يقصدون هم بدورهم الى بلدان المغرب لاغراض التجارة . ونتيجة لهذه الحركة المزدوجة الاتجاه ، أسست شركات تجارية وأقيمت مستودعات وظهرت خدمات الاعلام التجاري .

يقول المقرى ، صاحب نفح الطيب متحدثا عن جده ، عبد الرحمن ما يلي :

« ثم اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة ، فمهّدوا طريق الصحراء بحفر الابار وتأمين التجار ، واتخذوا طبلا للرحيل ، وراية تقدم عند المسير وكان ولد يحيى الذين أحدهم أبو بكر ، خمسة رجال ، فعقدوا الشركة فما بينهم في جميع ما ملكوه ، أو يملكونه على السواء بينهم والاعتدال ، فكان أبو بكر ومحمد ، وهما أرومتا نَسَبي من جميع جهات أمي وأبي بتلمسان ، وعبد الرحمن ، وهو شقيقها الأكبر بسجلماسة وعبد الواحد ، وعلي ، وهما شقيقاهما الصغيران ، فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط والديار ، وتزوجوا النساء واستولدوا الاماء ، وكان التلمساني يبعث إلى الصحراء بما يرسم له من السلع ، ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر ، والسجلماسي ، كلسان الميزان ، يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ، ويكاتبهما بأحوال التجارة وأخبار البلدان ، حتى أتسعت أموالهم ، وارتفعت في الضخامة أحوالهم . ولما فتح التكرور كورة إيوالاتن وأعمالها ، أصيبت أموالهم ، فيما أصيب من أموالها ، بعد أن جمع من كان بها منهم الى نفسه الرجال ونصب دونها ودون مالهم القتال ، ثم اتصل بملكهم فاكرم مثواه ومكنه من التجارة بجميع بلاد ، وخاطبه بالصديق الاحب ، والخلاصة الاقرب ، ثم صار يكاتب من بتلمسان يستقصي منهم مآربه ، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة ، وعندي من كتبه وكتب ملوك المغرب ما ينبيء عن ذلك . فلما استوثقوا من الملوك ، تذللت لهم الأرض للسلوك ، فخرجت أموالهم عن الحدّ ، وكادت تفوق الحصر والعدّ ، لأن بلاد الصحراء ، قبل أن يدخلها أهل مقره ، كان يجلب إليها من المغرب مالابال له من السلع ، فتعاوض عنه بماله بال من الثمن » .

ويمضي الكاتب المغربي فينقل ما ذكره مُدَبِّر دنيا أبي حمّو حين يقول :

« لولا الشناعة لم أزل في بلادي تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون

بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذي كل أمر الدنيا له تبعٌ ، ومن سواهم يحمل منها الذهب ويأتي إليها بما يضمحل عن قريب » .

* * *

كانت البندقية في القرن التاسع عشر تصدر أقمشه فاخرة مطرزة بالذهب والفضة الى طرابلس ، كما كانت مرسيليا تصدر مختلف أنواع الاجواخ الى موانيء شمال افريقيا ، وفي مقابل ذلك . تتلقى أروبا عن طريق هاتين المدينتين شحنات من العبيد والتبر واسنان الفيلة . وفي مرزق كانت تعقد اسواق ومعارض تجارية يقصدها التجار من مختلف بلدان افريقيا السوداء ، بما في ذلك الكونغو وغينيا .

وأما فزان ، فإن الثروة الطائلة التي جمعها تعود الى الدور الذي يقوم به هذا البلد بوصفه مستودعا ومحطة تجارية بين البحر الأبيض وافريقيا الوسطى ، والمناطق التي تمتد بين نهري النيجر والنيل .

وتجارة العبور ، هي أيضا مصدر ما كانت تتمتع به من الرخاء والرفاهية مدن مثل زويله (زويلة ليبيا ، وهي غير زويلة المهدية) خلال الفترة بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر الميلادي ، ومرزق في فترة لاحقة . وقد توقف هذا التيار التجاري الذي يعتمد خصوصا على النخاسة ، في القرن التاسع عشر نتيجة لتحريم التجارة في الرقيق .

والرحلات التي قام بها المستكشفون الأروبيون في الصحراء في القرن التاسع عشر ، كانت رحلات لطلائع الاستعمار الأروبي تستهدف فيما تستهدفه للتعرف على طرق القوافل ومراكز تجارة العبور الصحراوية ودرس إمكانيات التجارة الصحراوية للعمل لزيادتها ولتحويلها لفائدة كل واحدة من الدول الاستعمارية المتنافسة .

وفيما يتعلق باهم المنتجات التي يجري تداولها تجاريا في الصحراء ، فقد سبق أن ذكرنا أنها هي مادة الملح التي يمثل استخراجها أيضا النشاط الانتاجي الرئيسي . والصحراء هي أرض الملح ، بدون نزاع ، فكل مسافر في هذه الفيافي

لابد له من أن يلحظ السطوح الملحية التي تعترض طريقه هنا وهناك وتلمع كالمرايا تحت أضواء الشمس الساطعة . وهذه «البحيرات» الملحية هي التي تشكل ظاهرة السراب الخدّاع (mirage) المعروفة لدى المسافرين في الصحراء . إنها تقع ، عادة في منخفضات ولَوْنها أبيض بحيث تبدو للرائي ، حتى متى كان على مسافة غير بعيدة منها ، وكانها بحيرات ماء رقراق .

وفي هذا السياق ينبغي أن ندرك أن كثرة رواسب الملح في الرمال ، ليس من خصائص الصحراء الكبرى وحدها ، حيث أن هذه الظاهرة تشاهد أيضا في البحر الميت وفي بحيرة أوطة (Utah) بالولايات المتحدة الامريكية ، بل إنه ليمكن القول بأنها ظاهرة صحراوية على العموم تشاهد في مختلف المناطق الصحراوية في العالم .

والظاهرة تعود أساسيا الى تجمع المياه التي تجري على سطح الأرض وتحمل معها رواسب الملح لتستقر في مستنقعات أو في منخفضات من الارض دون أن تتسرب الى جوف الارض ، وتقع تحت تأثير حرارة الشمس التي تسبب تبخرا حادا للماء المحبوس . وهكذا تتكون مستنقعات ملحية هنا وهناك على سطح الصحراء ، وهي تمثل مستودعات ومناجم سطحية للملح . ومتى كانت هذه البحيرات كبيرة شكلت ما يسمى «سبخة» . وهذه السبخات منتشرة بصفة خاصة ، في الصحراء التي تمتد في جنوب تونس والجزائر . ومتى كانت السبخة كبيرة يطلق عليها في بعض الاحيان اسم «شط» .

ولكن رواسب الملح في هذه السبخات قد لا يتجاوز عمقه قشرة الأرض السطحية في بعض الاحيان ، بينما تشكل السبخة ، أحيانا أخرى ، منجما حقيقيا عميقا وواسع المساحة للملح .

وفي سياق رواسب الملح والتجارة في هذه المادة ، يقول العلامة مونود (T. Monod) في كتابه «المهاري» .

«إن العملية التجارية التي تصفها كتب التاريخ القديم في الملح ، تتكون مما يلي :

« يأتي زنوج الجنوب حاملين معهم التبر الذي يضعونه على حافة الطريق بجانب أكوام من الملح كان قد حملها تجار الشمال ووضعوها هناك ، ويقع التبادل بين الملح والتبر . » .

ويمضي الكاتب الرحالة فيقول :

«إن الجوع المستمر الذي يشعر به سكان الصحراء للملح ، هو الذي غذى تيارا من أقدم التيارات التجارية ولا يزال مستمرا حتى الآن ، فإن الملح ، الى جانب كونه مادة ضرورية للغذاء ، وغير قابلة للفساد ، ويمكن نقلها بسهولة ، يمثل « عملة صعبة » ، أو كما قال بونفوس ، « معيار الذهب » القابل للبادل بين جميع المناطق والشعوب الصحراوية . والملح قابل للسيوله وللاستهلاك والفناء ، ومع ذلك ، فهو ذهب وعملة دولية متداولة للتجارة . »

ولهذه الاعتبارات نستطيع أن نفهم الاهمية التي يعلقها أباطرة ما نديج (وهي مجموعة اثنوغرافية من سكان افريقية الغربية وقد كونوا أمبراطورية في مالي) وملوك صنغاي ، وملوك المغرب الاقصى للملاحات ولمادة الملح التي يمكن مقارنتها بالنفط في العالم غير الصحراوي . فمن ذا الذي يستطيع أن يستهين بمناجم الذهب الابيض الذي يمكن أن يشترى به جميع أنواع المنتجات الصحراوية. بما في ذلك الذهب الاصفر الرنان ؟ .

ومناجم الملح منتشرة في مختلف نواحي الصحراء ، وهو أهم مادة يقع تبادلها في التجارة الاقليمية في داخل الصحراء ، ومعظم الملح الذي يستخرج من هذه المناجم يسوّق في بلاد السود ويشكل موردا هائلا للثورة في المنطقة التي يقع فيها المنجم .

ومناجم الملح تختلف أهمية كل منها عن الآخر وشهرته في الصحراء ، فمناجم إيجيل وتاوديني ، في غرب الصحراء ، مثل ملاحة أمدرور الواقعة في أراضي طوارق الشمال ، وملاحة بيلما في شمال بحيرة التشاد تتمتع كلها بشهرة تاريخية متفاوتة .

في تاودينى التي تبعد بنحو 800 كيلو متر عن تمبكتو ، يقع منجم كبير مشهور للملح في أرض قفراء موحشة ، وهذا المنجم هو الذي حل منذ نحو قرنين من

الزمن محل منجم آخر كان يتمتع بشهرة عارمة ويقع في قرية تسمى تغازي ، وصفه كل من ابن سعيد المغربي في كتاب الجغرافيا وابن بطوطة في رحلته ، وهذه القرية التي أمكن التعرف عليها والتي هي الآن خراب ولا تزال آثارها موجودة ، مبنية باحجار من الملح ، كما قال ابن سعيد .

والعمل لاستخراج الملح في تاودينى عمل بالغ القسوة والشدة . فهو يجري في جوّ فضيع الحرارة وفي منطقة قفراء عارية تماما ، وقد وصفه الكاتب الرحالة مونود وصفا مفصلا نقتصر على اقتباس الفقرة التالية منه :

« إن العمل في المنجم (بتاوديني) يتطلب ثلاث أدوات : مجرفة لرفع الطين والانقاض ، ومعول للحفر ، وآلة حادة لقطع الواح الملح الخام ولوضع كل لوح في قالب نهائي .

« وهذا العمل يتطلب عمالا أقوياء البنية لا يحسدون على مصيرهم . وإذا كانت كلمة « الرقيق » ملغاة في لغتنا اليومية ، فإن هذه الكلمة ، مع ذلك ، هي التي تتردد في أذهاننا حينما نفكر في هؤلاء العمال في إطار البيئة الاجتماعية السائدة في تلك البلاد التي تتطور فيها العوائد والعرف ببطء أكثر من تطور اللغة » .

والجدير بالملاحظة أن هذا المنجم ليس بملك لشخص أو لقبيلة وإنما هو شائع بين كل من يريد استخراج الملح منه . والمساحة التي تخطط للحفرفية تتوقف سعتها على مقدرة رب العمل على استغلالها وعلى عدد العمال الذين يعملون لحسابه . وعدد العمال الذين يعملون لشخص واحد يتراوح عادة بين ثلاثة وعشرة اشخاص .

والملح الذي يستخرج من منجم تلاوديني يجهز للتجارة في شكل قوالب مربعة الزوايا وتبلغ كثافتها ما يتراوح بين أربعة وخمسة سنتيمترات ، وطولها أكثر من متر واحد ، وعرضها نحو خمسين سنتمتر .

وأما وزن لوح الملح فيبلغ اربعين كيلو غراما ، وتشكل أربعة احجار ، أو الواح منها ، حمل بعير المتوسط . وملح تاوديني يحمل الى مختلف المناطق الصحراوية .

يختلف انتاج الملح باختلاف حجم المنجم وكميات الملح المتوفرة فيه والمنطقة التي يقع فيها المنجم . ففي منطقة كوار ، غير بعيد من بيلما ، في شمال بحيرة التشاد ، حيث يستخرج ما يقرب من 12 طن من الملح سنويا ، يجرى الحفر في السبخة في مغاور واسعة تبلغ مساحتها ما يتراوح بين 10 و 30 مترا ، ولا يزيد عمق المغارة عن متر واحد . وأما التراب الذي يستخرج من المغارة فيبلغ بضعة امتار ، وهو مشرب بالماء الذي يحتوي على الملح .

وفي ملاحات تيجيدا ، غير بعيد من أجاديس ، يجري استخراج الملح بحفر حوض في الارض قطره متران وترمي فيه التربة المشبعة بالملح بما تحتوي عليه من الماء وتبقى فيه ثلاثة أيام . وبعد ما يسيل ما فيها من الماء الملح ، ينقل ذلك الماء الى حوض آخر محفور في الصخر حيث يترك ليتبخر بفعل حرارة الشمس ويبقى الملح النقي . والملح الذي يستخرج من هناك يتخذ شكل الواح صغيرة .

وفي أماكن أخرى يؤخذ الماء الملح الجاري في قنوات مصنوعة من الخشب أو من الطين المكوي ويفرغ في أحواض مربعة ويترك هناك ليتبخر بفعل حرارة الشمس ويبقى الملح النقي ملتصقا بأرضية الحوض . وبعد ذلك يعاد ملء الحوض بالماء الملح وينتظر حتى يتبخر ويرسب الملح ليشكل طبقة ثانية على الطبقة الارضية ، وهكذا يعاد ملء الحوض أربع مرات متوالية حتى تتكون طبقة يبلغ مجموع سمكها خمسة أو ستة سنتيمترات من الملح .

وفي أنتيجداي ، في منطقة إينداي ، يستخلص الأهالي الملح من أعماق مستنقع بواسطة أداة خاصة ، وهي عبارة عن عصا طويلة يركب في أحد طرفيها نوع من الفاس ويستعمل لتكسير ألواح رواسب الملح تحت الماء ، ويزود الطرف الآخر بمشط كبير يجمع الملح المتكسر ويرفعه الى السطح ، وهم يسبحون لهذه الغاية في أماكن معينة من المستنع في عملية شاقة يتعرض العمال خلالها لتأثير الماء المحرق للجسد .

وفي مناطق أخرى يستخرج الملح من نبات مشبع بالملح يسمى « بابول » ويعرف باللاتينية باسم (solvadora persica) ولكن الكميات التي

تستخرج بهذه الطريقة محدودة بطبيعة الحال ، وبالتالي ، فهي للاستهلاك المنزلي وليست للتصدير .

والتجارة في الملح تجري في حركة واسعة النطاق للقوافل ، وفي أوقات محددة بصفة عامة . وهذه المواسم تسمّى «أزالي» . واثنتان من حركات القوافل التي تمارس التجارة في الملح ، كلتاهما ذات أهمية معتبرة ، وهما : الحركة التي تجري بين تمبكتو وأروان من جانب وتاوديني من جانب آخر ، والحركة التي تسير بين آير وواحة أجرام (فاشي) وكوار (بيلما) .

وقد كانت القوافل في الماضي تقوم برحلتين في السنة ، بين آير وكوار ، احداهما في فصل الربيع ، والاخرى في فصل الخريف . والرحلة الاخيرة أهم الرحلتين .

يذكر المؤرخون الذين عنوا بهذه الاسفار ، إن القافلة التي سارت في الطريق الاخيرة ، مثلا ، في سنة 1938 قد ضمت 17000 جملا ، وهو يعتبر رقما قياسيا في فترة خمسة عشر عاما السابقة .

وأما السلع التي كانت تنقلها هذه القافلة إلى أجرام وكوار ، فكانت تشمل الدخن والحبوب المتنوعة ومنتجات مصنوعة ، مثل الاقمشة .

وفي سفرة العودة ، كانت القافلة تحمل القمح والتمر ، وهي المنتجات التي ستباع في أسواق النيجر ، بل وفي شمال نيجيريا أيضا . وقد قدّر مجموع وزن ماشحنته القافلة المذكورة ذهابا في تلك الرحلة باربعمائة وخمسين طنا من البضائع ، بينما بلغ مجموع شحنة العودة ألف وأربعمائة طن .

ولضمان سلامة القافلة يختار التجار الجمال التي تسير فيها بعناية ، حيث أن هذا الحيوان يطلب إليه القيام بمجهود شاق خلال الرحلة .

وفي رحلة الذهاب تحمّل الجمال اكداسا من الكلا الجاف الضروري لغذائها أثناء تلك الرحلة ، وبعد ما تنتشر أخبار الرحلة في مختلف المناطق يكتمل جمع التجار الذين يشاركون فيها عند بئر «طابلّو» (Tabello) الذي يقع على مسافة 300 كيلو متر شرقي أجاديس ، وهناك تروى الجمال وتستريح قبل أن تبدأ مسيرتها لاقتحام صحراء تينيري القاحلة والموحشة

وبعد تيبيري تتجه القافلة الى واحة فاشي في مظاهرة عظيمة تسودها الوان صارخة مختلفة ويعلوها ضجيج صاخب يختلط فيه إنشاد الحادي ولغط التجار وأصوات الحيوانات .

والقافلة تسير نحو 14 و 15 ساعة في اليوم بدون توقف وبسرعة متوسطها 40 كيلو متر في اليوم .

ووصول القافلة إلى الواحة يكون مثاراً لحماس وجلبه كبيرة بين السكان ويتسابق التجار الذين يبحثون عن صفقات الى استقبالها . وبعض تجار القافلة تكون واحة فاشي مقصدهم النهائي . والبعض الآخر يواصلون رحلتهم بعد استراحة تدوم ثلاثة أيام في اتجاه بيلما ، بكوار .

والمرحلة الأخيرة من هذه الرحلة هي أصعب وأشق من المرحلة التي انتهت عند فاشي . وبعد مسيرة ثلاثة أيام تصل القافلة صباح اليوم الرابع الى بيلما ، حيث يقيم التجار نحو عشرة أيام يستريحون خلالها ويعقدون صفقات الملح التي جاءوا من أجلها .

ورحلة عودة القافلة أشق وأكثر عناء من رحلة الذهاب ، لأن حمل الجمال أكبر وأثقل . فإن الجمل الصغير يحمل 80 كيلو غرام ، ولكن الجمل الكبير ينقل على ظهره ما لا يقل عن 250 كيلو غرام . وبعض الجمال تنوء بحملها وتعجز عن مسايرة القافلة ويضطر التجار الى تركها في الطريق .

وفي هذه الاثناء يتابع رجال التبو القافلة من بعيد كما يقتفي الدئب أثر حيوان أصابه العياء ويوشك على السقوط ، على أمل الاستيلاء على الجمال المتخلفة بأحمالها .

على أن رحلة القافلة تكون دائما مربحة مهما تكن الخسائر التي تتحملها من الحيوانات والسلع . فقد قدّر دخل كل واحد من التجار الذين اشتركوا في قافلة 1938 ، باربعمائة فرنك ، وبذلك يبلغ مجموع دخل القافلة التي تتكون ، كما قلنا من 17000 جمل نحوسبعة ملايين من الفرنكات .

* * *

وأما الرحلة بين تمبكتو وتاوديني ، فقد اشترك في القافلة التي قامت بها في سنة 1938 سنة الآف جمل فقط . وفي رحلة العودة الى تمبكتو كانت القافلة تنقل 24 ألف لوح من الملح قدرت قيمتها بـ 200000 فرنك .

وقد كانت أروان (Arouan) التي تبعد عن تمبكتو بنحو 200 كيلو متر ، هي نقطة التقاء التجار الذين اشتركوا في القافلة والذين ينتمون الى طوارق النيجر والى قبائل الكونتاس والبرابش الذين هم من منطقة تمبكتو ، والى قبائل تقع على شواطيء بحيرة فاجيبان . وهناك في أروان تزود التجار بكثير من الماء ، وذلك لأن المسافة بين هذه المدينة وتاوديني تمتد على 400 كيلو متر ، وأقرب آبار المرحلة الأولى في هذه الطريق تقع في تليج التي لا تبعد عن تاوديني الا بنحو أربعين كيلو مترا .

وفي مقابل خلوّ هذه الطريق من كل نقطة للماء ، توجد بعض المراعي على حافاتها ، وذلك على عكس الطريق التي تمتد بين آيز وبيلما ، حيث يتمكن التجار من رعي ابلهم ، وبالتالي ، فهم لا ينقلون على ظهرها الا قليلا من العلف . والرحلة بين أروان وتاوديني تستغرق عشرة أيام .

وإذا كانت رحلة الذهاب لا تثقل كاهل الجمال بالسلع فإن رحلة العودة ، على العكس ، ترهق الحيوانات بأثقال كبيرة ، حيث أن البعير الواحد يحمل نحو سبعة الواح من الملح ، أي أكثر من 250 كيلو غرام ، وهو أمر نجمت عنه خسائر كبيرة في الحيوانات .

وطرق القوافل التي تخترق الصحراء لا تسير دائما في خط مستقيم ، بل هي خاضعة للحاجة الى التعريج على نقاط المياه والمرور بالواحات ، كما تلتوي بسبب الظروف الطبوغرافية لتدور بالجبال وتتجنب الوديان الخ .

وكميات المياه التي يمكن حملها على ظهر الجمل محدودة ، والمسافر في الصحراء ، بصفة عامة ، في حاجة الى أن يؤمّن حاجته الى الماء بالمرور على الابار . وهكذا ، فإن الطرق الصحراوية تقع تحت ضرورة لا ترحم ، وهي غير قابلة للتغيير أو التقصير ، حيث يتحتم أن تمر بالآبار ونقاط الماء والواحات ، ومن ثم ، فإن الاثار التي يستدل بها على اتجاه الطريق في رمال الصحراء ،

ذات أهمية قصوى ، وهي في بعض الاحيان ، لا تزيد عن تل صغير أو شجرة واحدة . ومتى حاد المسافر عن ذلك التلّ ، أو فاته أن يلحظ تلك الشجرة ، فقد تاه وظل طريقه ، وذلك معناه الموت المحقق .

ولكن نضوب ماء بئر أو كساد سوق تقع في طريق القافلة ، معناه ضرورة التحول عن تلك الطريق . والامر كذلك متى اختل الأمن وأصبحت القوافل تواجه خطر النهب والسلب والاعتداء على حياة التجار.

ويبدأ أختلال الامن في الطرق الصحراوية عادة بفرض القبائل إتاوات على التجار ، ثم يزداد جشع القبائل التي تستحلى الوضعية وترفع الاتاوات ، وبذلك يتلكّؤ التجار في الاشتراك في القوافل ويندر مرورها ..وتحت تأثير قلة ما يحصلون عليه من المال يتجرا أفراد القبائل ويعترضون طريق التجار ، فينتهي الامر بتحول القوافل عن تلك الطريق .

وفي هذا السياق لاحظ المستكشف شودو (Chudeau) . قائلا :

«منذ أن أصبحت تجارة الرقيق صعبة ، بل مستحيلة ، نضبت الموارد وأنتشر البؤس في كثير من المناطق . ولذلك ، فإن النسبة المئوية التي يفرضها الرحل على التجار في مقابل حمايتهم لم تعدْ ترضيهم ، ومن ثم ، فهم يستولون الآن على كل مال التاجر وسلعه . وهذا السبب كانت له نفس النتيجة في جميع أطراف الصحراء . وقد بلغت الحالة حدا كبيرا من الخطورة في تاوديني نفسها . فإن قطاع الطريق من المغرب الاقصى ، ممن كانوا يتعرضون للقوافل ويستولون على جمالها ، وجدوا في سنة 1905 ـ 1906 أن الدخل الذي يجنونه من النهب والسلب غير كاف ، ولذلك أتجهوا الى شن الغارات والغزوات على القصور نفسها »

وهذه الأسباب في مجموعها ، هي التي أدت الى هجر طريق القوافل التي تمّر بفزان والى تدهور اقتصاد هذه المنطقة .

ولما ظهرت في الصحراء السيارة التي حررت التجار من كثير من القيود ومن ضرورة مرور الطريق بنقاط الماء ، انفتحت طرق جديدة للتجارة وبرزت مناطق شاسعة لم تكن تمّر بها طرق القوافل من قبل . وهذه هي الحالة خصوصا ،

بالنسبة الى صحراء تنزروفت القفراء الموحشة التي أصبحت تخترقها طرق المواصلات من الشمال الى الجنوب .

وكذلك توجد الآن طرق صحراوية للسيارات تربط موريطانيا بالمغرب الاقصى ، وموريطانيا بالسنيغال ، كما توجد طريق كلومبّشار بجاو ، تمر بادرار . وأما طريق الهجار، فهي تمر بغرداية والقليعة وعين صالح وتمنراست وأجاديس ، لتصل الى زيندار بالنيجر ، هذا بالاضافة الى الطريق الصحراوية الكبرى التي يوشك العمل أن ينتهي فيها والتي تربط الجزائر بالبلدان الافريقية الثلاثة المجاورة لها .

ما هي النتائج التي تترتب على اتمام الطريق الصحراوية الكبيرة في المجال التجارى وفي علاقات التبادل ، وبصفة عامة للصحراء نفسها وللبلدان الواقعة على شواطئها ؟

إنه لمن سبق الاوان التكهن بها ، لأن الكثير يتوقف على نمط تطور التعاون الاقتصادي بين البلدان الأربعة المتجاورة . على أنه إذا قدر للإرادة السياسية التي تسود العلاقات بين هذه البلدان أن تنموّ وتزداد تصميما ، وهو أملنا على كل حال ، فإن مما لا شك فيه أن هذه الطريق ستفتح عهدا جديدا أمام الصحراء التي سوف تستعيد دور منطقة العبور الذي كانت تقوم به في عهد الرومان وفي العصر الاسلامي . والجزائر ستستفيد فائدة عظيمة من توثيق علاقات التعاون بجيرانها ، ولكنها سوف تقدم مساعدة فعالة لتلك البلاد التي دخلت معركة التنمية ، وهذا ليس في المجال الاقتصادي فحسب ، بل وأيضا في المجال الثقافي .

*
* *

الفصـــل الرابـــع

المستكشفون والـــرواد

قبل القرن التاسع عشر :

كانت المعلومات التي يقدمها الجغرافيون اليونان والرومان والجغرافيون والرحالة والتجار العرب (ونحن نعتبر الحسن ابن محمد الوزان المدعو ليون لا افريكان ضمن الفئة الأخيرة من الكتاب) هي المعلومات الوحيدة المتوفرة للباحثين عن الصحراء الكبرى في أواخر القرن الثامن عشر. وعلى الرغم من توغل بعض المغامرين الاروبيين في الصحراء في العصور الوسطى ، فإن هذه الرحالات لم يكن لها أي تأثير على البحث العلمي ولم تكَدْ تزيد شيئا في معلومات الناس عن الصحراء التي ظلت طبيعتها سرا مجهولا يتحدى علماء الجغرافيا .

والحق أن السفر بقصد استكشاف الفيافي الشاسعة التي تمتد بين المحيط الاطلسي ونهر النيل ، وبين التشاد والبحر الابيض ، والتي تشغل أكثر من تلث مساحة القارة الافريقية ، أمر ليس بالهين ولا باليسير . فهي سهول وهضاب قاحلة ترتفع فوقها شمس محرقة في معظم فصول السنة ، يزيد من غموضها ومن خوف الأجانب من أهوالها تلك الأساطير التي تروي عن متاهاتها وعن سرابها الخداع . والصحراء اذا كانت خالية من السباع ومن سهام الهنود الحمر المسمومة التي تنتظر المستكشف الأروبي في مناطق الأمازون ، فهي ، مع ذلك تحميها حراب عمالقة من السود تزعم الخرافات أنهم من أكله لحم البشر ! .

ولكن الحقيقة هي أن قسوة الطبيعة هي التي تشكل سياجا منيعا ضد توغل الاجانب في الصحراء . ويزيد من قوة هذه المناعة ما عرف به المسلمون الذين يقيمون في أطرافها الشمالية من شوكة في الدفاع عن عقيدة الاسلام الحنيف في آخر معاقلها ضد الافكار والعقائد الدينية الدخيلة . وموقف الحفاظ والدفاع عن الكيان القومي والديني ، هو الذي كان يحلو للاروبيين اجيالا طويلة أن يسموه « التعصب » ـ التعصب الذي كان خوفهم منه لا يقل عن أشفاقهم على أنفسهم ووجلهم من أفاعي الصحراء التي اشتهرت في خيالهم بطولها وضخامتها وسرعة انقضاضها ...

ونحن نعرف أن الصحراء كانت تمثل عبر التاريخ الخط الخلفي في الدفاع عن الاسلام والقيم الادبية الافريقية ضد طلائع الاستعمار ، وأما خطوط الدفاع الامامية ، فقد كانت هي الشواطيء الجنوبية للبحر الابيض . وعلى هذه الشواطيء وفي عرض البحر ، ظلت الأساطيل المغربية قرونا طويلة تذود بقوة وبسالة عن الحرية في هذه الأوطان ولسد المنافذ إلى الصحراء أيضا .

وبعدما سقطت مدينة الجزائر التي كانت أمنع قلاع الخطوط الأمامية للدفاع عن الصحراء ، في سنة 1930 ، انفتح الطريق اللاحب أمام الطامعين والمغامرين الاروبيين وبدأت طلائع الرحالين للاستكشاف من أجل الغزو التجاري والتوغل بالتبشير الديني « للمتوحشين » ، وذلك قبل أن يبدأ في مرحلة تالية تطبيق المخطط الاستعماري لتمزيق أطراف المناطق الواقعة جنوب الصحراء وبسط السيطرة الاروبية على القارة كلها في مؤتمر برلين المشهور (سنة 1884) .

على أن تباطؤ التوغل الأروبي حتى ذلك الوقت المتأخر نسبيا ، ليس مرجعه ضعف الاطماع أو قلة المشروعات الامبريالية . فقبل هذا التاريخ بنحو قرن ، شكلت في أنجلترا في سنة 1788 ، جمعية أطلق عليها اسم « الجمعية الافريقية » (African Association) ، وهي على غرار « الجمعية الاسيوية » ، كانت تستهدف دراسة هذه المناطق وجمع كل ما يمكن من المعلومات عنها وعن سكانها ، بقصد التوغل والاستكشاف في داخل القارة (علما بأن شواطئها كانت ، بصفة عامة ، معروفة لدى الاروبيين) .

في هذه الفترة ، على التحديد ، بدأت أسواق انجلترا تتقلص في أمريكا الشمالية ، بعد انفصال مستعمراتها التي أصبحت تشكل الولايات المتحدة الامريكية . وأين تجد بريطانيا عوضا عن هذه الاسواق (بل وأيضا عوضا عن تلك المستعمرات) إذا لم يكن ذلك في أرض بكر لم يكتشفها المنافسون الأروبيون بـعـد ؟ .

على أن هذه الاهداف الماركنتيلية والاستعمارية ، لم يكن من الممكن التنويه بها في الوقت الذي منيت فيه السياسة الاستعمارية البريطانية بفشل ذريع ، في قارة اخرى ، ولذلك أقتضى الأمر أن تكتسي محاولات التوغل في المناطق الواقعة في جنوب الصحراء طابعا علميا انسانيا ، وقد بلغ التضليل والتدليس في جهود الجمعية الافريقية الى حد أنها جعلت من بين اهداف الاستكشاف الذي تنوي القيام به وتشجيعه ، مقاومة الرق ومحاربة التجارة في اللحم البشري في افريقية نفسها . وهذه الفقرة من برنامجها ستضمن لها تأييد الكنيسة ومساندة الضمائر الحساسة التي لم تكن ترى في المخطط العام الا الزاوية التي يروق لها أن تراها .

وفي نفس السنة التي شكلت فيها الجمعية الافريقية في انجلترا ، أرتبطت بسائح اسمه ليديارد (ledyard) ليقوم برحلة لحسابها ويخترق خلالها القارة الافريقية ، في حركة بسيطة من أقصاها الى أقصاها ، في اتجاه من الشرق الى الغرب . ولكن هذا السائح كانت تنتظره مغامرة أخرى قبل مغامرة الصحراء ، فقد مات قبل أن يبدأ رحلته ، في مصر ، ضحية للحمى ، وذلك بعد أن أتم استعداداته للسفر .

وبنفس الطريقة انتهت محاولتان قام بهما قنصلان بريطانيا سابقان لبريطانيا في بلدان المغرب ، لحساب الجمعية الافريقية .

ولكن مغامرا اسكوتلانديا اسمه مونجو بارك (Mungo Park) ، لم تكن سِنُّه تزيد عن 25 سنة ، سجل نجاحا ملحوظا في استكشافه لافريقية الغربية ، حيث وصل الى نهر النيجر في سنة 1796 .

لقد أثار تقرير هذا السائح شعورا كبيرا من الدهشة في نفوس الانجليز حين صرح بأن النيجر لا يقل عظمة ووفرة مياه عن نهر « التاميز » ، ولكنه في نفس

الوقت أثار سرورا أعمق ، حين أخبر بأنه يوجد سكان على ضفاف هذا النهر ، وكلهم ، بالطبع في حاجة الى الثياب والاحذية . وكذلك سرى الخبر مسرى التيار الكهربائي بين طبقات التجار والبورجوازية البريطانية : يا له من حظ سعيد ! إنهم سيكونون جميعا من زبائن الصناعة البريطانية المتطلعة ! وهذا النجاح شحذ عزائم الدوائر الاستعمارية التي توجه الجمعية ، كما أثار شعورا من الفضول وحب التوسع في الدوائر الدينية في بريطانيا . فإذا كان هؤلاء السكان البدائيون الحفاة والعراة في حاجة الى الاحذية والى ما يستر عورتهم ، وهم ، بالتأكيد ، سيكون في حاجة ، في مرحلة تالية ، إلى ملايين من نسخ الإنجيل وإلى مبشرين ستحسن الكنيسة صنعا في البدء في إعدادهم منذ الآن !

*

* *

كان المتطـوع التالي الذي أرتبطت معه الجمعية الافريقية للقيام بعمليات استكشاف الصحراء واحدا من أكبر المستكشفين والمغامرين بحياتهم . إنه شاب الماني لا يتجاوزعمره الخامسة والعشرين ، ويدعى هورنمان (F. Horneman). ولقد ترك لنا هذا الرحالة سفرًا سجل فيه الأحداث التي صادفها والعقبات التي واجهها منذ بداية رحلته حتى نهايتها المبكرة . وقد ترجمت هذه الرحلة من الانجليزية الى الفرنسية تحت عنوان :

Voyage dans l'Afrique septentrionale depuis Le Caire jusqu'à Mourzuk

على أن النجاح الحقيقي الذي سجله الرحالة هورنمان في استكشاف الصحراء ، قدر له أن يبقى مدة طويلة مجهولا في العالم ، حيث غطت عليه أخبار حروب نابليون الاول المثيرة للخيال .

وهذه الرحلة قد استعد لها هورنمان بمعرفة واسعة بالجغرافيا الافريقية وبدراسة احوال الشعوب والمناطق التي سيتجول فيها ، وخصوصا بمعرفة محترمة باللغة العربية التي هي اللغة الكبرى في الصحراء . وقد كانت المهمة الاساسية التي اناطتها الجمعية الافريقية بالسائح الالماني هي مواصلة استكشافات مونجو بارك السكوتلاندي .

وصل هورنمان الى القاهرة في سنة 1797 . ومن هناك كان ينوي السفر في اتجاه فزّان ومرزق مع احدى القوافل التجارية ولكنه في السنة التالية ، وقبل أن يستكمل استعداده للسفر وقع الغزو الفرنسي لمصر واحتلت جيوش نابليون القاهرة . وهناك دخل هورنمان في اتصال مع العلماء والمستشرقين الفرنسيين الذين رافقوا الحملة . ولما بلغت اخبار مشروعه نابليون بونابرت أبدى اهتماما بالسائح وأمده بكل ما في وسعه من التسهيلات ، بل ووعده بان يحول هو شخصيا تقاريره عن رحلته الى لندن ويضع عليها ختم الامبراطور.

وبعد مالبس زيا عربيا واتخذ لنفسه إسما اسلاميا ، بل وبالغ في الاحتياط بحيث ختن نفسه ، بدأ رحلته في شهر سبتمبر 1798 . وفي الطريق ، أخفى معالم شخصيته الاصلية كلية عن رفقائه في السفر ، وراح يسجل ملاحظاته بالليل متجنبا إثارة اهتمام احد برحلته .

وكذلك استطاع السائح التوغل في واحة سيوه ، وبعد مرور شهرين على مغادرته القاهرة ، وصل إلى مرزق في 17 نوفمبر . وهناك تركته القافلة مع رفيق له . وقد كان تخلفه هناك من حسن حظ علم الجغرافيا ، لان القافلة تعرضت لها بعد وقت قصير من مغادرتها مرزق ، عصابة من قطاع الطرق من «الطوارق» وأفنتها عن آخرها .

ولكن هورنمان إذا نجا من الموت ، فانه لم ينج من التعب والحمّى التي انهكت جسمه ثم لم تلبث أن ظهرت اعراضها في اعصابه وأثارها في ذاكرته ، ولذلك ، قرر أن يتجه الى الشمال ليقيم بعض الوقت في طرابلس الغرب حيث سجل مذكراته عن الجزء الاول من رحلته .

وبعد ما كتب الى اصدقائه وعملائه يرجوهم الا يكتبوا إليه أو يبحثوا عنه الا بعد مرور ثلاث سنوات ، احتياطا حتى لا تكتشف شخصيته ومهمته ، عاد الى مرزق ، ومن هناك اتجه الى النيجر . ولما وصل الى النهر الافريقي العظيم وكمّل استكشافات مونجو بارك ، مات المستكشف الالماني الكبير وعمره لا يتجاوز الثامنة والعشرين ، وقد سجل التاريخ أنه أول أروبي اجتاز الصحراء .

وفي هذا السياق يجب أن نعيد الى الاذهان أن مناطق افريقية الغربية التي اهتم باستكشافها الانجليز والألمان لم يكن الفرنسيون غير مكترثين بها . بل إن اهتمام الفرنسيين بها ، ولا سيما بمدينة تمبكتو ، كان قديما ويرجع عهده إلى لويس الرابع عشر ، الذي وضع مخططا للوصول اليها عن طريق السنيغال . على أن مشروع هذا الملك لم ينفذ الا بعد مرور ثلاثة قرون على عهده .

وفي سنة 1818 ، وجهت الحكومة البريطانية بعثة استكشافية رسمية برئاسة جوزيف ريتشى الذي كان يعمل سكريترا للسفارة البريطانية في باريس ، وعينت مساعدين له يرافقانه في رحلته الصحراوية . وقد بدأت البعثة رحلتها من طرابلس ، واتجهت الى مرزق ، عاصمة فزان. ولكن مهمة البعثة انتهت في وقت مبكر ، بسبب موت رئيسها .

وقد خلفت هذه البعثة في مهمتها بعثة رسمية بريطانية أخرى توغلت جنوبا حتى مدينة غات ، قبل أن تتجه الى بحيرة تشاد التي مات على ضفافها رئيس البعثة ، الدكتور أودني (Oudney) في سنة 1824 .

ومهما يكن من أمر ، فإن الاتصال كان قد تم عند هذه المرحلة بين شاطئي الصحراء الشمالي والجنوبي . وقد أمكن الوصول عبر الصحراء الى افريقية الغربية (أو السودان الفرنسي كما كانت تسمى المنطقة سابقا) كما تم اكتشاف بحيرة تشاد .

ومع ذلك ، فان مدينة تمبكتو التي كانت مثارا لخيال كولبير لم تدسها أقدام الاروبيين ولا تزال تحتفظ بكل اسرارها . وهكذا اتجهت أنظار المستكشفين إليها في المكان الاول . والمدينة التي كانت موضعا لاطماع لويس الرابع عشر ، أصبحت الآن محط أحلام الحكومة البريطانية التي عزمت على الوصول إليها .

وكذلك وجهت اسكوتلانديا آخر في مهمة إلى المنطقة ، اسمه الميجور لانج (Laing) الذي كان ياور الحاكم البريطاني العام لمستعمرة سيراليون التي تمتد أراضيها على سواحل افريقية الغربية .

كان هذا المستكشف لا يزال شابا حيث أنه لم يبلغ الثانية والثلاثين من العمر ، وقد كانت له بعض التجارب حيث قام باستكشاف المناطق الشمالية في رحلة حملته حتى ضفاف نهر النيجر.

وكما فعلت بعثة كل من ريتشي (Ritchir) واوديني ، فقد بدا لانج رحلته الاستكشافية من طرابلس . وهناك نسيَ المستكشف مغامرة الصحراء ودخل في مغامرة حب مع ابنة القنصل البريطاني ، انتهت بزواجه بها . والميزة التي امتاز بها هذا المستكشف عن سابقيه هي أنه قرر عدم اخفاء جنسيته البريطانية ودينه المسيحي . ولكنه عندما وصل الى مكان غير بعيد من الهجّار هجمت عليه عصابة من الطوارق وأصابوه بجراح بالغة . ومع ذلك ، فقد تمكن من الوصول الى تمبكتو ، في 18 أغسطس 1826 ، وذلك بعد مرور خمسة عشر شهرا من بدء رحلته من طرابلس .

على أن مأساة جديدة كانت تنتظر هذا المستكشف الذي أبدى كثيرا من الشجاعة وتحمل كثيرا من الصعاب ، فقد قتل في مكان يقع على مسيرة يومين من تمبكتو.

وعند هذه المرحلة ، وبعد استكشاف الانجليز والألمان للصحراء في كلا الاتجاهين : شمال ـ جنوب وشرقي ـ غرب ، قرر الفرنسيون أن الوقت قد حان للدخول إلى مصرح الصحراء لمشاركة منافسيهم في لعبة الاستكشاف . وإذا اعتبرنا الأحلام التي كانت تساور لويس الرابع عشر منذ القرن السابع عشر وتأخر فرنسا في إرسال المغامرين والمستكشفين من أبنائها ، فإن من الممكن أن نتوقع منها أن تدخل هذه المعركة التي أصبحت الآن لونا من الرياضة ، بقوة وعزم وتصميم . ولكن هذه ليست هي الحالة . فإن الحكومة الفرنسية لم تشكل مؤسسة على غرار الجمعية الافريقية البريطانية ، ولم تخصص موارد لتشجيع المستكشفين ، ولكنها ، مع ذلك ، سوف لا ترفض أكاليل الغار التي كسبها رياضي شجاع بمبادرته الفردية .

كان روني كاييه (R. Caillié) ابن الخباز ، في صغره مولعا بقراءة الرحلات وأخبار الاسفار . ونظرا لأنه كان فقيرا ويعدم سندا ماليا ، فقد سافر ،

عندما قرر القيام برحلته ، على متن سفينة بوصفه خادما ، الى السنغال ، في سنة 1818 . ولكن السفينة التي كانت تقله قدر لها أن تغرق عند شواطيء موريطانيا ، ولم ينج المسافر المستكشف من الغرق الا باعجوبة .

ولما وصل روني كاييه الى السنغال ، حاول عبثا الاتصال ببعثة انجليزية أخرى للاستكشاف ، بقيادة الميجور جراي (Gray) ، كانت قد كلفت ، خصوصا باقتفاء أثر المستكشف السكوتلاندي الاول : مونجو بارك ، الذي مضت عشر سنوات على اختفائه .

وبعد محاولات فاشلة عاد كاييه إلى فرنسا للعلاج ثم أعاد الكرة ورجع الى السنغال في سنة 1824 ، وكله عزم وتصميم على أن يدخل تمبكتو مهما كلفه الأمر . على أن فقره لم يسمح له بتنفيذ خطته ، ولذلك التجأ الى حاكم سيراليون الانجليزي الذي عينه في وظيفة وخصص له مرتبا سنويا مهما في ذلك الوقت . قدره 3600 فرنك ، وقد استطاع كاييه أن يقتصد منه مبلغ 2000 فرنك ليعتمد عليها في تجواله .

وفي نفس الوقت ، ورده خبر أثلج صدره بان الجمعية الجغرافية الفرنسية قد خصصت مبلغ 10000 فرنك مكافأة لاول فرنسي ينقل ملاحظات ايجابية دقيقه عن تمبكتو وعن داخل القارة الافريقية .

وكذلك شرع كاييه في رحلته الى تمبكتو في سنة 1827 ، مدعيا لدى القبائل التي يمرّ بها في طريقه أنه مصري تربى في فرنسا منذ صغرسنه .

وفي 14 مارس 1828 ، وصل المستكشف إلى نهر النيجر ثم دخل إلى تمبكتو في 20 ابريل حيث أقام أسبوعين . وبذلك توجت جهود المستكشف ، بعد ما تكبد كثيرا من المشاق ، وافتض اسرار المدينة الافريقية العريقة ، فكان أول أروبي يعود بوصف دقيق للمدينة في كتابه المعنون

Journal d'un voyage à Tombouctou et dans l'intérieur de l'Afrique

ومن ضمن ما جاء في هذا الوصف قول السائح :

« وجدت المدينة أقلّ ضخامة وعمرانا مما كنت اتوقع ، وكذلك وجدت أن تجارتها أقل نطاقا مما اشتهرت به في أذهان الراي العام »

ولما حقق هدفه ، اتخذ طريق عودته عبر الصحراء في اتجاه البحر الابيض في رفقة قافلة تتكون من 600 جملا .

وفي أواخر يوليو ، وصل الى تافيلالت بعدما سجل ملاحظات وانجز رسوما قيمة في الطريق . وفي 14 أغسطس دخل الى مدينة فاس ، التي رحل منها الى الرباط . وهناك أتصل بقنصل فرنسا ، وكان في حالة يرثى لها من التعب والفقر والمرض . ولكن القنصل رفض استقباله ، فاضطر الى السفر الى طنجة حيث استقبله قنصل فرنسا في تلك المدينة .

ولما وصل روني كاييه الى فرنسا منحته الجمعية الجغرافية المكافأة التي خصصتها لمن يستكشف تمبكتو ، كما منحته الحكومة الفرنسية جوقة الشرف وحصل على معاشين منها قدركل واحد منهما 3000 فرنك .

وبعد روني كاييه بسبع سنوات ، قام طبيبٌ انجليزي اسمه جون دافيدصون (J. Davidson) بمحاولة أخرى للوصول الى تمبكتو . وعلى عكس سلفه ، فقد قرر القيام بهذه الرحلة انطلاقا من افريقية الشمالية ، وليس من افريقية الغربية .

وفي سنة 1835 ، وصل دافيد صون إلى طنجة ثم اتجه إلى مراكش ووصل إلى حافة الصحراء في شهر أبريل من السنة . وبعدما انتظر فترة ستة أشهر كاملة فرصة للشروع في رحلته ابلغه القنصل البريطاني في الصويرة أن اخطاركبيرة تهدد حياته ، ولكن الرحالة رفض التخلي عن مشروعه بالرغم من تأكده من أن تحذير القنصل حقيقي .

وفي هذه الاثناء كان الامن مختلا والاضطرابات والثورات كثيرة في المملكة المغربية . وإذا كان السائح البريطاني يرى أن من الممكن أن يقوم برحلة الذهاب ، فقد كان مقتنعا من أن رحلة الأياب ستكون صعبة للغاية .

وبعد مرور عام بالضبط على نزوله في طنجة ، تمكن دافيدصون أخيرا من الشروع في رحلته ، انطلاقا من وادي نون ، مع قافلة من التجار . ولما وصل

الى عرق ايجويد اغتيل في 18 ديسمبر 1846 . وأما مذكراته التي سجلها في هذه الرحلة التي لم تتم ، فقد نشرها شقيقه في لندن ، بعد ذلك .

هنرى بارث Barth :

اتبتت تجارب المستكشفين السابقين أن طرابلس الغرب تمثل أفضل قاعدة لانطلاق جهود الاستكشاف في الصحراء . فإن هذه المدينة التي تقع على البحر الابيض هي أيضا مدخل للامتداد الصراوي الذي يصل الى أفريقية السوداء . والمعروف أن طريق طرابلس هي التي سلكها الرومان للتوغل في الصحراء الكبرى . بل أن الرواد والمستكشفين في القرن التاسع عشر قد استعانوا بما كتبه المؤرخ الطبيعي الروماني القديم ، بلين (Rline ، 23ق م ـ 79م .) واسترشدوا بماكتبه وسلكوا بعض الطرق الصحراوية التي وصفها .

والطرق الصحراوية ، كما نعرف ، تفرض امتدادها اعتبارات مثل وجود الماء على جنباتها بين مرحلة وأخرى ، والاتجاه الأسهل ووجود المراعي والواحات الخ . وهي لا تكاد تتغير عبر الاجيال .

والطرق الصحراوية الهامة التي تخرج من طرابلس ، تتجه الى غدامس وغط من جهة ، ومن جهة أخرى الى فزان ، ملتقى الطرق الصحراوية والواحة الجميلة التي تسقى منطقتها مياه غزيرة .

والمعروف أن كلا المركزين لعب دورا هاما عبر التاريخ في المبادلات التجارية الصحراوية بحيث كانا يستقبلان البضائع الآتية من مدينة كانوا (الواقعة في نيجيريا لتمر بها قبل أن تتجه إلى تمبكتو ، بمالي ، حيث يجري توزيعها ، بدلا من أن تنقل مباشرة إلى البلد المجاور لنيجيريا مع اختصار الطريق .

وهذه الحقيقة التي ذكرها المستكشفون الاوروبيون الاوائل اثارت اهتماما كبيرا لدى الأنجليز الذين سبق أن ذكرنا أنهم كانوا يبحثون عن أسواق تجارية تعوض لهم عن الاسواق التي فقدوها في المستعمرات الامريكية .

وكذلك كانت المهمة الاساسية التي كلفت بها الحكومة البريطانية المستكشف ريتشاردصون ، هي البحث عن الفوائد التجارية التي قد تجنيها بريطانيا من معرفة دقيقة بطرق القوافل التي تمتد من طرابلس إلى افريقيا الغربية .

بدأ ريتشاردصون رحلته في شهر اغسطس 1845 وسار مع قافلة متجهة الى غدامس . وهذا المستكشف كان يسافر بشخصيته الحقيقية بوصفه انجليزيا ومسحيا ، ولم يخطر بباله أن يتسترويلبس شخصية مستعارة كما فعل عدد من المستكشفين الذين سبقوه .

وفي غدامس أقام أربعة اشهر ، قبل أن يرحل الى غات . وفي كلتا المدينتين أحسن السكان استقباله ومعاملته ، بل ان السلطان الذي يحكم المنطقة لم يتردد في أن يحمله بعض الهدايا إلى ملكة أنجلترا ، الملكة فكتوريا ، وهي عبارة عن حربة وخنجر ودرع . ولكن السلطان الذي لم يفته أن يدرك مدى تواضع هداياه ، اعتذر عنها قائلا للسائح إن بلده لا تنتج سوى الجمال ، وهو يخشى اذا ما اهدى بعض هذه الحيوانات أن لاتصل الى انجلترا ...

وأما قبائل الطوارق الذين مرّ بهم ريتشاردصون ، فقد عرضوا عليه أن يقوموا بدور الأدلاء في بلادهم ، ولكن المستكشف لأسباب لا نعرفها اعتذر عن قبول هذا العرض ، وعاد إلى طرابلس عن طريق مرزق ، بعد رحلة دامت ثمانية أشهر . وهذه الرحلة ، على الرغم من ضئالة قيمتها من الناحية الجغرافية كان لها صدى قوي في أنجلترا بسبب الإدراك المتزايد لأهمية الصحراء التجارية من جهة ، وبسبب العواطف الإنسانية الحقيقية أو المصطنعة التي أثارتها في النفوس تقارير ريتشاردصون في سياق ما ذكره عن تجارة الرقيق الواسعة التي تجري بين افريقية الغربية وطرابلس من جهة أخرى .

وكذلك كان التجار والشركات البريطانية ينظرون بتطلع وأمل الى الطوارق وغيرها من المناطق المجهولة ، وهي تفتح أبوابها على مصراعيها لتستقبل البضائع الانجليزية نتيجة لرحلة ريتشاردصون .

وتبعا لذلك ، فعندما قرر هذا الرحالة القيام برحلة استكشافية ثانية ، أخذت المساعدات تنهال عليه من كل صوب ، ولا سيما من الحكومة البريطانية نفسها .

ولكن ريتشاردصون قد خطط رحلته الثانية بحيث تكون رحلة للدرس والاستكشاف . على أنه اذا كانت الوسائل المالية لاتعوزه ، فإن الاطارات العلمية والمتعاونين من العلماء تنقصه ، ولسد هذه الحاجة قصد الى باريس للبحث بين العلماء الفرنسيين عمن يقبل الاشتراك في بعثته ، ولكن مساعيه انتهت بالفشل في نهاية الامر .

وعقب ذلك وجه رسالة إلى البارون بونزن ، وزير بروسيا المفوض في بريطانيا الذي كان على علاقة باوساط العلماء الشبان في المانيا والذي كان هو نفسه يجمع بين المنصب الديبلوماسي والميول العلمية . وكذلك كان البارون بونزن ، من جهة أخرى يعمل بدون كلل لتعزيز العلاقات الدينية والسياسية والعلمية بين ألمانيا وأنجلترا ، وبفضل جهوده قام تعاون وثيق بين البلدين في هذه المرحلة ولاسيما من أجل استكشاف الصحراء .

وكذلك اقترح بونزن على الحكومة البريطانية اسم عالم شاب ألماني ليساهم في بعثه الصحراء اسمه هنرى بارث الذي تتلمذ على الجعزافي الالماني الكبير ، كارل ريتر . وهنري كان قبل هذا الترشيخ ، كان قد قام برحلة في افريقية وأخرى في آسيا ، وبالتالي كان منذ ذلك الوقت يحتل مكانة مرموقة بين السياح والمسافرين .

ولد بارث في حضن عائلة عريقة من ملاك الأرض ، في ولاية ثورينج . وبعد مراحل الدراسة الأولى ، التحق بجامعة برلين (1839 ـ 1944) حيث درس الفلسفة وفقه اللغة وعلم الحفريات ، وقد كان روبينصون كروزو ، ورحلة روني كاييه الفرنسي ورحلة مونجوبارك ، من الكتب التي شغف بها وبعثت في نفسه الرغبة في السفر والاستكشاف منذ صباه .

واستعدادا للمهمة التي عقد العزم على القيام بها يوما ما ، تعلم اللغة العربية وأخذ نفسه على نظام قاس من التدريب الرياضي .

وبعد ما حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة في سنة 1845 ، قام برحلة كبيرة على ضفاف البحر الأبيض على الرغم من ضئالة الوسائل المالية التي كان يملكها . وأما والده ، فقد عجز عن تقديم مساعدة مهمة لابنه لكي يحقق مشروعا عزيزا على نفسه في السفر والتجوال ، لان حريقا كان قد شب في منزله والتهم اكثر ما كان قد

اقتناه بجهود مضنية طوال حياتة . ومع ذلك فقد منح أبنه بعض المال الذي أستعان به الأخير في رحلة إلى شمال افريقية بدأها من طنجة ، وتوغل في المغرب ثم واصل سفره شرقا وتجول في الجزائر ثم في تونس وطرابلس وبرقة .

ولما وصل الى الحدود الصحراوية الليبية المصرية ، هجم عليه البدو الرجل واطلقوا عليه الرصاص وجرحوه . وقد بقيت الرصاصة التي اطلقت عليه في فخذه طوال حياته حتى شرحت جثته بعد وفاته واستخلصت منها في سنة 1865 .

على الرغم من كل ما لقيه بارث من المشاق والأهوال في الصحراء فقد أبت عزيمته وحبه للمغامرة إلا أن يواصل برنامج رحلاته الذي شمل مصر وفلسطين وآسيا الصغرى وجزيرة قبرص وجزيرة رودس . وفي عضون هذه الرحلات كان بارث مهتما بصفة خاصة بالتاريخ والحفريات والايثنوغرافيا ، وقد تمكن من جمع معلومات قيمة عن البلاد التي تجول فيها في هذه المجالات . وقد أهلته للقيام بهذه الأعمال العلمية العديدة ثقافة واسعة وهمّة قعساء وقوة جسمية نادرة وإرادة من الفولاذ ونشاط دائب لا يفترّ في خدمة العلم .

وعندما قررت الحكومة البريطانية التعاقد معه في نطاق بعثه ريتشارد صون على أساس منحة مقدارها 200 جنيه استرليني ، وافق بارث على هذا العرض ، ولكن والد الفتى كان يخشى ان يرهقه السفر ويؤثر على صحته ، اعترض على الاتفاق ، ولم يجد بارث أمامه الا الرضوخ لرغبة والده . ولكي يحل نفسه من ارتباطه بطريقة سليمة رشح للمهمة مكانه عالما ألمانيا شابا اسمه أدولف افرويج .

على أن البارون بونزن تدخل شخصيا لدى والد بارث واقنعه بأن ابنه قد ارتبط مع الحكومة البريطانية ولم يعد في امكانه التراجع . وبالفعل، فقد حافظت الحكومة البريانية على التعاقد ورضيت بان تضم الى البعثة أوبرويج وبارث معا .

غادر ريتشاردصون ورفيقاه الألمانيان طرابلس الغرب في 25 مارس 1850 . وبعد ذلك بست سنوات وستة اشهر ، عاد الى طرابلس عضو البعثة الوحيد الذي بقي على قيد الحياة ــ بارث .

بدأت الرحلة في ظروف طيبة للغاية ، فقد استغل ريتشاردصون العلاقات التي كونها أثناء رحلته الأولى مع رجال القبائل ، ولقي حسن الاستقبال ، خصوصا

في غات . وكذلك كان أعضاء البعثة واثقين من أن يلقوا استقبالا مماثلا في بلاد بورنو التي تمتد وراء الصحراء في غرب التشاد ، حيث أن سلطان ذلك البلد كان يسعى للدخول في اتصالات مع البيض الأروبيين .

فقبل ذلك بستة شهور ، كان قد بعث بسفير الى طرابلس حمله بعض الهدايا لكي يقدمها الى ملكه بريطانيا ، ومن هناك بعث الرسول برسالة الى وزير خارجية بريطانيا يبلغه فيها استعداده للسفر إلى لندن للقيام بمهمته ، ولكن الوزير شعر بالحرج ولم يعرف كيف يتخلص من هذه السفارة غير المرغوب فيها الا بقوله ان حالة الطقس في بريطانيا رديئة ولا يمكن أن توافق صحة السفير ، وهذا العذر البريء لم يجد الرسول صعوبة في قبوله ، وخصوصا وأنه كان يرتعد من البرد في طرابلس نفسها ... وكذلك عاد إلى بلده قانعا بالقدر الذي أنجزه من مهمته .

حمل بارث ضمن الأمتعة التي حملها في رحلته ثلاثة كتب : القرآن الكريم ، والعهد القديم من الثوراة ، وتاريخ هيرودوت ، وبعد وفاة الرحالة وجدت نسخة من الكتاب الأخير في مكتبته وقد كتب على احدى صفحاتها بخط يده العبارة التالية : « هيرودوت ، رفيقي كل يوم في السفر ، انني أجله وأجده ثمينا بحيث لايمكن تقدير قيمته . »

وكذلك حملت البعثة معها قاربا قابلا لتفكيك يتكون من أربعة أطراف ، استعانت به للملاحة في بحيرة التشاد للعبور الى شاطئها الجنوبي الغربي .

وللوصول إلى مرزق ، سلكت البعثة في المرحلة الأولى طريقا سهلة تتخلل مراحلها الآبار وبساتين النخيل ، كان ريتشاردصون قد سلكها أثناء رحلته الأولى في طريق العودة إلى طرابلس ، وبعد الدخول في المنطقة التي تسمى «حمادة الحمراء» الجرداء المغطاة أرضها بالحصى ، سلكت البعثة طريقا صعبة وكان أول من سلكها من الأروبيين ، ولو أنها كانت معروفة لدى الرومان الذين شمل احتلالهم أطرافا مهمة من فزان .

وبعد ما اجتازت بعثة ريتشاردصون صحراء حمادة الحمراء في سفر شاق استغرق نحو اسبوع ، وصلت الى مرزق ، وهناك وضعوا الترتيبات الضرورية لمواصلة السفر الى غات التي كان ريتشاردصون قد زارها في رحلته الأولى ، والى جبال آير

التي كانت مجهولة تماما والتي تمتد في جنوب غات على مسافة نحو ألف ميل في خط مستقيم .

وعلى الرغم من أن الطوارق كانوا قد عرضوا على المستكشف الأنجليزي في رحلته الأولى أن يعملوا أدلاء له كما ذكرنا ، فإن البعثة لم تحصل على هذه الخدمة منهم الا بعد مفاوضات ومساومات شاقة.

وقبل وصول البعثة إلى غات ببضعة أيام ، قام المستكشف الألماني بارث بمغامرة كادت أن تؤدي بحياته . فقد قرر أن يقوم بتسلق جبل صحراوي ليستكشف قمته (جبل اندينن) وقد كانت تلك القمة من العلو والصعوبة بحيث أن الطوارق ، ابناء البلد ، لم يحاولوا الوصول اليها واعتبروها مأهولة بالجن . ولما عجز بارث عن العثور على دليل له بينهم قرر القيام بالعملية وحده . وكذلك اخذ طريقه الى الجبل ولم يحمل معه من الزاد سوى قربة صغيرة مملوءة بالماء .

كان التسلق شاقا والصعود الى القمة أشق وأشد انهاكا للقوى ، ولاسيما وأن الحر كان قاسيا ، ولما استنزف قوته البدنية وشعر بالانهاك قرر العودة ادراجه . وفي هذه الأثناء كان قد استنفذ مؤنته من الماء الذي حمله معه ، وكذلك كان من سوء حظه أن ظل طريق إلى معسكر البعثة .

وفي الغد ، وبعدما فقد معالم الطريق تماما ، سقط من الاجتهاد وفقد الوعي ، بعد ما احدث جرحا في بدنه لكي ينقع غلة العطش بدمه .

ولكن حظه شاء أن يعثر عليه قوم من الطوارق في الوقت الملائم ، وهو بين الحياة والموت ، وقد اعتبروا ما حدث له جزاء وعقابا له على استهانته بقوى الجن !

وفي 18 يوليو ، وبعد مضي أربعة أشهر من مغادرتهم لغات ، عاد أعضاء البعثة الى هذه المدينة . وهناك حاول ريتشاردصون ـ تطبيقا لتعليمات زودته بها الحكومة البريطانية عقد اتفاقية تجارية مع الطوارق ، ولكنه فشل في هذا المسعى .

والمرحلة التالية في طريق البعثة الاستكشافية ، هي التعرف على جبال آير . وعند هذه المرحلة دخل المستكشفون في أرض مجهولة تماما . وقد بدأت سيرها باجتياز طرف من جبل تاسيلي آجر ، وهو جبل عال تمثل قممه أشكالا غريبة تزيد من وحشة المنطقة .

وفي هذه الطريق تعرضت بعثة ريتشاردصون لكثير من الحوادث واعمال السطو من عصابات قطاع الطريق وسرقت بعض أمتعتهم واضطر المستكشفون إلى إطلاق النار في عدة مناسبات .

وبعد ما وصل أعضاء البعثة الى قمم آير المخيفة (على الرغم من أن ارتفاعها لايزيد عن 1700 مترا) ، قرر بارث التوغل جنوبا في اتجاه اجاديس ، التي كانت في العصور الغابرة من كبريات العواصم التجارية الصحراوية .

وفي سياق الحديث عن هذه المدينة ، كتب بارث يقول : «إن الصدفة وحدها هي التي حالت دون انتباه الاروبيين إلى أهمية أجاديس التي لا تقل عظمة عن تمبكتو» . وقد قدر بارث عدد سكان المدينة في الماضي بنحو خمسين ألف نسمة ، ولكن حالتها تدهورت بحيث لم يكن عدد سكانها عندما زارها الرحالة يزيد عن 7000 نسمة .

* * *

وصف بارث أجاديس كما شاهدها بالعبارة التالية :

« ان حالتها تدل على أنها مدينة مهجورة ، وهي تحتوي على آثار تدل على عظمتها . وكثير من منازل أجاديس تحولت الى خرائب ، بينما لم يبق من مساجدها العديدة سوى القليل . وكل شيء فيها يدور حول السوق . وفوق الأسوار أبراج قد تحولت الى خرائب وأعشاش لجوارح الطيور الجائعة التي تنتظر فرصة لتنقض على فريسة أو فتات الطعام» .

وعلى الرغم من أن بارث لم يخف شخصيته المسيحية ، فقد لقى استقبالا حسنا في اجاديس وتمكن من جمع عناصر مهمة من تاريخ المدينة وأحوالها ضمنها رسالة لا تزال المرجع الوحيد عن هذه المدينة . وعند مغادرته المدينة زوده سلطانها برسائل توصية أفادته كثيرا فيما بقي من رحلته .

وعقب ذلك بوقت قصير ، افترق الرحالون الثلاثة ، لاسباب لا نعرفها ، ولكنه يبدو أن عقارب الشقاق دبت بينهم ، ولاسيما بين ريتشاردصون والسائحين الألمانيين ، الذين يلومان رئيس البعثة البريطاني على سوء التصرف في بعض الحالات . وكذلك يتحدث بارث في مذكراته عن «مؤامرات ريتشاردصون الدنيئة» .

على أنه يجب أن نذكر ان هذه كانت أيضا حالة عدد من البعثات الاستكشافية الأخرى التي افترق أعضاؤها ودخلوا في نزاعات تحت ظروف شاقة من العمل والمعيشة .

ومهما يكن من أمر ، فان ريتشاردصون قد مات بعدما غادره المستكشفان الالمانيان ، نتيجة للاجهاد ، قبل أن يصل الى جوجا ، عاصمة بورنو التي تقع في غرب بحيرة التشاد .

وفي هذه الأثناء ، واصل بارث رحلته في اتجاه الجنوب حتى وصل الى مدينة كانو في نجيريا ، ومن هناك سار إلى الشرق ، ولما وصل إلى كوكا . كان أول عمل قام به هوزيارة قبر رفيقه ، ريتشاردصون . وفي هذه المرحلة استنزف كل ما معه من المال وأصبح بارث يعيش في ظروف شاقة ، ولكنه مع ذلك ظل محتفضا بعزيمته ونشاطه .

وهناك على ضفاف بحيرة تشاد لحق به رفيقه الالماني أوبرويج الذي لقي حتفه هو الآخر نتيجة لمرض عضال . وقبل أن يلفظ نفسه الأخير ، كان هذا الرحالة قد استكشف شواطيء بحيرة التشاد وجزرها في ظروف صعبة للغاية .

وقبل أن يذهب أوبرويج ضحية لمرضه ، كانت الحكومة البريطانية قد كلفت بارث بصفة رسمية بمواصلة رحلته الاستكشافية وأمدته بأموال كما تلقي مبالغ كانت حصيلة اكتتاب شعبي جرى في ألمانيا وأنجلترا .

كانت خطة بارث الاصلية هي أن يواصل استكشافاته حتى زنجبار ، عبر افريقية الوسطى والشرقية ، ولكنه عدل عن هذا المشروع وقرر الاتجاه شرقا نحو الصعيد . ولكن الحكومة البريطانية التي عينته رسميا في مكان ريتشاردصون ، طلبت اليه أن يقصد الى تمبكتو . وهذه الرحلة كان لها هدف سياسي وتجاري ، وقد قبل بارث العمل لتحقيقه ولو أن الحكومة التي كلفته به حكومة أجنبية وليست حكومة بلده .

وكذلك غادر بارث عاصمة بورنو في شهر نوفمبر 1852 ، وبعد مغادرته شواطيء بحيرة التشاد بعشرة أشهر ، وصل بارث الى تمبكتو في 7 سبتمبر 1853 ، وقد كان الأروبي الثالث الذي وطأت أقدامه أرض هذه المدينة الإسلامية التي

كانت لا تزال تحتفظ بكثير من ثرائها وبذخها ، ولكن بارث لاحظ مع ذلك قلة نشاطها . انه لمن الواضح أن التيار التجاري الذي ينطلق من هذه المدينة ويتجه اليها قد خف كثيرا بالقياس الى ما كان عليه في السابق .

وقد قدر السائح الألماني عدد سكانها بثلاثة عشر ألف نسمة . والغريب أن بارث الذي لم يكن يخفي دينه المسيحي واصله الأروبي خلال الرحلة كلها ، قد رأى أن يكتسي شخصية عربي عندما وصل الى تمبكتو ، وربما كان ذلك بسبب حالة الاضطراب التي كانت تعاني منها المدينة آنئذ .

امتدت اقامة بارث في تمبكتو ستة أشهر كاملة ، وعلى الرغم من الحماية التي اسبغها عليه أحد شيوخ المدينة ، وهوالشيخ بكاي ، فقد أوشك في عدة مناسبات أن يلقي نفس المصير الذي لقيه الميجورلانج الذي كان السكان يعتقدون أن بارث ابنه . وفي نفس الوقت كانت صحته متدهورة وكان كثيرا التعرض للحمى ، وعندما أراد مغادرة تمبكتو اضطر أن يصحب معه كتيبه من فرسان الطوارق الذين نجح في كسب صداقتهم .

هبط بارث نهر النيجر حتى ساي ليصل الى جاوجا التي كان قد غادرها منذ سنتين ، وفي طريق عودته ، بلغه أن جماعة من الاوربيين قد وصلت الى التشاد ، أرسلت للبحث عنه ولنجدته ، وقد كان قائدها شاب ألماني اسمه أدوارد فوجل ، وهو عالم في الفلك والطبيعة . وقد وقع اللقاء بين بارث وفوجل بطريق الصدفة . وبالطبع ، فقد فرح بلقاء أحد مواطنيه ، الذي لم يتح له قط الاجتماع بأروبي غيره منذ وفاة أوبرويج ، أي منذ نحوسنتين .

كان فوجل يجمع الى علمه ذكاءا وشجاعة سمحت له بعبور الصحراء من الشمال الى الجنوب ، ولكنه كان يجهل اللغة العربية ، وهو عقبة كبيرة للمسافر في الصحراء في تلك الآونة التي كان الناس يجهلون فيها اللغات الأجنبية ، وفي الوقت الذي قرر فيه فوجل مواصلة رحلته للاستكشاف ، كان بارث الذي انهكه المرض قد صمم على العودة الى طرابلس . .

اختفت اخبار فوجل الذي قتل في ودّاي في السنة التالية ، مدة ست سنوات ، فلم يكن احد في أوربا يعرف مصيره .

وكذلك شكلت في برلين لجنة هدفها البحث عن فوجل . وفي سنة 1862 عين ضابط بروسي ، وهو مورنيس فون بورمان الذي كان قد سجل صفحات مجيدة في الاستكشاف في افريقية الشرقية في مهمة للبحث عن فوجل . وقد اجتاز الصحراء وتجه إلى ودّاي حيث توقفت آخر أخبار فوجل ، وهناك قتل هو بدوره .

وأما بارث ، فقد سلك في عودته طريقا غير التي سلكها في رحلة الذهاب مع ريتشاردصون ، فقد اتجه الى شمال بحيرة تشاد واجتاز واحة كوار ليصل الى مرزق . وقد نجح في اختراق الصحراء للمرة الثانية وفي فصل الصيف ، على الرغم من صحته المعتله . وفي نهاية سنة 1855 وصل الى طرابلس التي كان قد غادرها قبل ذلك بخمس سنوات ونصف ، وقد سجل وصوله الى طرابلس بالعبارة التالية : « عندما وطأت قدمى ضفة البحر الابيض في أمن وعافية ، غمر قلبي شعور بالاعتراف بالجميل لله . لقد أردت أن انزل من على فرسي لأقبل الأرض عندما رأيت مياه البحر الأبيض » .

ولما وصل إلى أوربا استقبل استقبال الفاتحين وقال عنه أحد الكتاب « انه فتح عالما جديدا » . فأما الملكة فيكتوريا ، ملكة أنجلترا ، فقد خلعت عليه وساما كبيرا ومعطفا أحمر وقبعة . وأما ملك بروسيا ، فقد وجه الدعوة إلى عدد من الجمعيات الجغرافية الأروبية لعقد اجتماع يتحدث فيه بارث ، وقدم إليه ميدالية فخرية كبيرة . ولكنه عندما تقدم بطلب للتدريس في الجامعة أهمل طلبه . وأما مكافأته المالية ، فقد كانت لا تتجاوز منحة عاش بها سنتين . وكذلك عينه ملك بروسيا قنصلا له في دمشق ، ولكن هذا التعيين بقي حبرا على ورق . وعندما رشح نفسه للعضوية في اكاديمية العلوم لم ينل ترشيحه العدد الكافي من الاصوات . ولما قام بتنظيم بعثة للبحث عن فوجل نجح عمله ولكن شخصا آخر عين على رأسها .

ولهذه الأسباب وغيرها حول بارث اهتمامه عن افريقية الى القطب الشمالي ، ولكن الحكومة رفضت المساعدة التي طالب بها ، وهي عبارة عن سفينتين. ومع ذلك كله ، فقد بقيت رغبة العودة الى افريقية تعتلج في نفسه حتى وفاته في سن الخامسة والاربعين .

كتب بارث في أواخر حياته يقول :

« لقد الفت الصحراء وفضاءها غير المتناهي . كنت بدون هموم وبعيدا عن الصغائر التي تخنق الرجال ... انني شديد الحسرة لان أضع نفسي في هذه الاغلال » .

وفي 25 نوفمبر ، مات بارث بمرض في المعدة كان قد اصابه اثناء تجواله في الصحراء الافريقية ، وبذلك انطوت صفحة مهمة في تاريخ استكشاف الصحراء .

*
* *

دوفيريي (Duveyrier)

ولد هنري دوفيريي في باريس في سنة 1840 . ومنذ وقت مبكر أرسله والداه ، وهو لا يتجاوز الرابعة عشرة ، الى ألمانيا لدراسة التجارة . ولكن الطفل لم يلبث أن تفتح عن عقل علمي شديد الميل الى الملاحظة في ذكاء نادر في مثل سنه ، فبعدما تعلم اللغة الالمانية والفرنكية في نفس الوقت ، أخذ يسجل ملاحظات عن حياة الطيور وعن النبات ، بل وقام أيضا ببعض الارصاد الجوية في ولاية بافاريا التي كان يعيش فيها .

وأما دراسته الشكلية ، فقد اتمها في مدرسة التجارة في مدينة ليبزيج خلال الفترة بين 1855 ـ 1857 . ولكن دوفيريي لم يشعر في نفسه استعدادا لممارسة التجارة ، بل إن كل همّه وأمله كان ينحصر في السفر الى افريقية . وقد جاء في مذكراته قوله :

« كنت أشعر بجاذبية لا تقاوم الى القارة الافريقية .

وهذه الرغبة العارمة والميل الى السفر والمغامرة سوف تغذيها قصص أسفار المستكشف ، بارث ، الذي عاد الى وطنه في وقت كان فيه دوفيريي لايزال مقيما في المانيا . إن مما لا شك فيه أن تأثير بارث هو الذي دفعه الى أن يطلب الى المستشرق الالماني فلا يشر الذي كان يدرس في جامعة ليبزيج ، والذي كان من جهة أخرى على علاقات بالمستكشف بارث ، إن يعطيه دروسا في العربية .

ولما استقر عزمه على السفر الى افريقية لم يجد معارضة من أبيه ,كما كان يتوقع ، وكما كانت حالة بارث في البداية ، بل على العكس ، وجد منه ومن أصدقائه كل عون ومساعدة . .

وفي سنة 1857 ، قام برحلة تمهيدية الى الجزائر زار خلالها ، الى جانب مدينة الجزائر ، الهضاب العليا والاغواط والجانب الصحراوي من أوراس ، وهي المنطقة التي كان الفنان المشهور فرومانتان قد أقام فيها في السنة السابقة ونشر عنها كتابا تغني فيه بحبه واعجابه بالصحراء تحت عنوان: Un été dans le Sahara

وسحر الصحراء الجميلة الرهيبة سوف يتعرض لمفعوله دوفيريى بدوره بمجرد ما استقربه المقام في الصحراء ، ولا سيما في الاغواط التي قال عنها أن لها طابعا من الجمال الخلاب عبثا تبحث عن صورة مماثلة له .

وفي واحة الاغواط تعرف دوفيريى صدفة بأحد رجال الطوارق ولم تلبث معرفتهما أن تحولت الى صداقة غذتها في نفس السائح الاوربي تلك القصص والاساطير التي سمعها في بلده عن نبل هذا الشعب وشجاعته وصرامته ، وقد صادف أن كان الطوارقي يستعد لسفر العودة الى بلده فوجه الدعوة للاوربي لزيارة الطوارق .

ولما عاد دوفيريى الى بلده بعد هذه الرحلة الاستطلاعية نشر دراسة (وهو لايتجاوز السابعة عشرة من العمر) في مجلة الجمعية الشرقية في برلين عن القبائل البربرية ضمنها ترجمة لمفردات من اللغة البربرية .

كان ذلك في سنة 1857 ، وهي نفس السنة التي قابل فيها المستكشف الألماني ، بارث ، في لندن بناء على توصية من الأستاذ فلايشر . وفي المقابلة التي جرت بين المستكشفين والتي كان يسودها جوّ من العطف المتبادل ، نصح بارث الشاب الفرنسي بالعدول عن القيام بالرحلة التي يعتزم القيام بها ، وهو في سن مبكرة ، ولكنه لما عجز عن اقناعه قدم اليه كثيرا من النصائح والتعليمات التي تفيده في سفره . وقد استغرقت مرافقته لبارث عدة أشهر ، وجمعت بينهما أواصر صداقة متينة على الرغم من فارق في السن يبلغ 19 سنة .

ولما توفي المستكشف الالماني ، بارث ، حولت أسرته الى دوفيريـي جزءا مهما من أوراقة ووثائقه التي استفاد منها كثيرا في رحلته الكبرى .

قام دوفيريي بإعداد رحلته الاستكشافية التي أراد أن تكتسي طابعا علميا بكثير من العناية والتدقيق ، فاطلع على كثير من الكتب واستشار كثيرا من المتخصصين الأروبيين في شؤون الصحراء . وكذلك قام في البداية بتعلم الأدوات وطرق تحديد المواقع طولا وعرضا ، وهو أمر حيوي في كل محاولة للقيام باستكشاف علمي . وقد زار عددا من المتاحف وتمكن خلال هذه الزيارات من اتمام معلوماته في الجيولوجيا وفي علم الطبيعة ، كما طلب إلى المستشرق والناقد الشهير ، رونان ، مده بمعلومات عن الايثنولوجيا والسلالات الصحراوية .

وبعد سنة من التحضير والاستعداد تيقن الرحالة من أنه وضع القواعد التي ستمكنه من نجاح رحلته ، وقد كتب فيما بعد يقول : «كنت اعوف جيدا أن الرحلة التي اقوم بها ليست خالية من الاخطار ، ولكنني كنت أشعر بثقة كبيرة في قوتي . وأنا آمل أن اتجنبها بالصبر والحذر والنشاط ، وان تنتهي هذه الرحلة على خير وجه واكمله . »

وفي سنة 1859 ، نزل في مدينة الجزائر وسنه لا تكاد تتجاوز التاسعة عشرة سنة . ومن الجزائر اتجه دوفيريي الى غرداية ، ومن غرداية سافر الى القليعة التي تبعد باكثر من ألف كيلو متر عن مدينة الجزائر والتي لم تكن قد وطأتها قدم أروبي قبله .

وبعد ما قام ببعض العمليات الفلكية هناك في ظروف قاسية ، حيث رفض السكان مده بما يحتاج إليه من المؤون والزاد ، قرر دوفيريي أن يسلك طريق العودة إلى الشمال . وفي سياق إقامته في القليعة ورحيله عنها كتب دوفيريي يقول :

« قد تبدو رحلتي الى القليعة لأول وهلة هزيمة حيث أنني طردت من هذه المدينة واضطررت تحت التهديد الى الخروج منها ليلا في ظروف مشينة . ومع ذلك ، فأنا اعتبر هذه الرحلة ناجحة ... فانا قد واجهت الشعانبة الذين اقسموا أنهم سوف يذبحوني في القليعة . وقد أقمت يوما وليلتين في هذه المدينة شبه سجين ولكن ذلك لم يضايقني ... فقد أدركوا أنه لا يمكنهم إخافتي . والانطباع الذي احمله في ذهني هو أن هذه الطريق قد انفتحت الان » .

كان دوفيريى يرتدي اثناء رحلته ثياب الاهالي ، ولكنه كان يسافر دون تستر ولم يكن يكتم دينه المسيحي ، وقد استعمل اسم « سعد » اثناء رحلته .

وبعد هذه الرحلة في جنوب مدينة الجزائر ، قام دوفيريى برحلة أخرى في جنوب قسنطينة وتونس ، ولكنه كان مكلفا بمهمة رسمية في هذه المرة . فإن رحلته الى القليعة قد لفتت إليه أنظار المسؤولين في الحكومة ، بل إن نابليون الثالث نفسه قد تدخل شخصيا لمساندته .

وفي غضون رحلته الى الطوارق ، قام بابحاث مستفيضة في كل مكان مر به عن السكان، ولتحديد موقعه الجغرافي، وللتعرف على النباتات والمعادن التي تصادفه في طريقه ، وباختصار ، فقد قام بمفرده بنفس المجهود الذي توفره عادة بعثة علمية .

كان المستكشف بارث قد زار في رحلته طوارق الجنوب الذين يقيمون في آير وفي النيجر ، وأما دوفيريي ، فقد اتجه الى « طوارق الشمال » الذين يسكنون جبال تاسيلي (آجّار) . وللوصول الى هناك ، سلك طريق غدامس . وفي الطريق الى تاسيلي ، وجد دوفيريي مساعدة كبيرة من شخصيتين من الطوارق ، احدهما هو « امينوكال » ايخنوكن ، والثاني شخصية بارزة يسمّى الشيخ عثمان ، وكان قد قام من قبل بدور الدليل للمستكشف الانجليزي ، الميجور لانج .

* *

وصل المستكشف دوفيريي الى غدامس في رفقة الشيخ عثمان في شهر أغسطس سنة 1860 ، وقد انهكه التعب واحرقته الشمس بلظاها . وغدامس إنما تمثل قاعدة لانطلاقه ، لان هذه الواحة سبق أن زارها كثير من السياح والمستكشفين الاروبيين ، وفي مقدمتهم ريتشاردصون وبارث وغيرهما ، وقد كان دوفيريي ينوي أن يتخذ من غات المرحلة التالية ، ولكن الحالة المضطربة التي كانت تسود هذه المدينة في تلك الاونة جعلته يعدل عنها ويسلك الطريق التي تمتد على الشاطيء الى طرابلس حيث تقدم بطلب الى الوالي التركي يرجوه فيه أنْ يصدر أمرا عاما الى جميع موظفي الولاية في المناطق الصحراوية بأن يتولوا حماية المستكشف الاروبي ويمنحوه الضيافة .

وبعد ما حصل على هذه الوثيقة عاد أدراجه الى غدامس حيث وجد في انتظاره رسالة من بعض كبار المسؤولين الفرنسيين يخبره فيها أن الأمبراطور نابليون الثالث ، منهمك في اعداد كتاب عن الصحراء في عهد الرومان ويحثه على أن يعمل لتوفير الوثائق للامبراطور عن الصحراء في ذلك الوقت ، وعلى الرغم من الحالة الصحية السيئة التي كان يعاني منها والضائقه المالية التي كان يشكو منها ، فقد راح يعمل بجد واجتهاد لهذه الغاية .

وفي هذه الاثناء ، وصلته منحة حكومية لسنة 1861 مقدارها 2000 فرنك استعان به لمختلف اغراض الرحلة ، وخصوصا لتقديم بعض الهدايا .

قام دوفيريي بالرحلة من غدامس الى غات في رفقة الطوارقيين إيخنوكن والشيخ عثمان ، وسلك طريقا لم يسلكها مستكشف من قبله ، وبعد كثير من المشقة والعناء ، وصل الى غات التي كانت مدينة مستقلة ولكنها تقع تحت حماية الطوارق . وقد سجل دوفيريي أن عدد سكان غات في ذلك الوقت يبلغ 4000 نسمة وأنهم اخلاط من العرب والبربر والسود .

واما استقبال السكان للمستكشف ، فانه لم يكن افضل من الاستقبال الذي لقيه في القليعة في رحلته الاولى . فقد منعوا ، مثلا ، خدمه من الحصول على الماء ، كما رفضوا أن يبيعوه أي شيء يحتاج إليه . لماذا هذه المقاطعة العدائية ؟ ليس من شك في أن كونه اروبيا مسيحيا لم يكن في صالحه ، ولكن الاهم من ذلك ، فيما يبدو ، هو تخوف سكان هذه الواحة من أن تقوم فرنسا التي استقر لها الأمر الآن في الشمال من تحويل الطرق التجارية التي تمرّ بها لفائدة الاستعمار.

وفي مقابل ذلك ، وجد دوفيريي حسن الاستقبال بين الطوارق فأندمج فيهم بحيث كانوا يعتبرونه كما لو كان واحدا منهم ، فكان يحضر الاجتماعات التي يتناقشون فيها في أمور القبيلة ، كما تعلم لغة تِمَاشق وحروفها الهجائية (تيفناغ) التي لم يكن يعرفها سوى عدد صغير من الطوارق انفسهم . وكذلك كان المستكشف الأروبي يرافق القبيلة التي نزل عندها أشهرا طويلة في تنقلها وترحالها وهو في كل ذلك يتعلم ويسجل ملاحظاته .

وبعد ما أقام بينهم سنة كاملة ، غادر طوارق تاسيلي واتجه الى مرزق ، وفي نيته أن يقوم برحلة الى شعب ثان من شعوب الطوارق - الهجّار . وفي مرزق احسن الحاكم التركي استقباله وضيافته .

ولكنه قبل أن يقوم بالمغامرة الجديدة رأى أن يعود الى باريس أولا ، لكي يبيّض الملاحظات التي سجلها ويقدم تقارير عن رحلته ويتزود بما يحتاج إليه .

وكذلك سافر من مرزق الى طرابلس في رفقة صديقه الطوارقي ايخنوكن . ومن طرابلس استقل باخرة الى الجزائر حيث طلب اليه الوالي العام أن يقدم إليه تقريرا مفصلا مزودا بخريطة عن رحلته .

وبعد ما انجز هذا العمل وقع المستكشف دوفيريي ضحية لحمى التيفويد التي لازمته ثلاثة أشهر . ولما نهض من فراشه أصيب بفقدان الذاكرة ، وهو لا يكاد يتجاوز العشرين من العمر .

لقد كان من حسن الحظ أن المذكرات والملاحظات التي سجلها ، كتبت بعناية ودقة متناهية بحيث أنه لم يمض على رجوعه أكثر من ثلاث سنوات حتى نشر كتابه القيم عن الطوارق تحت عنوان : les Touareg du Nord والذي لا يزال يعتبر من الوثائق الاساسية التي لا يستغنى عنها باحث في أمور هذا الشعب العريق .

والكتاب عبارة عن دراسة شاملة لمنطقة الطوارق الشمالية ، وتتضمن الجغرافيا الطبيعية وطبقات الأرض والاحوال الجوية وموارد المياه ، كما تشمل ملاحظات تتعلق بالحيوانات والنباتات وأحوال المعيشة والطقوس الدينية واخلاق الطوارق وعاداتهم وتقاليدهم وأصلهم ، وكل ذلك بتفصيل ودقة متناهية . والمعلومات التي يقدمها الرحالة عن الطوارق والتي استقاها من الكتب القديمة أو من روايات السكان أو هي تمثل مشاهداته الشخصية ، لا تقتصر على طوارق الشمال فحسب ، بل هي تتناول أيضا طوارق الجنوب ، مثل الهجار .

وفي فترة لاحقة ، عادت الى دوفيريي ذاكرته وذكاؤه في الوقت الذي أنهالت فيه عليه أمارات التقدير والتبجيل من الحكومة والهيئات العلمية ، ولكن صحته كانت معتلة .

وفي غضون حرب 1870 ، وقع دوفيريي أسيرا في يد الالمان ، وعرف المذلة والحرمان ، ولكن علماء الالمان كانوا يبدون لهذا العالم الشاب أبلغ التقدير ، حيث كانوا يرون فيه خليفة مواطنهم بارث ، ومكمل مهمته . وكذلك كتب اليه أحد اساتذة جامعة ليبزيخ يدعوه لزيارته وللاقامة عنده بعدما تضع الحرب أوزارها ، قائلا :

« نحن رجال العلم مواطنون في العالم ونجهل المعارك العنصرية والوطنية ، وذلك بفضل شعورنا القوى بالاخوة والحرية والمساواة » .

والجدير بالذكر أن العالم والمستشرق المعروف ، رونان ، قد تدخل لصالح الرحالة عند بداية حرب 1870 وطالب بإعفائه من الخدمة العسكرية بصفة استثنائية ، ولكن القانون هو القانون الذي لا يعفى شخصا من واجبه الوطني لمجرد كونه قد قام بزيارة شعب الطوارق .

ولما عاد الى فرنسا استأنف دوفيريي ابحاثه ودراساته فوضع كتاب كبيرا عن الطرق الدينية الإسلامية كما نشر عددا من الوثائق عن جغرافية افريقية كانت أساسا لكثير من الدراسات التي ظهرت بعده . وكما تلقى نصائح بارث وتوجيهاته عند ما كان يستعد للقيام برحلته ، أصبح دوفيريي بدوره مستشارا وناصحا لمن أرادوا استكشاف الصحراء بعده ، وفي مقدمتهم فيكتور لارجو وفورّو . وكذلك زود هؤلاء برسائل توصية الى الصحراويين واصدقائه من الطوارق كما تدخل لدى السلطات الحكومية في صالحهم للحصول على منح ومساعدات للقيام باستكشافاتهم .

بل إن كبار المستكشفين من الأجانب لا يستغنون عن رأيه ومشورته . فإن المستكشف النمساوي ، أوسكارلانز ، الذي كلفته الجمعية الافريقية الألمانية باستكشاف أطلس المغرب الأقصى قد رحل إلى باريس في سنة 1879 لمقابلة دوفيريي ولطلب نصائحه قبل أن يقوم بمغامرته الصحراوية . وبعدما أمدّه بالمعلومات التي طلبها منه ، نصحه الرحالة الفرنسي بأن يقطع الصحراء من اقصاها الى أقصاها ، كما أوصى به اليهودي المراكشي ، مردوشي (الذي سيرافق في مرحلة تالية شارل دوفوكول في رحلته الاستكشافية) .

وبذكر دوفوكول ، يجب أن نقول أنه كان صديقا حميما لدوفيري وأن الأخير هو الذي قدم إلى الجمعية الجغرافية النتائج التي حصل عليها هذا المبشر والمستكشف في رحلته في صحراء المغرب الأقصى .

وعندما طرح مشروع فتح بحيرة بقناة من البحر الابيض في جنوب تونس في سنة 1874 ، عين دوفيريي عضوا في اللجنة التي كلفت بدرس المشروع الذي لعب دورا كبيرا فيه . وفي سنة 1892 مات دوفيريي منتحرا نتيجة للمرض وخيبة الأمل والانهيار العصبي .

جيرهارد روهلفس : Gerhardt Rohlfs

يرجع الفضل الأكبر في استكشاف مساحات شاسعة من الصحراء في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى الرحالتين الألماني بارث ، والفرنسي دوفيريي . فبعدهما أصبح فزان وتاسيلي أجار وتمبكتو ومحور طرابلس ـ تشاد ، أراضي معروفة ومرسومة على الخرائط . ولكن مناطق شاسعة من الصحراء ، بعضها مأهولة ، والبعض الآخر خالية ، لم تستكشف بعد . وهذه هي المهمة التي سيواجهها الجيل التالي من المستكشفين . وأعظم هؤلاء أربعة ، ثلاثة من الالمان ، هم : روهلفس وناشتيجال وفون باري ، وواحد نمساوي ، وهو اسكار لانز .

ولد روهلفس في ضواحي مدينة بريم في سنة 1832 ، وهو الابن الرابع لاسرة انجبت سبعة اطفال . كان الطفل ضعيف البنية ثائر الطبع بحيث لم يكن يحتمل الطاعة في المنزل أو في المدرسة . ومنذ سن السادسة عشرة خرج من المدرسة لينخرط في جيش دويلة بريم الصغيرونال رتبة ملازم أول . ولما غادر الجيش ، حاول أن يدرس الطب ، ولكن طبعه البوهيمي تغلب عليه في نهاية الامر ، فاختار طريق الاسفار ، في أروبا أولا ، ثم في افريقية حيث انخرط في اللفيف الأجنبي حيث كان يأمل أن يرضي حبه للمغامرة .

وبعد بضع سنوات قضاها في الجيش وشارك في بعض العمليات التي قام بها في بلاد القبائل وتعلم خلالها اللغة العربية وأكتسب معرفة بعادات الأهالي وتقاليدهم ، غادر اللفيف الأجنبي في سنة 1861 واستقل باخرة في اتجاه طنجة .

كان حلمه هو أن يصل الى تمبكتو . ولاعداد هذه الرحلة أقام عاما في المغرب الاقصى ، تماما كما صنع الرحالة الفرنسي ، رونيه كاييه من قبل .

ولكنه على عكس كثير من الرحالين الاروبيين الذين اختاروا الترحال بوصفهم مسيحيين ، قام روهلفس بحلق رأسه وأعلن اسلامه ، بل وذهب الى ابعد من ذلك ، كما فعل مواطنه ، هورنمان ، من قبل ، فختن نفسه .

وفي سنة 1862 بدأ رحلته الصحراوية ، وهو في سن الثلاثين ، ولكنه لم يكن يملك في حياته سوى خمس جنيهات استرليني . وقد قصد تافيلات التي كان قد زارها روني كايي من قبل . وعلى الرغم من رسائل التوصية التي زوده بها شريف وزان الذي كان مسموع الكلمة في هذه المناطق ، فان الأهالي ، بفطرتهم السليمة ، تشككوا في ادعائه الاسلام واقتنعوا بأنه مسيحي متستر ، فاخذوه أسيرا وكشفوا عليه ولم ينقذه من انتقامهم سوى عملية الختان التي حققها زورا وبهتانا .

ولكن متاعب هذا الرحالة لم تنته عند هذا الحد ، فإن دليله سيعتدى عليه ويصرعه تاركا إياه في الخلاء على اعتبار أنه ميت . ومع ذلك ، فقد واصل رحلته في اتجاه البحر الأبيض عبر جنوب وهران .

وعلى الرغم من فشل محاولته الأولى ومن الاخطار التي واجهها في هذه الرحلة ، فقد قرّر روهلفس القيام برحلته من جديد الى تمبكتو عن طريق الصحراء الجزائرية . ولكن ثورة أولاد سيدي الشيخ التي قامت في تلك الآونة قطعت عليه الطريق التي كان يعتزم سلوكها . وهكذا قرر أن يسلك طريقا أخرى من المغرب الاقصى ويستفيد من بعض العلاقات التي كونها هناك من قبل .

وهكذا عاد روهلفس الى تافيلالت ودرس بعناية هذه المجموعة من الواحات ، قبل أن يواصل رحلته في رفقة ثلاثة من الاهالي الى توات ثم الى إيغلى ، فإلى بني عبّاس ثم أدرار ، ومن هناك عرج الى الشرق . وفي 17 سبتمبر ، 1864 دخل الى عين صالح .

كان روهلفس المستكشف الثاني الذي دخل هذه الواحة بعد الميجور لانج ، ولكن الاخير لم يعد من رحلته . وبالتالي فقد ظل وصف المستكشف الالماني

لهذه المنطقة هو الوصف الوحيد الذي وصل الى العالم قبل احتلال الفرنسيين لها في نهاية القرن الماضي .

لم يكن في حوزة روهلفس لدى وصوله الى عين صالح سوى مبلغ صغير من المال يمكن أن يكفيه مع شيء من التقشف لمواصلة رحلته الى تمبكتو. ولكن المشكلة التي واجهها هي ان أول قافلة تسافر إليها لا ترحل الى بعد مضي اربعة أشهر . وكذلك قرر السفر من عين صالح الى غدامس ثم الى طرابلس ، بعد ماقضى نحو ستة اشهر في المغرب الاقصى ، وستة أشهر في الصحراء . وهذه الرحلة كلها قام بها مستعينا بمبلغ صغير من المال منحه اياه مجلس شيوخ بريم والجمعية الجغرافية في لندن .

وهكذا نجح روهلفس في اختراق الصحراء من المغرب الاقصى حتى ليبيا عبر الصحراء-الجزائرية . والجدير بالذكر أنه على الرغم من ماضى هذا الجندي السّابق في اللفيف الأجني ، فان استكشافه كان ذا طابع جغرافي بحْث ولم تكن له أية صفة سياسية أو تجارية .

لم يكد روهلفس يعود الى اروبا حتى قرر القيام برحلة لاختراق الصحراء من الشمال الى الجنوب . وبمجرد نزوله في طرابلس عقد العزم على السفر الى تمبكتو عبر الهجّار الذي لم يستكشف بعد حتى ذلك الحين .

وفي غدامس بقي ينتظر الوقت الملائم ليتخذ طريقة الى الهجار ولكن قبائل الطوارق كانت تشن بعضها ضد البعض الآخر حربا ضروسا في ذلك الوقت ، الامر الذي شكل عائقا أمام الرحالة . وعندما يئس من تحسن الحالة ، سافر الى فزان ، ومن هناك نزل الى التشاد حيث وصل في شهر يوليو 1866 . ولما وصل الى كوكا (Kouka = جوجه عند العرب) استقبله سلطان « بورنو» أحسن استقبال وأكرم مثواه وقدم إليه هدايا . ومن هناك سافر روهلفس الى نيجيريا وأقام في لاجوس .

وبعد رحلة بدأت في صحراء طرابلس وأنتهت عند خليج بينين ، عاد روهلفس الى اروبا في شهر يوليو 1868 .

وفي هذه السنة نفسها ، طلبت الحكومة البريطانية الى روهلفس الذي أصبح الآن يحتل المكانة الأولى بين المستكشفين ، أن يرافق الحملة التي ارسلتها

إلى الحبشة ضد الامبراطور ثيودورس ، بوصفه خبيرا في شؤون الصحراء . ولما أنتهت هذه الحملة العسكرية ، نجح روهلفس في القيام برحلة استكشافية في الحبشة ، ذلك البلد الذي سيعود اليه بعد بضع سنوات مكلفا بمهمة رسمية من قبل أمبراطور ألمانيا الى النجاشي ، امبراطور الحبشة .

وفي السنة التالية (1869) عاد روهلفس الى الصحراء الافريقية ليقوم برحلة استكشافية في جنوب برقة افضت به الى مصر ، وبذلك أتم رحلته الكبرى التي بدأها منذ خمس سنوات من المغرب الاقصى ، فسجل رقما قياسيا حيث اخترق الصحراءطولا من المحيط الأطلسي إلى النيل ، وعرضا من الشمال إلى الجنوب .

وبعد ذلك ببضع سنوات (1874) استدعاه الخديو اسماعيل ، عاهل مصر ، ووضع تحت تصرفه أموالا طائلة وكلفه بدراسة مختلف مستويات الصحراء الليبية التي كان يسود الاعتقاد بأنها أرض ستكون خصبة لو حولت إليها مياه النيل لسقيها ، كما كلفه بمهمة استكشاف الصحراء الشرقية التي تمتد جنوب داوفور ، وعوادية بين الوحات المصرية وفزان. وفي غضون ثلاثة أشهر واصلت هذه البعثة التي تتكون من ثلاثة من العلماء الألمان أبحاثها بدون كلل وحاولت اختراق التلال الرملية التي ترتفع 100 و 150 مترا قبل واحة الكفرة ، ولكن بدون طائل ، فاضطرت إلى العودة إلى الشمال في ظروف قاسية . وقد بلغ بها الأمر أنها سارت مسافة أربعة عشر يوما في الصحراء دون أن تصادفها في الطريق بئر أو نقطة ماء .

ولكن روهلفس سوف ينتقم لنفسه من الصحراء ، حيث قام بمحاولة أخرى لاستكشاف واحة الكفرة في سنة 1879 ونجح في مهمته هذه المرة .

ناشتيجال : Nachtigal

ولد الدكتور ناشيجال (غوستاف) الالماني في سنة 1834 . وبعد ما أتم خدمته العسكرية بوصفه طبيباً في الجيش ، سافر الى افريقية الشمالية في سن التاسعة والعشرين للاستشفاء من مرض السل الذي كان يعاني منه . ولما عاد إلى بلده بعد ذلك بست سنوات كانت تحيط به هالة من المجد بوصفه أو أروبي استكشف جبال التبستي .

كانت صحته العليلة تحول دون قيامه بأي مجهود عضلي متعب ، ولذلك فقد خصص جل وقته للدراسة والبحث وكانت الموضوعات التي استهوت هذا الرحالة بصفة خاصة هي العادات والتقاليد واللغة العربية . وفي سنة 1864 ، عين الدكتور ناشتيجال طبيبا في الأسطول التونسي . وبعد ذلك بوقت قصير عين طبيبا خاصا لباي تونس .

وفي وقت لاحق شغل ناشتيجال منصب قنصل المانيا العام في تونس حيث لقي مواطنه روهلفس . وعن طريق القنصل العام ، كلف ملك بروسيا روهلفس بحمل هدايا منه إلى سلطان بورنو ، اعترافا له بالجميل للمساعدة التي قدمها إلى الرحالة أثناء ترحاله في مملكته . على أن الدكتور ناشتيجال اقترح أن يقوم بنفسه بهذه المهمة التي كان يعرف مدى ما تكلفه من الجهد والمشقة ، بالنظر إلى قلة خبرته وتجاربه في الأسفار الصحراوية . فللوصول إلى مملكة بورنو ، يقتضي الأمر اجتياز الصحراء من الشمال ، أي من طرابلس إلى بحيرة التشاد . وهي مسافة ليست بالقصيرة ولا بالسهلة .

وهكذا بدأ الطبيب الشاب رحلته من طرابلس في 7 فبراير 1869 برفقة نفس الدليل الذي أرشد مواطنيه بارث وروهلفس من قبل . عبر متاهات الصحراء . وقد كانت قافلته الصغيرة تتكون من ثلاثة خدم يحملون الجنسية الإيطالية ومن ثمانية جمال تحمل أمتعته الخاصة والهدايا التي بعث بها ملك بروسيا إلى سلطان بورنو . وقد كان من ضمن هذه الهدايا عرش ضخم مغطي بقماش فاخر قرمزي اللون ومرصع بالذهب وصورة زيتية كبيرة بالحجم الطبيعي للملك غليوم وللملكه أوغسطا ولولي العهد . فردريك . والجدير بالذكر أن هذه الاحمال الثمينة لم تكن محل اطماع القبائل ولم يتعرض لها قطاع الطريق فوصلت سليمة الى جوجا ، عاصمة بورنو .

ولما وصل الى مرزق قادما من فزان ، لقي ناشتيجال هناك مستكشفا آخر ، وهو اسكندر تيني الذي لم يلبث أن لقي مصرعه عقب هذا اللقاء . وبينما كان الدكتور ناشتيجال ينتظر في هذه الواحة تشكيل قافلة في اتجاه بورنو ، استولى عليه الضيق والملل ، فقرر الخروج في رحلة استكشافية صغيرة في جبال تبستي تزجية للوقت .

كانت جبال تبستي في ذلك العهد أرضا موحشة مغلقة على نفسها وتثير شعور الخوف حتى بين سكان الصحراء انفسهم . وبعد بحث عثر الرحالة على دليل من التبستي قبل أن يقوم بمهمة مرافقته مقابل 400 من عملة ذلك الزمن ، وهي تزيد قيمتها عن نصف مليون فرنك ، ليرشده في جميع أنحاء التبستي التي يريد استكشافها ويعود به سالما معافاً الى فزان .

وجبال تبستي تمتد بمسافة متساوية بين خليج سُرت ، في البحر الابيض عند الشواطيء الليبية ، وبحيرة تشاد في جنوب الصحراء . وهذه الجبال تعلوها عدة قمم شديدة الارتفاع ، وأعلاها في الصحراء كلها هي قمة ايمي كوسي التي يبلغ ارتفاعها 3500 مترا ، في الوقت الذي لا تتجاوز فيه أعلى قمم الهجّار 3000 مترا . وقمة ايمي كوسي عبارة عن قمة بركان قريب الشبه في اتساعه وشكله ببركان اتنه الذي يقع في جزيرة صقلية . وجبال تبستي تتخذ شكل مثلث تمتد جوانبه على ما يتراوح بين 400 و 500 كيلو متر وتتخلله أودية ومنخفضات بعيدة العمق ، وهي كلها صخرية موحشه اشبه ما تكون بسطح القمر الذي نقلت لنا الاقمار الصناعية صورا فتوغرافية عن طبيعته . وعلى الرغم من ارتفاع قممه ، وهو عامل من شأنه أن يسمح باجتذاب الامطار ، فان التبستي يشكل أرضا صحراوية قاحلة نادرا ما تقابلنا فيه نقطة ماء أو نخلة هزيلة ولكنه على الرغم من كل ذلك ، فان هذه المنطقة كانت رطبة في عصور ما قبل التاريخ وكانت تخترقها أودية وأنهار كبيرة ، بل إن من بين بقايا عظام الحيوانات التي وجدت في أصقاعها ، عظام الفيل ، مما يدل على أنها كانت تغطيها الغابات .

والوصف الذي سجله ناشتيجال لجبال التبستي والذي يعكس عظمتها وجمالها ووحشتها معا يمثل قطعة ادبية رائعة ونادرة في أدب الرحلة ، ونحن نقتبس من ذلك الوصف على سبيل المثال الفقرة التالية :

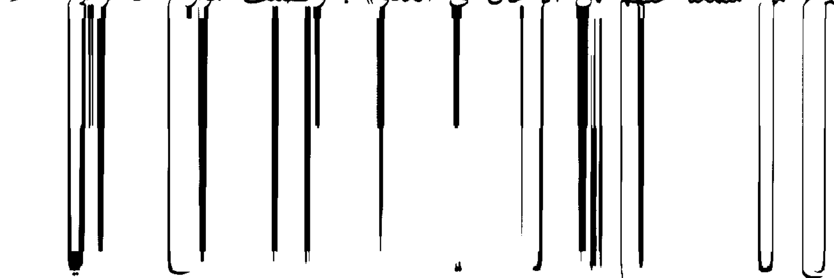
« اكتست الجبال مظهرا كان يزداد غرابة بين لحظة وأخرى حينما وقعت عليها عيني . إن ما أراه في جميع الجهات عبارة عن صوامع وقبب . مثل الصوامع والقبب التي تعلو المساجد والكاتيدرائيات .. البيزنطية والقصور والقلاع القديمة . وبين بقعة وأخرى ترتفع هضبة وحدبة مثل سنام البعير . وبعض الصخور

تتخذ شكل طير عملاق أوراس انسان . ولكن هذه الاشكال العجيبة والغريبة تمثل تحت اضواء المساء الساحرة صورا ورسوما من النوع المخيف والمثير الذي يعرض للانسان في الاحلام .»

ورحلة ناشتيجال في التبستي كانت محاطة بكثير من العراقيل والصعوبات ، لا بسبب وحسته هذه الجبال وقسوة الطبيعة فحسب، بل وخصوصا ، بسبب الموقف العدائي الذي استقبله به السكان الذين كانوا غيورين على حرمة جبالهم وطبيعتها البكر . فإن التبوّ ، سكان التبستي ، كانوا بعيدين عن العمران وكانوا يعيشون بمعزل عن جميع التيارات الحضارية .

والتيدا ، كما يسمى التبوّ أيضا ، عبارة عن جنس أبيض اللون في الاصل ولكنه اختلط بدم الزنوج ، وكان عددهم صغيرا بحيث لم يكن يتجاوز في ذلك الوقت 25000 نسمة ، والرجل منهم نحيف الجسم قوي البنية وشديد الصبر والاحتمال لظروف الطبيعة القاسية . والتبوّ سريعو الحركة ، وقد ذكر أحد المسافرين في المنطقة أنه بعد أن نجح في القبض على قرد انطلق منه وراح يركض ويقفز بسرعة البرق متحديا كل محاولة لاعادته . ولكن رجلا منهم قبض عليه في حركة عجيبة صاح الحاضرون أثرها على الفورانه من التبوّ؟»

وقد اعتقد الدكتور ناشتيجال أنه تعرف على التبوّ في القبيلة الاثيوبية القديمة التي ذكرها هيرودوت باسم « الطروغليين » والذين قال عنهم « انهم أسرع من سمعنا عنهم بين الرجال في العدو» . ويضيف المؤرخ الاغريقي قائلا



« أنهم يتحدثون لغة لاتشبه أية لغة أخرى وانما هي تشبه صرخات الخفاش » . وهذه الملاحظة الأخيرة تجد ما يؤيدها في وصف الرحالة هورنمان الذي قال إن لغة التبوّ تشبه زقزقة العصافير .

وعلى الرغم من سوء المعاملة التي لقيها المستكشف الالماني في التبستي ، فقد واصل عمله بجد ونشاط وجمع كثيرا من المعلومات التي لا يزال الكثير منها يحتفظ بجدته حتى يومنا هذا .

ولما عاد الى مرزق استأنف ناشتيجال رحلته الى بورنو في سنة 1870 ، حيث استقبله سلطان هذه المملكة بكثير من الحفاوة وتقبل هدايا امبراطور

تتخذ شكل طير عملاق أوراس انسان . ولكن هذه الاشكال العجيبة والغريبة تمثل تحت اضواء المساء الساحرة صورا ورسوما من النوع المخيف والمثير الذي يعرض للانسان في الاحلام .»

ورحلة ناشتيجال في التبستي كانت محاطة بكثير من العراقيل والصعوبات ، لا بسبب وحسته هذه الجبال وقسوة الطبيعة فحسب ، بل وخصوصا ، بسبب الموقف العدائي الذي استقبله به السكان الذين كانوا غيورين على حرمة جبالهم وطبيعتها البكر . فإن التبوّ ، سكان التبستي ، كانوا بعيدين عن العمران وكانوا يعيشون بمعزل عن جميع التيارات الحضارية .

والتيدا ، كما يسمى التبوّ أيضا ، عبارة عن جنس أبيض اللون في الاصل ولكنه اختلط بدم الزنوج ، وكان عددهم صغيرا بحيث لم يكن يتجاوز في ذلك الوقت 25000 نسمة ، والرجل منهم نحيف الجسم قوي البنية وشديد الصبر والاحتمال لظروف الطبيعة القاسية . والتبوّ سريعو الحركة ، وقد ذكر أحد المسافرين في المنطقة أنه بعد أن نجح في القبض على قرد انطلق منه وراح يركض ويقفز بسرعة البرق متحديا كل محاولة لاعادته . ولكن رجلا منهم قبض عليه في حركة عجيبة صاح الحاضرون أثرها على الفورانه من التبوّ؟»

وقد اعتقد الدكتور ناشتيجال أنه تعرف على التبوّ في القبيلة الاثيوبية القديمة التي ذكرها هيرودوت باسم « الطروغليين » والذين قال عنهم « انهم أسرع من سمعنا عنهم بين الرجال في العدو» . ويضيف المؤرخ الاغريقي قائلا « أنهم يتحدثون لغة لاتشبه أية لغة أخرى وانما هي تشبه صرخات الخفاش » . وهذه الملاحظة الأخيرة تجد ما يؤيدها في وصف الرحالة هورنمان الذي قال إن لغة التبوّ تشبه زقزقة العصافير .

وعلى الرغم من سوء المعاملة التي لقيها المستكشف الالماني في التبستي ، فقد واصل عمله بجد ونشاط وجمع كثيرا من المعلومات التي لا يزال الكثير منها يحتفظ بجدته حتى يومنا هذا .

ولما عاد الى مرزق استأنف ناشتيجال رحلته الى بورنو في سنة 1870 ، حيث استقبله سلطان هذه المملكة بكثير من الحفاوة وتقبل هدايا امبراطور بروسيا بسرور بالغ .

وبدلا من أن يعود الدكتور ناشتيجال الى اروبا مباشرة ، عرج على واحة ودّاى التي منع روهلفس من الدخول إليها ، ثم سار الى دارفور قبل أن يعود الى بلده عن طريق مصر في سنة 1874 ، وذلك بعد ما قام برحلة استكشافية انطلقت من طرابلس ودامت ست سنوات عانى خلالها كثيرا من الصعوبات وتحمل كثيرا من الآلام .

والجدير بالذكر أن احد الخادمين الايطاليين اللذين رافقا ناشتيجال في رحلته الاستكشافية ، واسمه فلابديرا ، قد حلى له المقام في التبستي ودخل في خدمة شيخ بورنو وسلطانها وأعتنق الاسلام وسكن في جوجا مدة أربع وعشرين سنة . ولما أراد العودة الى بلده منع من ذلك ، وقد اندمج هذا الاروبي في شعب بورنوبحيث انه نسي لغته الايطالية .

اوسكارلانز : Oscar Lanz

شهدت الفترة التي تفصل بين ناشتيجال واسكارلانز النمساوي ، رحلة استكشافية هامة قام بها الالماني ايروين باري الذي توغل في سنة 1877 في سلسلة جبال آير في جنوب الهجّار التي يقطنها طوارق الجنوب . وقد كانت رحلة باري بين قبائل أجّار في نطاق مهمة كلفته بها الجمعية الجغرافية ببرلين . ولعل أهم مساهمة قدمها هذا العالم الطبيعي الى الابحاث الصحراوية ، هي اكتشافه لآثار حديثة للتماسيح في بعض أودية المنطقة التي استكشفها ، الأمر الذي دل على بقاء هذه الحيوانات بعد موت الانهار الكبيرة التي كانت تجري في العصر الجليدي ، بعشرات القرون .

وأما اوسكارلانز الذي ولد في سنة 1848 ، فقد بدأ حياته العلمية في معهد الجيولوجيا في فينا ، وذلك قبل أن يقوم برحلته الاستكشافية الاولى الى الجابون وسنّه لم تكن تتجاوز السادسة والعشرين . ولكن منافسة حادة بينه وبين المستكشف الفرنسي برازا الذي كان يعمل في تلك المنطقة ، مضافا إليها نفاد موارده ، اضطرت المستكشف النمساوي الى العودة الى بلده .

وبعد ذلك بسنتين كلفت الجمعية الافريقية الالمانية لأنز بمهمة استكشافية في المغرب الاقصى لكي « يساهم بالقدر الممكن في معرفة معمقة بسلسلة جبال الاطلس » . كما في التعليمات التي زود بها .

وقبل الشروع في رحلته الى المغرب الاقصى ، قام لانز بزيارة للمستكشف الفرنسي ، هنري دوفيريي ، في باريس . وفي هذا الوقت كان دوفيريي قد أكتسب شهرة عالمية بوصفه مستكشف بلاد الطوارق ، وبذلك كان المستشار والموجه والمنسق لتحركات المستكشفين والرواد الفرنسيين ، بقدر ما كان الرواد الأجانب يسعون للاستفادة من خبرته . ومما زاد من قيمة هذه الزيارة أن المستكشف النمساوي قد التقى عند دوفيريي باليهودي المغربي ، مردخاي بن سرور ، الذي كان قد اقام مدة طويلة في تمبكتو وكانت له معرفة دقيقة بالطرق الداخلية في الصحراء المغربية .

وعندما حل لانز بالمغرب الاقصى كان مصمما في قرارة نفسه على أن يستغل خبرة ابن سرور ومعرفته بالصحراء الى أقصى حد ممكن ، ولكنه لمّا نزل في طنجة كان حظه أكبر مما يتوقع ، فهناك لقي أبو طالب أحد أقارب الأمير عبد القادر وأحد ابطال ثورته التي لم تزل شرارتها، تتقد في نفوس الملايين في الجزائر وفي المناطق الشرقية من المغرب الأقصي . وقد أدرك لانز على الفور الفائدة التي سيجنيها من هذه الشخصية التي تتمتع بشهرة عارمة . وكذلك رافقه الحاج أبو طالب فكان له عونا وحاميا ومترجما في طريقه إلى الجنوب . وتقديرا لهذه المساعدة قدم إليه المستكشف النمساوي مبلغ 4000 فرنك على سبيل الهدية .

كان لانز قد حصل على رسالة توصية من وزير المانيا المفوض في طنجة موجهة إلى سلطان المغرب الأقصى . وبهذه الوثيقة الثمينة التي تحمل ختم المقوضية الالمانية والتي كان يبرزها في كل مناسبة ، تمكن المستكشف النمساوي من التجول بسلام وحرية في الأراضي المغربية ومن اختراق جبال الأطلس المغربي والتوغل في الجنوب .

كان لانز من السذاجة بحيث إختلق لنفسه شخصية طبيب تركي ، ولكن هذه الخدعة لم تكن لتفوت على فطنة السكان الذين اكتشفوها وكاد يدفع ثمنها باهضا في مناسبتين مختلفتين في جنوب المغرب الاقصى .

ولما وصل لانز الى تيندوف (التي لم يحتلها الفرنسيون الا بعد ذلك بأربع وخمسين سنة ، أي في سنة 1934) وثق علاقاته بالشيخ علي ، شيخ المدينة

وحَاكمها الذي عرض عليه أن يتولى تنظيم رحلته الى تمبكتو ، وقبل السائح هذا العرض شاكرا . وقد صرح فيما بعد بأنه لم يكن ليستطيع الوصول الى هذه العاصمة لولا مساعدة شيخ تندوف ورعايته .

سافر لانز من تيندوف في رفقة الحاج علي أبو طالب وشخص اسباني مستعرب اسمه بينيتز في العاشر من شهر مايو حاملا معه كثيرا من الزاد والماء (بل انه لم ينس أن يحمل معه حَشيَة وطاقم لعبة الشطرنج) ووصل الى تمبكتو في أول يوليو سنة 1880 . وفي غضون هذه الرحلة الشاقة حدث أن سار المستكشف ثلاثين يوما كاملة دون أن يصادف في طريقه إنسانا .

كان لانز هو المستكشف الاروبي الرابع الذي دخل مدينة تمبكتو ، عاصمة الصحراء الغربية ، ولكن حظه كان أسعد من اسلافه ، حيث أن السكان أحسنوا استقباله ، الأمر الذي تمكن معه من الاقامة في المدينة ثمانية عشر يوما قضّاها في أمن وهدوء في منزل وصفه بانه « مريح وممتع » كما قدم إليه بعض السكان الوانا من الضيافة العربية الصحراوية مما جعل المستكشف يسجل في مذكراته أن بعض الايام التي أقامها في تمبكتوكانت من امتع ايام حياته .

بل إن الطوارق الذين لقي المستكشفون السابقون منهم جفاء وعدوانا لم يترددوا في أن يقوم رؤساؤهم بزيارته للترحيب به .

فكر لانز إزاء ما لقيه من مظاهر المودة والترحيب من الطوارق في أن يقوم بجولة في الهجّار ، ولكن نضوب موارده المالية جعله يعدل عن هذه الفكرة ويقرر السفر إلى السنغال ، حيث لقي كثيرا من المتاعب واساء السكان استقباله بحيث اضطر الى فدية نفسه بعد ما احتجزه بعض السكان المحليين .

وعندما وصل الى مركز عسكري فرنسي في نهاية متاعبه في السودان (الفرنسي سابقا) لم يكن قد بقي معه من الاموال والمتاع الذي حمله معه ، « سوى معطف قديم ممزق الاطراف » .

عاد لانز من هذه الرحلة بثروة عظيمة من المعلومات والملاحظات العلمية التي سجلها عن الصحراء والصحراويين في كتابه الذي نشر في باريس في عام

1886 ـ 1887 ، تحت عنوان: *Tombouctou. Voyage au Maroc au Sahara et au Soudan*

كانت رحلة لانز عملا علميا جليل القدر ولم تكن له دوافع سياسية أو تجارية ، وذلك على الرغم من الحملات التي شنتها عليه الصحافة الفرنسية متهمة إيّاه بأنه طليعة لجيش بروسي للغزو والاستعمار في الصحراء .

* *

كانت معظم المناطق الصحراوية في نهاية القرن التاسع عشر قد استكشفت ، وبعضها وصل إليها الاستعمار الذي انسدل ستار ليله بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على الشمال الافريقي . وكذلك حلت الآن مشروعات الاستغلال والبعثات العسكرية والغزو والاحتلال ، محل المغامرات الفردية التي كانت الدوافع وراء بعضها دوافع علمية نبيلة لاغبار عليها . والملاحظ هو أن كثيرا من الرواد والمستكشفين للصحراء كانوا من ذوي العزائم التي لا تقهر ومعضمهم كانوا من العلماء ، ولكنهم جميعا كانوا من الرجال . وهذا شيء طبيعي وعادي ، فأي اغراء للمرأة لكي تغامر في الصحراء وتضحي براحتها وتعرض حياتها للخطر ؟ ومع ذلك ، فإن الجيل التالي من الرواد والمستكشفين سوف يشهد رحالة يحدوها حماس نادر للاسفار وارادة قوية وعاطفة متأججة لكل ما هو غريب وغير مألوف ، ونعني بذلك الفتاة الهولندية الاكساندرين تيني .

بدأت الانسة الاكسندرين تيني حياتها الشرقية بأن استقرت في القاهرة حيث كانت تعيش على الطراز الشرقي في منزل عربي . ولم تكد تبلغ الرابعة والعشرين من العمر حتى دفعت وراءها بعمتها ، البارونه فان كابلن وبامها في مغامرة لاستكشاف الصعيد المصري .

وكذلك نظمت النساء الثلاث اسطولا صغيرا وزوّدنه بعدد من الخدم والحمالين وبما يحتجن إليه في هذه الرحلة من المؤن ، وكل ذلك على حسابهن . وعلى الرغم من الصعوبات الجمة التي اعترضت طريقهن ، فقد تمكنت النساء الثلاث من صعود النيل الابيض كما تجولن في مستنقعات بحر الغزال المشهورة بمعاونة ثلاثة مساعدين وهم الدكتور ستيفندر وشخص يدعى دوهوجلين وكلاهما هولندي ، ورجل ايطالي يسمى كونتريني .

ولكن الاعتبارات الاستراتيجية لم تكن تقل أهمية عن الدوافع العسكرية والتجارية . فإن فرنسا تريد أن تربط الجزائر عبر الصحراء بمستعمراتها في افريقيا الغربية ، وخصوصا بمالي الذي احتلته في سنة 1880 ، والسنغال الذي أستقر لها الامر فيه مند سنة 1856 ـ 1857 . على أن ثورة اولاد سيدي الشيخ التي بدأت في سنة 1864 ، واستمرت بعد ذلك جبلا كاملا ، كانت من الشدة والشمول بحيث تشكل حاجزا منيعا لتوغل الاستعمار في اتجاه الصحراء . والمحاولات التي قامت بها الجيوش الفرنسية من أجل قمع هذه الثورة كلها باءت بالفشل ، بل إن استكشاف الرواد الذي تم في الاجيال السابقة في الصحراء ، قد أصبح الآن محفوفا بالأخطار وعملا يكاد يكون مستحيلا ، بعدما اتضحت للسكان نيات اروبا ومخططاتها للسيطرة والاستعمار . والذين حاولوا هذه المغامرات ، مثل دورنو دوبري وجوير (وكلاهما اغتيل في ضواحي غدامس) سيدفعون ثمن ذلك غاليا ، إذا لم يكن بحياتهم ، فعلى الاقل بالصعوبات التي تضطرهم الى الرجوع ادراجهم .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات كلها ، تفتقت العبقرية الفرنسية على مشروع كان يبدو أنه يضمن التغلب على جميع الصعوبات التي تواجهها السلطات الاستعمارية في طريق التوغل في الصحراء ، وذلك هو مشروع مدّ خط للسكة الحديدية من الشمال الى الجنوب عبر الصحراء . نعم ! فقد كان الجميع مقتنعين بان مجرد ظهور القاطرة وهي تجر ذيلا أسود من الدخان في سماء الصحراء الصافية ، سوف يحول مواقع الابار الى مدن صحراوية والواحات الى محطات للسكك الحديدية وبساتين النخيل فيها الى حديقة لناظر المحطة ! وعندما يرى الرّحّل الذين سيتحولون الى ريفيين وادعين ، مثل الفلاحين الفرنسيين. مزايا التقدم التقني وسرعة القاطرة وقوتها ، سوف يأسفون لأنهم قضوا قرونا طويلة وهم يعتمدون في حمل اثقالهم وتنقلهم على الجمل ، ذلك الحيوان الغريب . وباختصار فان دخول القطار الى الصحراء ، سيضمن انتشار البضائع ومعها الحضارة الاروبية ، في الوقت الذي يضمن فيه توغل الجيوش واقرار النظام الاستعماري في منطقة لم يحلم الرومان بمد سلطاتهم اليها .

ولكن البعثة واجهت كارثة المطاف حيث ماتت البارونة فان كابلين والدكتور ستيفندر بالحمّى والاجهاد ، وأما الفتاة فقد عادت وهي تعاني من الاجهاد والضنك الى مصر .

على ان هذه الحوادث لم تؤثر في عزيمة الفتاة ، بل على العكس كانت حافزا لاستكشافات أوسع نطاقا . وكذلك قررت السير الى بحيرة التشاد عن طريق مرزق (فزّان) . وهناك عرض عليها أمنوكل ، زعيم الطوارق أجّار الذي قام بحماية دوفيريي من قبل ، تنظم رحلتها وحمايتها ، فقبلت عرضه بدون تردد . ولكن فريقا آخر معاديا لفريق امنوكل تعرض لها في الطريق فقتلت وهي لا تتجاوز سن الثلاثين ، وفي فترة تالية قام فريق امنوكل بحملة للانتقام للفتاة الهولندية انتهت بدحر خصومهم والحاق هزيمة منكرة بهم . وبهذا انتهت مشروعات هذه الفتاة الرائدة التي أَلِفَتْ الشرق وكسبت شهرة عارمة في المناطق التي مرت بها بسخائها وطيب قلبها وعطفها على الفقراء والمعوزين .

* *

بعثة فلاتر (Flatters) أو انتصار الصحراء :

استقرّ الأمر للاستعمار في الشمال (أوكان يبدو كذلك) بعد اخماد ثورات الأمير عبد القادر وثورات بومعزة وبوبغلة وغيرها من عشرات الثورات التي كانت تقوم بها القبائل في مختلف أطراف الجزائر ، واتجهت أنظار المعمرين في العقد الثامن الى الصحراء الكبرى . والحوافز التي تدفع السلطات الفرنسية لغزو الصحراء كانت كثيرة ومتنوعة . فإن اصقاع الرمال كانت دائما ، ولا سيما في عهد الرومان والبيرنطيين ملاذا وملجئا للافراد والقبائل الفارين من قوانين المحتلين الاجانب . ثم إن بعض الشعوب والقبائل الصحراوية نوه الرواد والمستكشفون بماسها وكثرة عددها وسجاعة رجالها ، مثل الطوارق لا تزال تحتفظ بحريتها واستقلالها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن البورجوازية وأرباب الصناعة الفرنسية كانوا يتحرقون لكي يروا منتجاتهم تتوغل في الصحراء الكبرى ، وعبرها ، كما لوكانت منطقة نائية من الريف الفرنسي .

ولكن الاعتبارات الاستراتيجية لم تكن تقل أهمية عن الدوافع العسكرية والتجارية . فإن فرنسا تريد أن تربط الجزائر عبر الصحراء بمستعمراتها في افريقيا الغربية ، وخصوصا بمالي الذي احتلته في سنة 1880 ، والسنغال الذي أستقر لها الامر فيه منذ سنة 1856 ـ 1857 . على أن ثورة اولاد سيدي الشيخ التي بدأت في سنة 1864 ، واستمرت بعد ذلك جبلا كاملا ، كانت من الشدة والشمول بحيث تشكل حاجزا منيعا لتوغل الاستعمار في اتجاه الصحراء . والمحاولات التي قامت بها الجيوش الفرنسية من أجل قمع هذه الثورة كلها باءت بالفشل ، بل إن استكشاف الرواد الذي تم في الاجيال السابقة في الصحراء ، قد أصبح الآن محفوفا بالأخطار وعملا يكاد يكون مستحيلا ، بعدما اتضحت للسكان نيات اوربا ومخططاتها للسيطرة والاستعمار . والذين حاولوا هذه المغامرات ، مثل دورنو دوبري وجوير (وكلاهما اغتيل في ضواحي غدامس) سيدفعون ثمن ذلك غاليا ، إذا لم يكن بحياتهم ، فعلى الاقل بالصعوبات التي تضطرهم الى الرجوع ادراجهم .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات كلها ، تفتقت العبقرية الفرنسية على مشروع كان يبدو أنه يضمن التغلب على جميع الصعوبات التي تواجهها السلطات الاستعمارية في طريق التوغل في الصحراء ، وذلك هو مشروع مدّ خط للسكة الحديدية من الشمال الى الجنوب عبر الصحراء . نعم ! فقد كان الجميع مقتنعين بان مجرد ظهور القاطرة وهي تجر ذيلا أسود من الدخان في سماء الصحراء الصافية ، سوف يحول مواقع الابار الى مدن صحراوية والواحات الى محطات للسكك الحديدية وبساتين النخيل فيها الى حديقة لناظر المحطة ! وعندما يرى الرّحّل الذين سيتحولون الى ريفيين وادعين ، مثل الفلاحين الفرنسيين. مزايا التقدم التقني وسرعة القاطرة وقوتها ، سوف يأسفون لأنهم قضوا قرونا طويلة وهم يعتمدون في حمل اثقالهم وتنقلهم على الجمل ، ذلك الحيوان الغريب . وباختصار فان دخول القطار الى الصحراء ، سيضمن انتشار البضائع ومعها الحضارة الاروبية ، في الوقت الذي يضمن فيه توغل الجيوش واقرار النظام الاستعماري في منطقة لم يحلم الرومان بمد سلطاتهم اليها .

وفكرة القطار العابر للصحراء ، كانت فكرة رومانسية تثير شعور الملايين من الفرنسيين الذين لم يكونوا يرون فيها مجرد مخطط عمل للسيطرة والتوسع الاستعماري ، بل وأيضا ردا ملائما على المشروع الذي أنجز في الولايات المتحدة في سنة 1869 والذي يربط بخط للسكة الحديدية شواطيء المحيط الاطلسي ، من « أوماها » بشواطيء المحيط الهادي ، عند سان فرانسيسكو ، على مسافة 3000 كيلو متر .

كان كبير المهندسين ، دوبونشيل (Duponchel) أول من خطرت له فكرة السكة الحديدية العابرة للصحراء في سنة 1875 . وفي سنة 1878 ، ارسلته الحكومة في مهمة دراسية الى الصحراء . وعلى الرغم من أن اسفار المهندس عبر الصحراء لم تتجاوز مدينة الاغواط ، فقد وجد مادة كافية لملء مجلد في صورة تقرير عن المشروع بعنوان « دراسات تمهيدية عن السكة العابرة للصحراء » . ونظرا لان وزير الاشغال العمومية آنئذ كان يحلم بالسكة العابرة للصحراء منذ صباه حينما كان يدرس في الكلية ، أي منذ سنة 1848 ، فانه لم يجد صعوبة في الاقتناع بقيمة المشروع الذي قدّم اليه ذلك التقرير عنه . ولما قدم تقريرا الى رئيس الجمهورية عن المشروع الذي اعتمده هو ، قال إن «السكة الحديدية سوف تربط الجزائر بالسنغال وستفتح سوقا هائلة لمائة مليون من المستهلكين للمنتجات الفرنسية » .

وبعد تشكيل لجنة حكومية عليا للمشروع أوفدت ثلاث بعثات كان آخرها برئاسة الكلونيل فلاتـر في سنة 1879 ، كلفت بوضع تصميم للخط في جنوب قسنطينة يمتد من ورجلة بلاد طوارق أجّار .

وفلاتر هذا ، على الرغم من أنه عسكري المهنة (بينما يتسم المشروع بطابع تقني معقد) فهو على كل حال لم يكن غريبا عن الصحراء ، لأنه كان يشغل منصب الحاكم العسكري لمنطقة الاغواط . وكذلك قام هذا العسكري ببعض الجولات في الصحراء مدح من اجلها لدى الوالي العام ، المريشال بيليسيي . بل انه بلغ به الطموح في مجال الاستكشاف انه وضع مشروعا للرحلة الى تمبكتو التي اكتشفها أربعة رواد من قبله .

والمشكلة الاساسية التي واجهها فلاتر منذ البداية ، هي أن تعليمات وزير الأشغال الذي كلفه بهذه المهمة تنص على أنه يجب حتما أن تكون البعثة «سلمية» . ولكن كيف يطلب الى عسكري برتبة كلونيل أن يقوم بمهمة سلمية وهو الذي يتولى قيادة القوات العسكرية في الصحراء . وإذا رضي هو أن يجرد نفسه من السلاح ، كما تحتم ذلك اللجنة العليا للمشروع ، ويتناسى شخصيته العسكرية ، فهل يفترض من الثوار ومن الصجراويين عموما ، أن يتناسوا هذه الشخصية ايضا ويستقبلوه بالكرم والحفاوة التي استقبلوا بها الرواد المدنيين في الماضي ؟

عقدت البعثة أول اجتماع بكامل هيئتها في بسكرة في أول فبراير 1880 ، وكانت تتكون ، الى جانب رئيسها ، فلاتر ، من ظابطين برتبة نقيب ، وضابطين برتبة ملازم ثاني ، وطبيب ، ومهندسين ومندوبين عن وزارة الاشغال .

ولما وصلت البعثة الى ورجلة ، جمعت الحرس الضروري لمرافقتها من الاهالي ، ومعظمهم من الشعانبة المعروفين بعداوتهم للطوارق .

وفي تيمسنين (التي سميت فيما بعد « فور فلاتر») ، دخلت اللجنة في محادثات لاول مرة مع رجال الطوارق ، وهناك عرف فلاتر أن احد زعيمي الطوارق ، وهو اهيتاغل امنيكول ، زعيم الهجار يتجول في الجنوب الغربي لجبال الهجّار ، بينما يوجد زعيم الطوارق أجار ، ايخنوكن ، في منطقة غات . ونظرا لأن الاول كان بعيدا ، فقد قرر فلاتر أن يطلب موعدا للاجتماع بالثاني ، وعلى الرغم من أن هذا الزعيم كان يبلغ سن المائة وأن نفوذه لم يكن أكثر من اسمي ، فقد قرر رئيس البعثة الاعتماد عليه لضمان تعاون الطوارق مع السلَطات الاستعمارية ، ولهذه الغاية ، بعث إليه برسالة يرجوه فيها ان يستقبله عند بحيرة منغوع ، عند منتصف الطريق من غات .

* *

سارت البعثة في طريقها في اتجاه غات وكان الطوارق الذين يقابلونهم هنا وهناك لا يبدون أي شعور عدواني نحوهم . ولما وصلت الى المكان الذي حدده فلاتر للموعد مع زعيم الطوارق ، أمينوكل ، حطت البعثة رحالها بضعة

أيام وبقيت تنتظره . وفي هذه الاثناء ، كان ما تحمله جمالها من الزاد يتناقص كل يوم في الوقت الذي كان فيه حرسها من الشعانبة يبدون فتورا وميلا الى التخلي عنها . ولذلك اتخذ فلاتر قرارا بالعودة .

وفيما بعد عرف أن امينوكل ، زعيم الطوارق ، قد حضر فعلا الى بحيرة منغوغ ، ولكن عقب رحيل البعثة عن هذا المكان بوقت قصير .

كانت البعثة قد قامت في غضون هذه الرحلة بمسح 1200 كيلو متر من الطريق المخطط للسكة الحديدية عبر الصحراء ، في الوقت الذي قامت فيه بدراسات جغرافية وجيولوجية، كما سجلت ملاحظات عن احوال الطقس والحيوان والنبات ، الأمر الذي كان موضع رضا اللجنة الحكومية للسكة العايرة للصحراء .

وفي هذه الاثناء وضع مشروع تمهيدي لخط للسكة الحديدية يمتد بين وارجلة وأمجيد على مسافة 600 كيلو متر .

على أن ما اعتبر نجاحا نسبيا للبعثة لم يكن كافيا لحمايتها من حملات النقد التي كانت توجه إليها والى مشروع السكة العابرة للصحراء بصفة عامة ، في مجلس النواب . وهذا النقد أغاض فلاتر الى حدّ دفعة الى التعجيل برحلة ثانية للدراسة والمسح . وقد ضمت البعثة في جولتها الثانية معظم الاعضاء الذين شاركوا في الرحلة الأولى ، كما أضافت اليهم عناصر جديدة معظمهم من المهندسين والخبراء في مختلف المجالات . وكذلك رافقت البعثة فصيلة عسكرية تتكون من خمسين من رجال القناصة الجزائرية واثنين وثلاثين من رجال القبائل الذين جندو المساعدة القوة العسكرية لتوفير الأمن والحماية .

وقبل أن تشرع البعثة في رحيلها إلى الهجّار ، كتب فلاتر رسالة إلى زعيم هذا القبيل ، اهيتغيل ، الذي رد عليه برسالة أولى تنطوي على كثير من التهديد والوعيد ، ولكنه الحق هذه الرسالة برسالة أخرى اكثر تشجيعا للفرنسيين .

كيف وصلت اخبار ما دبره الوطنيون الطوارق لهذه البعثة الى علم فيرو ، قنصل فرنسا العام في طرابلس الذي كتب الى فلاتر يحذر من نيات الطوارق

العدوانية ، أمر لا يزال سرا من الأسرار المحيّرة . ولكن المهم هو أن غطرسة الكلونيل لم تسمح له بان يعير هذا التحذير ما يستحقه من الاهتمام .

وفي 4 ديسمبر 1880 ، غادر فلاتر وارجلة على رأس البعثة التي تتكون من عشرة من الخبراء الاروبيين بالاضافة الى قوة الحراسة التي يبلغ مجموع رجالها 78 رجلا ، واتجه في المرحلة الاولى الى الجنوب الغربي ، فمرّ بحاسي إينفل ليصل الى أمْجيد في 19 يناير 1881 .

وفي هذه الأثناء بعث زعيم الطوارق برجاله ليدلوا البعثة ويرشدوها في سهول امدرور ، وبذلك كانت خطة الكمين محكمة للغاية .

وفي 16 فبراير سارت جماعة من رجال البعثة وعلى رأسهم فلاتر برفقة الدكتور جايارد عن بئر تسمى بئر « الغرامة » في منطقة جبلية وعرة ، بينما بقيت البعثة تنتظرها مع قوة الحراسة التي كانت أوامر الملازم الاول ، ديانوس .

ولما وصلت الجماعة الى بئر الغرامة ، كان في انتظارها فرسان الطوارق المدجّجين بالسلاح ، وعندما رءاهم فلاتر سار في اتجاههم مشهراً مسدسه ، هو وماصون ، وقد عاجله أحد رجال الطوارق بحرية ولكنها أخطأته . وكذلك اتسع الوقت للفرنسيين لتسديد رصاصهم إلى الطوارق فقتلوا واحدا وجرحوا آخر . وهكذا بدأت المعركة التي ستفني فيها بعثة السكة العابرة للصحراء . فبعد اصابة فلاتر وزميليه اصابات قاتلة ، راحت القناصة تقاوم مقاومة عنيفة . وفي هذه الجولة الأولى قتل ستة وثلاثون من رجال البعثة تاركين وراءهم أسلحتهم وجمالهم غنيمة للطوارق .

وفي مساء المعركة التي وقعت عند بئر الغرامة ، وبعدما هرب من نجا من افراد القوة التي كانت تدافع عن فلاتر ، اعطى الملازم الاول ، ديانوس الأمر الى بقية البعثة بالتراجع . وهنا تبدأ المأساة الحقيقة للناجين من رجال البعثة الذين يبلغ عدد 56 رجلا (خمسة منهم من الفرنسيين) . فبعدما فقدوا جمالهم ، أخذوا يسيرون على الأقدام في الصحراء حاملين معهم ما أمكن من الزاد في اتجاه وارجلة التي تبعد عن بئر الغرامة بمسافة أربعين يوما ، وفي أرض رملية لا يسمع فيها إلاّ عواء الذئاب ولا تتحرك في جنباتها سوى الضباع والطوارق .

وبعد مضي أسبوع على المسيرة البائسة التي لا تذكر أحدا بمنظر القطار العابر للصحراء ، نفد زاد الفارين ، فراحوا يذبحون الكلاب التي كانت ترافقهم ليقتاتوا بلحمها . وبعد ذلك لم يبق أمامهم من مورد للطعام سوى الاعشاب الصحراوية . ولكن المشكلة الحقيقية هي مشكلة نفاد الماء . وعلى الرغم من أن بعض رجال الطوارق اخذتهم الشفقة بحاله الهاربين وتصدقوا عليهم ببعض التمر ، فان حالتهم لا تحتمل . وعقب ظهور حالات الجنون بين افراد البعثة أختل النظام فيها .

وفي احد أودية أمجيد هجم عليهم فريق من الطوارق ، وبعد دفاع مستميت ، سقط صريعا قائد القوة العسكرية الملازم الأول ديانوس واثنان من رفقائه الفرنسيين .

ولكن المأساة قدر لها أن تتحول الى اعمال لا مثيل لها في الفضاعة والوحشية فإن الذين بقوا على قيد الحياة من أعضاء البعثة البائسة راحوا يأكلون لحم الموتى من زملائهم لسد الرمق . ولما سقط رقيب الخيالة بوبجين ميتا من الجهد والعياء ، انقض على لحمه الذي لا يزال ساخنا زملاؤه في البعثة .

وفي 28 مارس وصل عدد صغير من رجال القناصة ممن نجوا من الموت الى وارجلة ليقصوا المأساة بحذافيرها . فإن اعضاء البعثة الفرنسيين ماتو جميعا ، وأما القوة العسكرية المرافقة التي تتكون من 78 رجلا فقد قتل منهم 54 رجلا كما وقع عدد آخر أسرى في يد الطوارق .

وكان لاخبار كارثة البعثة وقع الصاعقة في الرأي العام في فرنسا وقد بعثت تفاصيل أكل الضباط الفرنسيين للحم زملائهم قشعريرة في نفوس الملايين . من هو المتوحش ؟ من هو المتحضر ؟ أتكون الحضارة قشرة سطحية لا تعلق الا بجلود الرجل الشبعان الذي يشعر بالأمن والطمأنينية ؟ إن تقاليد الشرف العسكري كثيرا ما دفعت بالضباط الى الانتحار متى خدش شرفهم ، ولكن كيف تفسر قيادة الجيش الوحشية التي تتمثل في اكل اللحم البشري ؟

إن الكثيرين كانوا يعتقدون ، لفضاعة القضية ، أن قصة فلاتر ليست الا أسطورة من الفولكلور الطوارقي الغني بالاساطير . ولذلك ، فعندما أذاع

جبري المترجم العسكري ، نصا جديدا للقصة وجد صدى وأذنـا صاغية في بعض الأوساط . ومـضمـون القـصة الجـديـدة ، هو أن فلاتـر لم يقتـل ، بل هو حي يرزق وقد تجنس بجنسية الطوارق الذين اخذوه اسيرا ، وانه يعيش في واحة تاجَايَسْ مع ابنته الطوارقية التي تبناها واسمها « ايسْمَاو» والتي يحبها حباجما . بل إن المترجم الذي كان واثقا مسبقا من أنه لن يعدم من يصدق روايته ، ذهبت به الجرأة الى حدّ القول بأنه اجتمع بفلاتر وبابنته وتحدث إليهما ، ولم يتردد في أن يقدم وصفا لكل منهما . من يدري ؟ ربما كان فلاتر لايزال في سراب الصحراء على متن جمله ، كما لا يزال يعيش «زاباطة» على متن فرسه الابيض في اذهان الماكسكيين . ان الأسطورة لا تعترف بحدود !

*

* *

الفصل الخامس

رواد التبشير

اختلفت أغراض المستكشفين والرواد في الصحراء الكبرى باختلاف جنسياتهم وهواياتهم . فمنهم من اندفع وراء المغامرة بحثا عن المجهول ، ومنهم من كان هدفه جمع المعلومات العلمية عن طبيعة الصحراء وسكانها ، ومنهم من كان يعمل لحساب حكومة اجنبية تسعى لاستكشاف الطرق التجارية تمهيدا لبسط سيطرتها الاستعمارية على البلدان المتاخمة للصحراء ، ولكن فريقا آخر كان يهتم ، فيما يزعم ، بانقاذ أرواح الصحراويين من الوبال والعذاب في الاخرة ، بادخالهم الى حظيرة الدين المسيحي الذي هو الدين الوحيد في رأيهم . من البديهي أنه ما من أحد من رجال الدين المسيحي ليجرؤ على عرض بضاعته على سكان الصحراء المسلمين ، قبل أن يركز الاستعمار قواعده على ضفتي الصحراء ، فان أولئك الرواد الذين ختنوا انفسهم وادعوا الاسلام ، هم أنفسهم لم يكد الواحد منهم ينجو بجلده لاعتدائه على حرمة الأرض الصحراوية إلا بشق الأنفس . ولكن العصور غير العصور والأوضاع غير الأوضاع .

فإذا كان الفصل بين الدين والسلطة السياسية قانونا لا محيد عنه في فرنسا منذ الثورة الفرنسية ، فان الكنيسة والكهنوت ستصبح اداة لا غنى عنها لارساء قواعد الاستعمار في افريقية . ومن جهتها ، وجدت الكنيسة في السلطة الاستعمارية حجرا للقفز إلى المناطق المجهولة لنشر مبادىء الدين الذي طغى عليه إلحاد اللائكيين في أوروبا ، بين السود « المتوحشين » .

ولكن المشكلة التي واجهها المبشرون منذ البداية هي أن أرواح سكان شواطيء الصحراء قد أصيبت بعدوى جرثومة خطيرة من الصعب مقاومتها أو الحد من انتشارها . وهذا المرض الذي انحرفت به حالة السكان الطبيعية هو الاسلام الذي انتشر في هذه المناطق وورثه الكثيرون أبا عن جد . ولكن هذه العقبة ليست خطيرة ولا يمكن أن يقف عندها المبشر الصادق العزم ، ولا سيما وأن الكنيسة سوف لا تبخل عنه بوسائل الاغراء في الوقت الذي توفر له فيه السلطة الاستعمارية الحماية والتسهيلات التي يحتاج اليها .

انطلقت حركة التبشير في اتجاه بلاد القبائل في المرحلة الأولى منذ أن أنشا الكردينال لافيجري (Lavigerie) نظام الاباء البيض ، أي بعد توليه منصب الكردينال بوقت قصير . وهذا القسيس النشيط ، هو الذي صرح لدى وصوله الى الجزائر بقوله :

« إن الجزائر باب مفتوح بيد العناية الالهية على قارة متوحشة يعيش عليها مليونان من النفوس » .

وكذلك كان تأمين الصحراء وتهدئتها لفتح الطريق أمام المبشرين الذين يقصدون الى افريقية السوداء ، من الاهداف الأساسية التي تعاونت الكنيسة والسلطة الاستعمارية لتحقيقها تعاونا وثيقا .

ومنذ سنة 1876 تَحدَّت الكنيسة جميع العراقيل وبعثت بثلاثة مبشرين ، وهم الآباء يولميي وموريه وبوشاند عبر الصحراء . وهذا الحدث التاريخي اعلنه الكردينال لافيجري في بيان رنان لا تنقصه العجرفة وروح التحدي ، جاء فيه :

« في هذه الساعة يوجد ثلاثة من المبشرين من رجالنا في بلاد الطوارق ، وعما قريب سوف يدخلون إلى تمبكتو في عزم وتصميم ليستقروا في عاصمة السودان أو يلقوا فيها حتفهم حبا في الحقيقة » .

ولكن التنبؤ الأخير هو الذي شاءت الاقدار أن يتحقق ، لان القساوسة لثلاثة لم يتجاوزوا القليعة حيث قتلهم نفس الطوارق الذين كلفهم الكردينال بمرافقتهم ، والذين كان قد وضع فيهم أكثر مما يستحقون من الثقة .

ولكن الاباء البيض الذين ظهرت حركتهم في سنة 1873 ، بدلا من يستخلصوا الدرس الذي يفرض نفسه من هذا الحدث ، ثارت ثائرتهم وظهرت عليهم اعراض الحمّى الدينية بحيث كان كل واحد منهم يطالب بارساله في مهمة عبر الصحراء ليخلف اخوانه « الذين سقطوا في ميدان الشرف » ، كما كانوا يقولون .

وأما الكردينال لافيجري فقد نعاهم بالعبارة التالية : «لقد ذاقوا ألم الموت في سبيل الله » . ولكن الرجل لم يَنحنِ ولم يتراجع أمام هذا الفشل الذريع ومنذ بداية سنة 1878 ، أصدر أمراً إلى رئيس البعثة الدينية في وارجله بأن ينتقل الى غدامس ليستقر هنالك .

وكذلك أصبحت غدامس مقرا للبعثة التبشيرية التي يرأسها الاب ريشارد الذي كان يتحدث العربية كأحد أبنائها والذي اشتهر بمهارته في ركوب الخيل والمهاري معا . وهناك وفي تلك البيئة التي يسود فيها الفقر ، أظهر القسيس براعته في مجال الاخر ، وهو توزيع المواد الغذائية على السكان ـ تلك السياسة التي تضمن له مسالمة الشعانبة ، بل وصداقة بعض رجال الطوارق أيضا .

وبعد ما قضى بضعة أشهر في الاستعداد للقيام برحلة استكشافية دينية عبر الصحراء ، انطلق من غدامس برفقة رجلين من الطوارق وعربي ينتمي الى قبيلة الشعانبة واتجه الى تسيلي أجار ، ثم صعد الى تامسنين . وكذلك تمكن من التجول في بلاد الطوارق دون ان يقع له مكروه ، وقد اعتبر ذلك فتحا مبينا ، وعقب هذه الرحلة الاستطلاعية ، بقي على الكنيسة الآن ، ان ترسي قواعد التبشير وترسل البعثات لانقاذ أرواح الضالين . وكذلك كانت الخطوة التالية هي إرسال بعثة تبشيرية إلى غات ، وهو عمل يشكل توغلا في قلب الصحراء .

ولكن مذبحة الكلونيل فلاتر التي وقعت بعد عودة الاب ريشارد من الطوارق ، ببضعة اشهر سوف تضع حدا لنشاط حركة التبشير في هذا الاتجاه ، على الاقل ، مؤقتا . فإن النصر الحاسم الذي سجله الطوارق في تلك العملية شجعهم ووطد عزمهم على منع الغزاة الاجانب من الاقتراب من اراضيهم مهما كان القناع الذي يرتدونه . وكذلك أصبح اسم الطوارق والهجّار يثير الخوف ويحرك ذكريات مرة في نفوس الفرنسيين الدينيين منهم وغير الدينيين على السواء .

وازاء هذه الحالة ، كان من رأي الكردينال لافيجري ترك الوقت حتى تستقر الاوضاع وتهدأ النفوس في جنوب الصحراء . ولكن حماس الاباء البيض تغلب على تعقل رئيسهم ، وكذلك راح الاب ريشارد الذي لا يزال تحت تأثير نجاح رحلته يتضرع الى الكردينال ويرجوه ان يسمح له بالذهاب الى بلاد الطوارق الذين يضع فيهم كل ثقته . وهكذا أذن له بالسفر فسار في رفقة اثنين من القساوسة في شهر ديسمبر 1881 ، الى غات .

وبعد ثلاثة أيام من السير وقع الثلاثة في كمين نصبه لهم الطوارق في مكان غير بعيد من غدامس . ومما يستحق الذكر أن الأشخاص الذين نصبوا هذا الكمين ينتمون الى نفس القبيلة الطوارقية التي استقبلت الاب ريشارد قبل ذلك بسنة ، وكان يعلق عليها كل آماله . لقد قتل القساوسة الثلاثة واشعلت النار في ثيابهم التي كانوا يرتدونها لإيهام الأهالي بأنهم لا يختلفون عنهم .

وهكذا سقط في الصحراء في ظرف خمس سنوات ستة من القساوسة الذين ينعتونهم بالشهداء . حقا ، إن غزو الارواح أصعب كثيرا من عزو الاراضي . وهذه الحقيقة أدركها رجال الكنيسة جيدا في هذه المرة ، وسوف لا يجددون مساعيهم لانقاذ أرواح الطوارق الا بعد ذلك بعشرين سنة ، أي في بداية هذا القرن .

نشاط شارل دوفوكول :

يعتبر شارل دوفوكول أكبر مستكشف ديني للصحراء وأخطر المبشرين قاطبة . وخطورة دوفوكول ، هي في أنه عقلية علمية من الدرجة الأولى (وهو خريج مدرسة سانسير) وفي أنه يحمل في نفسه شعلة متقدة من الايمان ويجد لذة في المتاعب وفي التضحية بالراحة ومتع الحياة .

بدأ دوفوكول حياته الاستكشافية برحلة الى المغرب الاقصى (سنة 1883 و 1884) . وقد كانت المعلومات الدقيقة والغزيرة التي جمعها خلال رحلته هذه دليلا قيما وموثوقا به ، بعد ذلك بنصف قرن للقوات العسكرية الفرنسية التي كانت تقوم بعمليات التهدئة في جنوب المملكة . وبعد عودته الى فرنسا قام دوفوكول بتحرير مذكراته عن هذه الرحلة ، ثم قام برحلة اخرى الى الصحراء

الجزائرية حيث قام بجولة من المغرب الى الشرق عبر سلسلة الواحات : الاغواط ، غرداية ، القليعة ، وارجلة ، توجورت الخ ، وقد أفضت به هذه الرحلة الى الجنوب التونسي والى قابس .

كان شارل دوفوكول يهتدي بمعالم الاستكشاف التي وضعها سلفه ، دوفيريي ، الذي كان على اتصال دائم به ، وكانت تربط بين الرجلين عرى وثيقة من الصداقة . وقد كان دوفيريي هو الذي وضع التقرير الذي منحت الجمعية الجغرافية على أساسة شارل دوفوكول ميدالية ذهبية ، وعندما كان الرجلان يجتمعان كان الحديث لا يدور بينهما الا على الطوارق وعلى تحديد دور كل منهما في استكشاف هذه المناطق .

ولكنه على الرغم من السحر والانجذاب الذي كان يشعر به دوفوكول نحو الطوارق ، فإن إقامته الاولى بعد ما دخل في نظام الدين لم تكن في الهجّار ، بل في بني عباس ، الواحة التي تمتد في جنوب وهران .

وفي سنة 1903 ، التقى دوفوكول بزميله في الدراسة في مدرسة سانسير ، لابرين (Laperrine) الذي اقنعه بأن ينتقل الى الهجّار الذي لم يكن قد وقع بعد كلية تحت سيطرة الاستعمار .

وفي بني عباس استقر دوفوكول وشرع في نشاطه ، فإن هذه الواحة قد أعجبت المبشر أيمّا اعجاب وقد وصفها بالعبارات التالية : « ومن هذه الواحة يشرف الناظر على صحراء حمّادة الشاسعة ، ويمتد بصره في سماء صافية لا نهاية لها وتذكرنا بذات الاله العظيم » .

وفي سنة 1905 ، اقنع لايبرين صديقه دوفوكول بان يرافقه في رحلة اسطلاعية عبر قبائل الطوارق والمناطق المجاورة للهجّار والتي كان الفرنسيون قد دخلوا اليها منذ نحو عامين فقط . كانت هذه الجولة التي اشترك فيها القسيس المبشر ذات طابع سياسي وإداري بحت ، ولكنه مع ذلك سيستفيد مما توفره له من فرص الاتصال بالسكان كما سيستغلها لتسجيل ملاحظات علمية عن الصحراء ، على غرار ما صنعه اثناء جولته في الصحراء المغربية التي توجها بكتابة المعنون « la reconnaissence au Maroc

وكذلك قامت هذه البعثة ببعض الاعمال التي تناولت الجيولوجيا والطبوغرافيا والجغرافيا واحوال الطقس والحقل المغناطيسي ، بل وشملت أيضا بعض الارصاد الجوية .

ولكن المجال الذي يهم المبشر دوفوكول أولا وقبل كل شيء هي أرواح الطوارق التي يريد انقاذها من عذاب جهنم ويضمن لها جنة الخلود . ولهذه الغاية ، فهو يريد أن بدرس هذا الشعب دراسة وافية ويعمل « لازالة ما يساور نفوس ابنائه من الشك وسوء الظن واحكامهم المسبقة ضدنا ، وأن نثبت لهم اننا نحبهم ونريد إقامة علاقات اخوة معهم » .

وفي سنة 1905 ، اشترك دوفوكول في بعثة ثانية افضت به الى تمنراست ، حيث قرر أن يبني ديرا له .

وفي فترة لاحقة سيشيد القسيس المبشر مبني خاصا لسكنه يقع على احدى قمم الهجّار ، تسمى « اسكريم » ويبلغ ارتفاعها على مستوى البحر 2700 متر ، حيث سيقيم في عزله وتأمل .

وأما طريقة دوفوكول في التبشير بالدين المسيحي بين المسلمين في الطوارق ، فهي بسيطة الى حد السذاجة ، ولكنها دائما يمتزج فيها التأمل العميق والتفكير في مصير المسيحية في هذه البلاد بمصير الاستعمار . والقطعة التالية التي سجلها بقلمه والتي نترجمها بالنص توضح لنا منهجه العملي في التبشير وتعطينا فكره دقيقة عن اهداف نشاطه . كتب دوفوكول يقول :

« كنت أحاول أثناء جولاتي دائما أن اقترب من المخيمات السكنية وأن أدخل في علاقات مع الاطفال الصغار وذلك بان أقدم لهم السكر ، ولكنني لم اسجل نجاحا في هذه المساعي . فقد كان مرآى عندهم اشبه شيء بمرآى الشيطان نفسه ، فكانوا يطلقون سيقانهم هاربين صارخين قبل أن يختفوا في الخيمة .

قد يبدو من الغريب أن ألحّ على موقف أطفال صغار لا تتجاوز أعمارهم ما بين الخامسة والثانية عشرة . ولكن الأطفال في عملية الاتصال بالسكان هم أشبه شيء بمرآة تعكس تفكير آبائهم . وهؤلاء قد يضعون أقنعة على عواطفهم

الحقيقية ويخضعون ويتذللون أمام القوة بحكم الضرورة ، وذلك في الوقت الذي يكتمون فيه غيضهم على مضض ويسترون بعضهم البعض والحقد الذي يعتلج في صدورهم نحو الأجنبي الذي لا ينتظرون سوى الفرصة الأولى التي تتاح لهم للتخلص من ربقته ، وأما الأطفال ، فهم أقل حيلة ومكرا . فهم يصغون إلى ما يتحدث به آباؤهم تحت الخيمة ، وعندما يرون الأجنبي يطلقون سيقانهم للريح ويعولون . وهذا معناه أن الرأي العام ضدنا .

ولكنه يمكننا بواسطة الأطفال أن ندخل إلى نفوس الآباء ونهدىء من روعهم . وأنا قمت بتجربة هذه الطريقة عدة مرات . انها لفرصة لتقريب المترددين منا ، وفرصة للدخول في اتصال مع المتطرفين الذين يبغضوننا . وهؤلاء في العادة يمتازون بقوة الشخصية ، إنه لمن الصعب على رئيس سياسي أو ضابط أن يخطو الخطوة الأولى نحو الأهالي الساخطين والذين يلازمون موقف العزلة ولا يبدون سوى مظاهر اللياقة ، وعلى العكس من ذلك ، فإنه لمن المسلي ومما لا يحط من قدرنا أن نحاول بث الثقة فينا في نفوس الأطفال ونوجه إليهم أسئلة ونقدم إليهم هدايا بسيطة . والأمهات يتابعن هذه المحاولات بكل اهتمام . وإذا مررت أمام الخيمة يبتسمن لك ويوجهن إليك عبارة طيبة . والأب سيحييك وذلك قبل أن يطلب مقابلتك ذات يوم ليشكرك على طيبة قلبك . وبهذا تتحطم الحواجز التي تفصل بيننا وبين الأهالي . والطفل هو المستقبل . والقرية التي يحب فيها الأطفال الضباط ويعتبرونهم آباء يدللونهم ، تشعر بسعادة عندما يخيم الجيش في أرضها . وبعد عشر سنوات سيكبر أطفال القبيلة وينمو معهم الولاء لأفكارنا . إن هذه القبيلة قد انحازت إلى صفنا»

وإلى جانب نشاطه التبشيري قام دوفوكول بنشاط ، أهمه عنايته بلغة تيماشق ، لغة الطوارق ، وبكتابتها «تيفيناغ» التي تحتوي على نسبة كبيرة من حروف اللغة الفينيقية . وقد عمل في هذا الحقل عدة سنوات بصبر العالم ومثابرته وجمع وثائق هامة . وأهم المؤلفات التي ظهرت له في حياته في هذا الموضوع هما «نحو لغة تافيناغ» وقاموس فرنسي طوارقي .

وبعد اغتياله في سنة 1916 ، عثر في منزله في تمنراست على مادة «موجر قاموس فرنسي طوارقي ، نشر في مجلدين ويبلغ مجموع صفحاته 1450 صفحة . وكذلك ترك نصوصا طوارقية مترجمة إلى الفرنسية تشكل مجلدين من الشعر والنثر الطوارقي .

*
* *

الفصل السادس
أقاليم الصحراء

الواحات المصرية :

الواحة ، أو الْواح ، مفرد الواحات ، وهي كلمة أجنبية قال ياقوت الحموي إنه لا يعرف معناها ولا أصلها ، وإن كان يظن أنها قبطية ، ثم قال انها ثلاث كور في غربي مصر ، ثم غربي الصعيد .

والواحة بمثابة جزيرة في بحر الرمال يحيط بها الامتداد الرتيب وغير المتناهي من جميع الاتجاهات . والمسافر في الصحراء يصدم نظره عندما يقترب من احدى الواحات ما بين هذه الجنات اليانعة والخضرة الدكناء والمياه المتدفقة من التناقض مع ما يحيط بها من الرمال القاحلة وانعدام كل أثر للحياة .

والحياة المتدفقة التي تصادفنا في الواحات مصدرها الماء الذي يجري تحت الأرض . فإن المطر الذي يسقط في الصحراء لا يبقى فوق سطح الأرض إلا وقتا قصيرا قبل أن يتبخر بفعل حرارة الجو أو تمتصه الرمال فيهبط بسرعة إلى طبقات الأرض السفلى حيث يجد المجاري الملائمة حتى يشكل احتياطيا ثابتا لا يلبث أن يندفع من طبقة سفلى إلى طبقة عليا ، ويعود من جديد إلى سطح الأرض .

تلك هي القاعدة ، وأما الواحات التي يرويها نهر أو مجرى مائي فوق سطح الأرض ، فهي استثناء من القاعدة .

ولكن الماء ليس هو العامل الوحيد في حياة الواحات لأن النخلة تلعب دور أساسيا في تكوين البيئة الصالحة للحياة في الصحراء . فإن النخلة التي هي شجرة الصحراء ، تحتاج إلى كثير من الرطوبة ، كما تحتاج عروقها إلى اختزان كميات كبيرة من الماء والرطوبة حتى تتمكن من مقاومة حرارة الشمس . وفي مقابل ذلك ، فهي بقامتهـا المرتفعة وأوراقها وصحائفها الكبيرة الحجم تمد محيطها بكثير من الرطوبة والظل ، مما يتيح جوا ملائما لأشجار الفواكه التي هي أصغر منها لكي تنمو وتزدهر ، مثل أشجار البرتقال والليمون والرمان والمشمش والخوخ والكروم والنباتات بمختلف أنواعها .

ويمتد جوّ الرطوبة الذي توفره هذه الأشجار في مجموعها ليشمل الحقول التي تزرع بالقمح والشعير والبقول ، وكل ذلك يشكل المناخ المثالي لحياة الإنسان والحيـوان .

ولذلك كانت أقسى أشكال الخراب والدمار الذي تنزله الحرب في الصحراء في العصور الغابرة تتمثل في قطع أشجار النخيل . فإن هذا العمل لا يعني مجرد حرمان سكان الواحات من الغذاء الطبيعي ، بل معناه أيضا نشر الموت والقفر في جميع المنطقة ، حيث أن الأشجار والنباتات المجاورة للنخلة لن تلبث أن تجف وتيبس جذورها في الوقت الذي تمتد فيه رمال الصحراء شيئا فشيئا لتقضي على معالم الحياة .

وهكذا ، ولهذه الأسباب ، كانت النخلة ولاتزال ملجأ للنبات والحيوان وللإنسان الذي يجد في ظلها الوارف العيش والأمن والسعادة .

ولكن لنعد إلى الثروة المائية التي يحتوي عليها جوف الأرض في الواحات بصفة عامة . إن عددا صغيرا من واحات الصحراء ترويها أنهار ومياه جارية على سطح الأرض . وهذه مثلا ، هي حالة مصر ، هبة النيل ، التي هي أعظم الواحات في العالم . ولكن معظم الواحات إنما تستمد مواردها من المياه الجوفية الكامنة في أعماق باطن الأرض . ونحن نعرف أن مياه الأمطار التي قد لا تنزل أكثر من مرة أو مرتين في السنة وتتبخر نسبة كبيرة منها لا تكفي لتكوين احتياطي الواحة على المدى الطويل . فالحياة تستمر في واحة عدة قرون متوالية (مثل ما هي

في وادي ريغ وميزاب وبسكرة الخ) ، بل ولربما كانت الواحة مهداً لحضارة عريقة ولدت وازدهرت وماتت في تربتها (مثل سجلماسة وتمبكتو) . وبعبارة أخرى ، فإن موارد المياه الجوفية فيها موارد عظيمة وتكاد تكون غير قابلة للنفاد .

والسؤال الذي يتوارد على الذهن في هذا السياق ، هو : كيف تكون هذا الاحتياطي الهائل من السائل الثمين في ظروف الطقس الصحراوي التي نعرفها ؟

فالأمطار التي تنزل في الصحراء كثيرا ما تتبخر في الجو وقبل أن تلامس الأرض . ومتى وصلت إلى سطح الأرض ، كثيرا ما تمتصها القشرة الفوقية لتجف معها بعد لأي ولا تكاد تصل إلى الجوف لتغذي الاحتياطي المودع فيه .

وهذا الاعتبار هو الذي دفع ببعض العلماء ، وفي مقدمتهم «باسارج» (Passarge) إلى الاعتقاد بأن الماء الجوفي الذي يغذي الحياة في الواحات قد تكون (مثل الأودية الميتة) منذ العهد الذي تكونت فيه الطبقات الجيولوجية . وهذا ، إن صح شيء مدهش ومثير للخيال حقا ! لأن معناه أن الثمرة التي نتغذى منها اليوم تحتوي على ذرات من الماء الذي نَمَتْ به والذي ادّخره جوف الأرض منذ العصر الجليدي والذي كانت تعيش به وتسبح فيه حيوانات فنت وانقرضت منذ ملايين السنين !

هذا فيما يتعلق بواحات الصحراء بصفة عامة ، وفيما يتصل بالواحات المصرية خاصة ، ينبغي أن نقدم بعض الملاحظات عن المحيط الصحراوي الذي توجد فيها ، قبل أن نتحدث عنها كوحدات أو كمجموعة . للصحراء المصرية واجهة بحرية طول امتدادها نحو الشمال ونحو الشرق 8 درجات طولا ، و 8 درجات عرضا . والبحر الذي يحدّ الصحراء المصرية ، هو البحر الاحمر من الشرق والبحر الأبيض من الشمال .

والبحر الأبيض الذي يربط مصر بالتيار التجاري الأروبي ، ذو أهمية تاريخية تبدأ بعهد الفنيقيين ولا تقل عن أهمية تيار التبادل والاتصالات بين مصر وأروبا وأمريكا في العصر الحديث .

وأما البحر الأحمر ، فقد كان باب الصحراء الكبرى منذ أقدم العصور ، وعن طريقه كانت شعوب الصحراء تتصل بالجزيرة العربية في عهد الملوك

الحميريين ، وبشبه الجزيرة الهندية وبمختلف مناطق حضارات الشرق الأقصى عبر المحيط الهندي .

وأهمية الشواطيء الشرقية والشواطيء الشمالية للصحراء ، تذكرنا بضئالة قيمة شواطئها الغربية على المحيط الأطلسي وبفقرها . فإن هذه الشواطيء لم تكن في وقت من الأوقات تشكل منفذا إلى أية منطقة حضارية أو قاعدة تجارية مع أية نقطة في العالم .

ذلك هو الإطار الجغرافي العام لعدد من الواحات في الصحراء المصرية أهمها في المنطقة الشرقية الخارجة والداخلة وفرافره والبحرية ، وهي واحات قديمة ورد ذكرها في تاريخ هيرودوت ، وكل واحدة منها عبارة عن نقطة كبيرة من الخضرة اليانعة وحديقة جميلة من حدائق الصحراء .

وهذه الواحات لا يوجد أي ارتباط من المساحات الخضراء فيما بينها ، كما أنها لا صلة لها بوادي النيل أو بأي نهر آخر ، وكل مواردها تنحصر في المياه التي تتبجس من الطبقات الأرضية الجوفية . والجدير بالذكر أن نسبة هامة من مياه واحات الخارجة والداخلة تصعد من الأرض ساخنة وتبلغ درجة حرارتها 39 درجة سنتيجراد .

واحة الخارجة :

واحة الخارجة عبارة عن واد واسع يتجه من الشمال إلى الجنوب على مسافة مائة ميل تقريبا ، ويبلغ متوسط عرضه 12 ميلا . وقد كان المسافرون حتى عهد قريب يصلون إلى الخارجة عن طريق إسنا أو فرشوط ، وتستغرق المسافة إليها من فرشوط على ظهور الجمال أربعة أيام . أما في الوقت الحاضر ، فإن قرية الخارجة ترتبط بفرسوط بسكة حديدية ضيقة طولها مائة ميل .

وأهم قرى واحة الخارجة : باريس وبولاق وجناح . ويعتبر البلح (وهو نوع من التمر ، أهم ما تنتجه الواحة ، حيث يوجد فيها ما لا يقل عن 70 نخلة .

وكذلك توجد في الخارجة مختلف أنواع المزروعات التي ترويها آبار ارتوازية تم حفرها في العهود الأخيرة . ولكن الواحة كان قد أصابها القفر

والخراب في عهد الشريف الإدريسي (أي في القرن السادس الهجري 12 ميلادي) ، حيث قال الجغرافي الصقلي عنها ما يلي :

«وأرض واحة صحراء الخارجة الآن صحراء لا أنيس بها ، بلقع لا عامر لها . والمياه بها موجودة ، وكانت على القدم معمورة متصلة الثمار والعمارات . وكان فيما سبق من الزمن الدخول عليها ومنها إلى مدينة غانة في طرق مسلوكة ومناهل معلومة ، لكنها انقطعت ودرست . وبين الواحة وحد النوبة مسيرة ثلاثة أيام في مفاوز غير عامرة . وبالواحة الخارجة أغنام وأبقار متوحشة ، وفي أرض الواحة جبل علساني المعترض بها ، وهو جبل سامي الذروة ، على القمة متساو عرضه أسفل وفوق ، وفيه معدن يستخرج منه اللازورد ويحمل إلى أرض مصر فيصنع بها ويصرف ، وفي أرض الواحة يخرج الثعبان ولا يكون البتة في غيرها من الأرضين . والثعبان على ما يحكيه أهل تلك النواحي يرى كالتل الكبير يلتقم العجول والأكباش والإنسان . وهو حيوان على صورة الحية ينساب على بطنه ، وله اذنان بارزتان وأنياب واسنان وحركة بطيئة وياوى الى الكهوف والدهاس. فمن قصده أو اعترضه بمساءة التقمه وأمضى عليه ، ولا يخرج عن هذه الأرض الا ويموت . وهذا مشهور الذكر ، شائع الخبر . »

لماذا حل الخراب والقفر بهذه الواحة بعدما كانت عامرة مستفيظة الخيرات ، وكيف وصل الامر بها حتى تكون خالية من البشر بحيث تصبح ابقارها واغنامها متوحشة ؟

ربما كان الرد عن هذا السؤال ما ذكره المقريزى الذي عاش في اوائل القرن التاسع الهجّري (أي حوالي ثلاثة قرون بعد الادريسي) حين يقول إن أحد ملوك القبط قد وقع على هذه الارض فوجدها واسعة كثيرة العيون والعشب ، فبني فيها منابر ومنترهات وأقام فيها جماعة من أهل بيته فعمروا تلك النواحي وبنوا فيها حتى صارت أرض الغرب عمارة كلها ، وأقامت كذلك مدة كثيرة ، وخالطهم البربر فنكح بعضهم من بعض . ثم انهم تحاسدوا وبغى بعضهم على بعض ، فكانت بينهم حروب ،فخرب ذلك البلد وأباد أهله الا بقية بقية منازل» . ذلك ما قاله المقريزي في كتاب المواعظ والاعتبار.

الواحات الداخلة :

احدى مجموعات الواحات الجنوبية بالصحراء المصرية الليبية (وبعض الكتاب يدخلون واحة الفرافرة ضمن هذه المجموعة) وهي على مسيرة أربعة أيام من الفرافرة الى الشمال . والواحات الداخلة أصبحت اليوم جزءا من مديرية أسيوط ، وأهم بلدة فيها هي قرية « موت » .

وهذه الواحات لا نكاد نعرف شيئا عن تاريخها سوى ما يصادفنا في الكتب القديمة بشأنها ، واغلب ما فيها يتصل بامراء اسطوريين ويروى في صيغ العجائب والغرائب . ومن هذا القبيل ما يذكر عن بحيرة كانت فيها يقال إنه لا يحوم حولها طائر الا وقع فيها . وقيل أيضا أنه لا يقترب أحد من أبواب مدينتها الاربعة التي يحرسها اربعة تماثيل من النحاس ، الا وقع في سبات عميق لا يفيق منه الا اذا نفخ فيه سكان المدينة .

ويبدو أن هذه الواحات التي يشيد أبو عبيد البكري بخصوبتها ، تقع (مثل الخارجة المتقدمة) على طريق القوافل الكبيرة التي تتجه الى غانه والتي طمستها الرمال منذ القرن السادس عشر الميلادي . وقد جاء في وصف الادريسي لهذه الواحات ما يلي :

« وأما الواحات الداخلة ، فان بها قوما من البربر وعربا متحضرين يزرعون هناك حيث المياه النيلنج اللواحي [وهو] معروف بالطيب والجودة يفوق كثيرا من النيلنج الذي بغيرها . وتنتج بهذه الأرض مع ما اتصل بها من أعلى ارض السودان حمير صغار المقادير ، في مقدار الكباش ، بسواد في بياض لا تحتمل الركوب عليها ، وإن خرجت عن ارضها هلكت لا محالة . وبرمال الواحات وما اتصل بها من أرض الجفار حيات كثيرة تستتر في الرمال ، فإذا مرت بها الجمال ، ثارت من الرمال ورمت بانفسها حتى تقع في المحامل فتنهش هناك من وافقته فيموت في الحال » .

واحة فرفرة :

تحدث البكرى عن هذه الواحة التي تقع في غربي أسيوط باسم فرفرون (مثل اليعقوبي) ، فقال .

« ومن اريش ثلاثة أيام الى الفرفرون . وبالفرفرون معادن الشبّ المريش القصبي ، وفيها أنواع الزجاج ، وفيها العيون الحامضة ، وغير ذلك من المياه المختلفة الاطعمة . والفرفرون هذا كثير الاشجار والنخيل ، وفيه قرى كثيرة وأهلها قبط نصارى . ومن الفرفرون الى الواح الداخل اربع مراحل في صحرا لا ماء فيها ولا عمارة ، وهذا الواح الداخل كثير الانهار والعمارات والحصون منها حصن يسمى بالقصر في وسط عين ماء ثرّثار ، يتشعب منه انهار تسقى زرعهم ونخلهم وثمارهم ، وتسير منه في قرى متصلة الى حصن يسمى قلمون ، مياهه حامضة منها يشربون ويسقون وان شربوا سواها من المياه العذبة استوبئوها . وآخر هذا ألواح الداخل قرية تسمى القصبة ، لها مياه عذبة سائحة تسقى نخلها وثمارها ، ولها ثلاثة اعين ملحة يجتمع ماؤها في سباخ فيكون ملحا ، ملح العين الواحدة ابيض ، وملح العين الثانية أحمر ، وملح العين الثالثة اصفر . وهذا الاصفر هو المستعمل بمصر وبرقة ومن هذا الواح الى الواحين الخارجين ثلاث مراحل ، وهوآخر بلاد الاسلام » .

الواحة البحرية :

وفي مقابل الواحات الداخلة تقع واحة البحرية . والواحة البحرية في الوقت الحاضر مركز من مراكز مديرية المنيا ، ومدينتها هي الباويط . ومن قراه القصر ومنديشة والعجوزة والذبو .

والواحة مشهورة بخصبها وبصفة خاصة بتمرها وعنبها . وتزرع فيها كذلك الحبوب والأرز وقصب السكر ، وخاصة النيلة ويوجد بها معدن الشب وسلفات الحديد ، ولو أن هذه المعادن ليست مقصورة على البحرية ، بل هي موجودة كذلك في واحات أخرى من الواحات المجاورة . وخصب البحرية يرجع الى وفرة مياهها ، وهي مياه ساخنة .

وأهمية واحات الصحراء المصرية الليبية التي كان بعضها معروفا منذ عهد الفراعنة ، هي في أنها تقع على الطريق الصحراوية الكبرى والوحيدة الموجودة خارج الشريط الذي يمتد على وادي النيل . وهذه الطريق التي تمتد في اتجاه غانة تنتهي عند مكان غير بعيد من مدينة طيبة الفرعونية ، حيث تنتهي

أيضا طرق أخرى اتية من الجزيرة العربية ولا سيما الطريق الاتية من قوص .
وأما قيمة الواحات الاستراتيجية فقد تأكدت منذ أن بنى داريوس ، ملك معبد «هيبيس» الجميل في الخارجة .

واحدة كفرة :

مجموعة هامة من الواحات ظلت مجهولة حتى وقت متأخر ولا نجد لها أثرا في الأدب الجغرافي العربي القديم . انها تقع في عزلة تامة في قلب الصحراء ، وهي النقطة المعمورة على طريق القوافل الصعبة التي تمتد بين البحر الأبيض المتوسط وبلاد بوركو ، ثم وراء بوركو في أقصى الجنوب الى أوداي .

كتب المؤرخ والجغرافي جوتية في كتابه عن الصحراء لدى ذكر واحة الكفرة يقول :

«إن واحة الكفرة تقع في قلب الصحراء الليبية ، إذا حسبنا المسافات بطريقة رياضية . ومهما يكن الاتجاه الذي يأخذه المسافر منها ، يتحتم عليه أن يقطع ما يتراوح بين 400 و 500 كيلو متر من القفر والمحل قبل أن يصل الى منطقة معمورة .»

والمعتقد أن الكفرة كانت عصورا طويلة تحت سيطرة التبو الذين لا تزال فيها آثار قراهم ، وذلك قبل أن يستولي عليها السنوسيون مع ما استولوا عليه من واحات هذه المنطقة ويتخذوا منها المركز الرئيسي للطريقة السنوسية في منتصف القرن التاسع عشر ، وقد سكنها منهم محمد بن علي السنوسي .

ومن واحة الفكرة نشر السنوسيون نفوذهم وطريقتهم الدينية في اتجاه الجنوب ، وبصفة خاصة ، في اتجاه بوركو وتيبستي حيث بنوا المساجد وكونوا شبكة هامة من العلاقات التجارية مع الشمال .

كان الرائد الالماني روهلفس الذي اسلفنا الحديث عنه هو أول مستكشف اروبي وصل الى الكفرة ، وقد مرت على اكتشافه لها فترة اربعين سنة قبل أن يحاول مستكشف آخر الوصول اليها .

في سنة 1878 ، أي منذ قرن على التحديد ، كلفت الجمعية الافريقية في المانيا روهلفس باستكشاف الحوض الشمالي لنهر الكونغووالاراضي المجاورة له ،

وكان على هذه البعثة أن تنطلق من طرابلس وتسير في اتجاه الكفرة وتعبر الصحراء ، وقد اصطحب روهلفس معه مساعدا تشيكوسلوفاكيا اسمه انطون ستيلك كان متخصصا في التاريخ الطبيعي كما كان يحسن الرصد . وكذلك رافقه نمساوي وعاملان المانيان .

وفي طرابلس استأجر روهلفس خدمات دليل في الصحراء ، شاء حظه أن يكون ابن الشخص الذي عمل دليلا لسلفه ، الرحالة بارث الالماني ، وأيضا لدوفيريي ولنا شتيجال .

ومن المزايا التي كانت تتمتع بها هذه البعثة أن رئيسها كان يحمل رسالة من سلطان تركيا موجهة إلى عامله على طرابلس يوصيه فيها برعاية البعثة وبتقديم التسهيلات الضرورية التي تحتاج اليها في مهمتها الشاقة .

وبعد إعداد الرحلة بعناية ، سار روهلفس ورفقاؤه ميمّمين شطر أوداي الذي يحملون الى سلطانه هدايا ثمينة من امبراطور المانيا . وقد غادرت البعثة طرابلس في 18 ديسمبر 1878 .

وفي المرحلة الأولى توقف روهلفس في واحة أوجلة التي سبق أن زارها في سنة 1869 ، وقد استغرق السير الى هذه الواحة ثلاثة أشهر كاملة في أرض قفراء قاحلة لا أثر فيها للحياة . ومن هناك اراد روهلفس الانطلاق لاستكشاف واحة الكفرة ، ولكنه نظرا لأن هذه الواحة كانت خاضعة ، كما قلنا للسنوسيين الذين كانوا يرفضون كل اتصال بالاروبيين ، فإن روهلفس لم يجد دليلا يسافر معه ويرشده في الطريق .

ولما قرر المستكشف السفر مستغنيا عن خدمات الدليل ، رفض الخدم الذين كانوا يرافقونه السير معه ، خوفا على حياتهم ، وعندما فشلت كل محاولاته لاقناعهم بالعدول عن موقفهم بعث يرفيقه التشيكوسلوفاكي الى بنغازي لطلب النجدة بدليل بينما بقي هو نفسه في اوجله . ولكنه لم يلبث ان تلقى أخبارا بأن مساعده وجد صعوبات في مهمته في بنغازي ، ولذلك قرر الالتحاق به . وهناك ، توصل ، بمساعدة قنصل ايطاليا الى اتفاق مع اثنين من أعيان المدينة التزموا له بان يقودوا البعثة الى الكفرة .

وآثر ذلك اتجه روهلفس الى الجنوب وتجاوز واحة أوجله في القفار التي تقع وراءها الكفرة . وفي هذه الرحلة قطعت البعثة مسافة 400 كيلو متر في ظرف أربعة أيام ، وست ساعات وهو رقم قياسي لسرعة السير في الصحراء ، فيما نعلم . وقد كانت البعثة تسير بدون توقف تقريبا .

وفي أول اغسطس وصل روهلفس الى واحة تيسربو ، وهي احدى واحات مجموعة الكفرة ، وبدلا من أن يقتنع بالفوز الذي حققه بالوصول فعلا الى الكفرة ، اتسعت آفاق مطامحه وأبى الا ان يستكشف المجموعة كلها ، وبذلك عرض نفسه لمأساة فضيعة . فإن احد الشخصيتين اللتين استأجر خدماتهما في بنغازي قد اتفق مع بعض الاهالي وتعرضوا بالنهب لقافلة البعثة وخربوا معسكرها وأخذ روهلفس نفسه هو ورفقاؤه أسرى ، على أن الاروبيين تمكنوا من الفرار ووصلوا الى بنغازي وهم يجرون وراءهم أذيال الخيبة ولا يملكون شرونقير .

وهكذا احتفظت الكفرة باسرارها بعد ذلك ، ولم يجرؤ احد من المغامرين الاروبيين على السير في اتجاهها . الا بعد مرور 35 سنة حينما أخذ جندي ايطالي اسيرا في الحرب الليبية الايطالية في سنة 1913 واحتفظ به هناك سجينا ، وقد بقي اربع سنوات في واحة الكفرة .

وفي سنة 1920 حاولت مستكشفة انجليزية وهي الآنسة روزيته فوبز (R. Fobes) استكشاف الكفرة في رفقة رجل مصري تخرج من جامعة اكسفورد ، وهو حسنين (باشا فيما بعد) الذي أصبح رئيسا للديوان الملكي في عهد فؤاد الأول وابنه فاروق .

كانت الفتاة الانجليزية ترتدي ثيابا عربية وقد قررت أن تسلك نفس الطريق التي سلكها روهلفس ، وقدرت أن تستغرق المسافة التي قطعها الرحالة الالماني في ظرف أربعة أيام وست ساعات ، اسبوعا كاملا وتزودت بالماء الكافي لذلك . ولكنه بعد ما سارت قافلتها اربعة أيام فقد دليلها معالم الطريق والاتجاه ، فتاهت البعثة ولم تنج من الهلاك الا بمعجزة .

وهكذا كانت قيمة هذه الرحلة لا تتجاوز حصيلتها من المشقة والمتاعب . فلم تسفر عن أي استكشاف جغرافي أوكشف علمي .

وفي سنة 1922 وصل الى الكفرة سالكا طريق الجنوب الغربي فرنسي يدعى لابوى ، ولكن هذا المستكشف مات هناك إثر جرح احدثه في جسده اسد في سنة 1924 .

وفي السنة نفسها ، قرر حسنين المصري القيام برحلة استكشافية في واحة الكفرة ، وقد كان هدفه بعض الواحات من المجموعة كان قد سمع في رحلته السابقة انها لا تزال مجهولة للعالم الخارجي ، ولم يصل إليها احد خارج المنطقة . وفي شهر ديسمبر 1922 ، وصل حسنين الى السلوم ، عند الحدود المصرية الليبية ، على رأس بعثه أشرف على تنظيمها الملك فؤاد نفسه ، وكون حسنين عربي مسلم ويرتبط بصلة وثيقة مع الاسرة المالكة في مصر ، كان ، بدون شك ، من العوامل التي سهلت مهمته كثيرا في منطقة يسيطر عليها السنوسيون . وقد كانت قافلة حسنين تتكون من 15 رجلا و 37 جملا مثقلة بالزاد والخيم الخ .

كان حسنين يتمتع بتكوين علمي ممتاز حيث كان خريج اشهر الجامعات الانجليزية ، وهذا الاعتبار هو الذي سمح له بأن يقوم بتسجيل ملاحظات علمية قيمة في هذه الرحلة . وكذلك قام بتصحيح بعض المعلومات والإرصاد التي كان قد سجلها من قبل سلفه الألماني روهلفس .

وبعد مسيرة ثمانية أيام في التيه والارض المجهوله بحثا عن الواحات المجهولة ، كللت جهوده بالنجاح وعثر على ضالته المنشودة .

وهكذا اكتشف واحتي اركنو والعرونة اللتين تقف كل منهما على جبل صحراوي يرتفع فجأة عن الامتداد الرّملي في الصحراء المصرية ، ويبلغ قطره 160 كيلومتر ، كما يصل ارتفاع أعلى قممه الى 2000 متراً فوق مستوى البحر . وهذا الجبل يتناقض مع البيئة القفراء المحيطة به من حيث أن مياها غزيرة تجري في أوديته وتسقي كثيرا من أراضي الواحتين اللتين يكثر فيهما العشب والنباتات وتوجد بهما اشجار وغزلان وحيوانات اليفة .

وزيادة على اكتشاف الواحتين اللتين تمثلان جزرا في الرمال القفراء ، اكتشف الرائد المصري فيهما رسوما وصورا صخرية بديعة تدل على براعة سكانها وعلى مبلغ ما وصلوا اليه في القديم من التقدم الفني ، وقد اثار هذا الاكتشاف اهتمام كثير من العلماء والدوائر المختصة في اروبا في حينه .

وبعد ما أقام مدة في الواحتين المجهولتين ، واصل حسنين رحلته الاستكشافية في اتجاه الجنوب حتى وصل الى منطقة أردى بافريقيا الاستوائية ، وفي هذه المرحلة ، واجهت البعثة كثيرا من الصعوبات فماتت بعض جمالها واصيب رجالها بالتعب والاجهاد . وفي تلك الظروف سجل حسنين في مذكراته العبارة التالية : « نقص مالدينا من الماء حتى أوشك على النفاد . وفي غضون الليالي الاخيرة وصل بي الأمر الى أن أتساءل عما إذا كانت الصحراء لا تريد الاحتفاظ بسرهاتين الواحتين المغمورتين بان تفني جماعتنا الصغيرة وتدفن جثثنا تحت الرمال » .

وفي اليوم الحادي عشر بعد خروج البعثة من واحة العوينات وصلت الى أردى الغنية بالماء والعشب والأشجار ، وكانت قد قطعت أكثر من 3500 كيلومتر في اتجاه الشمال / الجنوب في الصحراء المصرية الليبية التي استخلصت منها آخر أسرارها . وبعد هذا الاكتشاف ببضع سنوات قامت إيطاليا بـغزو واحة الكفرة في سنة 1930 بجيش يتكون من 5000 جندي ونحو عشرين طائرة .

واحة سِيوَة :

يذكر الجغرافيون العرب سيوه باسم سَنْترِيَّة ، ولو أن ابن خلدون ذكرها باسم تِسْوه ، واليعقوبي باسم سِوَا . وأما اليونان فقد كانوا يطلقون عليها اسم أمونيوم (Ammonium) . والاسم الحديث هو الذي تحمله القبيلة الرئيسية في المنطقة بنو الوسوة ، من افخاذ لوّاته . ذكرها ياقوت الحموي وقال انها تقع في غربي الفيوم دون فزان السودان ، وهي آخر أعمال مصر . وقال عنها البكري :

« وسنترية هذه كثيرة العيون والثمار والحصون ، واهلها بربر لا عرب فيهم .

وبعد حقبة من العز والازدهار الذي عرفته سيوه في عهد أمون ، أي في منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، غزا الاسكندر الاكبر هذه الواحة على رأس جيش كبير لم ينج من الموت بالعطش منه سوى عدد صغير . وعقب ذلك دخلت سيوه تحت حكم قرطجنة . والواحة تشتمل على آثار تمثل كل هذه العهود التي عرفتها ، بما في ذلك آثار رومانية .

وفيما يتصل ببداية العهد الاسلامي ، فنحن لا نعرف كيف ولا متى فتح المسلمون واحة سيوه التي تقع بعيدا عن الطريق التي سلكها العرب لفتح المغرب .

وما أورده الجغرافيون العرب عن سيوه لا يسمن ولا يغني من جوع ، وعلى الرغم مما ذكره البكري ونقله عنه ياقوت من أن أهلها بربر ، فان مما لا شك فيه وجود عنصر العرب بين السكان وربما نزح أليها في وقت متأخر ، لان الادريسي الذي وصف هذه الواحة يقول عنها وعن مدينتها ما يلي :

« ومدينة سنترية صغيرة وبها منبر وقوم من البربر واخلاط من العرب المتحضرة ، وهي على أول الصحراء . ومنها إلى البحر الشامي في جهة الشمال تسع مراحل . وشرب أهل سنترية من ابار وعيون قليلة وبها نخل . » .

وفي عهد المقريزي تدهورت الحالة الاجتماعية في سيوه بحيث كان عدد سكان الواحة لا يتجاوز قرية لا يزيد عدد سكانها عن 600 نسمة ، وهم « يعرفون بسيوة ، ولغتهم تعرف بالسيوية تقرب من لغة زناتة ، وبها حدائق ونخل وأشجار من زيتون وتين وغير ذلك وكرم كثير . وبها الآن نحو عشرين عينا تسيح بماء عذب » .

وقد بدأ الاروبيون في استكشاف واحة سيوه ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر ، فكان المستكشف الانجليزي ، براون (Brown) هو أول من زارها في سنة 1792 ، ثم اعقبه الالماني هو رنمان (Hornman) بعد ذلك بست سنوات ، وقد توالى الرواد والمستكشفون والعلماء عليها بعد ذلك .

وفي سنة 1838 نزل بها محمد السنوسي واخذ ينشر طريقته السنوسية هناك واجتمع حوله كثير من المريدين والانصار . وبعد اعلان الحرب العالمية الأولى ، أنضم احمد السنوسي ، شيخ الطريقة فيها الى صف الانجليز وانخرط اتباعه في الجيش الانجليزي .

ولما جلى الأنجليز عن السلوم في سنة 1915 ، سارع إلى احتلالها وزحف في اتجاه الغرب حتى وصل إلى مرسى مطروح حيث لقي جيشه هزيمة اضطر على اثرها الى الالتجاء الى سيوه . ومن هناك قامت القوات السنوسية بشن هجوم على الواحات الداخلة والخارجة المصرية . ولكن القوات الانجليزية باغتت

السنوسيين في سنة 1917 في سيوه ، معقلهم ، فاضطر أحمد السنوسي الى الفرار الى الشاطيء ، ومن هناك حملته غواصة تركية الى الاستانة . وقد خلفه في الزعامة ابن عمه محمد ادريس ، حفيد السنوسي الكبير . وواحة سيوه تقع عند ملتقى طريقين صحراويين كبيرين يربطها احدهما بمدينة طيبة القديمة وبسلسلة الواحات البحرية والفرافرة والداخلة والخارجة الى الجنوب ، ويربطها الطريق الآخر ، وهو طريق معبد تسير فيه السيارات ، بالبحر الابيض المتوسط ، ينتهي عند مرسى مطروح التي كان القدماء يسمونها (Parœthman) .

وسيوه تقع على مسافة 200 ميل من البحر ، وعلى مسافة 260 ميلا من أوجلة الى الجنوب ، ونحو 200 ميل عن الواحات البحرية . وهي في قاع منخفض يمتد من الغرب الى الشرق على ارتفاع 60 قدما فوق سطح البحر ويبلغ طوله 35 ميلا . وهذه المساحة لا يقبل الزراعة منها سوى حوالي ربعها ، وأما الباقي ، فهو صحراء وسبخات تجري فيه مياه مغنيسية أو كبريتية من العيون الكثيرة التي تغذيها بحيرة جوفية عميقة .

وأهم عناصر السكان الذين يبلغ عددهم نحو 600 ألف نسمة يقطنون مدينة سيوه نفسها وقرية أعزمي التي شيدت على هضبة صخرية تطل على بساتين نخل واسعة ، والتي تحتوي آثار معبد «جوبيتر آمّون» ، وفي عدد من القصور .

ونشاط سكان القصور ينحصر في استغلال بساتين النخيل الذي هو أهم ما يزرع في سيوه ، حيث يزيد عدد اشجار النخيل في الواحة عن 160 ألف نخلة .

وكذلك يشكل التمر أساسا لغذاء السكان ، مع خبز الشعير والكسكس والارز ، وذلك الى جانب لحم الجمل والضأن .

وتوجد في سيوه صناعات تقليدية بسيطة مثل جدل الحلفاء وخوص النخيل ، وصناعة الفخار الذي يزين باللون الاسود والاحمر ، على نفس الطريقة التي لا تزال متبعة في مختلف اطراف المغرب .

واسلام سكان سيوه ، على الرغم مما تتسم عقيدة سكان الواحة من التشدد الذي يقرب من التعصب (وكثير منهم من اتباع الطريقة السنوسية) لا يزال

مشوبا بالخرافات . وقد اندست فيه عادات وتقاليد من الممكن العثور على اصولها في العهود الوثنية ، ومن هذه العادات ما يتصل بالاحتفال بالمولد النبوي ، وخصوصا بمولد ولي مدفون هناك يسمى سليمان ، قيل أنه عاش في القرن الخامس عشر وأن اصله من الجزيرة العربية .

والاحتفال بمولد هذا الوالي يجري في نهاية موسم الحصاد ولمدة ثلاثة أيام متتالية يقضونها في الاكل والشرب على أديم الأرض يتناولون الخرفان المشوية التي يسقونها بنبيذ الخمر المسكر ، وهم يشربون حتى يثملوا ، وبعد ذلك يسيرون في مواكب ويرقصون على انغام النايات يتقدمهم غلام يلبسونه لباس فتاة ، وبعد انتهاء ايام هذا المهرجان الغريب يعودون في المساء الى بيوتهم على اضواء المشاعل ، وذلك بعد ماياتون بطقوس منكرة اخرى .

ومن ابرز عادات سكان سيوه تزويج الفتيات في سن مبكرة جدا ، أي ابتداءا من سن الثامنة أو التاسعة . وقبل الزفاف يقدم العروس حلى وملابس ومهرا لا يتجاوز حده ، حسب العرف 120 قرشا (أي نحو 10 دينار جزائري) . وعند غروب الشمس يوم ما قبل الزفاف تسير العروس في موكب الى عين تسمى « عين تموسي » وتلقى فيها بطوق من الفضة كان يزين جيدها ويسمى « طوق العذراء » ثم تعود الى بيتها ليتم تزيينها . وفي اليوم التالي ، ياتي اقارب العروس وصاحباتها الى بيتها ويتظاهرن بالعراك أمام افراد اسرتها . وعند انتهاء هذه التمثيلية الساذجة تحمل أمرأة زنجية ضخمة الجثة العروس على كتفيها الى بيت الزوج . والجدير بالذكر أن تعدد الزوجات غير معروف في سيوه .. لانه متى سئم الرجل زوجته طلقها واستبدلها باخرى ، كما يستبدل معطفه القديم ...

فزان :

يمثل فزان (Phazania القديمة) الخلفية الصحراوية لولاية طرابلس ، ويحده من الشمال صحراء حمادة الحمراء وجبل السوداء ، ومن الجنوب جبل طومو الذي يشكل الحدود السياسية حاليا بين ليبيا والتشاد ، وتبلغ مساحة ولاية فزان 600000 كيلو متر مربع . وأراضي فزان تشكل حوضا كبيرا تتخلله منخفضات تنتشر فيها مجموعة من الواحات ترويها حقول ماء جوفية تقع على

عمق غير بعيد من السطح ، وتظهر أحيانا في شكل بحيرات صغيرة . ويقدر عدد العيون الموجودة في فزان بـ 375 عينا ، بينما يزيد عدد الآبار في هذه الولاية عن 2700 بئرا لا يزيد العمق الذي يوجد عنده الماء عن 20 مترا .

وسكان فزان خليط من البربر والعرب والطوارق والتبو والزنوج . وأهم الأودية التي تجري في فزان ، هي ، من الشمال الى الجنوب ، وادي شياطي الذي يجري في جنوب صحراء حماده الحمراء ، ويمده بالماء عدد من الروافد الصغيرة والعيون ؛ ووادي اجيال الذي تأتيه موارده من مياه جوفية قليلة العمق ، وتنتشر على جنباته الخضرة على مسافة 100 كيلو متر . وفي وادي اجيال تقع المدينة الرومانية القديمة جرمة (Garma) التي لا تزال آثارها قائمة والتي فتحها عقبة بن نافع ، بعدما اخضع ودّان في سنة 46 هجرية .

ومدينة جرمة التي وصفها أبو عبيدة البكري بانها « مدينة فزان العطمى » ، كانت مدينة كبيرة ، كما تدل على ذلك الحفريات التي قامت بها بعثة من المنقبين الايطاليين ، وقد قام شعبها بدور عظيم الاهمية بوصفها حلقة اتصال بين البحر الابيض والصحراء الكبرى .

وكذلك يجري في فزان ، ودائما من الشمال الى الجنوب ، وادي الحفرة الذي تنتشر في جهاته البحيرات والتي تقع فيها واحتان :

مرزق وطرغان :

ومرزق (محافظة سبها) كانت قرونا طويلة عاصمة فزان الاقتصادية وملتقى لطرق كبيرة للقوافل تربط طرابلس بالتشاد وتجعل من هذه المدينة مركزا من المراكز العالمية للتجارة في الرقيق ، ولكن المدينةتدهورت أوضاعها نتيجة لانقطاع ورود الرقيق إليها بعد تحريم التجارة في اللحم البشري في أوائل القرن الماضي ، وقد قدر المستكشف الألماني ، بـارث ، عدد سكان مرزق عندمـا مرّ بها في سنة 1851 ، بنحو 3000 نسمة ولكن هذا العدد الصغير نفسه تقلص بحيث لم يكن يتجاوز 400 نسمة عندما احتلها الايطاليون في سنة 1930 .

وهذه أيضا حالة طرغان التي تقع على مسافة 50 كيلومتر منها . وطرغان هي المدينة الرومانية (Pagarin) وهي من غير شك ، المدينة التي ذكرها

الادريسي باسم تساوه ، وقال إن السود يسمون تساوة جرمة الصغرى وأن بين المدينتين مرحلة أودونها ..

وأما وادي حكمة الذي يجري في فزان ، فهو قليل الماء ولا يسكن في نواحيه سوى عدد صغير (نحو 1000) من الفزانين والتبو ، واكثرهم يقيمون في واحة القطرون .

ومن الخصائص التي يذكرها الشريف الادريسي لفزان وجود معدن فضة في جبل من جباله يسمى جبل جرجيس ، وقال انه عدل عن استغلاله الطالبون في عهد لقلة فائدته .

كانت فزان منطقة مزدهرة العمران في عهد الرومان . ومدينة جرمة المبنية بالحجر الصلد ، وخصوصا مقبرتها ، تدل على أن عمارة البلد كانت متسعة ، وأن عدد سكانه كان كبيرا ،

وفي العصور الوسطى كانت فزان تشكل مملكة مستقلة تحت سلاطين من العرب والبربر ، واحيانا تحت ملوك من الزنوج ، كما كانت الحال في مملكة الكانم وبورنو المجاورتين .

ولكن تنافس الامراء والرؤساء المحليين وتعرض البلد لغزو البدو ونهبهم باستمرار ، عوامل أثرت على ازدهاره ورخائه الاقتصادي مع مرور الزمن . ولما استقر الاتراك في العصور الحديثة في طرابلس ارهق الباشوات سكان فزان بالضرائب وحولوا لصالحهم كثيرا من الموارد الكبيرة التي كان البلد يجنيها من تجارة الرقيق .

ونحن لكي نأخذ فكرة عن هذه الموارد ، يكفي أن نذكر بما اورده المستكشف الرحالة بارث في مذكراته حين قال إن عدد العبيد الذين مروا بمرزق في سنة 1864 (وهو تاريخ كانت التجارة فيه قد حرمت منذ نصف قرن) بلغ اربعة آلاف عبد .

ونتيجة لتدهور الحالة الاقتصادية تناقص عدد سكان فزان في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، وقد قدر الرحالة الاسكندر فوجل عدد سكان فزان كله في منتصف القرن الماضي ، بما لا يزيد عن 50000 نسمة . ولكن هذا

العدد تضاءل في أوائل القرن الحالي بحيث لم يكن يتجاوز 3600 نسمة عند احتلال الايطاليين لفزان في سنة 1936 .

وفي الوقت الحاضر يبلغ عدد سكان محافظة سبها ، طبقا لآخر الاحصائيات 47,700 نسمة .

وهذا العدد نفسه صغير ومتواضع جدا بالقياس الى مساحة البلد ، وخصوصا ، بالقياس الى موارده المائية الكبيرة ، فان بساتين النخيل في فزان تمتد على 29700 فدان ، والاراضي المروية منها وحدها تبلغ 6700 فدان . وأما الاراضي التي يمكن استصلاحها وتخصيصها للزراعة فهي اراضي واسعة جدا . وقد ادركت السلطات الليبية أهمية هذه العوامل ، فركزت على تنمية ولاية فزان التي وضعت لها مشروعا زراعيا قوميا في سنة 1973 ، يمتد على عشر سنوات وخصصت لتنفيذه مبلغ 700 مليون دينار ليبي . والمشروع يهدف خصوصا ، إلى استصلاح الأراضي ويشمل إلى جانب فزان ، منطقة الجفار والجبل الأخضر وسرير الكفرة . ومن أهم مميزات المشروع تركيزه على التوسع في إنتاج الحبوب وإنتاج الألبان وتربية المواشي والدجاج والفواكه والخضروات .

واحة أوجلة :

تقع اوجلة في جنوب طرابلس على مسافة 150 ميلا الى الجنوب الغربي من قابس ، وعلى بعد 152 ميلا الى الشمال الشرقي من مرزق . وصفها الشريف الادريسي بأنها «مدينة صغيرة متحضرة فيها قوم ساكنون كثيرو التجارة . وهي في ناحية البرية يطيف بها نخل وغلات لاهلها ، ومنها يدخل الى كثير من أرض السودان ، نحو بلاد كوار ، وبلاد كوكو ، وهي في رصيف والوارد عليها والصادر كثير . » .

وبنفس الاوصاف تقريبا وصف ابن حوقل قبله جزيرة أوجلة التي قال عنها إنها ذات نخيل عظيمة وغلات من التمر جسيمة وقد كانت في وقته تابعة لحاكم برقة . وقال البكري عنها أنها «بلدة عامرة وفيها اسواق ومساجد» .

وأوجلة مجموعة من الواحات ، مثل الكفرة ، والواحة التي تحمل هذا الاسم لا يزيد طولها عن عشرة أميال وعرضها عن ميلين . ومن واحاتها جالون

التي هي أكبر قليلا من اوجلة ؛ وباتُفل . وتبلغ ثروة النخيل في هذه المجموعة نحو 200000 شجرة ، منها 40000 في اوجلة نفسها ومائة ألف في جالون .

والسكان ينتمون الى ثلاثة عناصر : 1) البربر (بنو أوجل) الذين يتحدثون البربرية وهم يعيشون في أوجلة وفي جالون ، وخصوصا في مدينة هذه الواحة ، لبو . 2) ، والمجابرة ، وهم بربر يتحدثون العربية ويقطنون في واحة جالون ، وهم مشهورون بممارسة التجارة 3) ، الزوية ، وهم قبيلة عربية . وهذه العناصر كلها غير نقية ، وهي مشوبة خصوصا بالدم الزنجي . والمستكشفون الاوائل لاوجلة من الاروبيين اربعة ، وهم ، هورنمان وباشو وهاملتون وبورمان ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن المستكشفين والرواد .

غدامس :

ترتبط واحات غدامس وغات ارتباطاً وثيقا بصحراء الجزائر حيث تقع كل منهما في حوض نهر اغرار ، كما ترتبط بصحراء ليبيا . وكلتاهما تقع على الحدود الليبية .

وغدامس تقع في مهد وادٍ ينزل من جبل نفوسة ويجري نحو اغرار ولكنه يقف دونه ويغور في تلال رملية . ومياه غدامس مثل مياه الجريد ووادي ريغ على الجانب الجزائري والتونسي ، مباه ارتوازية ولو انها ليست من آبار ، وانما هي من عيون جارية .

واسم غدامس التي كانت تحت حكم قرطجنة والرومان قديما ، هو سيداموس (Cydamus) ، وقد عثر المنقبون فيها على نقوش يونانية ولاتينية تشير الى أن الرومان كانوا يحتفظون بحامية عسكرية فيها . وكذلك تدل الانقاض والآثار التي عثر عليها في المنطقة التي تمتد بين غدامس وعين صالح ، على أن غدامس كانت قاعدة للنفوذ القرطجني في هذه المنطقة ولتيار تجاري بين البحر الابيض وداخل الصحراء .

وغدامس التي كانت مركزا من مراكز تجارة العبور للرقيق ، كانت لها فيما يبدو مدينة مهمة في العصر الاسلامي ، بل وقبل العصر الاسلامي أيضا ، حين كانت تأوى سجون الكاهنة . وقد اشتهرت في العصور الوسطى بدبغ الجلود

(الغدامسية) التي يقول ياقوت الحموي انه «لا شيء فوقها في الجودة ، كانها ثياب الخز في النعومة والاشراق» وهي أيضا بلد زراعي لابدّ وأن الزراعة كانت الى جانب التجارة تشكل قاعدة لرخائها وازدهار احوالها . وقد وصفها البكري بانها « مدينة لطيفة كثيرة النخيل والمياه . والكمأة تعظم عندهم حتى تتخذ فيها الارانب حجرة ...» وسكان غدامس يتحدثون العربية والبربرية .

وأما غات ، فهي ليست قديمة إذ يرجع تاريخ تأسيسها الى 4 أو 5 قرون وهي أيضا تملك موارد من المياه الارتوازية . وغات ترتبط ارتباطا طبيعيا بفزان التي تشكل قاعدة متوغلة له ، ولكن طريقا سلكها المستكشف الألماني بارث تربط غات بمنطقة آير ، أي بالنيجر.

واحات الجريد :

يطلق اسم الجريد على أربع واحات وهي توزر ونفطة والوديان والحمه . وتمتد اراضي هذه الواحات بين شط غرسة في الشمال ، وشط الجريد في الجنوب ، والمنطقة عبارة عن غور يكاد يكون متصلا يبدأ من خليج قابس وينتهي عند حدود الجزائر.

وتحيط بمنطقة الجريد تلال رملية من جميع الجهات تعزلها وتجعل منها جزيرة صحراوية ، وبسبب تكوينها الطبيعي تحتفظ بدرجة مرتفعة من الحرارة ، حيث يبلغ متوسطها السنوي 70 درجة فهرنهايت ، وقد تبلغ في الصيف 120 درجة . ومتوسط هطول الامطار في الجريد منخفض بحيث لا يتجاوز خمس بوصات في السنة ، ولكن البلاد غنية بموارد الماء من العيون والانهار. التي برع السكان في استغلالها لاغراض الري ، ولا سيما في منطقة قسطيلية ومدينتها الكبرى ، توزر.

وصف البكري توزر وموارد المياه فيها بالعبارات التالية : «هي مدينة كبيرة وحولها أرباض واسعة آهلة ، وهي مدينة حصينة لها أربعة ابواب ، كثيرة النخيل والبساتين والثمار إلا أن قصب السكر والموز لا يصلحان بها وحولها سواد من النخل ، وهي اكثر بلاد افريقية تمرا ويخرج منها في اكثر الايام ألف بعير موفورة تمرا وازيد . شربها من ثلاثة انهار تخرج من رمال كالدرمك رقة

وبياضا ، يسمى ذلك الموضع بلسانهم سرش ، وانما تنقسم هذه الثلاثة الانهار بعد اجتماع مياه تلك الرمال بموضع يسمى وادي الجمال ، يكون قعر النهر هناك نحو مائتي ذراع ، ثم ينقسم كل نهر من هذه الانهار الثلاثة على ستت جداول وتتشعب من تلك الجداول سواقي لا تحصى كثرة تجري في قنوات مبنية بالحجر على قسمة عدل لا يزيد بعضها على بعض شيئا ، كل ساقية سعة شبرين في ارتفاع فتر ، يلزم كل منه يسقي منها أربعة اقداس مثقال في العام » . ويمضي البكري فيصف طريقة ونظام توزيع المياه بين السكان بتفصيل ودقة تدعوا الى الاعجاب ولكن هذا المكان لا يتسع الا للاشارة اليها .

وفي مجموع واحات الجريد ما لا يقل عن مليون شجرة من النخيل تغل نحو 40 ألف طن من التمور الفائقة النوع في العام . وكذلك ينتج الجريد كثيرا من الفواكه المعروفة والقمح ، وذلك إلى جانب اشتهاره بعدد من الصناعات التقليدية ، مثل صناعة الأقمشة القطنية والحريرية والسجاد الخ .

وكذلك كانت منطقة الجريد في العصور الوسطى تعرف بأنها ملتقى للقوافل العابرة من عواصم الشرق في اتجاه الصحراء الغربية . ونحن نعرف أن عبيد الله الفاطمي قد سلك طريق الجريد ، حينما سافر متنكرا في زي تاجر في طريقه الى سجلماسة ليستلم بعد ذلك زمام الأمر في المغرب .

وتحدث ابن خلدون الذي يعتبر قفصة التي في الشمال ونفزاوة التي في الجنوب ضمن بلاد الجريد ، عن هذه المنطقة قائلا : « ثم بلاد الجريد ، قبلة تونس .، وهي نفطة ، وتوزر ، وقفصة وبلاد نفزاوة ، وتسمى كلها بلاد قسطيلية ، مستبحره العمران ، مستحكمة الحضارة ، مشتملة على النخل » .

وبينما يدخل البكري الحمة ونفطة في بلاد الجريد ، ويستبعد منها قفصة ، نجد أن قسطيلة عنده لا تنطبق الا على توزر التي يصفها بأنها «مدينة كبيرة عليها سور حصين ولها نخيل كثير ، والتمر والقسب بها كثير ، وهي مغوثه افريقية بتمورها ، وفيها الاترج الكثير الحسن الطيب الزكي ، واكثر الفواكه بها على حال معتدلة في الطيبة ، وماؤها غير طيب ولا مريء ، يجري في سواقيها في خلال أجنتها ، ونخلها اكثر منه بغيرها مما يجاورها ، وسعر الطعام بها

في سائر الأوقات غال لانه يجلب إليها ولا يزرع بها من الشعير ولا القمح الازرع تافه » .

وسكان الجريد الاصليين من بربر نفزاوة وقد كانت هذه المنطقة مسرحا لأشد مقاومة وجدها الفاتحون المسلمون ، حيث ان جريجوار ، الوالي البيزنطي (او الملك جرجير ، كما يسميه المؤرخون العرب) كان قد اعتصم في مدينة سبيطلة وقتل هناك في معركة مشهورة في تاريخ فتح المغرب .

وفي فترات لاحقة قامت بلاد الجريد بعدة ثورات على الاغالبة ، ولا سيما في السنوات 137 و 209 و 224 هجريه ولذلك ، فان الداعي الفاطمي ، ابا عبيد الله ، لم يجد صعوبة في فتح بلاد قسطيلية بعد اشتدت قوته ، وكان سكانها في اغلبيتهم على مذهب الخوارج .

وقد نجحت بلاد الجريد في المحافظة على طابعها المميز لها وعلى استقلالها الاقليمي ، وساعدها على ذلك عزلة موقعها وصعوبة الوصول اليها من الحواضر ، مثل القيروان والمهدية ، فكان خضوعها لمختلف الحكام والولاة في هذه العواصم صوريا واسميا ، فكانت مدن المنطقة ، على غرار قرى بلاد القبائل تحكمها وتدير شؤونها مجالس الشيوخ والأعيان ، أو تتولى حكمها قبائل ذات نفوذ معترف به ، مثل بني وطاس في توزر .

وهذه المجالس البلدية أقرها بنو حماد حينما خضع لهم الجريد ، بعدما استخصلوا هذه المنطقة من بني عمومتهم الزيريين ، حكام تونس ، فاعترفوا باستقلالها الذاتي واكتفوا بالسيادة التي تعترف بها لهم .

وبعد حكم الموحدين الذين عرفت المنطقة منهم حكما تعسفيا ، استعاد سكان الجريد استقلالهم ، بعدما انحلت عرى الدولة الموحدية ، وعززت هذه الجمهوريات الصغيرة ذلك الاستقلال اثناء الفتن التي نشبت بين امراء تونس وامراء بجايه من الحفصيين .

وقد تزعمت هذا النضال ورفعت لواء المقاومة ضد الحفصيين بعض الاسر القوية في نقطة وتوزر ، مثل بني يملول وبني يخلف وبني أبي منبع في الحمة ، بمساعدة العربان من بني هلال وبتحالف مع بني مزني أمراء بسكرة .

وقد غزا السلطان ابو بكر بلاد الجريد وولي عليها ابنه ابالعباس الذي اتخذ قفصة قاعدة . ولما مات انتقضت عليه ودانت بالطاعة لسلطان بني مرين ، ولما شتت جيش ابي الحسن عند القيروان اسعادت استقلالها الذي احتفظت به خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر (الثامن والتاسع الهجري) . وكذلك احتفظت هذه البلاد باستقلالها الذاتي في عهد الاتراك الذين كانوا يكتفون من سكانها بدفع الضرائب المستحقة عليهم .

* * *

الواحات الجزائرية :

إن واحات الصحراء الجزائرية تشكل عالما مستقلا بنفسه ، وهي تحمل كثيرا من الخصائص المشتركة بينها . ولعل ابرز هذه الخصائص هي قلة موارد المياه السهلة الاستغلال ، هذا إذا استثنينا بعض الواحات الواقعة في أقصى الجنوب. مثل تاغيت وبني عبَّاس التي ترويها عيون ثرِّة . وحالة واحات وادي سوف التي تقع في الصحراء الشرقية على الحدود التونسية أيضا حالة خاصة ، حيث أن المنطقة تتمتع بطبقة من الماء تقع غير بعيد تحت الرمال . والذين زارو سوف يعرفون أن في كل بستان من بساتين النخيل في هذه الواحات ، تتبجس المياه بغزارة تحت الرمال التي تتساقط عليها وتحاول ردمها ، بحيث أن مهمة صاحب البستان ليست توجيه قنوات الري اكثر مما هي العمل لدفع الرمل الذي تتساقط حناياه ويردم القناة .

قلنا إن حالة هاتين الواحتين استثنائية ، وأما معظم الواحات الجزائرية ، فإن استخراج الماء فيها بواسطة الابار الارتوازية والفجارات يتطلب مجهودا بشريا كبيرا ، لان طبقة الماء تقع على عمق كبير تحت سطح الارض .

وواحات الصحراء الكبرى ، بصفة عامة تنقسم الى فئتين اساسيتين فيما يتعلق بالمستوى الذي توجد عليه موارد المياه . ففي الواحات التي تمتد في صحراء فزان وبوركو ، كما هي الحال في واحة الكفرة (وبالاحرى في وادي النيل) نجد أن الماء يجري على سطح الأرض ، او على عمق قريب من سطح الأرض ، وبالتالي ، فهو تحت تصرف الانسان بدون مجهود يذكر . وأما في باقي الواحات

المصرية والليبية وفي الواحات الجزائرية ، فان موارد الماء تقع على عمق كبير ويحتاج استخراجه الى طاقة بشرية والى تقنيات خاصة .

والواحات الجزائرية الشرقية تنقسم الى مجموعتين اساسيتين : المجموعة الشرقية ، التي تروي أراضيها مياه الآبار الارتوازية ، والمجموعة الغربية التي تروي بالفجارات .

وفي المناطق الشرقية ، في اسفل وادي أغرار ، توجد كثير من العيون الكبيرة التي يطلق عليها السكان اسم « البحز » ، وهي عبارة عن بحيرات صغيرة كثيرا ما يكون لها شكل فوهة بركان ، وتكون ذات عمق قد يبلغ ثلاثين أو

[illegible] كبيرة عميقة من الماء

المصرية والليبية وفي الواحات الجزائرية ، فان موارد الماء تقع على عمق كبير ويحتاج استخراجه الى طاقة بشرية والى تقنيات خاصة .

والواحات الجزائرية الشرقية تنقسم الى مجموعتين اساسيتين : المجموعة الشرقية ، التي تروي أراضيها مياه الآبار الارتوازية ، والمجموعة الغربية التي تروي بالفجارات .

وفي المناطق الشرقية ، في اسفل وادي أغرار ، توجد كثير من العيون الكبيرة التي يطلق عليها السكان اسم « البحز» ، وهي عبارة عن بحيرات صغيرة كثيرا ما يكون لها شكل فوهة بركان ، وتكون ذات عمق قد يبلغ ثلاثين أو اربعين مترا . انها عبارة عن ثقوب ومنافذ لطبقة جوفية كبيرة عميقة من الماء . وفي هذه البحيرات تعيش طيور واسماك استوائية . ومياه هذه البحيرات لابد وأنها تتبجس في الاصل من نفس طبقة المياه الارتوازية التي تروي آبارها واحات الجريد ونفزاوة الجميلة في تونس ووحات وادي ريغ وورجلة في الجزائر . وهذه المناطق هي التي تنتج منها افضل التمور في العالم للتصدير .

والميزة التي تميز الواحات الجزائرية المنتشرة عند اقدام جبل الاطلس ، هي انها قريبة من التل وسهلة المنفذ . وخط السكة الحديدية يمتد حتى توقرت ، عاصمة وادي ريغ (ويوجد مشروع لوصله بخط آخر يربطها بورجلة وحاسي مسعود) .

والواحات الشرقية مجتمعة في حوض كبير عند أقدم الاطلس . واكثر هذه الواحات توغلا في الجنوب (ورجلة) لا تبعد عن الاطلس الا بنحو 300 كيلو متر . واما الواحات الغربية فهي منتشرة في مساحة واسعة وتتخذ شكل شريط ضخم بين الاطلس الصحراوي عند فجيج ، على الحدود المغربية من جهة ، وواحة عين صالح ، من جهة أخرى ، وهذا الشريط الاخضر والرقيق جدا ، يمتد على 1200 كيلو متر طولا ، يربط بدون انقطاع الاطلس بقلب الصحراء ، عند جبال الهجّار .

وهذا الشريط ينقسم الى قطاعات أهمها على التوالى من الشمال الى الجنوب : الساورة ، قرارة ، أعلى وأسفل توات ، تيدكلت . وهذه الواحات ترويها

مياه الفجارات التي تمثل اعمالا مائية عظيمة لا تقل اهمية عن الآبار الارتوازية .
والفجارات عبارة عن قنوات عريضة تحت الأرض تسمح للرجل القصير القامة بالمشي والتجول فيها من اقصاها الى اقصاها بسهولة . وأما عمقها تحت سطح الأرض فقد يبلغ 60 أو 70 مترا . وعلى طولها تمتد سلسلة من فوهات للتهوئة . وهي كلها مما حفره الاهالي بجهد وعناء كبير في العصور الحديثة .

وأما الفجارات المماثلة الموجودة في الصحراء الليبية ، فهي على نفس التصميم ، ولكنها من بنيان الرومان ، وهي مبنية بالحجر . وفي مجموعة الواحات الغربية يُوجد عدد من الابار ونقاط الماء ، ولا سيما في مهد الساورة ، حيث تحتفظ الارض بطبقة مائية سطحية نتيجة للفيضان المنتظم . وهذه الآبار هي التي تسمى هناك « الخطّارة » ، وهي من نفس النوع الذي يسميه المصريون « الشادوف » .
وفي كل منهما يستعمل « الدلو » لاستخراج الماء منها . والخطارة قد يبلغ عمقها ما يتراوح بين 60 و 70 مترا ، ومن هنا صعوبة استغلال مياهها الا بجهد جهيد .

وهذا النمط من الآبار هو الشائع في مجموعة كبيرة من الواحات الجزائرية ، وبعضها ، وفي مقدمتها وادي ميزاب (43000 هكتار) ، لا يكاد يوجد فيها مورد آخر من الماء .
ولكي تعيش واحة تحتاج الى مياه تجرى على مستوى مرتفع وأعلى من مستوى البساتين ، بحيث ينحدر الماء إليها ليروي النخيل وأشجار الفواكه دون أن يحتاج الأمر الى تدخل مجهود الانسان لرفع الماء ، والآبار الارتوازية والفجارات توفر هذا الشرط ، ومعنى ذلك ، بالتالي ، اقتصاد كبير في المجهود البشري ،

وتوزيع الماء لاغراض الري في الواحات بين المستغلين يجري بواسطة أدوات دقيقة تستعمل لحساب الماء على أسس في غاية الضبط . واحدى هذه الادوات عبارة عن ساعة مائية تحسب الزمن (زمن جري الماء) ، والأخرى تشبه مشطا يثبت على رأس شبكة من قنوات الري تقسم بين اسنانها جميع المياه المتوفرة بمقياس يحسب كميات المياه الموزعة على أساس حقوق المستغلين لها .

وملكية المياه وحق استغلالها يخضع لقواعد دقيقة فرضها العرف والعادة التي جرى عليها سكان الواحات منذ قرون عديدة .

والخاصة الأخرى التي تميز الواحات الجزائرية تتصل بالفن المعماري السائد في هذه المناطق والذي يتخذ طابعا خاصا «وظيفيا» ، وذلك على السواء في المدن والقصور التي هي عبارة عن قرى محصنة بأسوار مبنية بالطين المكوية والاجر ، لضمان سلامة سكانها من غارات المعتدين . وعلى الرغم من تواضع مواد البناء ، فان المنازل مبنية بطريقة لا تخلو من التعقيد ، حيث تحتوي على عدة ادوار يتم الوصول الى العليا منها بدرج . وشوارع القصور على نمط شوارع المدينة ، وكذلك تنظيم الحياة الاجتماعية فيها ، حيث توجد بها اسواق وحوانيت وأماكن للنزهة ، بل ومقاهي أيضا ، وهي كلها مرافق تتطلبها حياة الرحل الذي يقصدون الى الواحات وينتظرون من سكانها ان يوفروا لهم المنتجات التي يبادلون بها منتجاتهم .

وكما قال فليكس جوتيية ، مؤلف كتاب الصحراء ، فان « القصر لا يمكن ، اعتباره قرية ، بل هو مدينة مبنية بالطوب . ومدينة بابل التي يصفها المؤرخ هيرودت ، كانت مبنية ، هي الأخرى بالطوب » .

والواحات الجزائرية في الشرق والغرب ، تحمل كلها طابع الحضارة الشرقية القديمة التي لا يغطيها الفقر وبساطة حياة سكانها . وهذا أمر لا غرابة فيه اذا تذكرنا تيارات الهجرة التي كانت تتخذ طريق الغرب عبر الصحراء منذ اقدم العصور ، وتيارات التبادل التجاري الذي كان يجري بواسطة القوافل من مراكز الحضارة في الشرق نحو الغرب ومن الشمال الى الجنوب ، والعكس ، واذا اعتبرنا توغل الاسلام والنفوذ العربي عبر الصحراء حتى اقصى الجنوب والجنوب الغربي ، منذ القرن الاول للهجرة النبوية .

الزاب :

يأخذ الزاب اسمه من مدينة زابي (Zabi) الرومانية القديمة التي كانت تقع في منطقة الحضنة . والمعروف ان الرومان لم يحتلوا هذه المنطقة ولكنهم اكتفوا بانشاء معاقل حولها في ناحية بسكرة وعند المنفذ الجنوبي لأودية أوراس . وقد كان اسم الزاب في القديم يستعمل بتوسع بحيث يشمل سهول الحضنة ومدنها الواقعة عند السفوح الجنوبية للاطلس ، وهي مقره وطبنة ، ولكنه يطلق

الآن على امتداد غير فسيح عند سفوح الجبال الفاصلة بين سهول الحضنة والصحراء ، وقاعدة الزاب هي بسكرة .

والزاب عبارة عن ثلاث مناطق متميزة ولكنها متصلة : الزاب الظهراوي وهي المنطقة التي تقع فيها طولقه وليشانة وبوشقرون وفوغالة ، وكلها تعتمد على النخيل وتنتج اجود أنواع التمور ، وتروى اراضيها آبار ارتوازية ، ومنطقة الزاب الغربي ، ومن اهم قراها : ليوه والصحيرة والمخادمة وبنطيوس وأوماش ، وهي أيضا تعتمد على زراعة النخيل وتسقى بمياه الآبار الارتوازية ؛ ومنطقة الزاب الشرقي ، واهم قراه ، سيدي عقبة ، حيث يوجد مسجد فاتح المغرب العظيم وقبره ، والدروع ، وسيدي خليل ، وهذه المنطقة تروي بمياه الانهار التي تنحدر من جبال أوراس .

تلك هي القرى والمدن المهمة في الزاب في الوقت الحاضر ، ولكن عمران هذه المنطقة كان أوسع كثيرا في العصر القديم ، حيث إن ابن خلدون يذكر مائة قرية وكل منها تحمل اسم الزاب ، فيقال : زاب طولقه ، وزاب بسكرة ، الخ . كما ذكر الحسن بن محمد الوزان المشهور باسم (Léon l'Africain) خمسا وعشرين مدينة ، بالاضافة الى عدد كبير من القرى .

صحيح أن منطقة الزاب كانت ، مثل كثير من مناطق الشمال الافريقي الجنوبية ، مسرحا لغارات التخريب والتدمير التي كان يشنها العربان من بني هلال في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي ، والتي انتهت باستقرار الاثبج فيها ، بعد ما طردوا منها سكانها السابقين . على أن الموحدين سوف يدفعون بهذه القبائل التي لا تعرف للدين ولا للنظام معنى ، في اتجاه الجنوب حينما فتحوا منطقة الزاب في القرن الثالث عشر (السابع الهجري) . ولكن بطنا من بني سليم (الدواودة) استقروا في الزاب الغربي وتخلوا عن حياة الرحل ، كما استقر بطن آخر ، وهم الكرفه ، في الزاب الشرقي .

على ان أسرة من الاثبج ، وهم بنو مزني ، اعادت الكرة وتغلبت على الزاب وتولت الحكم فيه باسم الحفصيين ، لتستقل بنفسها بالمنطقة في القرن الرابع عشر (الثامن من الهجري) .

طولقة :

أصبحت طولقة منذ التقسيم الاداري الاخير في الجزائر ، قاعدة لدائرة تمتد أراضيها على 3,787 هكتاروتضم خمسة أحوازيبلغ مجموع مساحة أراضيها الزراعية 70,000 هكتار . وطولقة بلد زراعي يعتمد خصوصا على النخيل الذي تملك الدائرة منه اكثر من 800000 نخلة يصل مجموع انتاجها من مختلف الانواع الى 21000 طن سنويا . و « دقلة نور » هي ارفع انواع التمور التي تنتجها المنطقة ، وهي تمثل نصف انتاج طولقة (10000 طن). والى جانب التمر ، تنتج المنطقة كميات لابأس بها من الخضروات والفواكه الأخرى . وتنمية هذه المزروعات الأخيرة رهن بطبيعة التربة وتوفير المياه للري .

ودائرة طولقة قد حصلت على موارد خاصة ومعتبرة في نطاق المخطط الرباعي الثاني وعلى مشروع متكامل للتنمية الزراعية والثقافية ، يشمل فيما يشمله عشرة مواقع للبحث عن المياه على عمق متوسط ، والحصول على مضخات ، واستصلاح مائة هكتار من الأرض في منطقة اورلال التي تتمتع بآبار يبلغ انتاجها 100 ليتر في الثانية ، كما حظيت اشجار النخيل بعناية بالتشذيب والتجديد .

وكذلك أدرجت مشروعات في نطاق المخطط الرباعي الثاني تتعلق بتزويد الدائرة بمياه الشرب ، وقد بلغ عدد هذه المشروعات للبحث عن المياه في الاحواز الخمسة 70 مشروعا .

وعلى الصعيد الصناعي ، توجد في طولقة وحدة لمعالجة التمور ومصنع للأثاث ومعمل للنجارة . على أن طولقة التي لا يزيد عدد سكانها عن 25,000 تشكو من أزمة في السكن ومن ضعف في المرافق المدنية ، مثل مجاري المياه المستعملة والطرق الخ .

طبنة :

ذكر ابن حوقل مدينة طبنة فقال إنها مدينة قديمة كبيرة البساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير ، ولها سور من طابية . وأما سكان طبنة ، فقد قال الرّحالة انهم ينتمون الى قبيلتان : عرب وبرقجانة .

ويمضي الجغرافي العربي فيقول : «واكثر غلاتهم السقي ويزرعون الكتان وجميع الحبوب فيها غزيرة كثيرة ، وكانت وافرة الماشية من البقر والغنم وسائر الكراع والنعم ، فحدث بينهم البغي والحسد الى أن اهلك الله بعضهم ببعض ، واتى على نعمهم ، فصاروا بعد السعة والدعة الى الضيق والذلة والصغار والشتات والقلة مشردين في البلاد مطرحين في كل جبل وواد ، وبقيتهم صالحة» .

وقد تحدث ابو عبيد البكري عن طبنة ، فقال إنها «مدينة كبيرة سورها اليوم من بناء المنصور أبي الدوانيف ، وهي مما افتتح موسى بن نصير فبلغ سبيها عشرين ألفا وهرب ملكهم كسيلة ، وسورها مبني بالطوب ، وبها قصر وأرباض ، وداخل القصر جامع وصهريج كبير يقع فيه نهرها ومنه تسقى بساتينها ، ويقال أن الذي بناها ، أبو جعفر بن حفص المهلبي المعروف بهزارمرد ، يسكنها العرب والعجم ، بينهم الاختلاف والحرب ويسكن حولها بنو زفراح ، وقال محمد بن يوسف ان قصر طبنة قديم أولي كبير جليل مبني بالصخر عليه ازاج كثيرة ينزله العمال ، وهو ملاصق لسور المدينة من جهة القبلة عليه باب من حديد . ولمدينة طبنة من الابواب ، باب خاقان مبني بالحجر ، عليه باب حديد ، وهو سري ، وباب الفتح غربي [له] باب حديد أيضا ، وبينهما سماط يشق المدينة من الباب الى الباب ، وباب تهوذا قبلي عليه باب حديد ، وهو سري أيضا وباب كتامة جوفي . وخارج المدينة بازاء باب الفتح سور مضروب على فحص فسيح يكون مقدار ثلثي مدينة طبنة ، بناه عمر بن حفص . ويشق سكك المدينة جداول الماء العذب وبها اسواق كثيرة غير السماط المذكور ، ولها بساتين يسيرة ملاصقه للريض . ومقبرتها بشرقيها . وبقرب المقبرة غدير يعرف بغدير فرعان ، وهو يجري في مصلى العيد ، وليس من القيروان الى سجلماسة مدينة اكبر منها ، واسم نهرها بيطام ، واذا حمل سقى جميع بساتينها وفحوصها . ويقول أهلها : «بيطام بيت الطعام» لجودة زرعها . وإذا كانت الحرب بين العرب المولدين ، استمد العرب بعرب مدينة تهوذا وسطيف واستمد المولدون بأهل بسكرة وما والاها» .

وكذلك وصف الادريسي طبنة وتحدث باسهاب عنها وألحَّ خصوصا على اهميتها التجارية . وقد جاء من ضمن هذا الوصف قوله :

« وطبنه مدينة الزاب ، وهي مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير وعليها سور من تراب وأهلها اخلاط ، وبها صنائع وتجارات وأموال لأهلها متصرفة في ضروب من التجارات ، والتمر بها كثير وكذلك سائر الفواكه .

وقد نسب ياقوت الحموي الى طبنة عددا من العلماء والأدباء والأفاضل ، ولكنه وصفه للمدينة كله منقول عن البكري ، كعادته في كل ما يتعلق بمدن المغرب على العموم . ومن اعلام طبنة علي بن منصور الطبني الذي روى عنه غندر البصري ، وابو محمد القاسم بن علي بن معاوية بن الوليد الطبني ، حدث عن أبي المغربي وغيره ، وابو الفضل عطية بن علي بن الحسين بن يزيد الطبني القيرواني الذي سمع الحديث في بغداد وله شعر حسن ، وابو مروان زيادة الله الطبني ، وهو شاعر لغوي واديب عاش بالاندلس .



بسكرة عاصمة الزاب :

تعتبر جبال أوراس بقممها الشامخة التي ترتفع في جنوب قسنطينة أشد المناطق الجزائرية ارتفاعا . ووراء جبال أوراس تبدأ الصحراء الجزائرية الشرقية التي يمكن الوصول اليها انطلاقا من باتنه بطريقين مختلفتين . وأجمل الطريقين وأمتعهما للطرف هي التي تقطع سلسلة الأوراس في عرضها ، وهي تمرّ بوادي البيوض أو بوادي عبدي وتمر بمنعة وبمضيق معارفة . والطريق الأخرى هي أسهل من الاولى . وعلى الرغم من أنها تحاول تجنب الجبال ، فهي مع ذلك طريق جبلية . والأرض التي تمر بها الطريق رتيبة حتى تصل إلى عين توته ، وحينئذ تبدأ في التعرج والانعطاف والصعود والهبوط حتى تصل إلى القنطرة التي تعتبر حلقة الوصل المادية بين التل الخصيب وجوه المعتدل ، ورمال الصحراء التي لا نهاية لها والتي لا يلفت نظر السائح في أرضها سوى ـ ابات النخيل التي تصادفه بين الفينة والفينة .

وفي مضيق القنطرة الذي تعلو حنباته حيطان من الصخر الاملس التي تعكس حرارة الشمس مضاعفة عدة مرات ، يجري نهر صغير في رفق وهدوء

في معظم فصول السنة ولكنه قد يطغي أيضا ويصبح سيلا عارما . وبعد ما يحرج السائح من هذا المضيق الذي يسميه الأهالي بحق «فم الصحراء» ، يجد نفسه فجأة في القفر الذي لا تؤنس وحشته سوى واحات صغيرة تنشر على الطريق او قريبا منه هنا وهناك .

تلك هي طريق بسكرة أجمل الواحات الجزائرية التي خلدها شعراء ، مثل محمد العيد وكتاب عباقرة من طراز اندري جيد في الأدب والتي هي أيضا مصدرا لثروة عظيمة من التمر وغيره .

تقع مدينة بسكرة على خط طول 42 درجه و 5 دقائق شرقي حرينتس ، وخط عرض 27 درجة و 39 دقيقة شمالا . وبسكرة أهم واحات الزيبان (جمع زاب) ، بل وجميع الواحات التي تمتد في جنوب قسنطينة .

والواحة تمتد ثلاثة أميال على طول وادي بسكرة وتشتمل ولاية بسكرة وحدها على نسبة 50 ٪ من مجموع 71000 هكتار من الارض المزروعة بالنخيل على الصعيد الوطني ، كما تحتوي على سبعة من المصانع التي تقوم بمعالجة التمور. ويبلغ عدد اشجار النخيل فيها 3,483,000 نخلة (من مجموع 7820050 الموجودة في التراب الوطني . ولكن ولاية بسكرة تنتج ثلثي الإنتاج الوطني الجزائري من التمور ، وهي من جهة أخرى ، اكبر المناطق انتاجا لدقلة النور التي هي أرفع انواع التمور في العالم ، حيث يبلغ مجموع انتاج الولاية من هذه المادة الثمينة التي تخصص للتصدير 298860 قنطار من مجموع الانتاج الوطني من دقلة النور الذي يبلغ 437500 قنطار.

وهذه الارقام تدل على أهمية زراعة النخيل في واحة بسكرة تلك المادة التي تضمن للبلد دخلا معتبرا من العملة الصعبة وذلك في الوقت الذي توفر فيه الغذاء الاساسي للسكان المنطقة . فان التمور التي تحتوي على نسبة مرتفعة من الوحـدات الحـراريـة وتستعمـل في الشمـال وفي البـلدان الأجنبيـة للتحلية بعد الاكل ، تمثل الغذاء الرئيسي في الصحراء ، تماما مثل التين المجفف في بلاد القبائل في الازمنة السابقة . ويقدر الاستهلاك من التمر على اساس الاسرة في الجنوب بثلاثة قناطير سنويا ، وهو رقم يدلنا على مدى ما تساهم به مادة التمر في توفير طاقة العمل في البلد .

وبفضل بسكرة وعدد صغير من المناطق الأخرى ، تجد الجزائر نفسها في المرتبة الثالثة في العالم ، بعد العراق والمملكة العربية السعودية ، في انتاج التمور بمختلف انواعها . ولكن صادراتُ الجزائر من التمور التي بلغت في سنة 1971 ـ 82183 قنطارا ، لا تخولها نفس المرتبة فيما يتعلق بالتصدير ، وذلك لان منافسة العراق التي تنتج كثيرا من التمر اليابس قوية في هذا المجال . والجزائر ، على كل حال ، تكاد تحتكر تصدير دقلة نور التي لا تنتج منها سوى كميات قليلة كل من تونس (في الجريد) والولايات المتحدة (في كاليفورنيا) .

ولكن لنترك النخلة ونعود الى بسكرة .

تشغل بسكرة مكان المدينة الرومانية القديمة التي اخذت منها اسمها Vescera ، وقد كانت من المراكز العسكرية المحصنة التي شيدت لحماية الزاب . وقد ورد ذكر بسكرة في الكتب العربية لاول مرة في سياق اخماد الثورة التي قامت في الزيبان في سنة 251 هجرية ضد ابي عبد الله محمد الاغلبي الملقب بأبي الغرانيق ، وقد استسلمت المدينة بدون مقاومة لأبي خفاجة الذي انفذ للقضاء على هذه الفتنة .

وفي عهد بني حماد كان يحكم المدينة ومنطقة الزاب مجلس من رؤساء البلد واعيانهم ، وكانت اسرة بني رمّان أقوى الاسر في منطقة بسكرة واكثرهم عددا ، وكانوا يملكون معظم الاراضي المجاورة للمدينة ، وفي عهد بلكين بن محمد ، حاول جعفر ابن رمّان ، زعيم القبيلة الثورة على الملك الحمادي ولكن هذه الثورة قمعت وافتتحت المدينة عنوة ، فيما يقول ابن خلدون ، وسجن جعفر والمتثامرون معه في القلعة حيث قتل . وقد ولي أمر المدينة وأراضيها من بعد بني سندي الذين كان لهم من النفوذ والسلطان ما تمكنوا معه من ضد العرب الهلاليين ، وقد ظلت هذه الاسرة على ولائها لبني حماد حتى قضى الموحدون على الجميع .

وقد وصف البكرى بسكرة ومنطقتها بالعبارات التالية « وبسكرة كورة فيها مدن كثيرة ، وقاعدتها بسكرة ، وهي مدينة كبيرة ، كثيرة النخل والزيتون واصناف الثمار ،

وهي مدينة مسورة عليها خندق وبها جامع ومساجد كثيرة وحمامات وحواليها بساتين كثيرة ، وهي في غاية كبيرة مقدار ستة أميال ، فيها أجناس التمور ، ومنها جنس يعرف بالكسبا ، وهو الصيحاني يضرب به المثل لفضلة على غيره ، وجنس يعرف بالليارى أبيض أملس كان عبيد الله يامرعماله بالمنع من بيعه والتحضير عليه وبعث ما هنالك منه إليه ، واجناس كثيرة يطول ذكرها لا يعدل بها غيرها . وبسكرة علم كثير ، واهلها على مذهب اهل المدينة ، ولها من الابواب باب المقبرة وباب الحمام وباب ثالث . سكانها مولدون ، وحولها من قبائل البربر سدراته وبنو مغراوة ، أهل بيت بني خزر يزمنني ، وداخل المدينة جنان يدخل إليه الماء من النهر ، وبها جبل ملح يقطع فيه الملح كالصخر الجليل ، ومنه كان عبيد الله وبنوه يستعملون في طعامهم» وبعد بنى حماد ، انتقلت بسكرة الى الموحدين حيث نجح في الاستيلاء عليها بنو غانية في سنة 598هـ (1201م) وبعدما فقذ يحي بن غانيه بسكرة استعادها في سنة 621 . ولدى انهيار دولة الموحدين وتفككها ، وقعت المدينة تحت حكم الحفصيين أصحاب تونس :

ولما خرجت بسكرة عن سلطان الحفصيين ، بقيت نحو ثلاثين سنة مدينة مستقلة ، وذلك قبل أن يستولى حسن أغا على بسكرة ويضع فيها حامية تركته في سنة 1541 .

وفي القرن السابع عشر احتفظت بسكرة ببعض أهميتها بفضل ما كانت تتمتع به من الموارد الاقتصادية وبفضل تجارتها ، كما يستدل على ذلك مما ذكره الرحالتان العربيان العياشي ومولاي أحمد .

وبعد نزول الحملة الفرنسية حاول فرحات بن سعيد الاستقلال ببسكرة ولكن الأمير عبد القادر نجح في الاستيلاء عليها لينصب خليفة عليها بعد ذلك الحسين بن عزوز . وفي سنة 1844 ، استولى عليها جيش فرنسى بقيادة ابن الملك ، الدوق دومال ، وترك فيها حامية ، ولكن الاهالي سينقضون على تلك الحامية ويقتلون رجالها ولم يستتب الامر فيها للفرنسيين الا بعد ما شيدوا حصنا واتخدوها قاعدة عسكرية من قواعد الحنوب ووضعوها كغيرها من المناطق الصحراوية تحت الحكم العسكري المباشر.

الاغواط :

عندما يخرج المسافر من الجلفة في اتجاه الجنوب يسير في طريق تقطع سهلا صخريا تتخلله أودية وعلى جنباته تلال الرمال التى تحملها الرياح الجنوبية (القبلى). وفي بعض الطريق سيقابلة ضريح سيدى مخلوف احد المقامات المقصودة في المنطقة ، ووراء هذا الضريح (اوالقبة ترتفع قمم جبال صحراوية في شكل منشار غير متساوي الأسنان ولكنها متقاربة بصورة محسوسة . والأرض هنا غير متساوية في الطريق الذي تمتد على جنباته وهاد وتلال يغطيها نبات الحلفا وغيره من النباتات الصحراوية . وعندئذ لن يلبث ان يدخل في مضيق يشكله جبلان : الجبل الازرق وجبل ميلوك من الغرب ، والجنوب ، أوسلسلة جبل الطويلة الصخرية وجبال الدخلة من الشرق .

وهذا القرن الشرقي من جبل ميلوك عبارة عن فرع من سلسلة جبال عمور ، أوجبل راشد كما يسميه المؤرخون العرب . إنه عبارة عن زاوية ضخمة مثلثة الأضلاع يمتد نحو 15 كيلومتراً تنفتح منها ثغرة الى داخل الصحراء . وتمضي الطريق تلتوي عبر الرمال وكثبانها .

وبعد ذلك لن يلبث المسافر أن يدخل في منخفض من الأرض يمر به وادي متليلي ووادي مزى ، وهنا تبدو له سهول ممتدة خضراء تقترب خضرتها من السواد ، انها واحة الاغواط الجميلة ، إن نظرة واحدة متأملة الى هذه الحديقة الوارفة الظلال في قفر الصحراء القاحلة ، لتقنعنا بان هذه المدينة تستحق ما نالته من مجد واعجاب من الرواد ورجال والادب والفن من طراز فرومانتان (Fromentin).
تبعد مدينة الاغواط وواحتها عن مدينة الجزائر بمائتين وخمسين ميلا وتقع على خط الطول 55 ودقيقتين شرقا ، وخط العرض 48 و 23 دقيقة شمالا ، ويبلغ ارتفاعها على مستوى البحر 2400 قدما .

ومدينة الاغواط التي تقع على نهر مزي الذي يتخذ منابعه من جبل عمور وينتهي بعد يحمل اسم جدى في شبط ملغر جنوبي قسنطينة ، والتي يبلغ عدد سكانها 33 ألف نسمة تمتد في منبسط من الأرض وتشرف على منحدرات تلين صخريين ويحميها سور ولها قلعة كانت تستعمل ثكنة في العصر السابق . وفي جنوب غربي المدينة

وجنوب شرقيها تمتد بساتين النخيل ترويها قنوات تتفرع من وادى مزى . وهذا النخيل الذي يقدر عدد اشجاره بنحو 40000 نخلة ينتج تمرا ليس من النوع الجيد ، غير انه يسدّ حاجة سكان المنطقة الغذائية ومنذ عصور قديمة ضمن للاغواط موقعها بين جنوبي وهران وجنوبي قسنطينة وفي المكان الذي تتفرع فيه طريق نحو الغرب في اتجاه اولاد سيدي الشيخ ، وأخرى الى جنوبي وادي مزاب وورقلة . مركز تجاريا هاما .

كانت الاغواط في القرن الرابع الهجرى وقت ثوره أبي يزيد الخارجي مدينة صغيرة على نهر مزى وتحيط بها عشائر قبيلة مغراوة . ولكن الغزو الهلالي أتى إلى المنطقة بعناصر عربية مثل الدواودة وأولاد بوزيان وابتنوا في جهاتها قصورا ، مثل بومنل وقصبة ابن فتوح وبدلة. وكلا القصرين الآخيرين هجره سكانه في سنة 1666 م وفي أوائل القرن الثامن عشر غزا سلطان المغرب الاقصى اسماعيل ، منطقة الاغواط واضطرها الى الالتزام وقتا قصيرا بدفع الضرائب لسلطان مراكش .

وفي فترة لاحقة كان تاريخ الاغواط يمتاز بصراع من اجل السلطة ، وبين أولاد سرغينة الذين يقطنون الحي الجنوبي الغربي من المدينة ، والحلاف الذين يقطنون الحي الشمالي الشرقي .

وفي عام 1727 ، تمكن باي تيطرى من بسط نفوذ الاتراك ومن جمع الضرائب في مدينة الاغواط وقصورها .على أن الصراع عاد الى ما كان عليه بين القبائل المتخاصمة بعدما فقد الاتراك سلطانهم عليها . ولكن باي وهراي محمد الكبير احتل المدينة وقضى على عناصر الشغب فيها في سنة 787 ولو أن السلم الذي فرضه لم يدم طويلا حيث عادت العناصر المتخاصمة الى سابق عهدها . وبعدما دخلها الامير عبد القادر عين خليفه عليها وقتا قصيرا ، ولكن ابن سالم الذي استقر له الأمر في المدينة وضع نفسه تحت حماية الفرنسيين في سنة 1844 وعينوه واليا عليها من قبلهم ووضعوا حامية فيها بقيادة مارى مونج .

ولكن وضع الفرنسيين لم يلبث ان اصبح حرجا تحت ضغط السكان ، فتركوا المدينة ليعودوا اليها في سنة 1847 ، لكي يغادروها مرة أخرى ، ولم يستقر لهم الامر فيها الا بعد الحملة التي قادها بيليسي (Pélissier) وتمكن

بها من استعادة الاغواط وأخذها من يد الشريف محمد ابن عبد الله صاحب ورجله (سنة 1852) ، بعد معارك طاحنة سقط فيها عدد كبير من رجال الحملة وفي مقدمتهم ضابطان كبيران . ومنذ ذلك الوقت اصبحت الاغواط قاعدة من القواعد العسكرية الفرنسية في الجنوب وظلت كغيرها من مدن الصحراء الجزائرية خاضعة للحكم العسكري .

المَغيَّر :

« تبعد دائرة المغير عن بسكرة قاعدة الولاية بمائة وعشرين كيلو مترا يتوغل المسافر فيها في سهول من الصحراء القفراء العارية ومع ذلك ، فهو لم يتوغل تماما في قلب الصحراء ، لان التل لا يزال يتابعه بجوه المعتدل وبنياتاته التي تقابله هنا وهنالك . وعلى الرغم من جزر النخيل التي تصادفه هنا وهناك ، فان المنطقة خالية من العمران ، فيما عدا بعض خيم الشعر التي تنتشر غير بعيد من الطريق ، والتي ترمز للاستقرار الوحيد الذي يعرفه العرب الرحل .

ودائرة المغّير لا تضم سوى حوزين (مغير وجمعة) يشتملان على 24 قرية سكنية متباعدة . ويبلغ عدد سكان الدائرة 6000 نسمة يعيشون على الزراعة التي يغلب عليها النخيل . ويقدر عدد اشجار النخيل الموجودة في المغير في سنة 1978 بحوالي 1800000 تنتج ما يتراوح مجموعة بين 20000 و 25000 من التمر سنويا . وأما المزارعون الذين ينتمون الى القطاع الخاص فيبلغ عددهم 9000 مزارعا (في مقابل 3000 ينتمون الى القطاع المسير ذاتيا ، أو الذي تشمله الثورة الزراعية .

وعلى الرغم من أن زراعة النخيل متغلبة على المنطقة ، فان زراعة البقول والخضروات ليست نادرة فيها ، وهي على كل حال ، تكفي للاستهلاك المحلي . والدائرة تستعدّ حاليا لتنفيذ برنامجين كبيرين للتنمية فيها . أحدهما في واد ريغ حيث بدأ العمل لاستصلاح 1200 هكتار . والمشروع الآخر للتجهيز على وشك الاعلان عنه ، ويشمل حفر سبعة آبار ويستهدف انتزاع مساحات من قفر الصحراء لتحويلها الى حقول لزراعة الخضروات والبقول ولغرس الاشجار .

وفي هذه الاثناء تقول الاحصاءات الرسمية إن ما يتراوح بين نسبة 80 و 90 ٪ من الوحدات الزراعية في الدائرة تحقق أرباحا . وفي نفس الوقت ، توجد عدة

مشروعات بصدد الانجاز ، منها مشروع لإنتاج الدواجن للحم ومشروع لمصنع للفخار ومصنع لانتاج مواد البناء ، كما يشتمل المخطط الرباعي الثالث القومي للتنمية على عدد من مشروعات جديدة وعلى نصوص تقضي بتوسيع نطاق بعض المشروعات التي تم انجازها . وقد افتتحت في المنطقة مؤخرا قرية زراعية وتم توزيع المساكن فيها للمستفيدين من الثورة الزراعية .

* *

واد مزاب :

إذا خرج المسافر من الاغواط في اتجاه الجنوب فسوف لا يلحظ في طريقه ، على مدّ البصر ، سوى سهول رملية مترامية ولا يكاد يرتفع منها على الارض سوى كثبان رملية . ويقل النبات كلما توغل في الجنوب ، وحتى نبات الحلفا الرقيق الساق نفسه يختفي تدريجيا لتحل محله نباتات اكثر صلابة وأقوى على تحمل قيظ الشمس ، مثل « الرّقيق » الذي تفضله الجمال بصفة خاصة . ومع ذلك ، فقد تبدو هنا وهناك ، على مسافات متباعدة على جنبات الطريق منخفضات معشوشبة نوعا مّا تقطع استمرارية الرمال الرتيبة . وهذه الاعشاب تعيش في الطمي الذي يستقر في تلك المنخفضات وعلى ما أبقت عليه الشمس من الرطوبة فيها . وهذه المنخفضات لا تزال تقابل المسافر كل مسافة عدة كيلو مترات حتى شمال وادي ميزاب ، وينبت فيها أيضا شجر «البطم» والعليق . وشجرة البطم قد تنمو وتكبر بصورة نادرة في هذه المنطقة التي لا ينمو فيها شيء ، بحيث توفر الظل للمسافر . وورق البطم يوفر غذاء ثمينا للجمال ، بينما يجد الاهالي في ثمره المشوب بالحموضة طعاما منعشا .

على أن هذه المنخفضات المعشوشة تختفي عندما يقترب المسافر من وادي مزاب وتقابله بدلا منها سلسلة من السبخات التي هي عبارة عن أرض كثيرة الحصى والرمل في بعض الاحيان . انها الصحراء الحقيقية التي لا تصلح للنبات .

وعندما تكلّ عين المسافر التي لم تعد تتوقع شيئا غير كثبان الرمل المتتالية ويسلم نفسه للراحة أو للكرى ، تفاجئه واحة خضراء داكنة الخضرة يجري بين صخورها ماء معين نقي مثل البلور ، وتعلو فيها اشجار النخيل الباسقة . أنها اكثر شبها بلوحة

فنية رائعة الجمال منها بواحة صحراوية . أنها واحة بريان الساحرة ، أولى واحات واد مزاب .

إن هذه القرية الساحرة والتي يحيط بها سور قديم عريض عدت عليه العوادي ، لتكاد تختفي كلها من كثافة الاشجار التي تحيط بها ، ولا ينبه الى وجودها الا منارة مسجدها التي ترتفع فوق غابة النخيل التي تحرك الرياح اغصانها الكثيفة على خلفية افق لازوردي .

لقد قطع المسافر على الطريق رقم 1 من الجزائر الى بني مزاب نحو 600 كيلو متر ، وها هو الآن أمام غابات صغيرة جميلة من النخيل تنتشر هنا وهناك ، وأمام طريقة للحياة وعادات وتقاليد ونظام اجتماعي يختلف كل الاختلاف عما عهده في الشمال ، بل وفي الواحات الشمالية أيضا . فما سرّ هذا الانقطاع الفجائي في الصحراء التي تمثل الاستمرارية القاعدة الطبيعية فيها ، ياترى ؟ .

السرّ في ذلك هو أن واد مزاب هو معقل الخوارج الاباضيين في المغرب ، التجئوا الى هذه الواحة بعد عراك ونضال دام اجيالا طويلة في سبيل عقيدتهم الدينية . فان مذهب الخوارج الذي عرف السيادة والسلطان في مختلف اجزاء المغرب في لحظات تاريخية متعاقبة ، لم يلبث أن أصبح مذهبا مضطهدا يطارد العبيديون (ومن بعدهم الزيريون) رجاله في كل مكان . وهزيمة المذهب الاباضي أمام « الشرقيين » هي في نفس الوقت ، هزيمة زناتة ، اعداء صنهاجة ، التي ينتمي اليها الأغلبية الساحقة من سكان واد مزاب .

وتبدأ قصة نزوح الاباضيين في اتجاه الجنوب بحثا عن الأمن والحرية بتخريب أبي عبد الله الداعي لمدينة تيهرت (عام 296 هـ 908 م) التي اسسها عبد الرحمن بن رستم عقب فراره من القيروان أمام زحف جيوش ابن الأشعث ، وظلت بعد ذلك عاصمة للدولة الرستمية ومركزا من اعظم مراكز الحضارة والعمران في المغرب نيفاو 147 سنة .

وعقب ذلك انتقل آخر الأئمة الرستميين ، يعقوب بن أفلح ، على رأس من بقي من اتباعه ومظاهر ملكه الى منطقة ورجلة (سنة 296 هـ . 908) . وهناك أقام في مكان يبعد بأربعة عشر كيلو مترات عن هذه المدينة ثم قرر أن يؤسس

مدينة ، وهي مدينة سدراتة التي ستشهد بدورها ازدهارا كبيرا وعمرانا واسعا خلال القرنين الرابع والخامس الهجري (العاشر والحادي عشر الميلادي) ، وذلك على الرغم من الظروف الطبيعية القاسية التي تسود في هذه المنطقة .

وقد استمر عمران سدراتة التي ساهمت في ثورة أبي يزيد ، صاحب الحمار ، على الفاطميين ، في صورة نجهل تفاصيلها حتى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) حينما بلغ تخريب بني غانية الميورقيين الى هذه المنطقة ودمروا سدراتة التي جلى عنها سكانها واتجهوا الى واد مزاب . وعقب ذلك اختفت معالم حضارة سدراتة تحت الرمال التي لا تزال تحتفظ باسرار عظمة هذه المدينة على الرغم من الجهود التي بذلها بعض الباحثين والمنقبين الاروبيين ، وفي مقدمتهم مرجريت فون بيرشام (Marguerite Von Berchem) .

كان أول الباحثين والمنقبين الذين استلفتت نظرهم آثار سدراتة ، لارجو (Largoud) الذي اكتشف في سنة 1878 عدة بيوت مدفونة تحت الرمال ، كما عثر على انقاض جدران مسجد وآثار بلاط واحواض صغيرة محفورة في الارض مبنية بالاسمنت وكان الماء يصل اليها بقنوات .

وبعد لارجو ، قام بالحفر في موقع مدينة سدراتة هارولد طاري (H. Tarry) في سنة 1881 ، الذي سجل نتائج تنقيبه في بحثين قيمين . وقد اكتشف تارى مصلىّ وبعض الحجرات المزينة برسوم تمثل ثلاثة جنود من المشاة مسلحين برماح وخمسة فرسان يركبون المهاري وعددا من الحيوانات .

وأما مرجريت فون بيرشام ، فقد بدأت الحفر للبحث عما كان قد تركه سلفها ، طاري ، لاتمام الكشف عن مكتشفاته ، ولكن هذه الباحثة لم تنجح في مهمتها.

وقد واصل مهمة التنقيب في موقع صدراته بول بلانشي (P. Blanchet) (سنة 1898) فاكتشف 13 حجرة جديدة كما وجدعلى الجدران 60 من النقوش الزخرفية والكتابات الفنية ، كما اكتشف قصرا لم يحتفظ بحالته الأصلية ويبلغ ارتفاعه 4 أمتار ويعتبر من روائع الفن البربري . وهذا القصر هو الذي تمم استكشافه المهندس فوشي (Fouchet) في سنة 1942 واكتشف فيه اربعا وثلاثين حجرة واعتنى بوضع تصميم كامل للقصر وباخذ صور فتوغرافية له .

وفي سنة 1951 ، اعادت مرجريت بيرشام الكرة وقامت بمهمة استكشافية ثانية بدأتها برحلة جوية استطلاعية ، اسفرت ، فيما اسفرت عليه ، على اكتشاف دارسمتها « الدار رقم 2 » مزينة بزخارف رائعة وبنقوش على الجص ، كما اكتشفت بناءين ، أحدهما عبارة عن دار محصنة فاخرة وفناء ويحيط به عدة أحواض مربعة تنطلق منها قنوات ، وأما البناء الثاني فهو عبارة عن اجزاء من القصر السابق الذكر.

والجدير بالذكر أن الاباضيين يقومون في كل سنة في أواخر شهر أبريل بزيارة للاحتفال بذكرى عاصمة الاباضية الثانية في رحلة تشبه الحج ، حيث يلتقون هناك باباضيين آخرين يأتون من الجريد ومن جزيرة جربة ليصلوا في مكان المسجد ويتبادلوا الانطباعات ثم يتوجهون الى مقبرة تقع على مسافة 500 من المسجد ليزوروا قبر الإمام يعقوب آخر آئمة الدولة الرستمية التي لم تعمّر طويلا والتي لم تصلنا سوى أصداء عظمتها .

* *

يتكون مزاب من سبع مدن ، خمس منها انشئت على وادي مزاب في فترات متقاربة ما بين سنة 402 هـ (1012 م) وهو تاريخ تأسيس العطف وسنة 474 هـ (1092 م) وهو تاريخ بناء مدينة غرداية ، وهذه المدن (كما يحلو للاباضيين ان يسموها) هي : العطف ، بنور ، يسجن ، مليكة وغرداية . وأما القرارة ، فانها لم تؤسس الا في سنة 1040 هـ . وقد تلتها بريان التي سبقت الاشارة اليها والتي شيدت في سنة 1060 هجرية .

ومدينة غرداية مدينة جميلة أخذت تجذب انتباه السياح في الاعوام الأخيرة بسبب ظروفها المناخية من جهة ، وبسبب شخصية المنطقة الفذة من جهة أخرى ، ولكن أيضا بسبب المنشئات السياحية الفاخرة التي انجزت فيها (مثل فندق الرستميين) أو التي يجري انجازها . وعلى الرغم من تحفظ الاباضيين تجاه الظاهرة ، فان مما لا شك فيه ان حركة السياحة الداخلية والخارجية سوف تشهد نموا متزايدا في المستقبل ، ولا سيما بعد إتمام بناء مطار غرداية وتوسيع طاقة المدينة الايوائية من الفنادق والمطاعم الخ .

ومدينة غرداية التي هي أحدث المدن الخمس كما قلنا ، تمثل خير تمثيل مايتسم به العنصر الاباضي من النشاط والتضامن ، وهي واجهة فاخرة للاقتصاد الاباضي المزدهر بمصنوعاتها وتحفها وكفاءة سكانها في مجال التجارة .

لقد تمكنت منطقة مزاب من الاحتفاظ باستقلالها وشخصيتها التي وسمتها الطبيعة ومذهبها الديني بطابع فذ من الصرامة في الاخلاق والتقشف طيلة العهود التي سبقت الحكم العثماني في الجزائر ، ولم ترتبط بالاتراك الا في سنة 1190 هـ (1785 م) وبمعاهدة عقدها الاباضيون مع محمد عثمان باشا، عقب استيلائه على الاغواط .

وواحات مزاب تمتد على ضفاف الوادي الذي يحتوي على مورد المنطقة الوحيد من المياه . ولضمان توزيع مياه النهر توزيعا عادلاً بين جميع ملاك البساتين ، توصل السكان منذ القدم الى طريقة دقيقة تراعي مختلف العوامل ، ومن بينها ارتفاع مستوى البستان وانخفاضه ، وللاحتفاظ بمورد النهر من الماء لاغراض الري اقيمت عليه عدة سدود ، أهمها السدّ الذي اقيم في بني يسجن (600 مترا امتدادا و 8 امتار علوّا على قاعدة 6 أمتار عرضا) ، وسدّ بللوح في بريان . على أن المنطقة تتمتع بمورد من المياه الجوفية تستخرج في شكل آبار ارتوازية .

وقد اتجهت برامج التنمية في المنطقة في نطاق المخططين الرباعيين الأول والثاني ، إلى إقامة دعائم بعض الصناعات لتكون سندا ودعامة لـزراعتها التي تعتمد ، خصوصا ، على النخيل . وتوجد في الوقت الحاضر في مزاب نحو 45 وحدة صناعية انشئت بموجب مرسوم وزاري صدر في سنة 1968 كما أن عددا آخر من الوحدات يجري تأسيسها ، ومن أهم هذه الوحدات مصنع لإنتاج مواد البناء ومصنع للدائن ومصنع للنسيج ، ومصنع لإنتاج مبردات السيارات (راديتور) ، وذلك إلى جانب فرع لمصنع الحديد بالحجار . وتشغل هذه المصانع نحو 1500 عامل في مساحة يبلغ مجموعها حوالي مائة هكتارا .

ورجلة :

المنطقة التي تمتد بين توقرت على حوالي مائتي كيلو متر في هذه الصحراء كلها رمال ، ولو أنها ليست جرداء تماما ، حيث أن المسافر فيها تقابله هنا وهناك

منخفظات واسعة تنمو فيها اشجار نخل طبيعية لا يعتني بها احد . ولدى الخروج من واحة بليدة عمور التي تبعد عن توقرت بنحو ثلاثين كيلومتر ، يدخل المسافر في منطقة عرق الدوخرة الذي لا يتصل بعرق سوف الكبير ، وانما هو عبارة عن تلال مرتفعة متقطعة من الرمل تحجب الافق عن العين على مدى قصير . وهذه المنطقة يكثر فيها العشب متى تلقت حظا ملائما من المطر ويكون متنوعا ، بل إن نباتات الازهار نفسها غير نادرة . وكذلك توجد فيها شجيرة ولكنها دائما صغيرة القامة ولا يكاد علوّ الواحدة منها يتجاوز المتر . والملاحظ أن العشب أقل في السهول المترامية منه في المناطق التي تخترقها تلال رملية . إنها منطقة رعوية مثالية وقد كانت دائما مرتعا للجمال التي لا تتميز بذوقها الرفيع فيما تختاره من الماكولات ، ولكنها تعرف بغريزتها ما هوقابل للاكل .

وقبل ورجلة بنحو عشرين كيلو مترا تبدو لعين الناظر غابة نخل دكناء الخضره وتحيط بها سلسلة من التلال الرملية . إنها واحة نجوسة التي ظلت عهدا طويلا تحتفظ باستقلالها وتشكل مملكة يتربع على عرشها سلطان ينتمي الى أولاد بابية ، وهي قبيلة من أصل سوداني يفخر ابناؤها بلونهم الاسود الجميل .

وبعد هذه الواحة تسير الطريق في سهل يبدو تحت ضوء الشمس وكأنه بحر متنقل وكثبان الرمل تشبه أمواج البحر الهادر ، وذلك قبل أن تصادف المسافر مرتفعات صخرية يبلغ عددها سبعا ويسميها الاهالي «سبع بقرات» . وأخيرا ، تبدو ورجلة نفسها التي تكتب أيضا وارجلان ، أو وارقلان .

تحدث الادريسي عن ورجلان فوصفها بالعبارات التالية : «وهي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة وبلاد ونقارة فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلادهم ، وهم وهبية إباضية نكّار خوارج في دين الاسلام . ومن ورجلان الى غانة 30 مرحلة ، ومن ورجلان الى كوغه نحو من شهر ونصف ، ومن ورجلان الى قفصة 13 مرحلة» .

وكذلك تعرض الحسن بن محمد الوزان (المدعوّ ليون الافريقي) لوصف ورجله (التي يسميها غرغالة) في القرن السادس عشر ، فقدم لنا صورة لا يبدو أنها اعتراها التغيير منذ زمنه ، وقال انها مدينة قديمة بناها النوميديون في صحراء

نوميديا ولها سور مبني بالطوب غير المكوي ولها بيوت جميلة ، وحولها بساتين ، وفي أرباضها عدة قصور وعدد كبير من القرى التابعة لها ، وفي المدينة كثير من أصحاب المهن ، وسكانها أغنياء لاتصالهم بمملكة أجادير . وكذلك يوجد فيها كثير من التجار الاجانب ، ولا سيما ممن قدموا إليها من قسنطينة وتونس يحملون اليها منتجات بربارِيا وليأخذوا منها في مقابلها منتجات بلاد الزنوج ، والقمح واللحم قليل في المدينة ويستهلك الناس لحم الابل والنعام » .

ولكن هذه الصورة المتقشفة قد تغيرت في القرن السابع عشر حينما زارها الرحالة المغربي المعروف ، العيّاشي (نسبة الى قبيلة ايَتْ عياش وقد توفي في سنة 1679) الذي قال انه عندما دخل المدينة ونزل ببابها المسمّي « باب السلطان » صادف « قافلة من أعراب « الارباع » قدمت بسمن كثير وغنم وإبل وزرع اشترى الناس منه ما احتاجوا إليه بارخص ثمن ، وقدمت اخرى بعدها بيوم تحمل مثل ذلك أو اكثر ، فتنعّم الناس في اللحم والتمر ، واشترى الحجاج غنما كثيرة ، حتى كان اليالي الثلاث التي أقاموها ليالي مني من كثرة اللحم » .

ومثل الإدريسي ومحمد بن الحسن الوزان ، وصف العياشي سكان ورجلة بالثراء وحسن الحال ، بل وبالكرم أيضا . وكذلك تحدث الرحالة أيضا عما تسميه اليوم بالابار الارتوازية ، قائلا : « ومن غرائب هذه البلدة استخراج عيون الماء الغزيرة بحفر الابار ، فيحفرون بيرا نحوا من خمسين قامة ثم يصلون الى حجر مصفح على وجه الأرض فينقرونه ، فإذا ثقبوه فاض منه الماء فيضانا قويا ويطلع كذلك بسرعة الى فم البئر ويصير عينا ، فإن لم يتدارك الحافر بالجذف أعزقه الماء» . والثروة التي اشتهرت بها ورجلة عبر العصور ، مصدرها خصوصا الحركة التجارية ، وتجارة العبور التي أهلها لها موقعها الممتاز بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، عند ملتقى عدد من الطرق التي تنطلق منها وتمر بها ، بين سجلماسة وتمبكتو وغانة وتوات وغرداية وتلمسان والجريد ووادي سوف وغدامس وواحة سيوه .

وفي جميع هذه الطرق كانت القوافل تنقل الى ورجلة أو عبرها منتجات الشمال ، ولا سيما من الاواني النحاسية ومنتجات الحديد والزجاج والمقتطفات

لمرجانية والعطور والتمور والتين المجفف والمنسوجات القطنية والحريرية والقمح والملح والجلود المدبوغة والاصبغة والحلى والخيول ، كما كانت تنقل من الجنوب في اتجاه الشمال خصوصا ، التبروريش النعام والرقيق الأسود .

ولكن الواحة تتمتع أيضا بمورد من الزراعة . فان السكان عرفوا كيف يتفادون عواقب المناخ الجاف بحجز طبقات المياه الجوفية لاغراض الري . والزراعة الأساسية فيها هي النخيل حيث تشمل الواحة على 535000 نخلة منتجة و150000 نخلة في طريق الإنتاج ، وتبيع سنويا ما يتراوح بين 5000 و7000 طن من التمور . ولكن زراعة الخضر والبقول والأشجار فيها ليست نادرة ، وذلك على الرغم من أن الزراعة الأخيرة تمارس في نطاق محدود . وكذلك تنتج الواحة الحبوب ، مثل القمح والشعير ، وهي محاصل شتوية ، تزرع في الخريف وتحصد قبل اشتداد الحرّ ، والحبوب الصيفية التي تزرع في الربيع ، مثل الذرة (السرغو) والذرة الصفراء والذرة البيضاء .

وأهم اشجار الفواكه في الواحة هي التين والرمان والمشمش والليمون والبرتقال . وكذلك تنتج بعض النباتات ذات الطابع الصناعي مثل القطن والتبغ والفول السوداني ، على أن المصدر الأساسي للثورة الزراعية في الواحة هو التمر الجاف والطري الذي يباع في الاسواق الداخلية في الصحراء ، بينما يصدر الباقي الى المناطق الشمالية .

على أن الاقتصاد الحديث في المنطقة يقوم على استغلال آبار النفط والغاز الطبيعي ، وهو نشاط تستفيد منه ورجلة القريبة من حاسي مسعود بطريقة مباشرة وخاصة .

وهذه المنابع توجد في حوضين كبيرين ، هما ، حوض عين أمّ الناس الذي اكتشف أولا وبدأ تدفق النفط والغاز الطبيعي فيه في شهري يناير ويونيو 1956 (عجيلة وتيقنتورين) ؛ وحوض حاسي مسعود الذي بدأ تدفق النفط والغاز الطبيعي فيه في شهر يوليو من نفس السنة .

ومنابع الحوض الاول قليلة العمق ، وعلى ثلاث مستويات من العمق (من 400 الى 1400 متراً) ، وتبعا لذلك ، فان تكاليف التنقيب معتدلة ،

على أن قلة الضغط فيها يضطر المستغلين الى حقن الغاز الطبيعي لرفع الضغط لاحراج النفط . والمشكلة الأساسية التي تواجه صناعة التعدين في هذه المنطقة التي تقع على الحدود الليبية ، هي صعوبة المواصلات مع الشمال ، حيث تقع على مسافة 1150 كيلو متراً من العاصمة ، والابار الرئيسية في الحوض الاول تقع في عجيلة وتين فوى واهنى . ويقدر احتياطيى الحوض الاول بمائتي مليون طن .

وأما حوض حاسي مسعود فيقدر احتياطه باكثر من 700 مليون طن . والمشكلة الاساسية في هذا الحوض ، هي بعد المستوى الذي يوجد عليه النفط (3000 متراً) ، وبالتالي ، ارتفاع تكاليف الحفر والتنقيب ، وهنا أيضا يواجه المستغلون مشكلة ضعف الضغط ، الامر الذي يتطلب الاستعانة بآلات واجهزة خاصة لزيادة الضغط ، والابار الرئيسية تقع في حاسي مسعود وفازي الطويل ورحود البغل . وميزة هذا الحوض الاساسية هي قربه من الشمال (600 كيلو متر من العاصمة) .

ويتم نقل النفط بواسطة انابيب يبلغ مجموع طولها 3500 كيلو متر (منها 500 كلم في تونس) . ويجرى صرف انتاج حوض الشرق بانبوب الى السخيرة بخليج قابس (طوله 665 كلم وقطره 61 سنتمتر) ، وقد تم العمل في مدّ هذا الانبوب في سنة 1960 ، وفي مرحلة تالية ربطت آبار عجيلة بحوض حاسي مسعود .

وقد بدأت استغلال ثروات هذه الاحواض الشركتان الفرنسيتان ، ريبال (S.N.-Repal) والشركة الفرنسية للبترول (C.F.P.A.) . وقد ارتبطت الشركتان فيما بعد بشركات أخرى . ولذلك أنشئت تجمعات سكانية في مناطق استغلال النفط للعمال والفنيين جهزت بوسائل الحياة الحديثة .

الفصل السابع
الشعوب والقبائل الكبرى

الشعانبـة :

ينحدر قبيل الشعانبة من علاّق ، من عوف ، من سُليم بن منصور ، من العدنانية ، جاءوا الى افريقية الشمالية مع الموجه الاخيرة للغزو الهلالي في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي . وقد استقرت الجماعة الاولى للشعانبة في منطقة متليلي التي تقع على مسافة 15 كيلو مترا من غرداية ، عاصمة وادي ميزاب . وبعد بضعة اجيال من استقرارهم في هذه المنطقة الصحراوية الجرداء ، اشتد الضغط السّكني على القبيل ، فأخذت بطون منه تسلك طريق الهجرة الى اصقاع أخرى تراءت لها فيها فرص أوسع للعيش .

وكذلك هاجر بطن المواصي إلى القليعة في القرن السادس عشر (على أرجح الروايات) واتجه بطن « بوروبة » شرقا إلى ورقلة ، بينما هاجرت بطون أخرى ، عقب ثورة « بوعمامة » التي وقعت منذ نحو ثمانين سنة ، إلى المناطق الشمالية الغربية في الصحراء . والجماعة الأخيرة سوف تتلقى أفواجا من المهاجرين إلى ورقلة ، كما أن طوائف من المهاجرين إلى القليعة ستتجه إلى منطقة الوادي لتستقر هناك .

وقد كان من نتائج توغل الاستعمار الفرنسي في الصحراء والضغط الذي يمارسه الحكم العسكري على القبائل الصحراوية في أوائل هذا القرن أن أتخذت هجرة الشعانبة ، نصفة عامة ، اتجاها جنوبيا . وكذلك نجد أن أهم عناصر الشعانبة موزعة اليوم في النصف الشمالي الغربي من الصحراء الكبرى . ولكنه

على الرغم من تشتت بطون هذا القبيل وافخاذه في رقعة جغرافية واسعة وارتباط بعض عناصرها بمحالفات ومصاهرات مع القبائل الأخرى التي هاجرت إلى منطقتها ، فقد احتفظت بشعور بالتضامن فكانت تناصر بعضها بعضا وتتآزر في المحن والحروب .

ما هو عدد أفراد قبيل الشعانبة ؟

إن التقديرات المتوفرة لدينا قديمة حيث انها ترجع الى فترة ما قبل الحرب ، وهي على كل حال ، مجرد تقديرات ولا يمكن أن تعطي الا فكرة عامة عن هذا الشعب (تماما مثل التقديرات التي تتناول الطوارق) ، وهي تقول أن عددهم يبلغ نحو عشرين ألف نسمة ، نحو 8600 منهم يقيمون في الموطن الاصلى ، متليلي .

وقبيل الشعانبة يتكون من بطون وافخاذ متفاوتة في القدر والشرف والسيادة طبقا لانتساب كل منها إلى شخصية اشتهرت بالشجاعة وغير ذلك من الصفات ، ولكنه يلاحظ أن شعانبة متليلي ، على عكس ما قد يتبادر إلى الذهن ، ليست لهم المكانة العليا ، بل هم كانوا قبل مجيء الفرنسيين يدفعون اتاوة للشعانبة الرّحل في مقابل بسط الحماية عليهم .

ويبدو أن الشعانبة كانوا يشكلون نظاما اجتماعيا هرميا متماسكا قبل أن تقوم جماعات منهم بالهجرة إلى أماكن أخرى . ولكنه بعد ذلك انفصمت عرى هذه الصلة ، وأصبح كل بطن يشكل وحدة مستقلة وينضوي أفراده تحت زعامة مسترخية النظام يساعدها مجلس الشيوخ الذي يصدر القرارات في الشؤون السياسية الخارجية .

وكما تشير الأرقام السابقة ، فإن شعانبة متليلي (ويسمون البرازقة) هم أكبر جماعات الشعانبة عددا . وبعض جماعات هذا الفريق من الرحل الذين يتخذون من متليلي قاعدة لهم . وأكبر بطون هذا الفريق هم أولاد علّوش الذين يشكلون حوالي نصف القبيل ، وهو بدوره ينقسم إلى سبعة أفخاذ ، أهمها وأقواها جميعا ، هم أولاد توامر الذين يقال إن جدهم الأعلى هو الذي أسّس متليلي . وأما أولاد عبد القادر الذين يقرب عددهم من عدد أولاد علوش ، فينقسمون

الى خمسة افخاذ ويتزعمهم فخذ أولاد حنش الذين يقال انهم ينحدرون من صلب شقيق تامور الأصغر .

وينقسم الشعانبة بصفة عامة إلى صفين ، أومعسكرين متنافسين ، يسمّى أحدهما « الشارقة » وهو تقدمي منفتح ، والآخر « الغرابة » وهو محافظ منغلق ، واولاد علوش ينتمون الى الصف الاول ، بينما ينتمي أولاد عبد القادر الى الصف الثاني . في الوقت ينقسم فيهَ فخذ بني مرزوق الى قسمين ينتمى احدهما الى الصف الشرقي والثاني الى الصف الغربي .

والزعامة في الشعانبة وراثية مبدئيا ، وهذا التقليد لا يزال معمولا به . فان الابن الاكبر للزعيم هو الذي يتولى الرئاسة بعد ابيه ، ولكنه لابد من أن توافق على هذا الترشيح « جماعة الكبار» ، ومتى اتفقت الجماعة على أن اكبر أولاد الزعيم لا يصلح للرئاسة ، أمكنها ان تعين مكانه أخاه الاصغر ، أو حتى أحد أقاربه البعيدين في مركز الزعامة .

وزعيم القبيلة أو العشيرة إنما يقوم بدور القاضي والمفاوض والمصلح الذي يفصل في النزاعات ، ولكنه قلما يقود المعركة في الحرب ، لأن القائد العسكري يقوم بتعيينه مجلس القبيلة في وقت الحرب . وهو ينتخب للخصائص الشخصية التي يتمتع بها ، مثل الشجاعة والمقدرة على التنظيم ، وهو إنما يختار لعملية عسكرية واحدة . وقد يحدث ان يثبت القائد العسكري مزاياه القيادية في زمن الحرب بصورة لا نزاع فيها فتئول إليه زعامة القبيلة السياسية ويرثها ابنه من بعده . ولكن ذلك لا يقع الا في النادر وفي حالة الاضطراب العام ، أو في أوقات الشدة ، حيث أن نظام القبيلة الديموقراطي لا يسمح بالجمع بين المسؤوليات السياسية والمهام العسكرية .

والحياة الاقتصادية لدى شعانبة متليلي ، تقوم على الرعي وتربية الحيوانات ، ويقدر عدد الجمال التي يملكها فخذ البرازقة على وجه التقريب بنحو 5500 جملا وعدد روؤس الغنم بحوالي 8000 رأسا . ومعظم قطعان الغنم ملك لأولاد علّوش . وكذلك يربي الشعانبة الماعز وعددا صغيرا من الحمير . وجمال الشعانبة ليست من النوع الرفيع وهي أقل سرعة من جمال الطوارق ، ولكنها أقوى

منها على تحمل العطش والتعب . وجمل النقل عادة يستطيع حمل شحنة 240 كيلوجرام ويقطع ما يتراوح بين 15 و20 كيلومتر في اليوم .

والشعانبة يقومون بجولات للبحث عن المراعي تشبه تلك التي يقوم بها الطوارق ، فيما عدا أنهم يعودون الى موطنهم الاصلى مرة في العام بانتظام . والبرازقه يتركون قطعانهم مع الرعيان ويعودون إلى متليلي في موسم جني التمر ، وهو شهر سبتمبر ، عادة . وفي ديسمبر أو يناير ، يخرجون الى الانتجاع بترتيب ، فيخرج الاثرياء وذوو القطعان الكبيرة أولا . ويمضون في الانتجاع طوال الشتاء والربيع حتى شهر يونيو حين يضربون مخيمات ثابتة (الزريبة) يتركون فيها النساء والاطفال وبعض الرجال ، بينما يستمر الباقي على حياة الانتجاع والتجوال ، وفي شهر اغسطس وسبتمبر ترفع المخيمات ليعودوا الى متليلي مرة أخرى ويختموا الدورة السنوية .

والمناطق التي ينتجع فيها الشعانبة مناطق شاسعة وتمتد من الحدود الليبية شرقا حتى العرق الغربي الكبير غربا ، ومن وادي مزاب حتى عين صالح جنوبا .

والخيمة العادية للشعانبة الرحل تحتوي على ما يتراوح بين 4 و 5 اشخاص و 5 أو 6 جمال ونحو 12 رأس من الغنم وعدد من الماعز وحمارين أو ثلاثة وكلبين وعددا من طيور الدجاج . وبينما يقوم الرجال بالرعي أو البحث عن المراعي ، تعنى النساء بتربية الاطفال ويقمن بالاعمال المنزلية بمساعدة خادم من السود ، عادة .

وكذلك يقوم الشعانبة بنشاط مشهور في الصيد مستعينين بالفهد الصياد لاقتناص النعامة والغزال والارانب . والفهد الصياد كان لا يزال موجود بكثرة في بني مزاب ومتليلي عند دخول الفرنسيين الى هذه المناطق . بل إن عددا صغيرا منها كان لا يزال يعيش في غرب الصحراء الطرابلسية حتى سنة 1938 ، وربما بقيت منها بقية حتى اليوم .

تملك معظم عائلات الشعانبة الرحل اشجار أو بساتين النخيل ، يعنى بها الحراثون من السود ، كما تملك منازل عند تلك البساتين ، وأحيانا في المدن أيضا . ولكنهم قلما يشغلون تلك المنازل بانفسهم ، وانما هم يؤجرونها أو يتركون

فيها بعض الاقارب الذين لا قدرة لهم على التجوال والترحال . وأما الفقراء من شعانبة متليلي ممن لا يملكون سوى عدد صغير من الجمال والاغنام ، فهم لا يرحلون الا في شهر فبراير أو مارس ويعودون في منتصف فصل الصيف ، تاركين وراءهم أفرادا من عائلاتهم ليتولوا العناية بنخيلهم بدون مساعدة الحراثين والخماسين .

ومعظم بساتين النخيل والحدائق التي تنتج ، فيما تنتجه ، في متليلي البصل والجزر واللفت والطماطم ، تروي بمياه تستخرج من آبار يتراوح عمق البئر منها بين 35 و 80 قدما .

وعندما يعود الشعانبة الرحل الى منازلهم في متليلي في فصل الخريف يقومون ببيع منتجاتهم من الحيوانات والجلود والصوف ومنتجات الالبان وثياب الصوف ، ويشترون في مقابل ذلك ما يحتاجون إليها من الحبوب والشاي والقهوة والمنتجات المستوردة مثل السكر والثياب القطنية والمصوغات الخ . والاسواق التي يترددون عليها للتبادلُ التجاري ، هي غرداية وغدامس التي يشترون منها السروج والنعال وغير ذلك من المصنوعات الجلدية . وفي أوقات القحط والشدة ، يضطر الرحل من الشعانبة الى بيع السجاد الذي تنسجه نساؤهم للاستعمال المنزلي .

وفي العهود الغابرة كان الشعانبة يسيطرون سيطرة كاملة على تجارة القوافل التي تجري بين شواطيء الجزائر وتمبكتو والبلاد الواقعة على نهر النيجر وقد كانت المناطق الصحراوية الغربية في ذلك الوقت تنقسم الى مجالين أساسيين للنفوذ يفصل بينهما خط يمتد على وجه التقريب بين عين صالح غربا وغدامس شرقا . فاما البلاد الواقعة في شمال هذا الخط ، بينه وبين الزيبان ، فهي مجال نفوذ الشعانبة ومسرح نشاطهم التجاري ، بينما كان الطوارق يسيطرون على النشاط التجاري في المناطق التي تمتد جنوب هذا الخط حتى السودان . وكما كان الطوارق يسيرون القوافل ويفرضون إتاوات على القوافل التي يسيرها غيرهم في مجال نفوذهم ويلجؤون إلى الغارات والنهب والسلب لتدعيم احتكارهم ، كان الشعانبة يلجؤون إلى نفس الطرق لفرض سلطانهم في المناطق التي يسيطرون عليها . وكما قضت منافسة التجارة بالسيارة على قوافل الطوارق ونفوذهم ، حطمت السيارة لدى دخولها الى مجال نفوذ الشعانبة على سلطانهم واحتكارهم .

ولكنه إذا كان الطوارق قد تمكنوا من المحافظة على تجارة القوافل في الملح في منطقة نفوذهم في الجنوب ، فإن الشعانبة قد استطاعوا الاحتفاظ بتجارة القوافل التي تمون القصور التي تقع في الشمال الغربي للصحراء ، ولا سيما فيما يتصل بالجنوب الاتية من جبال الاطلس ومن الهضاب العليا الجزائرية ومادة السكر التي تأتي من قابس .

وقد كانت قوافل الشعانبة تسير بانتظام بين مرتفعات الاطلس جنوب وهران وبلاد السودان جنوبا ، عبر جرارة وتادكيلت وتوات غربا ، وقابس وغدامس شرقا . فاما القوافل التي يسيرونها في اتجاه الشمال وفي اتجاه الشرق ، فقد كانوا يسلحونها فكانت تتمتع بالاستقلال التام في عملياتها التجارية . ولكن القوافل التي كانوا يسّيرونها في اتجاه الجنوب كانت تدفع أتاوات للطوارق في مقابل حماية طريقها الى عين صالح .

وقوافل الشعانبة كان يسيرها تجار محترفون من الجمالين ، وقلما يسير فيها صاحب الجمل نفسه ، واكبر الجمالين سنا واحنكهم تجارب في التجارة ومعرفة الطرق هو الذي يتولى قيادة القافلة ويكون مسؤولا على اختيار الطريق التي تسلكها والساعة التي تنهض أو تتوقف فيها اثناء السفر ، وسلطته لا ينازعها منازع وتشبه السلطة التي يتمتع بها قبطان السفينة في العصور السابقة لعصرنا .

وقبل غروب الشمس تعسكر القافلة في موقع يختاره قائدها ويقوم الرجال بجمع الحطب ليشعلوا النار ويطبخو الطعام . وبعد ما يتناولون طعام العشاء يسمرون قليلا ثم ينامون حتى الفجر فيستيقظون ويتناولون الشاي الاخضر ثم تنهض الجمال وتسير في طريقها . وعند الساعة 11 تتوقف قليلا دون ان تنزل الاحمال من على ظهور الجمال ، ليتناولوا الشاي أو الحليب ثم تمضي في طريقها .

وفي العصور القديمة كانت الغارة والسلب والنهب نشاطا منظما ومربحا ، تماما مثل الغارات التي كان يقوم بها القراصنة في البحر . والتقاليد والطرق التي كان الشعانبة يتبعونها في الغارة للقضاء على اعدائهم من مسيري القوافل التي لا تتمتع بحمايتهم ، هي التي اعتمدها الفرنسيون عندما شكلوا فرقة المهارى المشهورة والتي كان من بين مهامها تعقب المهربين . ومن المعروف ان هذه الفرقة

هي التي قضت على قوة الطوارق العسكرية وزعْزعت نفوذهم في جنوب الصحراء عقب المعركة التي وقعت في « تيت » في 7 مايو 1902 ، وكذلك استوعبت فرقة المهارى عددا كبيرا من عناصر الشعانبة الذين كانت لهم خبرة بمسالك الصحراء وطرق الغارة والهجوم .

ولما استقر الامن والهدوء بعدما بسطت فرنسا سيطرتها الاستعمارية في ظل الحكم العسكري ، تحول الشعانبة عن تجارة القوافل وجني الاتاوات الى فتح المتاجر ، وقد شمل نشاطهم هذا كل المنطقة التي تمتد من جنت في الاتجاه الغربي حتى ادرار ، ومن غرداية جنوبا ، حتى تمنراست . وقد قدرت احصائيات صدرت في سنة 1937 ، أن فريق متليلي من الشعانبة كان يملك نسبة 80 ٪ من مجموع الدكاكين والحوانيت التي كانت توجد في جميع مراكز العمران الواقعة في الربع الجنوبي الغربي من الصحراء ، وأن عدد الشعانبة الذين يملكون دكاكين في ازدياد باستمرار .

وقد لوحظ أن الشعانبة الذين يمارسون تجارة التجزئة ، ومثلهم في ذلك مثل المزابيين ، يرفضون الاستقرار في المناطق التي تقع فيها تجاراتهم ، وأن العناصر الوحيدة منهم التي رضيت بالاستقرار في غير موطنها الاصلى ، هم قدماء الجنود والمحاربين المتقاعدين .

قلنا إن الشعانبة ينتمون الى قبيلة سليم العربية ، وبالتالي ، فهم من حيث الأصل عرب . ولكن كثيرا من الشعانبة اختلطوا بالاماء من الزنجيات أو تزوجوا بنساء مختلطة الدم . وعلى مر الزمن فقد هذا القبيل كثيرا من صفائه العرقية ، لأن الأطفال الذين ينجبهم الشعاني من هذا الاختلاط يتبعون الأب ويشكلون جزءا من القبيلة . وتبعا لذلك ، فان عنصرا مهما من الدم الزنجي قد دخل في تكوين الشعانبة العرقي ، على أن الملاحظ أن العنصر الزنجي في شعانبة برْزَقة في متليلي ، أقل منه في العشائر والفرق الاخرى التي تشتت في مختلف أطراف الصحراء ، وأقل منه أيضا في القبائل العربية الصحراوية الاخرى . وبصفة عامة ، نجد أن انتشار الدم الزنجي في القبائل العربية والبربرية (مثل زناتة) في الصحراء يكون أوسع وأقوى بين سكان المدن منه بين الرحل ، ويزداد

انتشارا خصوصا بين القبائل الغنية والاسر الاريستوقراطية والنبيلة التي تمكن افرادها ثروتهم من اقتناء الاماء للمتعة .

وعلى صعيد التنظيم الاجتماعي يقوم قبيل الشعانبة على أساس سيادة الاب في الاسرة ـ الاسرة التي تشكل مع غيرها عشيرة تجمع بينها الى جانب أواصر الدم ، العادات والتقاليد والجوار أو ظروف المعيشة ، أو كلا الأمرين معا ، وتتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي . والتزاوج بين الشعانبة إنما يقع في حضن العائلة أو العشيرة . والعشيرة تحرص على بقائها معا في الحل والترحال . والعشيرة إذا كانت تتمتع باستقلال ذاتي ، فهي سرعان ما تختلط بغيرها من عشائر القبيل حينما ينادي الواجب في حالات الطوارىء وهكذا ، فإن الشعانبة تمثل ما يمكن تسميته باتحاد كونفيدرالي يقوم بوظيفته عندما تدعو الحاجة فقط .

2 ـ التكرور :

التكرور شعب زنجي يسكن الجزء الاكبر من وهاد فوته السنغالية ومن نبْدو . وبلاد فوته تمتد على جانبي نهر السنغال ولو أن أكثرها يقع على الضفة اليسرى ، وأما نبدو ، فيقع الى الغرب من مجرى نهز فَلْمَه . وكذلك تنتشر منازل التكرور في بقاع اخرى في افريقية الغربية ، وخاصة في كايس الواقعة في السنغال الاعلى .

وصف أبو عبيد البكري مدينة تكرور فقال ان أهلها «سودان وكانوا على ما سار السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير ، والدكور عندهم الصنم ، حتى وليهم وأرجابي بن رابيس ، فاسلم وأقام غندهم شرائع الاسلام وحملهم عليها وحقق بصائرهم فيها ، وتوفي وارجابي سنة اثنتين وثلاثين واربعمائة ، فأهل تكرور اليوم مسلمون . وتسير من مدينة تكرور الى مدينة سلى ، وهي مدينتان على شاطيء النيل (نهر السنغال) أيضا ، وأهلها مسلمون ، أسلموا على يد وارجابي رحمه الله» .

وتحدث الشريف الادريسي عن تكرور وسلى بالعبارات التالية :

«ومن جزيرة أوليل الى مدينة سلى 16 مرحلة . ومدينة سلى على ضفة نهر النيل وبشماله ، وهي حاضرة وبها مجتمع من السودان ، ومتاجر صالحة ،

وأهلها أهل نجدة . وهي من عمالة التكروري ، وهو سلطان مؤمَّر وله عبيد واجناد وله حزم وجلادة وعدل مشهور ، وبلاده آمنة وادعة . وموضع مستقره والبلد الذي هو موطنه ، هو مدينة تكرور ، وهي في جنوب النيل ، وبينها وبين سلى مقدار يومين في النيل وفي البرّ . ومدينة تكرور اكبر من مدينة سلى واكثر تجارة ، وإليها يسافر أهل المغرب الاقصى بالصوف والنحاس والخرز ، ويخرجون منها التبر والخدم . وطعام أهل سلى وأهل تكرور الذرة والسمك والالبان ، واكثر مواشيهم الجمال والماعز ، ولباسِ عامة أهلها « قداوير» الصوف ، ولباس خاصتها ثياب القطن والمآزر . ومن مدينة سلى وتكرور الى مدينة سجلماسة 40 يوما بسير القوافل » .

وكذلك ذكر ابن سعيد المغربي في كتاب الجغرافيا شعب التكرور ومدينته كما ذكر لهم مدينة أخرى اسمها قلنبو وقال : « وأما في عصرنا ، فما على شاطيء النيل من بلاد التكرور مدينة الا وقد دخلها الاسلام ، وجميعها لسلطان التكرور» .

ومدينة تكرورهذه تعرف عليها ابن خلدون في مدينة زغاية ، وذكر الباحث ، «كولي» (Cooley) أنه لابد وأن تكون هي نفس المدينة التي أوردها ابن بطوطة باسم زغة ، وقد اثبت هذا التعرف على الخريطة المرفقة بكتابه المعنون « The Negroland » .

وأصل التكرور غير معروف على وجه التحديد ، ولكنه يبدو أنه خليط من عدة أجناس ينحدر العنصر الاصلي منهم من سكافوتة السنغالية ، بينما ينحدر عنصر آخر من الزنوج القدامى الذين كانوا يسكنون جنوب المغرب الاقصى ونزحوا جنوبا عندما أجدبت الصحراء المغربية الجنوبية . وأما « السّركلة » أو « الصّنيك » و « المندجو» و « الملينكة » الحاليين ، فيبدو أنهم قد هاجرو الى هذه المنطقة منذ عهد بعيد واستقروا حول اسواق تكرور . وينحدر فريق رابع من الزنوج العبيد اسمه «رماييه» من أصل من الفلة الذين يقطنون الى الشمال الشرقي في « نيورو» .

وأهل التكرور يعيشون على الزراعة ولكنهم أيضا شعب اشتهر بشجاعته في العصور الحديثة . وقد نجحوا في القرن الثامن عشر في مقاومتهم لسلطان

الفلة في فوتة السنغالية الذين بسطوا سيطرتهم، تحت زعامة الستجى (Satigi)، على بلادها خلال الفترة بين 1559 ـ 1775 ، كما قاوموا توغل الاستعمار الفرنسي فيما بعد مقاومة عنيفة .

وقد كان لأهل تكرور دور كبير في فتوحات الحاج عمر في بلاد مندجو وبلاد بمبره وفي ماسينا خلال الفترة بين 1848 ـ 1864 ، حيث أمدّوه باكفإ القواد واشجع الجنود .

والحاج عمر الذي بنى امبراطورية في افريقية الغربية وقدم خدمات جلى للاسلام في هذه الاصقاع لا يزال اسمه يثير شعورا قويا بالاعجاب والفخر الذي لا حدود له عند البعض ، والكره والحقد عند البعض الآخر . وقد ظهر هذا الانقسام بين سكان المنطقة جليا اثناء الاحتفالات التي اقيمت بمناسبة ذكرى مرور قرن على وفاته ، في سنة 1964 . والذين يكرهون الحاج عمر طائفتان : الوثنيون الذين حطم أصنامهم الخشبية ، واتباع الطريقة القادرية التي ادخلها احمد بكّاي الى المنطقة منذ نهاية القرن الخامس عشر ، والتي فوض الحاج عمر دعائمها باسم الطريقة التجانية . ولد الحاج عمر سيدوطال في سنة 1797 في الاوار (Aloar)في منطقة فوته طورو . وهذه المنطقة كانت مهد مملكة التكرور القديمة (وهي تشكل الآن جزءا من غانة) ويعتبر سكانها أقدم الشعوب الزنجية التي اعتنقت الاسلام .

عرف الحاج عمر بالتقوى والصلاح منذ أن كان طفلا يافعا ، وقد أخذ « الميثاق » عن التجانية . ولما بلغ سن الثلاثين سافر في رحلة لأداء فريضة الحج دامت نحو عشرين سنة أقام خمسة اعوام منها في الحجاز حيث كان ملازما لخليفة شيخ التجانية هناك ، وقد رسمه الاخير خليفة على بلاد السود .

وفي طريق عودته إلى بلده أقام مدة في القاهرة وتابع دروسا في الأزهر ، ثم انتقل الى بورنو ، في جنوب التشاد ، ثم الى سوكتو في نيجيريا ، حيث أقام سبع سنوات في بلاط السلطان محمد بيلو . ومن هناك انتقل الى مالي على رأس نحو ألف شخص من الاتباع . وفي حمدالي لقي استقبالا ممزوجا من «شيكوأمادو» ،

شيخ القادرية ، ولكن استقبال ملك بامبره الوثني له في «سيجو» كان استقبالا عدائيا صريحا .

وفي غضون الفترة بين 1842 ـ 1846 ، جمع الحاج عمر جيشا كبير في أعالي غينيا من اتباع التجانية ممن اغراهم ما تدعوإليه الطريقة من الاخاء والمساواة ، وفي نفس الوقت ، تلقى السلاح والمؤن من سيرليون . وقد استمر على الاستعداد للحرب حتى سنة 1852 ، حين انطلق على رأس جيش عرمرم في اتجاه الشمال واستولى على جميع المناطق الواقعة في غرب مالي حتى حدود الصحراء . .

وفي سنة 1860 ، رسم الحاج عمر حدود مملكته الغربية مع الفرنسيين تاركا لهم السنغال الحالي .

وبعد ذلك نهض على رأس جيش يبلغ عدده 30,000 مقاتل من مالي قاصدا مملكة بَامْبره الوثنية وبدأ في محاصرة عاصمتها في 10 مارس 1861 . وبعدما اخضعها زحف على مملكة ماسينا الاسلامية واستولى على عاصمتها ، حمدالي ، في شهر مايو 1862 واعدم صاحبها أمادو . على أن سكان ماسينا من «الباول» قاموا بثورة على الحاج عمر وجيشه التكروري واضطروه إلى الالتجاء الى السفوح الشاطئية في «بانديلجار» حيث مات في 13 فبراير 1864 ، في ظروف غامضة تضفي لونا قاتما على اسطورة الحاج عمر .

وقد لخص المستشرق دولافوس الذي وضع عدة كتب عن افريقيا الغربية في المقال الذي كتبه في دائرة المعارف الاسلامية عن التكرور نظم الحكم التي تعاقبت على التكرور في الفقرات التالية :

1 ـ مجموعة من الاقاليم تتفاوت درجة اعتماد كل منها على الآخر ، وذلك قبل القرن التاسع الميلادي .

2 ـ دولة يحكمها أمراء وفدوا إليها من الحوض عن طريق تَكْنت وكانوا يعرفون باسم «ياؤوجو» فيما بين القرن التاسع والحادي عشر الميلادي .

3 ـ أمارة تتفاوت درجة تبعيتها لمملكة سَرَكَّلّه في منطقة «الساحل» يحكمها أمراء من التكرور ، أو ولاّة من عن السَّرْكلّه فيما بين القرن الحادي عشر

شيخ القادرية ، ولكن استقبال ملك بامبره الوثني له في «سيجو» كان استقبالا عدائيا صريحا .

وفي غضون الفترة بين 1842 ـ 1846 ، جمع الحاج عمر جيشا كبير في أعالي غينيا من اتباع التجانية ممن اغراهم ما تدعوإليه الطريقة من الاخاء والمساواة ، وفي نفس الوقت ، تلقى السلاح والمؤن من سيرليون . وقد استمر على الاستعداد للحرب حتى سنة 1852 ، حين انطلق على رأس جيش عرمرم في اتجاه الشمال واستولى على جميع المناطق الواقعة في غرب مالي حتى حدود الصحراء . .

وفي سنة 1860 ، رسم الحاج عمر حدود مملكته الغربية مع الفرنسيين تاركا لهم السنغال الحالي .

وبعد ذلك نهض على رأس جيش يبلغ عدده 30,000 مقاتل من مالي قاصدا مملكة بَامْبره الوثنية وبدأ في محاصرة عاصمتها في 10 مارس 1861 . وبعدما اخضعها زحف على مملكة ماسينا الاسلامية واستولى على عاصمتها ، حمدالي ، في شهر مايو 1862 واعدم صاحبها أمادو . على أن سكان ماسينا من «الباول» قاموا بثورة على الحاج عمر وجيشه التكروري واضطروه إلى الالتجاء الى السفوح الشاطئية في «بانديلجار» حيث مات في 13 فبراير 1864 ، في ظروف غامضة تضفي لونا قاتما على اسطورة الحاج عمر .

وقد لخص المستشرق دولافوس الذي وضع عدة كتب عن افريقيا الغربية في المقال الذي كتبه في دائرة المعارف الاسلامية عن التكرور نظم الحكم التي تعاقبت على التكرور في الفقرات التالية :

1 ـ مجموعة من الاقاليم تتفاوت درجة اعتماد كل منها على الآخر ، وذلك قبل القرن التاسع الميلادي .

2 ـ دولة يحكمها أمراء وفدوا إليها من الحوض عن طريق تَكَنْت وكانوا يعرفون باسم «ياؤوجو» فيما بين القرن التاسع والحادي عشر الميلادي .

3 ـ أمارة تتفاوت درجة تبعيتها لمملكة سَرَكَلّه في منطقة «الساحل» يحكمها أمراء من التكرور ، أو ولاّة من عن السَّرْكلّه فيما بين القرن الحادي عشر

والثالث عشر ، وهو العهد الذي دخل فيه أهل تكرور في الاسلام (ونحن نلاحظ أن هذا التقرير لا يتفق مع نقلناه آنفا عن البكرى من أن الاسلام كان منتشرا بين التكرور منذ النصف الاول من القرن الحادي عشر) .

4 ـ امارة تابعة لسركلّه ثم أصبحت تابعة لدوله مالي أو مندنجو فيما بين القرن الثالث عشر والسادس عشر.

5 ـ أمارة ما تزال تابعة لدولة مالي أو مندنجو حتى بعد خضوع هذه الدولة لدولة كاو أو سنكوى (Songai) من بداية القرن السادس عشر الى عام 1558 ميلادي .

6 ـ دولة مستقلة يحكمها أفراد من أسرة دنينكه ، وهم الفله الوثنيين ، أي ، «كومي تنكلا» (Tengla) وخلفاؤه (1559 ـ 1775 م) .

7 ـ حلف اسلامي مستقل يقوم بالحكم فيه لبلدهم أهل تكرور (1776 ـ 1858) .

8 ـ عدة أمارات تكرورية منفصل بعضها عن بعض دخلت تدريجيا تحت الحماية الفرنسية .

9 ـ مجموعة أقاليم الحقت بمستعمرة السنغال (1858 ـ 1890) .

وقد قامت حكومة دينية تكرورية في فوته السنغالية في عام 1776 وكان يتولى زمامها زعيم ديني يلقب بالمامي (وهو تحريف لكلمة الامام العربية) ينتخبه أعيان البلد لمدة قصيرة ، وكان عبد القادر (1776 ـ 1805) أول في هذه السلسلة من الحكام ، وقد تولى الحكم بعده 33 إماما حكم بعضهم أكثر من مرة . وفي عهد المامي مصطفى اعترف دمار الذي استقل بالحكم في فوته بالحماية الفرنسية ، وفي عام 1859 ، تنازل المامي محمدو يران الذي كان يحكم للمرة التاسعة عن حقوقه في الملك في تورو ودمكة اللتين وضعتا تحت الحماية الفرنسية وفي أكتوبر سنة 1877 تنازل المامي محمدو أحمدو لفرنسا عن أقاليم لاَوْويزلابه .

3 ـ الطوارق

على الرغم من ان الطوارق يتمتعون بخصائص أصيلة تميزهم عن جميع القبائل الصحراوية ، فهم يشتركون في بعض السمات مع جيرانهم التيده .

وهم ، مثل التيدة ، يرتدون لباسا من القطن ويحملون اللثام الذي اشتهروا والذي اتخذوه اشارة ورمزا لهم منذ أقدم العصور. وهذا التشابه في العادات هو الذي جعل فليكس جوتيه يعتقد أن الطوارق الاوائل استولوا على الاراضي التي كانوا يحتلونها واغتصبوها من قوم لهم شكل زنجي عام من أقارب التيدة . ولكن هذا الرأي كان ولا يزال مجرد فرض وحتى لو كان صحيحا فهو لا يلقي ضوءا على أصل الطوارق ، حيث ان اصل التبّو (التيدة) لا يزال مجهولا لدينا ، فلا نعرف ما إذا كانوا من الزنوج أو هم ينتمون الى قبائل الشمال .

واللثام الذي يحمله الطوارق ، على عكس الاعتقاد السائد ، ليس بلباس وقائي ضد رياح الصحراء وزوابعها الرملية (ولو كانت له هذه المزية لسارعت جميع قبائل الصحراء الى تبنيه منذ اجيال طويلة) ، ولكنه عادة عريقة حيث كان قدماء الطوارق يحملونه لوقاية الفم والمناخر ، وبالتالي ، مداخل الجسم من تسرب الارواح الخبيثة إليه .

وقبيل الطوارق ينقسم الى ثلاثة فروع أساسية : طوارق تاسيلي ناجّار ، وأهجَّار ، وأدرار نيفوغاس ، وهي موزعة على هذا الترتيب من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي . ولكن معظم الطوارق الذين يقدر عدد مجموعهم بنحو 140 ألف نسمة موزعون في مناطق أخرى غير هذه ، ولا سيما في آير وشمال السودان وشرقيه . على أن أهجار هي مركز القبيل وهي المعقل الذي استعصى على النفوذ الأجنبي من جميع الانواع وفي جميع الاوقات .

والاراضي التي كان يعيش فيها الطوارق وينتجعون الكلأ قديما أراضي شاسعة تمتد على وجه التقريب حتى شمال ورجلة وحتى القطرون شرقا ، ووراء خط يسير من «أوْلف» الى تمبكتو غربا ، وجنوبا حتى منعطف نهر النيجر وحدود نيجيريا الشمالية . ولكنه في غضون القرون الاخيرة تقلصت هذه الرقعة تدريجيا لعدة عوامل أهمها الضغط الذي مارسه العرب عبر القرون من الشرق والشمال ، ثم توغل الاستعمار الفرنسي والايطالي في الصحراء في الازمنة الحديثة .

ونتيجة لتقلص هذا المجال الحيوي ، اتجه الطوارق تدريجيا الى الهجرة الى أدرار نيفوغاس والى آير والسودان ، على أن ظروف القحط وغيرها كثيرا

ما كانت دافعا للانتقال بعيدا عن الرقعة التي تعيش فيها قبيلة من قبائل الطوارق . وقد حدث عقب الثورة التي قام بها الطوارق في الفترة 1916 ـ 1918 ، أن هاجرت جموع كبيرة من آير الى نيجيريا التي كانت تحت الحكم البريطاني ، كما غادرت جماعات كبيرة من قبيلة « طايطوق » منازلها في غرب أهجّار لتستقر في المناطق الواقعة غربي اجاديس . .

ولكن التحركات الاولى الهامة التي عرفها الطوارق ترجع الى القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) عندما أحس هذا القبيل بآثار الغزو العربي .

وأهجار الطوارق تشمل مساحته على وجه التقريب المنطقة التي تمتد بين أمْجيد وجزام وجنت واوالّن ، على نحو 140,000 ميل مربع . والاحصاءات التي تتعلق بالرحل قلما تكون دقيقة ، وهي ، على العموم مجرد تقديرات . والتقديرات الحديثة لسكان هذه المنطقة هي كما يلي : 4400 من الطوارق ونحو 4000 من الزنوج وذلك بالاضافة الى 3500 من الحراثين المستقرين وعدد صغير من العرب الذين يعملون في التجارة .

والطوارق ينقسمون إلى عدد من القبائل وكل قبيلة تنقسم إلى أفخاذ وعشائر ، ولكن الرحل منهم ينقسمون اجتماعيا الى اسياد نبلاء واتباع وعبيد من الزنوج . وصفة النبل تتحلى بها العشيرة كلها ، وأما الفرد فهو إنما يكتسبها بالانتماء .

وطوارق أهجّار يتكونون من ثلاث قبائل ، وهي : «كَلّ رولة» و «تيغيه ملّت» و «طيطوق» . وعلى رأس كل واحدة منها عشيرة نبيلة تحمل اسمها . وبما أن العشيرة النبيلة تفضل جميع عشائر القبيلة ، فان رئيس العشيرة النبيلة هو ، بالضرورة ، رئيس القبيلة . والعشائر النبيلة واتباعها مصنفة على الترتيب المتقدم ، وهكذا ، فان رئيس «كلّ رولة» هو رئيس قبيلته ، وهو ، في نفس الوقت ، (أمنوكل) رئيس قبائل اهجّار .

ورئيس العشيرة الاولى يختاره مجلس يتكون من رؤساء أسر العشيرة ، ولكن هذا الاختيار ، لكي يصبح نافذا يقتضى الأمر أن يؤكده مجلس للقبيلة يتكون من رؤساء العشائر من الذكور يمثل القبيلة كلها . والأمر كذلك بالنسبة

الى اختيار أمنوكل الذي يجب أن يصدق عليه رؤساء العشائر في القبائل كلها . والرئاسة وراثية من ناحية الام وليس من ناحية الاب .

ومركز العشيرة في القبيلة عائم نوعا ما . فان عشيرة ما تستطيع في أوقات الشدة ان تنطوي تحت علم قبيلة تضمن لها حماية أقوى مما تقدمه لها قبيلتها ، وقد كانت عشائر الاتباع في الماضي تغير ولاءها كثيرا وتتردد بين قبيلة وأخرى .

والزواج يقع عادة ـ وليس دائما ـ في داخل العشيرة وفي الدرجة الثانية من القرابة . وطفل الطوارق يرث الجاه والثروة عن طريق الأم ، وذلك بغض النظر عما إذا كانت تنتمي إلى عشيرة أبيه أم لا . ولكن الميراث في الطوارق يجري حسب القواعد المتبعة في الشريعة الإسلامية (للذكر مثل حظ الانثيين) .

وأطفال الطوارق يعيشون وتجرى تربيتهم في حضن العشيرة التي اختار الابوان الانتماء إليها بصفة دائمة . والارملة وأطفالها غير المتزوجين كثيرا ما يعيشون في كنف خالهم ، ومتى كان احدهم متزوجا عاشت أمه واخوته معه .

واحتفاظ الرجل بزوجة واحدة في وقت واحد هو القاعدة بين الطوارق ، والطلاق قد يقع ولكن الناس هناك يعتبرونه ابغض الحلال عند الله . وعلى عكس ما زعمه بعض الكتاب ، مثل « بلانجرنون » ، فان الزني بين الطوارق في رأي الباحثين ليس اكثر شيوعا منه لدى غيرهم من الشعوب الافريقية ، التي يفترق فيها الزوجان مدة قد تصل إلى بضعة أشهر . وما ردده بعض الكتاب الأروبيين من القول بان المرأة الطوارقية في الهجّار تهب نفسها للضيوف والاصدقاء فهو قول لا أساس له من الصحة ، وهو من الاساطير الكثيرة التي سجلها بعض السياح الذين كانوا تحت تأثير الاعتقاد بانهم وحدهم الذين عرفوا الهجّار وكتبوا عنه . ونحن ندرك مدى بعد هذه الاقوال عن الحقيقة إذا عرفنا أن العرف المعمول به بين الطوارق يسمح للرجل الذي خانته زوجته بقتلها ، هي وصاحبها .

والعرف والتقاليد تمنح العروس الحق بان تحتفظ لنفسها بكل ما تملكه ، بما في ذلك الماشية ، وذلك في الوقت الذي يتولى فيه الرجل جميع النفقات المنزلية وتكاليف حفلة الزواج من جيبه الشخصي . على أن المرأة تستطيع المساهمة

في هذه التكاليف والنفقات إن شاءت ذلك ، وهذا كله يتفق مع احكام الشريعة السمحاء .

والمرأة الطوارقية تعامل بكثير من الاحترام والتبجيل ولو أنها لا تتحمل أية مسؤولية اجتماعية خارج حدود منزلها .

يعتبر العرف الزعيم ، أمنوكل ، في الهجار هو مالك الأرض ، وبهذه الصفة يعطي للعشائر أراضي محددة لاستغلالها ولا يحق لغير صاحب الحق الدخول إليها الا بإذن الامنوكل ، وذلك فيما عدا العشائر النبيلة التي تتمتع بالحرية في الرعي في أية أرض تشاء . وكثير من الطوارق يملكون بساتين النخيل وحدائق وأشجار الفواكه في المناطق الزراعية . وبعضهم يملك أيضا حقوقا للصيد في مناطق معينة .

وكما هي الحالة عند التيدة ، فان الذين يحرثون الأرض ويعنون بالبساتين وجني الغلل في أوقات نضجها ، هم الحراثون (من السود) أو الخمّاسون ، وأما الطارقي الذي يعتز بنفسه فيرى أن العمل الزراعي مشين ولا يتنازل لممارسته .

والعشائر غير النبيلة تدفع ضريبة سنوية لزعيم القبيل أمنوكل أو لرئيس قبيلتها أو لكليهما . والضريبة تدفع عينا في شكل اكيال من التمر والذرة واللحم المجفف والزبدة والمهاري ورؤوس الغنم والماعز والمنتجات المصنوعة . وكذلك تدفع العشيرة جزءا من المنتجات المستوردة ، كما تُقدَّم نصيبا من الارباح التي تحققها في تجارة القوافل للامنوكل ، وذلك في مقابل الحماية التي يقدمها لاتباعه وسهره على شؤون الأمن والنظام .

*

* *

يعيش شعب الطورق ، مثل جميع القبائل الرحل ، على الماشية التي تعيش بدورها في المراعي . والمراعي نوعان في بلاد الطوارق : ذات العشب الضعيف والمائل الى الصفرة والشجيرات والحسك المنتشرة بصورة غير منتظمة هنا وهناك ، ولا سيما ، في قيعان الاودية . والنوع الثاني يتمثل في العشب الاخضر والكثيف الذي ينبت وينمو وقتا قصيرا في مناطق معينة عقب سقوط الامطار .

والمراعي في الهجار قليلة وموزعة في مناطق متباعدة في صحراء أهجّار ، ولهذا يحتاج الرحل من الطوارق الى التنقل الكثير لارضاء حاجة مواشيهم الى العشب الطري حيث أن المراعي التي تقع حول المخيم لا تلبث أن ينفذ ما فيها من الكلأ . ويزيد من وطأة الحاجة الدائمة الى التنقل ندرة مواقع المياه والآبار ، فانه كثيرا ما يحدث أن يعثر الرحل على مرعى خصيب العشب ولكنهم لا يستطيعون استغلاله الا يوما أو يومين بسبب بعده عن موقع الماء .

وهذه المجموعة من الاعتبارات هي التي فرضت على طوارق الهجار ضرورة انقسام القبائل الى مخيمات صغيرة سريعة التنقل تتكون من جزء صغير من عشيرة ، وفي بعض الأحيان من أسرة واحدة ، تتنقل من مرعى الى آخر كل فترة تتراوح بين اسبوع أو شهر . وهذا التنقل كثيرا ما يكون لمسافة طويلة ، ولو أنه لا يخرج من نطاق حدود أراضي القبيلة .

وبمجرد ما تحط الرحال وتقام الخيم يأخذ الرجال في استغلال المرعى قبل ان يشرعوا في استكشاف المناطق المجاورة بحثا عن مرعى جديد وموقع جديد للمخيم ، وهكذا طوال السنة . .

والذين يقومون بقيادة المخيم بين الطوارق الرحل ، هم نبلاء القبيلة ورؤساء العشائر التابعة لها ، وهم الذين يتولون عملية البحث عن مراعي جديدة كما يقومون في نفس الوقت بدور الحراس والمدافعين عن المخيم ضد غارات الاعداء ويتربصون بالقوافل التي يمكنهم الغارة عليها وسلبها .

وأما رجال العشائر التابعة ، فان دورهم ينحصر في الاعمال اليومية وفي رعي المواشي ، في الوقت الذي يشكلون فيه احتياطيا مسلحا حينما تدعو الحاجة الى ذلك أي ، متى وقعت معركة كبيرة . وأما العبيد فيقومون بالخدمة في داخل المخيم .

وهكذا نجد أن توزيع الاختصاص والعمل الاقتصادي ، توزيع محكم في قبائل الطوارق في الهجار . وطبقة النبلاء والرؤساء الذين تقع عليهم المسؤولية في الدفاع عن القبيلة والهجوم في الغارات طبقة أساسية خلقتها ظروف حياة الرحل في مناطق تمثل القوة فيها أساس الحق والقانون . وهذا التنظيم الذي

فرضته اعتبارات تتصل بالحياة اليومية ، لا توجد صلة شبه بينه وبين نظام الاقطاع الذي كان يقف على قمته النبلاء في أروبا في العصور الوسطى . والذين حاولوا المقارنة بين النظامين إنما كانوا يعتبرون ظواهر التقسيم الطبقي وليس حقيقته وطبيعة الدوافع إليه . والنظام السائد في الطوارق نظام ديمقراطي من حيث أن رئيس القبيلة وأمنوكل نفسه ، إنما يتم اختياره بطريق انتخاب حرّ يشترك فيه ممثلوا العشائر التابعة ورؤساء القبائل على قدم المساواة مع رؤساء العشائر النبيلة ، وهؤلاء يستطيعون خلع الرئيس ـ على الاقل نظريا ، بنفس الطرق السلمية التي ينصّبونه بها . وبالتالي ، فإن من الممكن القول بان نظام الحكومة الذي يسير عليه طوارق الهجّار نظام جمهوري ديمقراطي وليس باريستوقراطي عسكري .

وقطعان الجمال والغنم والماعز تمثل مجموع رأس المال الذي يملكه شعب الطوارق مجمل استثماراته ، وبالتالي ، فهي تشكل أساس الاقتصاد القومي في الهجار. والثروة الحيوانية في الهجار قدرت بارقام تختلف باختلاف العصور التي تناول فيها الباحثون هذا الموضوع ، ولكنه يبدو ان الأرقام التالية مطابقة للواقع في السنوات الأخيرة (في السبعينات) ولو أنها أرقام تقريبية : 12000 رأس من الجمال ـ 2000 رأس من الغنم . 20,000 رأس من الماعز ـ 5000 حمار ـ نحو 300 رأس من البقر.

وهكذا نرى أن هذه الثروة الحيوانية متواضعة ، ولا سيما إذا اعتبرنا أن الحمير غير منتجة ولا تصلح الا لمحمل الاثقال . وعدد ما يملكه طوارق الهجار من البقر ليس له أية اهمية تذكر . ومجموع الجمال المحتفظ بها في الهجار لا يتجاوز 4500 جملا ، والباقي تخرج للرعي مع الرحل في منطقة تامسنا وعلى أطراف السودان ، في منتصف المسافة بين آير ومنعطف نهر النيجر . وكذلك تخرج معظم القطعان للرعي خارج منطقة الهجار ، ولا سيما في أراضي تِينْ زواتنة التي تمتد في الجنوب الغربي للهجار ، وفي شمال شرق تامسنا .

والطوارق يعنون بتربية جمال الركوب عناية خاصة ويبذلون كثيرا من الجهد لاعداد الجمل لمهمته منذ السنة الثانية من عمره ويخصى الذكر في سن الخامسة .

وإذا كانت الثروة الحيوانية والبساتين تشكل القاعدة الاولى لاقتصاد طوارق الهجار ، فان التجارة لها مكانتها أيضا في هذا النظام . والمادة الاولى في هذه التجارة هي الملح الذي سبق أن لاحظنا أنه يشكل حجر الزاوية ، بل والعملة الصعبة أيضا ، للتبادل التجاري في الصحراء الكبرى كلها .

فـي شهـر أبريل أو مايـو يرسل بعـض الطوارق خدمهم من السود للعمل في منجم « امدرور» لاستخراج الملح لمدة أسبوعين أو ثلاثة ، وفي شهر يوليو ينقلون شحنات من الملح على ظهور الجمال ويمرون بمراعي تامسنا حيث يتيحون فرصة من الراحة لجمالهم ، وبعد ذلك يبدّلون بعضها بجمال اكثر حيوية واشدّ قوة ويمضون بها في اتجاه المراكز التجارية الواقعة على الحدود الشمالية للنيجر . وهناك تجري المعاملات التجارية لمدة نحو شهرين بالملح الذي يبادله الطوارق بالتمور والحمير والجمال والذرة وغير ذلك من منتجات الشمال والمنتجات المصنعة المستوردة ، مثل ملابس القطن والاخذ به والأواني المنزلية والآلات المصنوعة من الصلب والحديد والاسلحة والذخيرة .

وفي شهر يناير يعود طوارق الهجار الى الشمال ويستريحون بعض الوقت مرة اخرى في تامسنا ، قبل ان يواصلوا سفرهم الى بلدهم حيث يصلون في شهر مارس ، أو أوائل أبريل .

والرحلة التجارية الاخرى التي يقوم بها الطوارق هي التي تتجه فيها القوافل الى اسواق « تيدكلت » و « توات » ، وهي تبدأ من الهجار في شهر يناير أو أوائل فبراير وتنتهي في شهر ابريل . وفي هذه الاسواق يبيع الطوارق الجمال والغنم والماعز والحمير ومنتجات الالبان ، مثل السمن ، ويشترون في مقابلها التمر والملابس القطنية واغطية الصوف التي تصنع في القرارة والشاي والسكر والطباق .

على أن هذه الاسواق قد تقلصت كثيرا في غضون الثلاثين سنة الماضية بسبب تدخل الوسطاء المجهزين بالشاحنات والذين استولوا على عمليات نقل هذه البضائع التي كانت القوافل تحملها من الشمال . وهذه التجارة لا تزال موجودة ولكنها تجري بصفة غير مباشرة وأصبحت تجارة داخلية في الهجار .

كان الملح والتمور يجري تبادلها في العصور الماضية في البلدان الواقعة على منعطف النيجر بالجمال والغنم والذرة والارز ، كما كانت الجمال وجلود الماعز تباع في غدامس في مقابل السيوف والثياب المطرزة والتمور والشاي والسكر. وهذا المركز التجاري العريق ، غدامس ، لا يزال حتى الآن مهما لإنتاج الأدوات والاواني المعدنية والسيوف وللتجارة فيها.

والى جانب تجارة القوافل يمارس الطوارق نشاط مراقبة القوافل في الاراضي الواسعة التي تخضع لسيطرتهم . فقد ذكر المستكشف الالماني بارث منذ نحو قرن أن أمنوكل الهجار ، «جياما» كان يسيطر على جميع النشاط التجاري الذي يجري عن طريق القوافل بين مرزق وتمبكتو. وهذه الحالة ربما كانت ترجع الى عدة قرون قبل ذلك التاريخ . والمعروف ، على أي حال ، أن طوارق الهجار كانوا يسيطرون على طرق التجارة في المنطقة التي تمتد بين «اوادان» وجنوبه حتى شمال نيجيريا وذلك على الاقل ، منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادي .

* * *

كان الطوارق الذين يسيطرون على طرق التجارة في المناطق الجنوبية الغربية يمدون القوافل التي تمر بهذه الأراضي بأدلاء ومرشدين مسلحين لحمايتها . وفي مقابل خدمات الحماية يفرضون اتاوة تقدر قيمتها على أساس قيمة البضائع التي تنقلها القافلة وعلى أساس ثروة مسيّرها . على أن أصحاب القوافل كانوا كثيرا ما يرفضون الرضوخ لتقديرات الطوارق ، كما ان بعض القوافل تصطحب معها في بعض الاحيان مرشدين وحراسا مسلحين ، وفي هذه الحالة تسير القافلة بدون حماية . ولكن الطوارق يتعرضون لها في معظم الحالات ليثبتوا سلطانهم في أراضيهم ، وحتى يتخذوا من القافلة الممتنعة موعظة ودرسا لغيرها . وهكذا كان الطوارق ، مثل الشعانبة ، جيرانهم في الشمال ، يفرضون سلطانهم على حركات التبادل التجاري في الصحراء الجنوبية الغربية قرونا عديدة .

ومثل غيرهم من القبائل الصحراوية القوية ، كان الطوارق يمارسون نشاطا آخر مربحا من الناحية الاقتصادية ، وذلك هو نشاط الغارة على القبائل الاخرى ،

إما لغرض السلب والنهب وأما بسبب الاحقاد بين القبائل وطلب الثأر . وهذه الغارات كثيرا ما تتخذ شكل هجمة ليلية مفاجئة تقوم بها جماعة صغيرة من الرجال تستولى على ما أمكنها الاستيلاء عليه من الماشية ثم تختفي في الطبيعة الصحراوية ولا سبيل الى تعقب اثرها . وعبيد الطوارق كانوا هم أيضا يقومون بغارات على قرى السود التي تقع في أطراف الصحراء ويعودون بسبي يعزز ما يملكه المخيم من اليد العاملة . على أن هذه الغارات اختفت في العصور الحديثة نتيجة لتحريم الاسترقاق ، كما اختفى المورد الذي يجنيه الطوارق من حماية القوافل ومن تسيير القوافل ، عقب حلول السيارة الشاحنة محل الجمل في نقل البضائع عبر الصحراء . وهذه التطورات كان لها أثر قوي ولوحظ منذ أواخر القرن الماضي في تدهور الاقتصاد الصحراوي في الهجار ـ ذلك الاقتصاد الذي لم يكن يتسم بالقوة على كل حال ، في أي عصر في تاريخ هذا الشعب الذي ظل القرون تلو القرون متمسكا بنمطه الثقافي الخاص وبطريقة معيشته التي لا يرضى بها بديلا .

وهذا النمط الثقافي سوف يفتضّ الاستعمار الفرنسي أسراره ويوقف نموه الطبيعي بعدما بسط سيطرته على الهجار عقب المعركة التي وقعت في واحة « تيت » الصغيرة بين جيش فرنسي بقيادة الملازم «كونتنست» والطوارق في 7 مايو 1902 ، والتي أبدى فيها رجال الهجار ضروبا من الشجاعة والبطولة لا تقل عما أبدوه في معارك سابقة ، ولا سيا في الموقعة التي تحمل اسم « فلاتر» والتي اسبقنا الحديث عنها . فقد أصبحت طريق الهجّار بعد ذلك مفتوحة أمام رجال الادارة العسكرية الفرنسية وأمام أنماط الثقافة الاستعمارية ، وخصوصا ، أمام أفواج المبشرين بتوجيه شيخهم ، شارل دوفوكول ، بحماية حراب « لابيرين » .

والطوارق الرحل يعيشون في خيام خاصة تصنع عادة من جلود الماعز ، وأحيانا من جلود الغنم أو العجول ، ولكن النبلاء يتخذون لانفسهم خياما من جلد الموفلون الذي يعتبر الكلمة الأخيرة في البذخ والاناقة . والجلد يدبغ ويجهز بصفة خاصة ويكون ناعم الملمس وذالون يميل الى الحمرة ، وبعد اعداده يقطع الى قطع متلائمة ثم تخاط كل قطعة باخرى بعناية بخيط من الجلد نفسه . وعدد

القطع الضرورية لصنع خيمة يتراوح بين 30 و 150 قطعة وذلك حسب كبر حجم الخيمة وصغرة والخيمة المتوسطة المنتهية الصنع تزن عادة ما يتراوح بين 25 و 30 كيلو جرام . ومتى انتهى صنع الخيمة ركبت على أعمدة عمودية أفقية من الخشب .

وأثاث الخيمة يتكون من جلود الغنم المصنوعة ومن السجاد الذي يستورد من الشمال وأكياس الجلد التي تودع فيها المواد الغذائية والامتعة الشخصية والسروج والاسلحة والاواني المصنوعة من الخشب ومن النحاس والفخار ، ومن المقاعد ذات الاشكال المختلفة . والاسلحة والمواد الغذائية تودع في جناح الرجال من الخيمة ، وأما الادوات التي تستعمل للطهي فهي توضع في الجناح المخصص للنساء . وأما القربة التي تحتوي على الماء ، فانها تعلق على عمودين من الخشب عند مدخل الخيمة .

ويحاط فناء الخيمة بسياج لرد الريح كما يحاط المطبخ الذي يوجد في الفناء بسياج لنفس الغرض . وعلى بعد نحو 80 مترا من الخيمة تقام خيمة أخرى للعبيد والخدم .

وفي بعض الاحيان ، ولا سيما خلال شهور الحرّ الشديد حينما يبقى المخيم في مكانه مدة طويلة (وهذه هي الحالة خصوصا في زمن القحط حينما يصبح من الخطر الابتعاد عن أماكن المياه الدائمة) ، تطوى الخيم وتقام زريبة في مكان المخيم ، وهي عبارة عن بنايات مكعبة أو مستديرة مواد البناء فيها هي القصب وصحائف النخيل مثبته على إطار من الخشب .

والمخيمات تقام دائما في مكان غير ملحوظ ومرتفع ، وذلك فيما عدا الاوقات التي لا تغطى الشمس فيها غيوم وحينما يثق الناس بانه لا يوجد خطر نزول المطر فجأة وتنجم عنه سيول . وكل خيمة تشغلها عائلة واحدة تتكون في العادة من جميع افرادها . والمخيم قلما يزيد عدد الخيم فيه عن 5 أو 6 خيم ، ولكن مخيم أمنوكل يحتوي عادة على ما يتراوح بين 15 و 20 خيمة .

كانت ملابس طوارق الهجار في القديم تتكون من قمصان مصنوعة من الجلد تنزل الى ما تحت الركبة وحواشيها مزينة بالزخارف . وهذا القميص

قد استمر حتى اوائل القرن التاسع عشر ، على الاقل ، لأن السائح ليون ذكر أن رجالا من الطوارق زاروا مـرزق في سنة 1819 وكانوا يرتدون هذه القمصان . ولكن المستكشف دوفيريي ، يخبرنا بعد ذلك بأربعين سنة بأن هذه القمصان أصبحت نادرة في الهجار. والقطعة الاخرى التي اختفت بين ملابس الطوارق ، هي نوع من لباس الرأس يشبه الطربوش ، وهو مصنوع من اللباد وتدار حوله عمامة خاصة . وعلى الرغم من أن بعض رجال القبائل المغربية لا يزالون يرتدون هذه « الطرابش» حتى الآن ، وأنها كانت تمثل لباس الرأس الشائع في الهجار أثناء زيارة دوفيريي له ، فهو قد اختفى منذ نحو نصف قرن من الزمن .

ورجال الطوارق حاليا يلبسون سراول فضفاضة سوداء أو ذات لون أزرق غامق مصنوعة من القطن تنزل حتى الركبة وطرفي الرجلين حتى العقب ، وفوقه قميص واسع من القطن حلت محله « القندورة » التي لم تعش طويلا بينهم حيث حل محلها هي الاخرى اللباس الاروبي الذي قضى على الملابس التقليدية في مختلف انحاء الجزائر . وكذلك كان الطوارق يلبسون رداء خارجيا فضفاضا مصنوعا من الصوف في أيام البرد . ولكن هذا اللباس حل محله البرنوس المستعمل في الشمال .

وينتعل الطوارق نوعين من لباس الرِّجل ، أحدهما عبارة عن صندل ينعكف آخره على اصابع القدم ويمسك بواسطة خيط من الجلد ويمتد بين الاصبع الكبير والاصبع الصغيرة الى الكاحل (رسغ القدم) ، والنوع الثاني يستورد من السودان ، وهو عبارة عن صندل مسطح أوسع من القدم بنحو بوصة في جميع الاتجاهات ويربط بخيط رقيق من الجلد بالرجل .

هذا بالنسبة الى الرجال وأما نساء الطوارق فيلبسن ثوبا مصنوعا من القطن يتدلى من الخصر حتى ما تحت الركبة وسراول فضفاضة مثل سراول المدنيات في الجزائر ، ولو أنها أقصر قليلا . وكذلك يلبسن نوعا من « القندورة » بيضاء وأخرى زرقاء فوقها ، ويتوج كل ذلك شال ووشاح يغطي الرأس أزرق مصنوع من القطن . وكذلك كانت الطوارقيات في الماضي يلبسن في الصيف نوعا من القبعات واسعة الحواشي مخروطية الشكل مصنوعة من القش ولكن هذا اللباس اختفى الآن تقريبا .

يتفق الباحثون على أن الطوارق قبيل بربري من أقدم من سكن الصحراء . وهذه الحقيقة التي اشار إليها الرحالة المغربي ، ابن بطوطة وأكدها من قبل أبو عبيد البكري الذي كان يكتب في اوائل القرن الحادي عشر الميلادي حين يقول في وصف تادمكة (في أدرار ايفوغاس) ما يلي : «وتادمكة اشبه بلاد الدنيا بمكّة . ومعنى تادمكة : هيئة مكة . وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب ، وهي احسن بناء من مدينة غانة ومدينة كوكو . وأهل تادمكة بربر مسلمون . وهم يتنقّبون كما يتنقّب بربر الصحراء ، وعيشهم من اللحم واللبن ومن حب تنبته الأرض من غير اعتمال ، ويجلب إليهم الذرة وسائر الحبوب من بلاد السودان ، ويلبسون الثياب المصبغة بالحمرة من القطن والنولي وغير ذلك ، وملكهم يلبس عمامة حمراء ، وقميصا أصفر ، وسراويل زرقاء . ودنانيرهم تسمّى «الصلع» ، لانها ذهب محض غير مختومة . ونساؤهم فائقات الجمال لا تعدل بهن أهل بلد» .

على أن الباحثين المحدثين ، وفي مقدمتهم بن هزرا (Benhazra) وبلانجرون (Blongueron) يتفقون على أن عددا من القبائل التابعة للطوارق والمعدودة منها ، تنتمي الى أصل عربي أو الى اصل طارقي عربي مختلط . وهؤلاء يجتمعون في عدد من العشائر تضمها علاقات تشبه علاقة القبيلة ويسمون «إسوكَمَرَن (Isoquamaren) . ويقول بن هزرا إن إسوكَمَرن يزعمون انهم ينحدرون من أصل امرأة اشتراها عربي من الغزاة العرب الذين جاءوا الى البلاد في منتصف القرن السابع (كذا) الميلادي . ولكن الطابع الاسطورى لهذه القصة واضح ، للمغرب بعدة اجيال . وبالتالي ، فان هذه القصة ليست اصح ولا أقرب واضح ، حيث أن ذلك يعني أن هؤلاء العرب وصلوا إلى أدرار قبل الفتح العربي للمغرب بعدة أجيال . وبالتالي ، فإن هذه القصة ليست أصح ولا أقرب الى المنطق التاريخي من تلك التي يرددها مؤرخو العجائب والغرائب من الغربيين الذين يزعمون ان الطوارق ينحدرون من قبيل من اصل الصليبيين ظلوا طريقهم بعد هزيمتهم في الشرق وقطعوا الفيافي تائهين حتى استقر بهم المقام في الهجّار ..

ويعتقد مؤرخ الصحراء والمستكشف المعاصر «لهوط» (Lhote) ان إسوكَمَرن ينحدرون من آباء من العرب وامهات من الطوارق ينتمين الى منطقة

تادميت ، ولكن بلانجرون يرى انهم ينحدرون من أصل عربي من واحَتيْ تيديكلت وتوات هزمهم الطوارق في القرن الثامن عشر أو قبل ذلك ثم اختلطوا بهم وضموهم الى قبائلهم .

ولكن هذا الانتساب الى العروبة ، ليس له ، فيما يبدو ، أي تأثير على وضع اسوكَمَرن الاجتماعي ، حيث أن الطوارق يضعونهم في نفس المرتبة التي يضعون فيها العشائر (التابعة) غير النبيلة . على أن اسوكَمَرن الذين اثروا في العصور الاخيرة واصبحوا يملكون كثيرا من الجمال ، يتمتعون بسمعة ونفوذ كبير استعاضوبه عما فاتهم من الشرف في التنظيم الهرمي الطارقي .

ومن أهم عشائر اسوكَمَرن عشير ارّيجناتن (Irreguenaten) التي تعيش في منطقة تامسنا ، في جنوب الهجار وتمتد مجالات رعيها من هناك في الاتجاه الشمالي الغربي ، عبر أدرار ايفوغاس ، لتصل أحيانا الى عرق « الشيش » ، ويسود الاعتقاد بانهم ينحدرون من أصل من عرب القراره ونساء من طوارق ابوتناتن . وهذه العشيرة الكثيرة العدد ، اصابت ثراء واسعا بحيث اقاموا لانفسهم نوعا من الاستقلال الذاتي وحصلوا على مركز اجتماعي رفيع لا تحلم به كثير من العشائر التابعة من الطوارق . وهم يتفرعون الى فرعين اساسيين : اهجرانن وستّافنن ، يرجع كل منهما ، فيما يعتقدون ، الى جد عربي غير جدّ الثاني .

والملاحظ أن العشائر التي تنتمي إلى أصل عربي من الطوارق تعيش خارج جبال الهجار ، في القوس الذي يحيط بها في الغرب والجنوب الغربي والجنوب الشرقي وفي الجنوب حوالي اراضي قبيل الطوارق أجّار .

لم تستقر أسرة من الاشراف في الطوارق ، فيما نعرف ، قبل الاسرة المغربية التي هاجرت الى هنا ، وأقامت دولة شملت طوارق الهجار وطوارق أجّار ، وحكمت دولة « امنانن » (وربما كان ذلك تحريف امامَن = الائمة) حتى سنة 1650 م حينما اغتال رجل من قبيلة إوراغن أجّار « جمعة » آخر هؤلاء السلاطين الائمة . وقد تلى هذا الحدث عهد من الفوضى والحرب الاهلية التي استمرت طويلا .

وكذلك مارست الطريقة التجانية نفوذا قويا في الهجار في القرن الماضي وفي اوائل هذا القرن ، كما اعتنق بعض الطوارق الذين سافروا الى الاماكن المقدسة لأداء فريضة الحج الطريقة السنوسية وكونوا لها بعض الانصار لدى عودتهم الى الهجار .

أدرار :

أدرار (معناه الجبل باللغة البربرية) : منطقتان متميزتان من إقليم الطوارق : أدرار أو ليميدن ، وهي تمتد في جنوب الجزائر وشمال النيجر ، وأدرار تمَر (أو أدرار الغربية) وتقع في شمال النيغال ، بين موريتانيا وجنوب المغرب الاقصى .

وأدرار جبل مستطيل ينحرف نحو الشرق والجنوب الشرقي ، ويحيط به من الغرب حائط صخري متوسط الارتفاع (175 مترا) ، ولكنه حائط شديد الوعورة ولا يوجد فيه سوى ممرّ واحد للدواب يسمّى « تيدز» ، كما يحيط به من الشرق سطح مستمر من الأرض تحجبه كثبان رملية من بعض نواحيه . وتتخلل هذه التلال الرملية منخفضات مستطيلة تتجمع فيها الرواسب وتتخلف فيها بعض المياه التي تتجمع من أمطار تهطل في المنطقة من شهر أغسطس حتى شهر نوفمبر ، تمد بالمياه الإودية التي تجري من الشمال الى الجنوب الغربي . وجبل أدرار يشكل امتداداً للهجار من الناحية الانسانية حيث انه يشكل حلقة وصل بين طوارق الجزائر وطوارق ماليّ .

وأدرار منطقة فقيرة من الناحية الزراعية حيث أنها لا تنتج غير الشعير والدخن ، والري غير معروف لدى السكان حتى فيما يتصل بالنخيل الذي يمثل الزراعة الاساسية . ومع كل ذلك ، فان 80 ٪ من سكان المنطقة يعيشون على الزراعة وتربية الحيوانات .

وإذا كانت المساحة الاجمالية للولاية تبلغ 450,000 كلم^2 ، فان الأراضي الصالحة للزراعة فيها لا تتجاوز 7500 هكتار . وحتى هذه المساحة لا تستغل منها استغلالا جيدا سوى 2000 هكتار . وقطاع الثورة الزراعية يشمل 717 هكتار تشتمل على 32 تعاونية انتاجية بالاضافة الى 10 تعاونيات

استصلاح الارض ، ستكون ست تعاونيات منها انتاجية في غضون هذه السنة (1979) .

وأغلبية المساحة الزراعية تشتمل على قصور تتوزع بينها 12000 نخلة . ولكن كثيرا من هذا النخيل وحشي حيث أنه لا يوجد سوى 800,000 نخلة منتجة من هذا المجموع . والمنتوج السنوي ضعيف ولا يتجاوز 10000 طن ، أي بمعدل 10 كلغ للنخلة الواحدة . وضعف مستوى الانتاج مرجعه الى قلة مياه الري من جهة ، والى مرض البيوض الذي يقضي في كل سنة على آلاف الاشجار . ضف الى كل ذلك ان التمر الذي تنتجه ولاية أدرار ليس من النوع الجيد ، ويصدر جزء منه الى مالي والنيجر في مقابل استيراد المواشي .

والزراعة الأخرى التي ادخلت مؤخرا (1972) الى أدرار هي زراعة الطماطم التي انتشرت بصورة متزايدة وارتفعت المساحة التي خصصت لها من 575 هكتار (التي كانت تنتج 8000 طن سنويا من النوع الجيد) الى 800 هكتار (التي بلغ انتاجها في سنة 1977 ـ 150,00 طن) . وقد انشيء مصنع لتحويل الطماطم وتعليبها برقان يملك طاقة انتاجية قدرها 12000 طن ، الا أن انتاجه في الواقع لا يتجاوز ما يتراوح بين 3500 و 400 طن سنويا . ويعاني محصول الطماطم من مشكلتين اساسيتين : وسائل نقله في الوقت الملائم الى الشمال على مسافة بعيدة ، وتهرب المنتجين من انتاج النوع الصناعي بسبب الفارق الكبير بين سعره وسعر ما ينتج للتصدير .

والمشكلة الأساسية التي تواجهها منطقة أدرار في مجال التنمية (الزراعية والصناعية معا) هي النقص الكبير في موارد المياه . فان ما تملكه الولاية من الماء في الوقت الحاضر لا يكاد ما يتجمع في مستنقعات موجودة منذ القرن الثامن عشر الميلادي . وحتى هذا المورد المتواضع تتناقص الكميات الموجودة منه باستمرار . والنقص الآخر الذي تعاني منه ولاية أدرار التي تحتوي على ثلاث دوائر (ادرار : 41.196 نسمة ـ تيميمون 41704 نسمة ـ رقان 42463 نسمة) **يتمثل في الطرق المعبدة التي تعتبر من المرافق الاساسية الضرورية لأي مجهود صادق** للتنمية . فان هذه المنطقة التي تمتد على 450000 كلم^2 ، لا تملك سوى شبكة

تتكون من 430 كيلو متر ، أي بمعدل أقل من كيلو متر واحد لكل 100 كيلو متر . والحالة الصحية في أدرار تدعو ، هي الاخرى الى الاسف ، حيث أنه لا يوجد في هذه الولاية التي يبلغ عدد سكانها 150,000 نسمة ، سوى 8 أطباء ، أي حوالي 20000 نسمة لكل طبيب واحد .

وعدد المستشفيات الموجودة في البلد لا يزيد عن مستشفايين ، احدهما في دائرة أدرار والآخر في دائرة تميمون . وكذلك عدد الصيدليات هذه المشاكل وغيرها مما تتخبط فيه جميع ولايات الصحراء في الحقيقة . هي التي ينتظر أن يعالجها البرنامج الخاص الذي اعتمدت له موارد معتبرة في نطاق ما يسمى بسياسة التوازن الجهوي ، إذا قدر لتنفيذه حظ من الكفاءة والحصافة . ونظرا الشمول هذا البرنامج لجميع الولايات الصحراوية المتخلفة ولطابعه العام ، فقد رأينا أن نخصص له فقرة بحيث يكون هو نفسه موضوع الحديث ، بدلا من أن تتحدث على مشروعاته التي تخص كل ولاية عند الحديث عنها .

ولكن لنعد الى وصف ادرار من الناحية الجغرافية والتاريخية . توجد في ادرار عدد من الواحات القليلة القيمة ، وأهمها ، واحة «أطار» و«شنحي» التي كانت تسير منها في الماضي القوافل التجارية إلى سانت لويس ونيورو ، في مالي . والمناطق الجنوبية الغربية من أدرار هي مهد قبيل لمتونة التي كانت تشكل مع صنهاجة العمود الفقري لحركة المرابطين .

وفي عهد متاخر (1680) نسبيا ، غزا أخو مولاي اسماعيل منطقة أدرار على رأس جيش مغربي كبير وتوغل حتى منطقة نكانت جنوبا ، ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بسلطان ملك المغرب في هذه الاراضي الشاسعة والمنعزلة .

وينقسم سكان ادرار الى مجموعتين اساسيتين من القبائل ، تسمى احداهما المرابطون والاخرى أولاد حسان الذين اشتهروا بميلهم الى الحرب وشن الغارات . وأهم افخاذ هذه القبيلة : أولاد غيلان ، وأولاد أبو السباع ، وأولاد يحيي بن عثمان ، وهم جميعا يدعون انهم عرب خلص .

وأما قبائل المرابطين ، فهم من البدو الرحل المسالمين نسبيا ، يرحلون الى الشمال لرعي قطعانهم في الشتاء ، ويعودون الى الجنوب في وقت جفاف

الشمال ، وأهم المراكز التي يسيطر عليها المرابطون ، هي واحة «أطار» . ولكلتي القبيلتين اتباع تبسط حمايتها عليهم من الحراثين .

آير :

يمتد إقليم آير الجبلي بين خطي العرض 16° و20° شمالا على طول 280 ميلا ، ويبلغ عرضه من الشرق الى الغرب 60 ميلا ، وتقدر مجموع مساحته بنحو 5800 ميلا مربعا . وقد كان الرحالة ، بارث ، أول من استكشف آير وتجول في ربوعه في سنة 1850 .

وفي سنة 1899 ، تجولت في أرجائه بعثة « فورو لامي » (Foureau Lamy) الصحراوية وتوغلت جنوبا حتى « افروان » وأجاديس ، ووصلت الى دَمْرِغو . وهذه البعثة تمكنت من جمع معلومات إضافية عن آير من تصحيح بعض المعلومات التي أوردها الرائد الاول ، بارث ، ولا سيما فيما يتعلق بالناحية الجيولوجية والمناخية .

وإقليم آير ينقسم جغرافيا الى ثلاث مناطق أساسية :

1 ـ آير الشمالية . وهي تتكون من هضاب وسهول ويزيد مستوى ارتفاع مستوى الارض عن البحر فيها عن 2300 قدما .

2 ـ آير الوسطى . وهي منطقة تمتد من جبل تغازى في الشمال الى أودِراس في الجنوب ، مسافة 186 ميلا . وأهم جبال هذه المنطقة جبال تغازى التي يبلغ ارتفاعها 3600 قدما على مستوى البحر ، واغرغاتن ، وتمغة والبنداي وسَرْسُو وأَغْلان وأَغْتن (3900 قدما) ودجلان (4200 قدما) وجبل بلا (4600 قدما) واودراس .

وهذه الجبال كلها ذات انحدار شديد ، وسفوحها تشبه حيطان أسوار عالية وتتوجها قمم عالية حادة الاسنان .

3 ـ آير الجنوبية ، وهي عبارة عن منحدرات صخرية تنحدر في اتجاه السودان ولها قمة واحدة (تلسدك) يبلغ ارتفاعها 3300 قدما .

ويمتاز إقليم آير عن بقية أقاليم الصحراء التي عالجناها ، من حيث ان فصل الامطار يمتد فيه من بداية شهر يونيو حتى نهاية شهر أغسطس .

على أن هذه الامطار لا تصيب الا مناطقَ معينة من الجبال التي تنحدر منها سيولا جارفة لتمد الغدائر والاحواض الموجودة في جوف الارض بالمياه التي لا تلبث أن تعود وتتبجس على سطح الأرض .

وهذا المناخ الممطر هو الذي أتاح لمنطقة آير حياة نباتيةً أقوى مما تعرفه المناطق الأخرى من الصحراء الكبرى ، ولو أن نبات آير أقل تنوعا ممّا في مالي من النبات . ومعظم نبات آير من فئة الأشجار الصمغية .

وعلى الرغم من خصوبة الارض في إقليم آير ، فإن تأخر الزراعة فيه يجعل انتاجها لا يفي بحاجة السكان الذين يستوردون بعض المواد الغذائية التي تكمل انتاجهم من النيجر .

وأهمية إقليم آير الاساسية ترجع الى موقعه الجغرافي في الصحراء بوصفه ملتقى شبكة من طرق القوافل تمتد بين سكوتو وأقاليم النيجر جنوبا ، وتوات وغات وغدامس وملاّحَات بلمة من الشمال والشرق .

وأول القبائل التي سكنت إقليم آير والتي ورد ذكرها لأول مرة على لسان الحسن بن محمد الوزان (ليون الافريقي) ، هم الجويرَوَة الذين هم فرع من الهوسة .

وفي حوالي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) استوطن البربر آير وابتنو فيه مدينة تين شمَن على الطريق التي تربط أودراس بأجاديس ، على مسافة عشرين ميلا من المدينة الاخيرة ، واتخذوا منها عاصمة لامارة شهدت ازدهارا اقتصاديا كبيرا وبلغت شأوا من التقدم الثقافي .

ويرى المستكشف الالماني ، بارث ، ان قبيلا آخر من البربر يسمّى كيل آوى ، جاء من الشمال الغربي من مملكة الكوس ، بين زندر وكوكا ، قد استوطنوا المنطقة منذ سنة 1740 ، بعدما اعملوا الشيف في سكان آير الأصليين واسترقوا من بقي منهم على قيد الحياة . ويبدو أن كيل أوى كانوا أقرب الى الطوارق من حيث لون البشرة منهم الى الهوسة . ولكن تزاوجهم مع الهوسة

بدلا من البربريات جعل بشرتهم سوداء ، الأمر الذي يحتقرهم من اجله البربر ويعتبرونهم « أكلان » ، أوزنوجا .

وكذلك ينقسم سكان آير الى فئتين رئيسيتين : السود والطوارق الذين يختلفون عن طوارق الشمال من عدة أوجه ، ويعتبرون اكثر تقدما وحضارة من اخوانهم في الشمال .

على أن طوارق آير أقل تماسكا من حيث التنظيم الاجتماعي من طوارق الشمال . فبينما ظل أمنوكل ، شيخ الطوارق في الهجار يحتفظ بسلطته القوية عبر القرون ، فاذا بامنوكل طوارق آير لا يملك الا سلطة اسمية .

وأهم سلاطين آير ، هو سلطان أجاديس الذي يكون في بعض الاحيان سلطانا على إقليم آير كله ، ولو أن نفوذه تقلص كثيرا في العهود الاخيرة ، حتى قبل استقلال النيجر ، بسبب فقر الاقليم وقلة موارده الاقتصادية التي لم تكن تتجاوز المكوس والاتاوات التي كان يفرضها على القوافل الآتية من الشمال ، من جهة ، وبسبب ضغوط قبيل كيل فروان الكبير العدد ، من جهة اخرى .

والمراكز الاجتماعية في آير عبارة عن قرى واكواخ ومخيمات بسيطة . وأجاديس هي المدينة الوحيدة التي تستحق هذا الاسم ويرجع تأسيسها ، فيما ذكر بارث الى القرن الخامس عشر الميلادي ، على يد القبائل الخمس التي اقتسمت فيما بينها إقليم آير . وبفضل موقعها الجغرافي الممتاز ، لم تلبث أجاديس أن أصبحت قصبة لمملكة مزدهرة ومركزا للتبادل التجاري بين قبائل الشمال وقبائل السودان ، وقد احتفظت أجاديس بمركزها بوصفها ملتقى ثقافيا وتجاريا بعدما بلغت أوج عظمتها في سنة 1519 (بعدما استولى عليها الحاج محمد اسقيا سلطان صنغاي) حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي .

ولكنها بعد ذلك بدأت في التدهور وقد كان من بين العوامل التي عجلت بسقوطها ،، اضمحلال مركز جَاوْجَاوْ الواقعة على نهر النيجر والتي كانت قاعدة تنطلق منها القوافل عبر أجاديس في اتجاه الصحراء . وبينما كان عدد سكان المدينة في القرن السادس عشر يبلغ خمسين ألف نسمة ، فاذا به لم يكن يتجاوز

في سنة 1850 ، في تقديرات المستكشف ، بارث ، ما يتراوح بين ستة آلاف وسبعة الاف نسمة .

وأجاديس في الوقت الحاضر أقرب الى القرية منها الى المدينة ، ولم يعد هناك ما يدل على عظمتها التاريخية من الآثار ، سوى مسجدها الكبير الذي تعلوه منارة هرمية الشكل .

وسكان آير مسلمون متمسكون بالدين الاسلامي بشي من التعصب الذي فرضه عليهم جوارهم للوثنيين في الماضي . وقد كان تشككهم في نوايا الاروبيين هو الذي حملهم على عدم السماح للمستكشف الفرنسي دوباري بالتوغل في أراضيهم وراء أجيرو ، .

على أن الدين الاسلامي يختلط في اذهان السكان بكثير من الخرافات والتقاليد والعوائد القديمة .

والطريقة المنتشرة في آير والتي كان لها عدد من الاتباع والاخوان هي الطريقة السنوسية التي روجها هناك عدد من الدعاة الذين كانوا يفدون على المنطقة من طرابلس الغرب أو من توات .

وتاتي بعد الطريقة السنوسية من حيث النفوذ والانتشار الطريقة التجانية .

والملاحظ أنه على الرغم من انتشار الدين الاسلامي في هذه المنطقة ، فان اللغة العربية غريبة فيها حيث لا تعلم الا في مدارس خصوصية لتحفيظ القرآن على الطريقة القديمة .

4 ـ عناصر أخرى من البربر :

كانت قبائل البربر منذ عهد الرومان والبيزنطيين تهاجر من الشمال الى الجنوب في اتجاه الصحراء هربا من تعسف المحتلين وارهاقهم بالضرائب وغيرها ، أو تحت تأثير عدم الاستقرار السياسي واضطراب الامن العام . وهذه الهجرة الجماعية أو الفردية لا تلبث أن تجد في مراعي حافات الصحراء عاملا مغريا للتوغل في الصحراء لانتجاع الكلا وللتمتع بحياة الحرية التي لا تحدها حدود .

وبعد الفتح الاسلامي لمصر وشمال افريقيا ، اخذ البربر الرحّل يشعرون بوطأة العنصر العربي الذي ألف الصحراء وتمرس على طرق العيش فيها . ولتجنب الدخول في صراع من النوع الذي عرفوه في التل ، راح البربر يستقرون في مواقع يشعرون فيها بالامن والطمأنينية ويتملكون البساتين خصوصا في الواحات البعيدة .

وكذلك انتشر العنصر البربري الى أقصى الجنوب بحيث ان رواية تقول إن قبيلة من هؤلاء المهاجرين هي التي أسست قصر توريرت التي لا تزال خرائبها فوق التلال المشرفة على القليعة ، في اوائل القرن العاشر الميلادي . ومن الواحات المتوغلة في الجنوب التي استقر فيها هؤلاء البربر من زناتة ، القرارة وتوات وتيديكلت حيث طاب لهم المقام وأخذوا يمارسون الاعمال الزراعية بتعاون مع العنصر الاسود من العبيد والحراثين . وبعد مرحلة الانتاج للاكتفاء الذاتي ، اخذت هذه الواحات تنتج لتموين الرحل والوسطاء الذين يتاجرون مع مراكز عمرانية اخرى .

وزناتة ، بعد دخول عناصر أخرى إلى الصحراء ، أصبحوا قلما يشكلون اغلبية في مركز من المراكز الصحراوية .

والعنصر البربري الآخر الذي يتسم بخصائص مشابهة لتلك التي تتميز بها زناتة ، قد انتشر على طول حافة الصحراء التي تمتد جنوب المغرب الاقصى عبر الصحراء الاسبانية سابقا ، وهم التاجْكَنْت (المفرد : جاكني) . ويبدو أن التاجكنت ينحدرون من أرومة صنهاجة التي أعتنقت الإسلام منذ القرن الثالث الهجري ، قبل أن تنتشر فروعها على ضفاف نهر السنغال وفي اتجاه الشمال عبر المغرب الأقصى ويمتد سلطانها في ظل المرابطين ليشمل الأندلس والمناطق الغربية من الجزائر.

كان التاجكنت وقتا من الزمن يسيطرون على تجارة الملح في المناطق التي تمتد بين إيجل وغرب السودان . وقد استمرّ الدور الذي كانوا يقومون به بوصفهم رحّلا يعملون في تجارة القوافل حتى القرن الثامن عشر الميلادي ، وبلغت سيطرتهم أوجها قبل سنة 1760 بقليل حينما ألحقوا بقبيل الرقيبات هزيمة كبيرة ، ومنذ ذلك التاريخ اخذت سطوتهم في تدهور مستمر ، بسبب المنافسة المتزايدة التي

كانوا يواجهونها . وفي سنة 1794 ، احرزت الرقيبات انتصارا حاسما عليهم فوضعت بذلك حدا نهائيا لقوتهم العسكرية .

وبعد ذلك اتجه التاجكنت الى الاستقرار تدريجيا ، بحيث أصبح معظمهم اليوم يعملون في البساتين أو يمارسون تجارة التجزئة ، وذلك على الرغم من أن عددا صغيرا منهم لا يزال يعيش حياة التجوال وتربية الجمال في حالة بارزة من الفقر .

والتاجكنت يتحدثون لهجة عربية لا تكاد تفهم بسبب طغيان الكلمات والتراكيب البربرية عليها . ووضعهم من الناحية الاجتماعية والاقتصادية لا يكاد يختلف عن وضع بقايا زناتة .

والتاجكنت موزعون هنا وهناك في المناطق الشاسعة التي تمتد بين جنوب المغرب الاقصى وغرب السودان ، وجنوبا حتى أوليف (Aoulef) .

والنظام العائلي السائد بين التاجكنت يضع السلطة في يد الاب ، ولكنه لا يقطع في أمر ذى بال دون ان يستشير زوجته ، وذلك بشرط ان تكون قد ولدت له ولدا ذكرا ...

ونساء القبيل يتحجبن ويلازمن بيوتهن . وعلى غرار التقليد السائد بين التيدة ، تحتفظ الفتاة عند زواجها بحقها في كل ما تملكه وفي كل ما حملته معها الى منزل الزوجية . والرجل منهم كقاعدة يقتصر على زوجة واحدة . والفتاة تتزوج في أيّة سن بعد الثانية عشرة من عمرها .

والتاجكنت يشبهون زناتة كثيرا من ناحية المورفولوجيا ولونهم يتراوح بين اللون الزنجي الخفيف والثقيل جدا . ومن جهة اخرى تجمع بينهم وبين الطوارق روابط ثقافية عامة ، مثل زي الملابس (ولو أنهم لا يحملون لثاما) وطريقة تصفيف النساء لشعرهن . وكذلك تتشابه الآلات والادوات المنزلية التي يستعملها الشعبان ، بل ولربما كانت من نوع واحد . ولكن تشابه الملابس قد يكون مرجعه اعتماد كل منها على المصادر السودانية للملابس ، وفي نفس الوقت ربما كان تشابه الأدوات يعود إلى الأساليب العامة التي يتبعها الحدادون والنجارون في المناطق المتقاربة التي يتجول فيها القبيلان . وبالتالي ، فان هذه الادلة السطحية

لا يمكن ان تمثل سنداً لفرض التقارب العرقي . والشك لا يزال قائما بين الباحثين في هذه القضية ، وذلك على الرغم مما ذكره الرحالة دوفيريي من ان طوارق الشمال يعتقدون أنهم ينحدرون من نفس الاصل الذي ينتمي اليه التاجكنت .

ومن القبائل الصحراوية البربرية ذات التاريخ العريق والتي تشبه الطوارق من حيث ان رجالها يحملون اللثام هم أيضا ، قبيلة جُدَالة (اوكدالة) التي هي فرع من صنهاجة ، وهي تعيش غرب لمتونة في الصحراء الغربية على سواحل المحيط الأطلسي ، بالقرب من أرجوين ورأس الأسود .

وقد وصف ابن سعيد المغربي شواطيء هذه المناطق نقلا عن البحار والرحالة ، ابن فاطمة (وابن سعيد هو الوحيد الذي نقل الينا أخباره الهامة) في عبارات تدل على ما تتسم به هذه المناطق من الشدة والوحشية ، نقتبسها من كتابه « الجغرافيا » ، وذلك لما فيها من الطرافة ولأن هذا هو الوصف الوحيد الذي تركه شاهد عيان في الادب الجغرافي العربي . قال ابن سعيد :

« ذكر ابن فاطمة انه ركب البحر مرة في نولمطة ، فاخرم به المركب فوقع الى ضباب وأقاصير وضل البحريون ولم يعلموا حيث هم حتى ركبوا المركب الكبير واخذوا زادا في القارب الصغير وصاروا يجرونه على الحشيش وطورا ينهضون المجاديف الى أن انتهوا بعد مدة الى قاع هذا الجون وعاينوا من التنّ فيه ومن كثرته ما تعجبوا منه ، وكذلك من الطيور البيض ، ولم ينتهوا الى البرّ الا وقد كاد الزاد يفرغ . فلما انتهوا الى تحت الجبل اللماع ، أشار عليهم برابرة كدالة الا يقربوا الجبل ولم يعلموا سبب ذلك ، فاخذوا عنه شمالا حتى خرجوا عن حده . ولما خرجوا الى الساحل لم يفهموا كلام كُدالة حتى جاء شخص كان يفهم الكلامين ، فسالهم عن ضلالهم فاخبروه وسألهم أهل المركب عن تحذيرهم أياهم من الجبل اللمّاع ، فقالوا ، كله حيات مهلكة قتالة يراها الغريب لمّاعا من الحجارة المليحة الألوان فينخدع حتى يقرب منه ، فتهلكه الثعابين ، فبشروهم بالسلامة وابتعاعوا منهم المركب وساروا إلى مدينة تغيزا (تغازى عند آخرين) ، قاعدة كداله ، وأقاموا معهم يشربون لبن النوق ويأكلون قديد الجمال حتى اتفق وحيلم إلى نول . قال : وبلادهم على ما هي عليه من الصحراء والرمال قد حسن فيها قصب

السكر ، بسبب الأنهار الخمسة التي تنزل من الجبل اللمّاع ، وقد ذكر بطليموس وأخبر أن النهر الأوسط [منها] يعرف بنهر الحيّات ، وهي فيما قارب الجبل اللماع وما اتصل به من الجبال كثيرة ، أرسلها الله نقمة على أهل تلك الجهات ، فصيروها نعمة ، إذ يفضلونها في الأكل على الدجاج ، ويتصل بالجبل اللماع جبل لمتونه الذي كانت فيه سلطة الملثمين . »

وقد ذكر ابو عبيد البكري جدالة فقال انهم يجاورون البحر المحيط (الاطلسي) وليس بينه وبينهم احد . وجدالة مسلمون سنيون على مذهب مالك . وقد تعرض ابن خلدون لوصفهم فقال إنهم كانوا على دين المجوسية الى ان ظهر فيهم الاسلام لعهد المائة الثالثة وجاهدوا جيرانهم من السودان فدانوا لهم واستوثق لهمْ الملك .

وقد حدث أن رئيس جدالة ، يحيى بن ابراهيم الذي كان عائدا من الحج اصطحب معه عالما مصلحا اسمه عبد الله بن ياسين وحبب الله الاقامة معهم وقام بدعوة بينهم إلى إصلاح المنكر ورد المظالم وقطع المغارم وهذه الدعوة لم تلبث أن تبلورت إلى حركة دينية سياسية وإلى عمليات عسكرية انطلقت منها دولة المرابطين .

*

* *

الفصــل الثامــن
الحيــاة الثقافيــة

1 ـ الواحة نواة الحضارة :

يمكن اعتبار الواحة ، بما توفره من مراكز العمران كالمساجد والاسواق والمتاجر الخ ، والانتاج الزراعي ، وبكونها ملتقى لتبادل المنتجات والاخبار والافكار بين الرحل والمقيمين ، نواة الحضارة الاولى في الصحراء . ونحن نعرف أن أكبر واحات الصحراء هي مصر التي يروي النيل شريطا ضيقا من اراضيها الصحراوية والتي تمثل حضارة من أقدم حضارات العالم وارفعها .

وبفضل الواحات ازدهرت حضارات أخرى في صحاري غير الصحراء الكبرى نكتفي بالإشارة من بينها إلى حضارة ازبيك في صحراء المكسيك وحضارة الانكا في صحراء البيرو .

صحيح أن الحضارة العمرانية بالمعنى الذي يفهمه علماء الآثار من هذه الكلمة التي تنطوي على وجود خرائب المباني وانقاض المعابد واعمدة القصور والتماثيل الخ ، شيء غريب عن الصحراء الكبرى (إذا استثنينا منها ما يتصل بوادي النيل) . وبصفة عامة ، فان الثروة الاثرية التي كشف عنها المنقبون لا تتجاوز عددا صغيرا جدا من التحف والقطع . وهي تنحصر فيما عثر عنه في مغارات تاسيلي وقبر «تين هينان» في الهجار ، والضريح الروماني الصغير الذي لا تزال آثاره في جرمة (في وادي الاجيال) وخرائب عين جالكّا في التشاد التي لا تزال محاطة بالاسرار والرموز ، ومع ذلك ، فان حافات الصحراء

الشمالية لا تخلو من مواقع اثريه ، مثل مدينة طيبة الفرعونية . بل إن معابد اسوان واهرامات مصر نفسها لتتصل من بعيد بحضارة الصحراء .

ولكن حضارة الصحراء نفسها لا تجسمها المنجزات المعمارية الباذخة ، وذلك على الرغم من أن بعض الواحات ، مثل مزاب وسيوه ، شهدت حضارات تمركزت في المدن .

وإذا استثنينا التأثيرات التي تسربت إلى الصحراء من قدماء المصريين والفنيقيين والرومان (الذين كان توغلهم ذا طابع عسكري وتجاري) فاننا نلاحظ أن نمط الحضارة الصحراوية يكتسي طابعا مزدوجا ويحذو حذو نمط الحضارة العربية التي توغلت مع الدين الاسلامي ونقلت بعض نماذجها القبائل العربية حتى قلب الصحراء ، ونمط الحضارة البربرية الذي يتمثل في النماذج التي انتقلت الى الصحراء من آثار بعض الاسر البربرية المالكة في الشمال ، بالاضافة الى المضمون الثقافي الذي يجسمه شعب الطوارق .

وتبعا لذلك ، فنحن متى تحدثنا عن النمط التاريخي لحضارة الصحراء (وأما نمط ما قبل التاريخ فنحن نجهله حيث أنه لم يبق منه سوى صور ونقوش على الصخور) ، فينبغي ان يكون مفهوما اننا نعني نمطا عربيا ، أو نمطا بربريا ، أو مزيجا مستوحي من احدهما أو من كليهما .

وفيما يتعلق بالنمط الثقافي الطوارقي ، فهو نبته صحراوية نمت وترعرعت في محيط منغلق على نفسه بعيدا عن جميع التيارات الحضارية الخارجية . وإذا كان الطوارق قد تقبلوا الإسلام بدون عناء ، فهم قد كيفوا التراث الإسلامي حتى يتلاءم مع المحيط الصحراوي وينسجم مع خلفية ثراثهم القديم ، ونحن يجب الا ننسى أن الطوارق هم الشعب البربرى الوحيد الذي سمحت له عزلته التامة بالاحتفاظ بلغة بربرية مكتوبة ، وبالمحافظة على ذوقه الخاص في الشعر وعلى تقاليده العريقة في الصناعات اليدوية وعلى أنماط الاسلحة والادوات المنزلية التي اخترعها وطورها اجداده منذ احقاب متوغلة في القدم .

على أن قلة اتصال الطوارق بالعالم الخارجي وعدم تفاعلهم مع الحضارات التي سادت في الشرق والشمال ، مضافا اليه فقر منطقتهم من المواد الأولية ،

ونمط الحياة الاجتماعية التي يحيونها (حياة الرحل) قد حكم على نمطهم الثقافي بالجمود الذي سيؤدي به حتما الى التقلص . والشعور القوي بضروه المحافظة على التراث الذي ورثوه عن الاجداد ، عامل آخر حال دون تسجيل النمط الحضاري الطوارقي أيتقدم في العصور الحديثة . وإذا كان الطوارقي قد استفاد من اتصاله بالعالم الخارجي اثناء الاحتلال الفرنسي ، فإن هذه الفائدة محدودة جدا من حيث الكم والكيف معا . ونحن نذكر بأن الطوارقي الذي تبنى البندقية الحديثة في أوائل هذا القرن ، مثلا ، لم يتخل عن صناعته التقليدية للسلاح ، وذلك على الرغم من معرفته أن السيف والخنجر والدرع ، اسلحة لا تكاد تصلح لاكثر من تزيين بيوت السياح ، ولم يعد لها قيمة لمواجهة الاسلحة النارية .

والنمطان الحضاريان (العربي والبربري) يرتكز كل منهما على اللغة الخاصة به . فاذا كانت اللغة العربية هي العربة التي نقلت الدين والقيم الحضارية الاسلامية ، فان مناطق صحراوية شاسعة لا تزال تتحدث اللغة البربرية ، على الرغم من تمسكها بالاسلام . فالى جانب الطوارق ، لا تزال اللغة البربرية هي السائدة في جميع القصور الواقعة جنوبي وهران تقريبا ، ونصف قصور القرارة وفي واحة تمنتيت وتوات وتيت وتيدكلت ووادي مزاب وورقلة والقصور المجاورة لنقاوس في جنوب قسنطينة وفي بعض المراكز العمرانية المجاورة لتوجورت في وادي ريغ ، هذا إلى جانب مناطق جنات وغدامس وغات في الشرق وكلها مما يشمله النمط الثقافي الطوارق .

والنمط الثقافي البربري هو السائد أيضا في واحة سيوه التي تقع على الحدود المصرية العربية على الطريق الصحراوية التي تمتد من وادي النيل الى برقة .

على أن الجدير بالتسجيل هو أن هذه المعاقل التي تحصنت فيها اللغة البربرية ولا تزال تحتوي على رواسب كثيفة من التراث الثقافي والفولكلوي البربري ، لم تعد تتمتع بالمناعة التي ضمنتها لها عزلتها في الماضي ، حيث أخذت تتوغل فيها اللغة العربية بسرعة ، وذلك بفضل كثافة حركة المواصلات بينها وبين الشمال ، ونتيجة لانتشار التعليم والتنظيم الاداري الحديث فيها ، ونتيجة أيضا لبروز أهمية الصحراء الاقتصادية بوصفها مستودعا ضخما للثروات

الطبيعية ، ولا سيما من النفط والغاز الطبيعي . وهذه العوامل ستقوى وتشتد حتى تتحطم الحواجز الطبيعية التي تحمى معاقل البربرية .

2 ـ الفن والادب :

إذا امعنا النظر في حياة الصحراء ، فسنجد أنها تنقصها جميع المقومات والخصائص التي تميز البيئة التي يتاح للفنون فيها النمو والازدهار ، وذلك فيما عدا الانسان الصحراوي الذي زودته الطبيعة بذكاء حاد وبصيرة نفاذة واستعداد فطري للفهم ولتلقى الوحي والالهام .

وأهم ما ينقص البيئة الصحراوية ويعوق ظهور مواهب الانسان الصحراوي للخلق والابداع فيها ، هو الهدوء النفسي والاستقرار المادي والسلام الاجتماعي ، فالفن ، بدون نزاع ، نشاط روحي تفيض به النفس الوادعة الامنة التي لا تعيش في خوف من المفاجآت ورهبة وترقب دائم للمجهول .

ولكن حياة الناس في الصحراء ، عرضة في كل مكان للعواصف والسيول وغير ذلك من الكوارث الطبيعية ، بقدر ما يجد الانسان نفسه فيها باستمرار تحت رحمة التهديد بالحروب والغارات من أجل الكلأ ، أو لأخذ الثأر ، لأن قانون الصحراء كان دائما ولا يزال الى حدّ ما ، هو القانون الذي يفرضه القبيل الاقوى والاشجع . .

وحياة التنقل وانتجاع الكلا التي يحياها الرحل ونسبة عالية من سكان الواحات ، تلازمها ضرورة تفرض على البدوي، ألا ينقل معه إلا ما خف حمله من الاثقال ، وبالتالي ، فلا مجال أمامه لنقل التماثيل والمواد الأولية التي تصنع منها والتحف واللوحات الخ .

والفنان الذي يحتاج الى الراحة الذهنية لجمع شتات افكاره ولترتيب مواده الأولية ، يحتاج أيضا الى انفاق فترة من حياته في التعلم والتدرّب على العمل الفني ، كما يحتاج إلى متاحف ليتأمل فيها الأعمال الفنية التي أنجزها من سبقه ويستلهمها أو يقلدها أو يعارضها . والصحراء لا تتوفر فيها فرص للتعلم

والتدرب ولا توجد فيها متاحف ولا نماذج ولا تقاليد فنية ولا مكتبات ولا أساتذة للفن .

والمناخ الصحراوي بشمسه الساطعة ، وآفاق الرمال الواسعة ، قد يجد فيه الفنان الذي ثم تدريبه (مثل دولاكروا ونصر الدين داني) ما يستلهمه ويستهويه لخلق أعمال فنية ذات قيمة . ولكن الصحراوي الذي يعمل ويكدح لكسب قوته لا يمكن أن يجد في شمس الصحراء المحرقة ولا في رمالها المتحركة والتي تنفذ الى كل مكان ويجدها حتى في الخبز الذي ياكله ، تلك المسحة الشعرية التي تكتسيها في نظر رجل الشمال الذي يقضي إجازته في تمنراست .

وقبل هذا كله ، فإذا سمحنا لأنفسنا باستعمال تعبير « الخلق » في مجال الانتاج الفني ، فان ذلك يجب أن يحل محمل المجاز والاستعارة ، لان « الخالق » الحقيقي ، هو الذي يوجد شيئا من لا شيء ، وهذا أمر يعجز عنه أبرع الفنانين وأعظمهم موهبة . لان الفنان (الى جانب الموهبة) يحتاج الى مواد أولية ليحولها الى الشكل الذي تعبر به عن أفكاره وعواطفه بطريقة مؤثرة . فهو يحتاج الى المرمر والفسيفساء والى انواع من الصخر الصلد والطين ، مما لا يوجد في الصحراء ولا يستطيع ان يستجلب الكميات الكافية منه من الشمال أو من أروبا بدون مشقة وتكاليف باهضة حتى في عصر السيارة والطائرة . .

والفنان في حاجة كذلك الى انواع خاصة من الخشب والورق والاقلام والحبر والزيوت الكيميائية الخ ، مما كان من المستحيل الحصول عليها في العصور القديمة ، ولو كان على علم بطرق استعمالها وتوفر لديه الوقت الضروري لذلك .

ولو فرضنا جدلا إمكان توفر الادوات والمواد الأولية والمقدرة على استعمالها واستطاع الرجل الصحراوي أن يشكل تلك المواد ويخرج منها تحفا من الصور الزيتية والتماثيل والمنحوتات الخشبية الخ ، فسيجد أن البيئة الصحراوية بما فيها من الشمس المحرقة بالنهار والبرد الشديد بالليل وحياة طلب المراعي وغارات السلب والنهب ، تجعل من المستحيل المحافظة على تلك التحف في خيام الشعر والزرائب أو في بيوت مبنية بالطين .

واستحالة المحافظة على الاثار الفنية ونقلها ، وعدم وجود المكتبات والسجلات والمراجع ، هي التي تفسر لنا الى حد كبير ما يتمتع به البدوى من ذاكرة قوية هي مرجعه الوحيد ، ومن يقظة ذهنية وسرعة للبديهة ، وميل الى الارتجال في الخطابة والشعر ، وهي المتطلبات الاساسية للفن الوحيد الذي ازدهر في الصحراء ، فن الكلام .

ويمتاز الصحراوي أيضا بحدة المشاعر وقوة الاحساس بالجمال المادي والمعنوي . والفراغ الاجتماعي والثقافي الذي يحيط به يجعله يركز كل عواطفه واهتمامه في عدد صغير من الاشياء التي تلازمه في حياته اليومية ، وفي مقدمتها المرأة والجواد والجمل . فهو يمدح المرأة في شعره ويتغنى بجمالها ، ويفخر ويتباها بفرسه السريع الذي يخوض به المعارك ، ويصف صبر الجمل ، ذلك الحيوان الاليف الذي ينقل اثقاله ويرافقه كظله .

وكذلك تفتقت عبقرية الشاعر الصحراوي وانبثقت عنها معاني أصيلة في تمجيد الشجاعة والكرم والنبل والآباء ، وفي التغني بالحب الذي يحس به احساسا صادقا نقيا ، كثيرا ما يتجاوز المتعة الجنسية ويتخذ أبعادا روحية صافية .

وعدم وجود مكتبات وسجلات في الصحراء ، يجعل البدوي يعتمد اعتمادا كليا على الرواية الشفاهية ، والبدوي لا يهتم عادة بالكتابة ـ متى كان يعرف القراءة والكتابة ـ إلا متى كان الأمر يتعلق بشؤون الحياة العملية (مثل عقود البيع والشراء والتنازل والميراث الخ) .

والمرابطون وشيوخ الطرق هم وحدهم الذين يجمعون في بيوتهم بعض الكتب التي تتصل بالشؤون الدينية ، مثل الفقه واللغة ، وأما العلماء الذين كانوا يملكون مكتبات ذات قيمة علمية ، مثل ماء العينين والتجاني والسنوسي ، فهم يعدون على أصابع اليد الواحدة .

والأدب الشعبي ، بحكم ظروف تنقل البدو الرحل وعدم ضبطه في الدواوين ، يعتمد على الذاكرة والرواية السماعية التي تنقطع بالموت أو برحيل الحافظ للاشعار والقصص ، وهو على كل حال أدب ضحل بسيط ضيق الافق .

وقصص البدو واشعارهم منذ العصر الجاهلي في الجزيرة العربية ، قلما تخرج عن نطاق الحب والحرب والتفاخر بالانساب والرثاء .

وحياة التنقل المستمر والفراغ ، وليالي الصحراء الطويلة والشوق والحنين الى الديار السابقة بالاضافة الى حب الظهور ، كلها حوافز تدفع البدوي الى قرض الشعر والتغني به . والشعر الشعبي الصحراوي يولد في منطقة ضيقة ويردده الناس ويشغفون به في تلك المنطقة ردحا من الزمن ، ومتى أصبح شائعا وملّوا من ترديده والتغني به ، تناسوه وأعرضوا عنه لرواية الجديد لتشنيف الأسماع به .

من يستطيع أن يقدر قيمة الثروة الأدبية التي ضاعت على الأدب العربي في العصر الجاهلي نتيجة للاعتماد على الرواية وعدم التسجيل ؟

إن المعلقات التي أبقى عليها الزمن والتي تستحوذ على إعجابنا ونجد انفسنا مضطرين الى اعتبارها أجمل ما في الشعر الجاهلي ، لها أيضا قيمة الدليل والمؤشر . فإن وصول الشعر الى هذا المستوى الفني الرائع ، يفترض مرور أجيال عديدة ، ولربما قرون من قرض الشعر والتنافس في انشاده في مختلف المناسبات والمناطق بين الشعراء الذين نسيت ذاكرة الرواة المحليين أشعارهم لكونها لم تعد تتماشى مع ما يتطلبه الذوق العصري ، أو بسبب النعرات القبلية أو ضاعت بسبب الحروب والغزوات أو موت الرواة أو رحيلهم .

تلك ظاهرة عامة في الأدب الصحراوي في كل مكان ، .ولكن منطقة الطوارق في الصحراء الكبرى تشكل استثناء لهذه القاعدة ، من حيث ان انتاجا وفيرا من شعرها قد وصل الينا عبر الاجيال . وهذا الشعر إذا كان في مجموعه لا يخرج في اغراضه وأساليبه عن شعر الصحراء ، من حيث أن موضوعاته تنحصر في حب امرأة والتغنى بجمالها والشكوى من هجر الحبيب أو فقدانه والاشادة بجمال الفرس والتفاخر بالشجاعة في غزوة ، فهو مع ذلك لا يخلو من جمال وطلاوة . وشعراء الطوارق في معظم الحالات ، إنما ينظمون قصائدهم وينشدونها في أوقات السهرات على أجيج النار المدفئة ، أو تحت ضوء القمر التي تعكسها الرمال الناعمة . وهذه الامسيات والسهرات الشعرية المؤنسة والتي تنعشها اكواب الشاي الاخضر ، بالنعناع أو بلهونه[1] ، يسميها الطوارق «آهال» .

والى جانب الشعر ، يشمل الادب الصحراوي الامثال التي تردد للموعظة والتبصر ، والحكاية التي لا تختلف من حيث الموضوع والوحي عن الشعر ، والحكم والاقوال الشائعة التي يولع الكبار بحفظها واستيعابها في ذاكرتهم لترديدها في المناسبات .

وفي موريطانيا توجد طائفة من الشعراء ينتمون الى طبقة الحراثين من أصل الزنوج يعيشون ضمن مجموعات من خيم المرابطين والنبلاء المحاربين ويسمون « الجريوت » وهؤلاء لا يحرثون ولا يحصدون ولا يرعون المواشي ولا يمارسون أي عمل يومي في الخيمة . ومهمتهم تنحصر في قرض الشعر والتغني بجلائل اعمال الاسياد العرب الذين يعيشون في كنفهم .

* * *

3 ـ الموسيقى والرقص :

اشرنا في فقرة سابقة الى أن المناخ الصحراوي في جملته غير ملائم للفنون التشكيلية وقلنا إن الحياة الاجتماعية والثقافية لا تساعد على تبلور العبقرية ، ولكننا اكدنا القول بان فن الكلام ، ولا سيما الشعر ، هو المجال الذي سجل فيه الصحراويون نبوغا لا ينكر .

وكلمة الشعر يجب أن ناخذها بمعناها الواسع ، بحيث تشمل الغناء والموسيقى ، بل والرقص أيضا ، وذلك لأن الموسيقى والرقص كانت دائما وفي جميع الحضارات ، من توابع الشعر الغنائي .

والآلات الموسيقية الصحراوية ، مثل المقاطع الالحان ، كلها تتسم بالبساطة والسذاجة ، ولو أنها لا تخلو من تأثير . والكمان ذي الوتر الواحد الذي يسمى عند الطوارق « الانزاد » ، هو الآلة الموسيقية الاولى في الصحراء كلها ، ويعزف عليها الرجال والنساء على السواء . والى جانب الانزاد ، توجد عند العرب الصحراويين آلة متعددة الاوتار تسمى « البلافون » .

والآلات الموسيقية الاخرى المستعملة في الصحراء ، هي الطبل والمزمار والناي والقيثارة ، والقرع المجفف الذي يفرغ من حشوه ، والصناجات التي تصنع من معدن ، من النوع الذي يستعمله الزنوج الافريقيون .

والموسيقى كانت في العصور القديمة دائما ملازمة للرقص ، ولكن دخول الاسلام ، الى الصحراء والى شواطئها الجنوبية ، قد وضع حدا لهذا الفن بما فرضه من مباديء الاحتشام والوقار وبمقاومته لكل أشكال الإثارة الجنسية ، في كثير من المناطق ، وجعله يختفي كلية في مناطق اخرى . على أن هذا لا يشمل الرقص في المجتمع النسوى ، وهو تقليد لا تزال تمارسه بعض القبائل والمناطق (توجورَت مثلا) في مناسبات الاعراس والافراح .

وأما المناطق التي لا يزال الرقص شائعا فيها ، فنلاحظ انه على عكس المعمول به في الشمال ، فان الرجال هم الذين يمارسون الرقص . وهذه هي الحالة في اقصى جنوب الصحراء ، ابتداء من عين صالح وما وراءها .

ورقص الرجال انما هو حركات تعبيرية ذات أصل قديم يتصل بالسحر وله خليفه من الطقوس الوثنية ، ولكنه قد يكون أيضا رمزا لحركات حربية . وفي بعض الحالات يكون له مغزى رمزي ديني وحربي في نفس الوقت ، مثل رقصة سبية التي تمارس في بلاد طوارق آجاروفي غات وجنت .

والنساء المشاهدات لحلقات رقص الرجال ، ليس لهن سوى دور لترديد المقاطع يشبه الدور الذي تقوم به جوقة النساء في المأساة اليونانية . فهن يترنحن من يمين الى شمال ، ومن شمال الى يمين ، جالسات على اردافهن في كتلة متراصة ، او يدرن حول الراقصين الذين يشهرون حرابهم في حركات شبه تعبديه ، ويرددن بأنغام رتيبة مقاطع الشعر الذي ينشده منشد بمرافقة آلة موسيقية .

ومن المعلوم أن الشعر الغنائي .والموسيقى والرقص فنون تدل على انفتاح الشعوب التي تمارسها على الحضارة ، وتمثل تراثا شعبيا قابلا للنمو والتطوير . على أنه نظرا للطابع الشفهي الذي يميز الشعر والموسيقى الصحراوية ولعدم وجود سجلات ودواوين ، فهي محكوم عليها بأن تدور في حلقة مفرغة ولا ينتظر أن تسجل تقدما يبعد بها كثيرا عن الاشكال التي عرفها ومارسها الانسان الاول .

فنون أخرى

النقش والتصوير بالمعنى الحديث كان منعدما في الاحقاب التاريخية الصحراوية (واما النقش على الحجر فسنعود إليه في فقرة تالية) ، وأما الفن المعماري ،

فهو لا يكاد يوجد له في الواحات سوى أشكال أولية ، هذا إذا استثنينا المساجد التي يسود بناءها في الشمال طابع المساجد الجزائرية ، وفي الشرق طابع المساجد التونسية . والطابع العام للمساجد في غرب الصحراء ، هو الطابع السائد في المغرب الاقصى . والمساجد التي تقع في اقصى الجنوب وفي الجنوب الشرقي كلها تحمل طابع الفن المعماري السائد في السودان .

وأما الآثار التي كشف عنها التنقيب في خرائب مدينة سدراته ، وهي لا تكاد تعلو فوق مستوى أسس القصور والمنازل ، فنحن لا نعرف عنها سوى القليل ، ولكنه يمكن اعتبارها من ضمن المدن الاسلامية الواقعة على حافة الصحراء .

وعدم وجود مواد البناء التي تسمح بالتفنن ، والظروف المناخية القاسية التي تستهلك المواد بسرعة ، وذلك بالاضافة الى قلة اهتمام الرجل الصحراوي بالمنازل وتفضيله حياة الخيم ، (والطوارق يسمون المنازل قبور الاحياء !) ، هي كلها من العوامل التي تضفى طابعا عاديا وغير متفنن على المباني في المدن الصحراوية .

ثم إن المباني المرتفعة والواسعة تكون عرضة للرياح والزوابع الرملية ولا تستطيع مقاومة أثرها مدة طويلة .

وطابع الفن المعماري السائد في قصور الصحراء ، يكشف عن الاهمية التي يعلقها السكان على الامن والسلامة ، ويكون البناء فيها ثقيلا . وهذا النوع من البناء تفرضه مواد البناء المحدودة التي أهمها الطين .

وفي وادي سوف حيث التمر من النوع الجيد والنخلة لها قيمة تجارية كبيرة ، يحجم الناس عن قطع النخلة لاتخاذ أعمدة منها للبناء ، ولذلك ، فان سقوف المنازل تعلوها قبب وليست مسطحة . والتسقيف بالقبب له مزية اخرى في هذه المنطقة التي تشتد فيها الرياح ، وهي أن الرمال التي تحملها الرياح لا تتكدس على السقف وتعرضه لخطر الانهيار ، بل هي تنحدر بسرعة على جوانب المنزل .

وأما في شمال الصحراء ، فان النخل كثير وليس من النوع الذي ينتج كله تمرا جيدا ، ولذلك ، فان السكان يقطعون اشجار النخيل ويتخذون منها أعمدة لبناء سقوف مسطحة للمنازل - تلك السطوح التي توفر للنساء مكانا منعشا في أمسيات الصيف للسمر ولاستنشاق النسيم العليل وتناول الشاي .

، والبيوت ذات طابقين أو ثلاثة قليلة في الصحراء ، لان مواد البناء والامطار الغزيرة في الشتاء تجعلها لا تحتمل الضغط ، وكثيرا ما أدى سقوط المنازل الى كوارث حقيقية .

ومادة البناء الاساسية في الصحراء هي الطوب المجفف في الشمس . وبدلا من الاسمنت يستعمل الطين لضم القوالب بعضها الى بعض . وأما الحجر فلا يوجد الا في عدد صغير من الواحات ، مثل واحة كيندزا المغربية حيث يستعمل السكان الحجر لبناء منازل تتكون من طوابق .

والفنون الزخرفية في المعمار كانت دائما من احتكار «المعلم» الذي يرث أسرار صناعته عن أبيه أو عن معلمه . وهذا يصدق أيضا على زخرف المصوفات الذي تتجلى فيه اكثر من غيره عبقرية المعلم ، وهو فن كان يعتمد (كما هي الحال في بني يني) على عناصر قوية من اليهود .

وزخرفة الحلي لها تقاليد عريقة في الصحراء ، وهي التي ساعدت على المحافظة على مستوى ذلك الفن الرفيع عبر الاجيال . ولكن هذه التقاليد كانت أيضا عائقا في طريق التحديث وتنويع الزخارف التي لم تعرف أي تطور يذكر منذ أقدم العصور . وهذه الملاحظة تصدق على فن الزخرفة في الحلي في الجنوب والشمال معا .

وفن الزخرفة يتناول عدا الحلي ، والاسلحة النارية اليدوية والمصنوعات الجلدية (مثل السروج والاحزمة) قطع الفخار والمعالق المصنوعة من الخشب ، وكلها تعتبر من الاعمال الفنية ، مما يتصل بالصناعات اليدوية في الصحراء ، ولا سيما ما ينتجه الطوارق منها .

4 ـ الصناعات اليدوية :

يعتبر البدو الرحل العمل اليدوي ، مهما كان نوعه ، نشاطا وضيعا يزري بقيمة السيد النبيل ، ولا ينبغي أن يمارسه الا العبيد والخدم . .

وبالاضافة الى ذلك ، فان الرحل الذين يتنقلون باستمرار لا يمكنهم أن ينقلوا معهم الا ماخف حمله من المتاع ، وبالتالي فهم لا يستطيعون أن يحملوا معهم أدوات وآلآت للنسج والحداده الخ . ، وأما الاشياء التي يحتاج إليها البدوي الراحل ، فيمكنه أن يشتريها من أسواق الواحات التي يتردد عليها دون ان يضطر الى صنعها .

وهناك في اسواق الواحات يبيع الرحل انتاجهم من الصوف والوبر والجلود وغير ذلك ، حيث يقوم الصناع اليدويون بتحويله الى منتجات مصنوعة . وهناك أيضا يجد الرحل الحدادين الذين يعتنون باحذية خيولهم ويشترون السروج والمصوغات الخ .

والصناعات اليدوية يمارسها «المعلم» الذي يقيم في مدينة من مدن الواحات ويملك ، الى جانب اسرار المهنة ، الادوات والالات الضرورية لصناعته .
على أن بعض القبائل الصحراوية الكبرى تحتضن معلما ، أو عددا من المعلمين يقيمون ويرحلون معها ويتمتعون بمكانة في القبيلة .

والطوارق أيضا يملكون معلمين ويعتزون بهم . وفي صحراء تشاد يوجد بين قبائل التبّو حدادون يشكلون طبقة خاصة بين السكان ويحملون هذا الاسم المأخوذ من اللغة العربية ، ولو أن حرفتهم تشمل معادن اخرى غير الحديد الذي اشتق منه اسم المهنة . وهؤلاء الصناع اليدويون يصهرون ويصنعون الحديد والنحاس والفضة ، وعلى الرغم من ان الوسائل التي تحت تصرفهم متواضعة ، فهم ينجزون اعمالا ذات مستوى تقني رفيع . وصناعة المصوغات الفضية في بوسعادة وأولاد نايل ، مثلا ، أشهر من أن تحتاج الى تعريف .

والمواد الخام المتوفرة لدى الصناع اليدويين في الصحراء قليلة ومتواضعة نسبيا . وهي ، الى جانب بعض المعادن التي كانت تستخرج بطريقة بدائية ، تنحصر في بعض النباتات (مثل الحلفا التي تصنع منها الحصر) وجلود الحيوانات التي تصنع منها الخيم عند الطوارق ، والسروج ، ومختلف انواع الاكياس ، والواقع ان الجلد يمثل المادة الخام الاولى والمثالية في الصحراء ، فهي مادة

وفيرة لدى الرحل وتستعمل لمختلف اغراض الانسان اليومية ، وقد صدق من قال إن الجلد يمثل حضارة الرحل . وهذا يصدق بصفة خاصة على « القربة » التي تمكن الانسان باختراعها من حل مشكلة الماء السريع التبخر والمحافظة عليه ، وذلك منذ اقدم العصور.

ومهما يكن من أمر ، فإن المرء لا يستطيع أن يمنع نفسه من الإعجاب باهتمام صانع الجلد والصانع الطوارقي (مثلا) بالناحية الفنية والزخرفية في عمله . وبعض المتاحف الاروبية (وفي مقدمتها متحف المناطق الاستوائية في امستردام) تملك قطعا وتحفا تعتز بها من صنع الطوارق ، مثل الادوات والاواني المصنوعة من الجلد والنحاس والمصوغات والسيوف والخناجر المزخرفة وكلها ممتازة الصنع وتدل على ذوق واستعداد فطري في الصانع اليدوي الطوارقي الذي كان من الممكن أن يشغل مكانة عظيمة في الفن لو توفر له التعليم والتدريب التقني الحديث .

في هذه المصنوعات كلها تتردد اشكال هندسية ، مثل الدائرة والزاوية والمربع ، واشكال تشبه الصليب ، وهذه الاشكال تعلوها في العادة الوان فاتحة قوية يسودها اللون الاخضر والاحمر . وفي هذه الحالة يمكننا أن نتحدث عن فن زخرفي «طارقي» ، ولو أن عناصره الاساسية منقولة او مستوحاة من الفن العربي أو من الفن البربري السائد في الشمال .

النقش على الصخور.

توجد صخور كثيرة ومغارات في الصحراء ، ولا سيما في الجنوب الغربي تغطيها نقوش وصور يزيد عددها عن مائة ألف ، بعضها يمثل مستوى فنيا رفيعا . وبعض هذه الصور والرسوم تمثل حيوانات ، مثل الجاموس والفيل ، منقرضه في الصحراء ، والبعض الآخر لا يزال موجودا فيها . والنوع الأول من الحيوانات لا تزال موجودة في البلدان الواقعة على الضفة الجنوبية للصحراء . وكذلك تمثل بعض هذه الرسوم عربات يجرها الثيران وموضوعات ترجع الى عهود ما قبل التاريخ ، ولكنها أيضا كثيرا ما تصور اشخاصا في ملابس اروبية يحملون اسلحة نارية ويركبون سيارات .

وهذه النقوش والصور المحيرة طالما كانت موضوعا للدرس والتحليل قام به عدد من البعثات في الازمنة الحديثة كان آخرها الملتقى الدولي الذي عقدته وزارة الثقافة والاعلام الجزائرية لعدد من الخبراء في أواخر سنة 1977 .

على أن جهود البحث لم تسفر عن ايضاحات تاريخية تذكر ، وقد تعثرت ، خصوصا ، بسبب صعوبة تحديد تواريخ ولو على وجه التقريب لهذه النقوش والصور بطريقة علمية مقبولة . ولكن بعض النقوش علم انها تعود قطعا الى عصور ما قبل التاريخ .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان الباحثين في حيرة ولا يجدون أدلة تسمح لهم بالفصل في قضية ما إذا كان الفنانون الذين رسموا تلك الصور يرسمون حيوانات كانوا يشاهدونها باستمرار ، في المناطق الصحراوية التي رسموا فيها ، أم هم كانوا يرسمون من الذاكرة ما سبق أن شاهدوها اثناء تجوالهم في بلدان مجاورة للصحراء .

والمسألة الأخرى التي تعوق تقدم البحث العلمي في هذه القضية هي عدم توفر أدلة مقنعة حول ما إذا كانت الرسوم والصور الباقية على الصخور أصيلة أم هي مجرد تقليد أو نسخ لصور ونقوش أخرى رآها الرسامون في أماكن اخرى خارج الصحراء . .

وبعض الكتاب ، مثل روني يوتيي ، يرى أن دقة الشكل وتناسب الاجزاء ، بالاضافة الى الاسلوب الرفيع الذي يسود رسوم ما قبل التاريخ ، لا يمكن ان تكون الا نتيجة للملاحظة مباشر ومشاهدة مستمرة للحيوانات المرسومة «حيث أنه لا يستطيع ان يرسم جواداً بدقة إلا فارس» .

وبالتالي ، فان هؤلاء الباحثين يفترضون أن هذه الحيوانات المنقرضة لابد وأنها كانت تعيش فعلا في الصحراء في العصور الغابرة . ونظرا لضخامة حجمها ، فهي تحتاج الى عشب وفير ومتنوع لا يمكن أن ينمو الا في مناخ رطب وممطر . وهذا معناه ، في نظر هؤلاء ، أن الصحراء كانت منطقة خضراء شجرا تجري فيها الأنهار الواسعة التي يسبح فيها فرس النيل وتعيش فيها التماسيح . ولما جف

مناخ الصحراء وتحول ترابها الى أرض قاحلة جرداء ، غارت مياه أنهارها واختفت تلك الحيوانات من الوجود .

وهذا الافتراض الذي قد يبدو ومضة لخيال كاتب لسناريو أحد أفلام العجائب ، ليس في ذهن هؤلاء مجرد فكرة تركيبية ، بل هو ينطبق على حقيقة ، تؤكدها جذوع الأشجار الصوانية التي انكشفت عنها الرمال في بعض المناطق (ونفس الظاهرة شوهدت في صحراء كولرادر) .

وسكان الصحراء يشكلون عنصرا آخر في هذا الفرض حيث حاول أصحابه أن يضفوا عليهم خصائص تتطابق مع البيئة الخضراء الوارفة الظلال التي خلقوها لهم . فهم يعيشون على ضفاف الانهار الكبيرة المليئة بالتماسيح وفرس النيل وغير ذلك من الحيوانات المائية الكبيرة ويمارسون الصيد بالرماح ... تماما كما تصورهم النقوش والصور المرسومة على الصخور الصحراوية .

وهؤلاء السكان لابد وأنهم كانوا يتمتعون بدرجة عالية من الذكاء ... حيث ظهر من بينهم فنانون موهوبون ، مثل الذين انجزوا تلك الاعمال الفنية العظيمة .

والقول بوجود الماء والخضرة في الصحراء في تلك العصور ، معناه توفر الوسائل الضرورية لسكان هذه المناطق للدخول في مراحل الحضارة الاولى ، أو على الاقل ، في مرحلة الرعي التي تعقب مرحلة القطف والجني والصيد . هل دخل سكان الصحراء في هذه المرحلة من التطور منذ العصر المعروف بالجليدي في اروبا ، أو بعده قليلا ، قبل ان يصاب مناخ الصحراء بالجفاف ويتحول الى ما هو عليه الآن ؟

حلل الأستاذ ريجاس (Reygasse) مدير متحف «باردو» بالجزائر في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، مجموعة من نقوش الصخور التي عثر عليها في تاسيلي ناجّار ، فلاحظ أن من الممكن التمييز بوضوح بين فئتين من تلك النقوش . احداهما تمثل سكانا بدائيين يمارسون القنص والقطف ، والثاني تصور قوما ينتمون الى عصر أحدث من الاوائل ، يمارسون نشاط الرعي .

وهذا الفرض الذي أشرنا الى ان حظه من الخيال كبير ، حيث يكون من «الحبة قبة» ، ويصبغ على الصحراء خصائص لا تقوم على أساس من المكتشفات

العلمية ، لا يمكننا أن نناقشه في سياق هذا البحث دون أن نخرج عن نطاق موضوعنا الذي هو ، بكل بساطة ، النقوش المرسومة على الصخور في الصحراء ،

ومن المشاكل التي لا تزال تحير الباحثين في موضوع هذه النقوش ولا يبدو أن في الامكان حلها في يوم من الايام ، أنه لاحظ الخبراء الذين درسوها ، أن أجمل الصور والنقوش ، وأدقها تصويرا للواقع ، هي أشدها توغلا في القدم . وأما النقوش المنحطة المستوى الفني ، فهي تعود الى عصور أحدث .

واللغز الذي نقف عنده مبهوتين حقا ، هو أن هذه الملاحظة تضطرنا الى افتراض أن فن التصوير والنقش على الصخور بدأ في قمة نضجه وكماله ، ثم أخذ يبدو في حالة انتاج المبتدئين وكأن الفنان يخطو خطواته الاولى المتعثرة ، على عكس الطريقة التي ينمو بها كل فن غير مستورد من كونه يظهر ضعيفا في اشكاله وعهوده الاولى ، ثم يتحسن أسلوبه ويكتمل أداؤه وتتعقد موضوعاته ، ويتقدم الفنان وتزداد براعته تدريجيا مع مرور الأجيال ، حتى تبلغ عبقريته قمة النضوج في عصر متأخر (كما حدث لفن البوشمان في جنوب افريقية ـ مثلا) .

وهكذا نجد أن الفوائد التاريخية التي يمكن أن نستخلصها من النقوش والصور المرسومة على الصخور محدودة للغاية . فنحن نتعلم منها ، مثلا ، انه كانت توجد في الصحراء حيوانات انقرضت ، ولكن ذلك نعرفه من بعض الحفريات ، ونستخلص منها ان الانسان الصحراوي كان يركب عربات تجرها خيول وفي بعض الاحيان ثيران ، ولكننا لا نستطيع ان نصدق أن الرسام المجهول كان يصور اشياء يشاهدها في عين المكان ، وأن عمله لا يمثل مجرد تقليد فني أو نسخ لرسوم وضعها بعض المغامرين أو الاسرى الذين عادوا الى بلادهم بعد إقامة في بلدان اجنبية خارج الصحراء سجلت بعض التقدم .

ولكنه بعد هذا كله وقبل هذا كله ، ستبقى هذه اللوحات الفنية التي لابد من رفع اصواتنا بالمطالبة بانقاذها والعناية بها ، ذات قيمة كبيرة ضمنت لها الخلود عبر القرون ، وذلك بغض النظر عن هوية الفنان الذي رسمها والمصدر الذي استقى منه وحيه والعصور التي تمثلها هذه الكنوز الرائعة الجمال .

5 ـ توغل النفوذ الاسلامي :

إن تتبع الطرق التي سلكها النفوذ العربي الإسلامي ليتوغل جنوبا في الصحراء في المرحلة الاولى قبل أن يستقر على الشواطيء الجنوبية والجنوبية الغربية للصحراء لهو من الصعوبة بمكان ويحتاج لكمية من البحث المتخصص اكثر مما اتيح لهذا الكاتب القيام به ، والى إطار أوسع من هذه الدراسة التي هي ذات طابع تركيبي . والصعوبة الأساسية التي يواجهها الباحث ترجع إلى سعة رقعة الصحراء (وذلك حتى لو اقتصر البحث على المناطق الغربية) والى تشعب الطرق التي سلكها التعريب ، من جهة ، والى عدم توفر الوثائق المكتوبة ، من جهة اخرى .

والطرق التي سلكها النفوذ العربي الاسلامي طرق متنوعة أهمها الاتصالات التجارية التي كانت تنطوي على وسائل فعالة لنشر الأفكار والمباديء ، وهجرة القبائل من الشرق ، ومن الجنوب الشرقي ، ومن الشمال والشمال الغربي ، والغارة والغزو ، في حالة الدول المغربية التي بسطت سلطانها على المناطق الغربية في الصحراء وما وراء الصحراء مثل المرابطين . والعامل الاخر الفعال الذي لابد من الاشارة إليه ، بل إن من الضروري الحديث عنه ، بالرغم مما يثيره في بلدنا ، مهد الحركة الاصلاحية ، من نقاش ، هو الدور الذي قامت به الطرق الدينية لنشر الاسلام والتعريب في الصحراء ، وما وراء الصحراء .

ونحن قد سبق أن تحدثنا عن النشاط التجاري في الصحراء ، وعلى الرغم مما نشعر به من نقص ذلك العرض من حيث اضطرارنا الى تجنب التفاصيل ، فهو . مع ذلك يمثل خلفية حسنة لِمَا نحن بصدده الآن لالقاء ضوء على التأثير العربي الاسلامي على الحياة الثقافية في الصحراء . ولذلك ، فسنركز هذا العرض خصوصا ، في تاثير هجرة القبائل وانتشار الطرق والزوايا والمرابطين في الصحراء .

كانت فتوحات جيش عقبة بن نافع (1 ق. هـ 63 هـ = 621 - 683 م) . لا تتجاوز زويلة في جنوب فزان التي صالحه اهلها ، والزاب وتيهرت (التي لم تكن قامت بعد) جنوبا . ولكن هذه الحركة ، مع ذلك ، كانت كافية لسريان تيار النفوذ الإسلامي الذي يحمل في طياته أملا قويا بتخليص البربر في الشمال وفي الصحراء ، من حكم البيزنطيين الفاسد ومن طغيانهم . وبالتالي ،

لا يمكن القول بأن الاسلام قد انتشر في الصحراء تحت تأثير جيوش عقبة والولاة الذين جاءوا من بعده .

ولكن العامل الاساسي في انتشار الاسلام في الصحراء في الحقبة التالية كانوا هم البربر الرحل الذين تسببوا في تقلص الممالك الوثنية التي أقامها السود على الضفاف الجنوبية للصحراء . وأهم هذه القبائل هما قبيلتان : زناتة التي أسست عددا من الامارات الصغيرة على اطراف الصحراء الشمالية ، وصنهاجة التي بسطت سلطانها على الصحراء الوسطى والصحراء الغربية في القرن الخامس الهجري (11 الميلادي) ، واستولو على مدينة اودغست التي كانت ملتقى لطرق القوافل التجارية الصحراوية .

وفي هذا السياق يقول ابوعبيد البكري :

« وفي سنة 46 [4] غزا عبد الله بن ياسين أودغست ، وهو بلد قائم العمارة ، مدينة كبيرة فيها أسواق ونخل كثير واشجار الحناء ، وهي في العظم كشجر الزيتون . وهي كان [بها] منزل ملك السودان المسمى بغانة ، قبل ان تدخل العرب غانة وهي متقنة المباني حسنة المنازل ، والمسافة ما بينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين ، وبينها وبين مدينة غانة خمسة عشر يوما ، وكان يسكن هذه المدينة رنانة مع العرب ، وكانوا متباغضين متدابرين وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثير ، كان للرجل منهم ألف خادم واكثر ، فاستباح المرابطون حريمها وجعلوا جميع ما اصابوا فيها فيئا .» .

وبعد ذلك قام احد تلامذة عبد الله بن ياسين ، الملك كواردياپي بنشر الاسلام بين التكرور على ضفاف نهر السنيغال . وهؤلاء سيصبحون أعوانا وخلفاء للمرابطين في نشر الاسلام في افريقية الغربية . وهكذا ارتبطت الصحراء كلها بالمغرب لأول مرة تحت راية المرابطين وشملها النفوذ العربي الاسلامي نهائيا

وأما العنصر العربي فسيبدأ في التوغل في الصحراء في نطاق واسع في أواخر القرن الخامس الهجري (11 الميلادي) ، وذلك بغزو حشود بني هلال والقبائل المحالفة لهم ، وعلى الرغم من ان عدد العرب الذين اتجهوا الى الصحراء كان قليلا بالنسبة الى العناصر الصحراوية ، فان هذا الحدث سيكون له اثر قوى

في تعريب عدد من الجماعات البربرية ، وذلك على الرغم من الخراب الذي نشروه في كثير من أطراف الصحراء وواحاتها .

وتحت تأثير هذا العامل وغيره ، تعربت القبائل البربرية القاطنة في أطراف الصحراء كلها ما عدا استثناءات قليلة ، أهمها قبائل جنوب المغرب الاقصى التي كانت معتصمة بجبال الأطلس والأطلس الصحراوي ، ولم يكد يحل القرن السادس الهجري (12 الميلادي) حتى كانت جميع القبائل الواقعة في جنوب طرابلس وفي الجنوب التونسي وجنوب قسنطينة والجزائر قد تعربت كلها من حيث اللغة والعادات .

على أن حركة التعريب لم تمس موريطانيا في هذه الفترة الا لمسا خفيفا . ولكنها هي الأخرى سوف ينتشر فيها النفوذ العربي تحت تأثير قبيلة معقل الغازية والتأثير الإسلامي بفضل عدد من القبائل من المرابطين الذين كانوا يتمتعون بوضعية اجتماعية ممتازة أتاحت لهم موارد من الدخل سمحت لهم بتكريس وقتهم للقراءة ونشر الدين .

والمحور الآخر لتعريب الصحراء ، ولو أنه أقل فعالية ، هو ذلك الذي تنتهي اليه الطرق الشرقية الآتية من كردفان ودارفور والتي توغلت منها جماعات عربية معتبرة إلى المنطقة الساحلية من حوض التشاد ، ولا سيما ابتداء من القرن التاسع الهجري (15 الميلادي) .

على أن هجرة القبائل العربية المستقرة في الشمال في اتجاه الجنوب أمر محتمل كما تدل على ذلك هجرة قبيلة أولاد سليمان الذين جاءوا من طرابلس واستقروا في التشاد في موجتين متواليتين : وقعت أقدمهما عندما بسطت الإدارة التركية سلطانها الفعلي على منطقة فزان في حدود سنة 1840 ، وفي موجه حديثه أثناء الغزو الإيطالي لجنوب ليبيا (1928 ـ 1930) .

وعلى منوال اولاد سليمان هاجر أولاد سبع الذين دفعهم سلاطين المغرب الاقصى الى الصحراء واستقروا في موريطانيا منذ نحو قرن من الزمن ، وبعض فروع القبيل لحقوا بالاصل منذ ما يزيد قليلا عن ربع قرن فقط .

وأما قبيلة الكوانطة من المرابطين ، فقد هاجرت من شمال موريطانيا في أواخر القرن الثامن عشر وتوزعت فروعها في الصحراء حتى حدود آير حيث استقرت بطرق سلمية في غضون القرنين الماضيين . وهذا القبيل توجد فروع له في الوقت الحاضر في مختلف انحاء الصحراء الغربية والجنوبية .

أشرنا إلى الخراب الاقتصادي الذي جرّه الغزو الهلالي على أطراف الصحراء والواحات ، ذلك الخراب الذي سبق أن عرفته افريقية (تونس) والمغرب الأوسط والذي نجم عنه تقويض الحضارة الزيرية . فإن هذا الغزو قد أدّى إلى تقهقر الزراعة في الصحراء الشمالية ، وذلك باعمال النهب والسلب التي تعودت عليها هذه الحشود من ناحية ، وبسبب اضطراب الأمن الذي نجم عنه ، من ناحية اخرى . وفي عمليات غزو الهلاليين للصحراء قوضت قصور وقلاع حصينة وردمت الفجارات وموارد المياه الكبيرة التي كانت تشكل ثروة فزان الاساسية . ومنذ ذلك الوقت اصبحت الآبار تشكل مورد الماء الوحيد للريّ . ونفس الظاهرة نجمت عن غزو معقل (بطن من بني عليم من قضاعة) للصحراء الغربية ، وقد عاثو فسادا في جميع المنطقة التي تمتد بين موريطانيا وادرار.

والغزو الهلالي للصحراء كان من نتائجه أيضا مطاردة القبائل البربرية من طرابلس في مرحلة أولى ، ثم من فزان ، في مرحلة تالية ، وقد دفع بها العربان الى جبال الطوارق . صحيح أن بعض القبائل البربرية قد بلغ بها الترحال قبل الفتح العربي حتى آير ، ولكن هجرة البربر الكبرى الى قلب الصحراء ، كانت تحت ضغط بني هلال ـ بني هلال الذين كانت ديارهم في نجد وفي الحجار . وطردهم منها الخلفاء لأنهم كانوا يقطعون طريق الحجاج ونفوهم إلى الصعيد واختارهم ولاة مصر من العبيديين ليتخذوا منهم أداة للانتقام من بني زيري بافريقية .

6 ـ الطرق الدينية :

الطريق في العربية معناه السبيل ، وقد أخذت الكلمة بعد تدهور التصوف ونزم له الى مستوى الجماهير ، معنيين اصطلاحيين على التعاقب . في القرن الثالث والرابع الهجري ، كانت الطريقة عبارة عن منهج أخلاقي يحدد عمليا ضروب

السلوك الفردي . وبعد القرن الخامس الهجري أصبح عبارة عن جملة مراسيم للتدبير الروحي المعمول به من أجل المعاشرة في الجماعات الأخوانية التي بدأت تظهر منذ ذلك التاريخ .

ومع مرور الزمن اصبحت الطرق أندية مغلقة على نفسها تعتمد سلّما من القيم والتقاليد محاطا بالسرية والتكتم ، والنظام كله يدور حول قطب ، هو شيخ الطريق ، الذي يحلى نفسه بصفات الاولياء ، وكثيرا ما يدعي علم الغيب والتحكم في المقادير ، وهو دائما في نظر اتباعه ، واسطة مفيدة لدى الله لجلب الخير ولدفع الضر ، وبدلا من «التصوف» الذي معناه لبس الصوف ، والتقشف الذي بدأ منه التصوف الإسلامي مسيرته ، انتهى الأمر بشيخ الطريق إلى لبس الخز والعيش في رفاهية ، وأحيانا في بذخ ، على حساب «الاخوان» والمريدين.

و «المريد» (ويسمى بالفارسية فقير والدرويش بالتركيه) يتلقى البيعة أو التقليد (وتسمى بالفارسية كندوز) أمام جمع من الشهود المنتخبين من ذوي المراتب من شيخ السجاد (الذي يدعى «پير» بالفارسية وبابا بالتركية) والمرشد (رِنْد بالفارسية) والمقدم والنقيب والترجمان الخ . ويفرض عليه الورد أن يعمل كما لو كان متبعا لنظام للحياة قوامه العزلة والخلوة والأربعينية ، وذلك بالقرب من ذوي المراتب في الطريق ممن ذكرت القابهم في رباط ، أو زاوية (خانقة بالفارسية وتكية بالتركية) للطريقة التي تعيش على الهبات والصدقات والتي تبنى عادة عند ضريح ولي من أولياء الله تنسب إليه كرامات ويحتفل الناس بمولده في أعراس وَزرْدَات ويلتمسون منه الحماية والرعاية والبركة .

وتتسم حياة المريد (أو الاخ) في الرباط أو اثناء زيارته للزاوية بالخضوع والخنوع وبممارسة النوافل والسهر والصيام ، وخصوصا بذكر الاوراد (كأن يُردِّد الدعاء : يا لَطِيف ! ماثة ألف مرة) وقراءة من الخرب ، كما يقوم بالحضرة وجمع الصدقات ، ويقوم بالرقص وتمزيق الثياب وغير ذلك من الوان الشعوذة ، اثناء الزردات .

وكثير من اسرار نظام الطرقية ولا سيا ما يتصل منها بالبيعة يطابق ما عرف عن مراسم الدخول في نقابات الحرفين في نظام «القرامطة» وكذلك التزام المبايع أخذ نفسه بالخضوع والطاعة العمياء لشيخ الطريق .

لقد كان ما يرتكبه اصحاب الطرق من البدع وما يتمسكون به من الخرافات وانواع الشعوذة المضللة للعامة ورياضاتهم وملابسهم (التي تعلوها عمامات مميزة) والتجاؤهم الى استعمال الحشيش والافيون وادعاؤهم للكرامات والخوارق، موضوع استنكار وإدانة من العلماء الذين في مقدمتهم ابن تيمية والفقهاء في العصور القديمة الذين اتهموهم بأشنع الاتهامات، بل وتعرضت بعض جماعاتهم للاضطهاد في بعض البلدان الاسلامية..

وأما الاصلاح الحديث الذي قاده محمد عبده في مصر والاستاذ المرحوم عبد الحميد بن باديس في المغرب، فانه يؤاخذ شيوخ الطرق ويستنكر سلوك الطرقية للاسباب المتقدمة نفسها ولاسباب اخرى تتعلق بمصير المسلمين السياسي، حيث أن الطرق التي تنتمي الى الاسلام وتدعى انها تمثل روحانيته، قد أصبحت وبالاً على الاسلام من حيث انها تشوه سمعته في أذهان الاجانب ومن حيث أنها ارتبطت في تحالف مع الاستعمار الذي كان يستعملها أداة لتخدير الجماهير الشعبية ولنشر نفوذه في المناطق التي تمركزت فيه. وبهذه الصفة تحولت الطرقية الى قوة رجعية مخيفة، خصوصا بسبب امتداد أو اصرها بحيث تشكل أخطبوطا حقيقيا في مختلف أنحاء العالم الاسلامي، وبذلك تشكل عائقا في طريق تقدم العالم الاسلامي الثقافي والسياسي، وذلك في الوقت الذي شوهت فيه وجه الاسلام السمح وجعلت منه عقيدة دينية جامدة متحجرة تقوم على طقوس وممارسات ورموز لا اصل لها في القرآن والسنة، إن لم تكن بدعة ومنكرا صريحا من القول والعمل.

والطرق تختلف ابتعادا عن الاسلام باختلاف المصادر التي استقت منها أصولها وتصوراتها، وباختلاف الظروف التي تكيفت فيها، وبعضها ترجع مقومات الشعائر التي تمارسها الى أصول وثنية مما كان سائدا في الهند وجاوة، أو تأثرت بمذهب حيوته المادة السائد بين قبائل أزنده المتوحشة في السودان (مثل زار الكلشنية في مصر) والبعض الآخر نزل الى حضيض صريح من السحر والشعوذة (مثل عيسوية مكناس التي تروض الثعابين) وطائفة اخرى لا تزال تتمسك بخيط رقيق بالاسلام بل ولها ادعاءات بالاصلاح (مثل) السنوسية). وبعض الطرق استطاعت أن تقاوم عوادي الفناء وتحقق بتماسكها عبر الأجيال، بينما

تفتت البعض الآخر وانقسم الى شيع وأحزاب لا حصر لها ، وهي كثيرا ما تكون وراثية ، بحيث يحل الابن والحفيد محل أبيه أو جده عند وفاته ، وذلك بدون اعتبار لادعائه العلم والفضل .

انتشرت الطرقية في الصحراء ، بحكم عزلتها وبعدها عن المعاهد العلمية وخلوها من وسائل التنوير الحديثة ، انتشارا واسعا بحيث قيل في وقت من الاوقات انه لا تكاد توجد عائلة صحراوية لا ترتبط بطريقة أو تنتمي الى مرابط من المرابطين الموجودين في كل مكان . وكثير من الطرق المعروفة أسست لها فروعا أو بنت لها زوايا في الصحراء . وأهم الطرق المعروفة في الصحراء هي القادرية والتجانية والشيخية والكزارية والسنوسية .

فأما القادرية فمؤسسها هو عبد القادر الجيلاني (وينطق به أيضا : الكيلاني) الذي ولد في سنة 471 هـ وتوفي في سنة 561 هجرية . عاش في بغداد حيث اتصل بشيوخ التصوف وأخذ عنهم وبرع في أساليب الوعظ والإرشاد وتصدر للتدريس والافتاء في بغداد في سنة 528 هـ ، وقد اشتهر بالزهد والتصوف وله عدد من الكتب ، كما أن المستشرق الانجليزي ، مرجليوث وضع رسالة في ترجمته نشرها بالانجليزية في المجلة الآسيوية .

ومن المعلوم أن القادرية متأثرة إلى حد بعيد ببعض الأفكار الفلسفية الهندية ، التي من أهمها عقيدة الفناء . ولكن فروعها في الصحراء قد استطاعت ، إما بتأثير الشيوخ الذين ابتعدوا بها عن فلسفة التصوف ، أو لغير ذلك من الأسباب ، أن تتخلص من الرواسب الهندية وتتكيف بالمحيط الصحراوي البسيط الذي لا يبحث عن التعمق والاستقصاء . وقد انتشرت القادرية خصوصا ، في جنوب قسنطينة وجنوب الجزائر ، على يد شيخين تونسيين ، أحدهما من الكاف ، الشيخ المزوني ، والثاني من نفطة ، ابو بكر بن احمد الشريف . وبهذا الاخير يرتبط الطوارق وسكان المناطق المجاورة للوادي ورويسات التي تبعد عن ورجلة ببضع كيلومترات . وكذلك انتشرت القادرية في جنوب المغرب الاقصى على يد الشيخ عمر بن السيد أحمد البكاي الذي امتد نفوذه بعيدا في الصحراء ليشمل أيضا القرارة وواحة توات والهجّار واطراف السودان . وهذا البكّاي

هو الذي لعب دورا في استكشاف الاروبيين للصحراء واسبغ حمايته على المستكشف الالماني المشهور ، بارث .

والشيخيّة والكزازية كلتاهما تتفرع عن الطريقة الشاذلية . والشيخية عبارة عن قبيلة من المرابطين تنسب ، على الرغم من أصلها البربري الواضح ، الى أبي بكر الصديق ، الخليفة الاول . وقيل ان جدهم قد طرد من مكة وأقام بمصر قبل أن ينتقل ابناؤه ، أو احفاده الى تونس حيث توفي عدد من إجداد القبيلة ، وأحد هؤلاء الاجداد ، واسمه عبد القادر ، ولد في تونس واشتهر بكرامات تنسب إليه ، بحيث أطلق عليه لقب « الشيخ » وأصبح أبناؤه فيما بعد يحملون ذلك اللقب « اولاد سيدي الشيخ » . وبعد ما تجول طويلا في الصحراء وفي الشمال لطلب العلم ، استقر المقام بالشيخ في المغار في المرحلة الاولى ، ثم في البيوض التي تقع على شاطيء الصحراء الشمالي والتي كانت محطة للقوافل التي تربط وسط الجزائر بالهجار وافريقية الغربية من جهة ، والجنوب التونسي وجنوب المغرب الاقصى من جهة اخرى .

* * *

كان نسبه الذي يدعى أنه يرقى الى قريش وورعه وتقواه موضع احترام وتقدير لعبد القادر الملقب « سيدي الشيخ » وتقاطر عليه التلامذة من مختلف انحاء الصحراء ، بعضهم بقي في منطقة البيوض ، والبعض الآخر انتقل من هناك وسار بعيدا يحمل تعاليمه الى مناطق أخرى .

ولما مات « سيدي الشيخ » ، أوصى بتركته السياسية والدينية لابنه الثالث . وهذه الوصية كانت تشتمل أيضا على بند يقضي بعتق عبيده الكثيرين الذين كلفهم بالقيام على الزواية التي أسسها .

وهذا التوزيع في التركة كان يحاول به الشيخ أن يجنب الزاوية نتائج نزاع عائلي لم يلبث أن ظهر فعلا بعد وفاته بين ابنائه الصغار وابنائه الكبار وبين انصار الفريقين واتباعهم . وهذا النزاع سرعان ما تحول الى حرب بين المناطق الشرقية والمناطق الغربية استمرت مدة تقرب من ثلاثة قرون ولم تنتهي الا بتوصل الفريقين الى اتفاق في سنة 1829 .

وبموجب هذا الاتفاق وزع دخل الاسرة على ثلاثة فروع ، قسم للزاوية الشرقية وقسم للزاوية الغربية وقسم ثالث للزاوية الاصلية (زاوية سيدي الشيخ) التي تقع في القصر الشرقي . على أن الحرب سوف تستأنف ، ولكن في هذه المرة ضد الغزاة الفرنسيين (1864 ـ 1900) .

فبعد مهادنة سي بوبكر للفرنسيين واستسلامه لهم ، أعلن شقيقه سي سليمان ، الذي خلفه في زعامة القبيل الثورة المشهورة في أول فبراير 1864 ، ووجه رسالة إلى سكان جنوب وهران يستحثهم ويستفزهم فيها لحمل السلاح ضد الغزاة المحتلين .

وأما طريقة الكرزازية ، فقد كان مركزها في كرزاز ، في جنوب كينادزه المشهورة بمناجم الفحم التي تحتوعليه أرضها . وهذه الطريقة لا يوجد ما يميزها عن الطرق الدينية الاخرى من حيث الاوراد والزردات الخ . ، ولكنها امتازت بالدور السياسي المسالم الذي لعبته في وقت كانت فيه مناطق الحدود الجزائرية المغربية تتأجج بالاضطرابات والثورات ضدّ الفرنسيين . وهذا الحياد هو الذي لفت انظار سلاطين المغرب إليها في اكثر من مناسبة واستخدموها لاخضاع بعض القبائل الصحراوية العاصية ولاعادتها الى الطاعة .

ولكن أقوى الطرق الدينية في الصحراء واكثرها توغلا فيها وفي شواطئها الجنوبية الغربية والجنوبية الشرقية وأوفرها نجاحا في نشر الاسلام بين الوثنيين ، هما الطريقة السنوسيَة والطريقة النجانية .

فاما شيخ السنوسية ، محمد بن علي السنوسي المجاهري ، فقد ولد في سنة 1206 هـ في تُرْش قرب مستغانم (دوار أولاد سيدي يوسف) وتوفي في سنة 1276 هـ ، في جغبوب في صحراء برقه . وبعدما تلقى العلم على شيوخ بلده وفي مقدمتهم ابو رأس وبلكندوز ، انتقل الى فاس حيث أقام مدة نحو ثمان سنوات لاتمام تعليمه ودرس هناك ضمن ما درسه تفسير القرآن والحديث والاصول .

وبعد ذلك قام باداء فريضة الحج في الاماكن المقدسة ، واقام هناك خلال الفترة ـ 1830 ـ 1843 ، وفي سنة 1837 ، انشأ زاوية لطريقته في مكة على جبل قابس .

وفي طريق عودته الى بلده الذي تركه بلدا حرّا ووجده بلدا ضرب فيه الاستعمار أطنابه ، بعدما قضى على ثورة الامير عبد القادر ، توقف السنوسي في البيضاء وانشأ هناك زاويته المشهورة في الجبل الاخضر ، ثم واصل سفره الى الجزائر.

وفي سنة 1855 هاجر نهائيا وأنشأ زاوية واحة جغبوب التي اتخذها مركزا لبث الدعاة والاعوان لنشر طريقته في افريقية الوسطى عبر الصحراء ، وذلك قبل أن ينتقل الى واحة الكفرة التي تشكل اكثر واحات الشواطيء الشمالية توغلا في الصحراء وأبعدها عن العمران .

وفي غضون الفترة 1859 ـ 1895 ، انتشر نفوذ السنوسية السياسي والديني في الصحراء الشرقية وفي الصحراء الوسطى ، بحيث بلغ عدد زوايا طريقته 100 زاوية .

كانت الدعوة السنوسية محاولة للاصلاح ولتجديد الإسلام للنهوض به في وجه الاستعمار الأروبي الذي تتجه أطماعه منذ ذلك الوقت إلى مختلف البلدان الإسلامية ، ولا سيما بعد مؤتمر برلين (1884 م) الذي أعلن تقسم القارة الافريقية بين عدد من الدول الاستعمارية الأروبية .

وقد تقبل الناس الدعوة السنوسية لهذه الاعتبارات السياسية وأيضا لأن هذه الطريقة هي الوحيدة التي تدعو إلى العودة إلى القرآن والحديث وإلى العودة بالتصوف إلى عهوده الأولى (بالرغم مما بين هذين المبدأين من تناقض) .

ومهما يكن من أمر ، فان السنوسية كانت بعيدة عما انغمست فيه بقية الطرق الاخرى من نشاط الشعوذة والاستغلال ، بل هي متشددة في مقاومة المنكرات والانحراف عن الدين ، فكانت ـ مثلا ـ تمنع الرقص والموسيقى والغناء وتحرم المخدرات والطباق وغير ذلك من أسباب اللهو والفساد . وبهذا الاعتبار كانت قريبة من الحركة الاصلاحية الوهابية المعاصرة لها .

وهذه الدعوة التي تجمع بين الدين والسياسة (وتذكرنا بطريقة الدرقوية) وتتفق مع المزاج الصحراوي وميله الى التقشف والاستغناء عن الكماليات ، لم تلبث ان وجدت صدى قويا في الصحراء وفي البلدان الواقعة على شواطئها .

ومما زاد من قوة السنوسية أنها كانت تعمل أيضا لمقاومة الظلم والاستغلال بين الصحراويين ولنشر التعليم والاخلاق الفاضلة ، وذلك في الوقت الذي تبنى فيه المساجد التي لا تلبث أن تتحول الى مدارس لتعليم القرآن وأماكن للوعظ والارشاد ولايواء عابرى السبيل في متاهات الصحراء .

وبفضل انتشار الوعي الديني ، انتشر الهدوء وساد الامن طرق القوافل التي تجد في الزوايا السنوسية ومراكزها ملجأ تأوي إليه للاستراحة من وعثاء السفر وللتزود بما تحتاج أليه من الماء .

وهكذا كان التجار واصحاب القوافل الذين يجدون الضيافة والعناية في الزوايا السنوسية من الاعوان الذين ساعدوا باتصالاتهم الواسعة على نشر الطريقة بين القبائل الصحراوية في المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية .

وقد انتشرت مراكز وزوايا السنوسية في واحة الكفرة وفي جنوب طرابلس وفي واحة أوجلة وسكنه ومرزق والقطرون وغدامس وغات وغيرها من الواحات والمدن الصحراوية .

ومن هذه المواقع الصحراوية انطلقت الدعوة لغزو الشواطيء الجنوبية للصحراء ، فثبتت أقدامها في جبال تبيستي وفي بلاد بركو (ولا سيما في برداية وجورو وعين غلقة) وذلك قبل ان تنطلق من هذه القواعد من جديد لغزو كانم ووداي .

وبفضل دقة التنظيم وروح الطاعة ونشاط الدعاة وحماسهم وتدفق الجماهير المستمر عليها ، لم تلبث الطريقة السنوسية أن اتخذت مظهر حكومة يمتد ظلها على الصحراء الشرقية والجنوبية ، تحمي الطرق وتدير ميزان العدالة طبقا لاحكام الشريعة الاسلامية وتحمى الضعيف من القوي وتشجع التبادل التجاري .

كان تهرب محمد بن علي السنوسي من الاتصال بالاتراك في المرحلة الاولى ، ثم بالغزاة الفرنسيين في المرحلة التالية هو الذي حمله على الهجرة من بلده ، الجزائر ، نهائيا وعلى التوغل في الصحراء ليستقر بدعوته في واحة جغبوب . ومن جغبوب انتقل مركز ثقل الحركة الى واحة الكفره . فان جغبوب كانت قريبة من الحدود المصرية التي استقر فيها الاستعمار البريطاني .

وعندما توفي محمد علي السنوسي في سنة 1859 ، كانت دعوته قد بلغت أوج قوتها ونفوذها الذي سيستمر ويتسع في عهد أبنه محمد المهدي ، حتى اصبح السنوسيون يسيطرون على جميع مناطق الصحراء الشرقية وعلى طرق القوافل التي تمر بها .

والعقبة الاولى التي واجهها السنوسيون ، كانت هي التي وضعها الفرنسيون في طريق دعوتهم ، عقب احتلالهم للمناطق المجاورة للتشاد ، حيث أخذوا في مطاردة اتباع الطريقة السنوسية . وعبثا حاول محمد المهدي الذي نقل مركز الحركة الى جُورُو (في بوركو) وقف النفوذ الفرنسي ووضع حد لتوغل الاستعمار ، وبعد معارك شديدة مع السنوسيين ، واصل الفرنسيون زحفهم تدريجيا وبعناء شديد حتى وصلوا في سنة 1914 الى أنّدى وبوركو ، وتوغلوا في جبال تبيستي .

هذا في الجنوب ، وأما في الشمال ، فان السنوسية ستواجه خطرا أقوى وأشد ، عقب احتلال الايطاليين ولاية طرابلس في سنة 1913 .

وهذا الضغط الاستعماري اللاتيني من الجنوب والشمال ، مضافا إليه ضغط الاستعمار الانجليزي من الشرق ، سيضع السنوسيين أمام حائط لا يقتحم ويدفع بهم إلى إضرام نار ثورة عارمة أثناء الحرب العالمية الأولى ، شملت الصحراء كلها ، ومست المستعمرات في الغرب ، كما هددت الواحات المصرية .

ولما رأى الايطاليون قوة السنوسيين ونفوذهم السياسي الواسع ، حاولوا مصالحتهم في سنة 1917 . وهكذا اعترفوا لرئيس الطريقة في سنة 1920 بالسلطة على رأس إدارة مستقلة تضم واحات برقة ، وخلعوا عليه لقب أمير ، وسمحوا له بجمع الضرائب وبالاحتفاظ بقوة عسكرية يبلغ عدد رجالها ألف مقاتل .

وهذا الاتفاق يمثل تحولا جذريا في نظرية السنوسيين السياسية فبعدما تجنبوا الاستعمار واستنكفوا عن الاتصال به اجيالا طويلة ، اصبحوا الآن يعترفون بالاحتلال الايطالي لليبيا رسميا ، بعدما قبلوا فتات مائدة الايطاليين ، وهي حفنة من الرمال ، أطلقوا على شيخها لقب «أمير» .

وهكذا اطمأن شيوخ الطريقة الى عهود قتلة عمر المختار ووثقوا بعهودهم وراحو يحكمون باسم ملك ايطاليا . لقد كان هذا التطور اكثر من خطإ ، كان ضربا من الوهم والسذاجة والجهل بتاريخ الجزائر ، بلد السنوسيين ، ومضير معاهدة تافنا . وبالفعل ، فان الايطاليين لم يلبثوا ، بعدما لحسوا جراجهم في الحرب ، أن اعلنوا فسخ الاتفاق المعقود بينهم وبين السنوسيين في سنة 1923 ، بل واعلنوا الحرب عليهم - حربا طويلة وشاقة ولكنها انتهت بانتصار ايطاليا ، في سنة 1931 ، وباحتلالها واحة الكفرة . وعقب ذلك تشتت شمل السنوسيين في مختلف البلدان الاسلامية ، قبل ان يعود إلى المسرح ويتوج شيخهم أميراً ثم ملكا على ليبيا عقب الحرب العالمية الثانية .

والطريقة الدينية الاخرى التي مارست تأثيرا كبيرا وكان لها نفوذ قوي في البلدان الواقعة على الشواطيء الجنوبية للصحراء ، هي الطريقة التجانية التي أنشأها أبو العباس احمد بن محمد بن المختار التجاني (1150 ـ 1230 هـ) في قصر عين ماضي الذي يقع على مسافة 28 كيلو مترا الى الغرب من مدينة الاغواط .

وبعد ما تلقى الشيخ علومه الأولى في بلدته ، انتقل الى البيوض حيث أقام خمس سنوات ، ثم رحل الى تلمسان في سنة 1181 هـ ؛ قبل ان يسافر الى الاماكن المقدسة لاداء فريضة الحج في سنة 1186 هـ ، وأقام في مكة والمدينة مدة ثم اتخذ طريقه الى القاهرة حيث أنشأ طريقته مع شخص يدعى محمود الكردي ، وذلك بعد أن اخذ اوراد على الطريقة القادرية والطيبية والخلوتية .

وبعد عودته الى المغرب ، قام بزيارة تلمسان وفاس وبعض المناطق الصحراوية للترويج لطريقته كما تجول في بعض واحات الصحراء ، ولكنه رجع الى فاس حيث أقام المركز الرئيسي لزاويته (1213 هـ) وحيث توفي ودفن في الزاوية نفسها .

ترك شيخ التجانية عند وفاته ابنيْن (محمد الصغير ومحمد الكبير) في كفالة محمود التونسي وخلفه في الوصاية عليهما الحاج علي بن عيسى ، أحد رجال الطريقة ، الذي نقلهما من فاس الى عين ماضى حيث آلت إليهما مسؤولية الإشراف على الزاوية فيما بعد .

وفي سنة 1235 هـ ، وقع شقاق في صفوف الزاوية كان من نتائجه تدخل الباي محمد الكبير ، باي وهران وقام بمحاصرة عين ماضي وقتا من الزمن ثم فك الحصار عنها ، وكل ذلك لاسباب لا نعرفها على وجه التحديد . وبعد ذلك بسنتين قام باي تيترى بمحاولة اخرى وحاصر عين ماضي ثم تراجع عنها بدون طائل . وهذا الفشل المتوالي من الاتراك ، شجع شيخ الطريق على ان يعتبر دور الدفاع عن قلعته قد انتهى وعلى أن يقوم الآن بالهجوم على الاتراك . على ان هجوم الاخوين محمد الكبير ومحمد الصغير على معسكر مرتين (1241 هـ ، و 1242 هـ) لم يكن حظه من النجاح اكبر من حظ الاتراك ضدهما ، ولكن العملية الاخيرة كلفت محمد الكبير حياته .

وفي مقابل هذا الفشل العسكري ، سجلت الطريقة بقيادة محمد الصغير تقدما وعرفت انتشارا كبيرا لا في الصحراء وحدها ، بل وأيضا في افريقيا الغربية والسودان .

وبالنظر الى العلاقات السيئة القائمة بين الطريقة والسلطات التركية ، تلك العلاقات التي تلطخت بدماء محمد الكبير ومئات من اتباعها ، فقد كان من الطبيعي أن يرى شيخ الطريق في احتلال الفرنسيين للجزائر تحولا غير مذموم ، لانه لما طلب إليه مقدم الطريقة الدرقوية الانضمام الى صفوف الدرقويين للجهاد ، لم يجد في هذا الاقتراح شيئا مغريا ، ولذلك رفضه .

وعندما قام الأمير عبد القادر بمواجهة القوات الفرنسية الغازية وقاد الشعب في عدد من المعارك المظفرة واتجه الى شيخ عين ماضي ، وحثه على الانضمام الى صفوف المجاهدين (1252/1251 = 1836) سلك الاخير طريق المراوغة في ردوده ودامت المراسلات بينهما وقتا طويلا ، وكان عذر الرجل انه يريد أن يحيى حياة دينية وادعة ويتجنب السياسة . ولما اعيته الحجج واتضحت للامير سوء نية الشيخ سار على رأس جيشه الى عين ماضي وضرب حصارا على هذه الزاوية التي كانت على اتصال بالفرنسيين سرا (1838 م) . وعلى الرغم من النداءات المتعدد التي وجهها إليه الأمير في محاولة لحقن دماء المسلمين ، فان الشيخ الذي كان واثقا من مناعة حصنه الذي عجز الاتراك عن اقتحامه استكبر وتجبر وتحمل حصارا شديدا ثمانية اشهر ، قبل أن يدمر الامير

الحصن ويهزم أنصاره . وقد سمح له بالنجاة بحياته وبالخروج بما خف حمله الى الاغواط .

ولكن الطائر الخرافي انبعث من رماده بمساعدة الفرنسيين الذين أصبح الآن حليفا صريحا لهم . وكذلك أمد المريشال فالي الذي خرق معاهدة تافنا بكل ما في استطاعته من مساعدة مادية ومعنوية في حربه ضد الامير عبد القادر .

ولما توفي الشيخ في سنة 1844 م . ترك وراءه الزاوية لابنائه واحفاده كما ترك لها تقاليد من الوطنية أقل ما يقال فيها أنها لم تكن صفحة ناصعة البياض .

ولما قامت ثورة المقراني في سنة 1871 ، وجد سي أحمد ، حفيد الشيخ ، أن هذا بالذات هو الوقت المناسب لادخال تعديل على شجرة نسب التجانية حين تزوج بفرنسية ابنة أحد رجال الدرك من اللوران . وأما القسيس الذي بارك هذا الزواج واضفى عليه طابعا من الشرعية ، فهو لم يكن شخصا آخر غير الكردينال دولافيجري الذي كانت مطامحه في التنصير تتجاوز الجزائر لتشمل القارة الافريقية كلها .

وهذا العامل ــ التعاون مع الفرنسيين ــ لابد من اخذه الى الاعتبار في انتشار الطريقة التجانية في افريقية الغربية (الفرنسية سابقا) في النصف الثاني من القرن الماضي . ونحن قد سبق أن اشرنا الى حركة الحاج عمر ، احد رجال التجانية واشهر من حمل لواءها السياسي في دنكراي التي اصبحت من أهم المدن المقدسة عند التجانيين .

وفي الختام نلاحظ أنه ، إذا كانت بعض الطرق قدمت خدمة للاسلام بنشره في الاصقاع الوثنية الواقعة على الشاطيء الجنوبي للصحراء ، فهي قد اتخذت من ذلك وسيلة للاثراء ولنشر النفوذ ـ ذلك النفوذ الذي سيلفت إليها انظار الاستعمار (الايطالي والفرنسي) . والتاكتيك الذي سار عليه الطرقيون في كل مكان وزمان ، هو أن يبدءوا حياتهم بالورع والتقشف والتظاهر باحتقار المال . وهذا الزهد لا يلبث أن يلفت اليهم انظار الجماهير فيتسارع إليهم طلبة العلم للاخذ من بركتهم وطلبة الورد للاستظلال بظلهم ، وذلك بالاضافة الى اجناس

من الفضوليين وانواع من الطفيليين . ومع مرور الايام يتخذ من الطلبة حواريين يرسل بهم إلى الأرض البعيدة لينشروا «رسالته» . وفي هذه الأثناء تزداد انفقاته ويتسامع الناس بكرمه وبفتح ابوابه لعابر سبيل . ولكي يغطي تلك النفقات يرسل في اعقاب الطلبة «المقدمين» لجمع الصدقات في جولات في القرى المجاورة لمركزه والتي اصبحت الآن مطلعة على نشاطه . وكلما انتشرت سمعته ازداد عدد الذين يقصدون منزله التي يحولها في هذه المرحلة الى «زاوية» ، وبالتالي يكبر حجم نفقاته . وعندئذ يطالب الناس بالزكاة ، زيادة على الصدقة و «الوعدة» التي يتلقاها . والمرحلة التالية في استراتيجية شيخ الطريق هي استغلال الاتباع والاخوان بفرض ضريبة حقيقية لا يمكن لاحد منهم أن يرفضها دون ان يعرض نفسه لضغوط ادبية ، وفي بعض الاحيان لعقاب صارم او للعدوان عليه وعلى ممتلكاته باعتباره شخصا «خارجا عن الجماعة» .

وبعدما يبنى الشيخ ثروته ويعظم نفوذه تظهر مطامعه السياسية ويقارن قوته المادية بقوة الحاكم . وعندما يأتي الاستعمار يجد نفسه في مركز قوة حقيقية ، لا للمقاومة ، بل للمساومة .

كيف باع السنوسيون ماضيهم وذلك النفود العارم الذي نشروه في مختلف اطراف الصحراء للمستعمرين الايطاليين ودماء الشهداء ، مثل عمر المختار ، لم تجف بعد ، في مقابل واحة من الرمال لم تكن قد ثبتت بعد على خريطة افريقيا ؟ كيف جند التجاني الرجال ودفع الاموال ووضع نفسه في صف الجيش الفرنسي في معركة سافرة ضد الاسلام ، وذلك في نفس الوقت الذي يدعى فيه لانصاره انه من أولياء الله ؟ هذه وغيرها من الخيانات للاسلام ولاوطانه ، ظاهرة اجتماعية غير عادية وتستحق دراسة ميدانية لتوضيح كل خفاياها واسرارها ودوافعها .

*
* *

7 ــ ثورة المهدي السوداني

أصبح السودان ، بما في ذلك مناطق دارفور وكردفان أراضي تابعة لمصر منذ عهد محمد علي (1769 ـ 1849) الذي ارسله الباب العالي لكي يضع

يده على مصر ويقضي على سلطان الممالك في هذا البلد . وبعدما استقامت الأمور لهذا الالباني وتمكن من فرض سلطانه على وادي النيل ، أعلن استقلاله عن تركيا ثم أخذ في تجديد البلاد مستعينا بالخبراء الاروبيين . وكان من بين المجالات التي انجز فيها اعمالا لا يزال المصريون يفتخرون بها الى الآن ، أعمال الري (القناطر الخيرية ، مثلا) وشق الترع وتعبيد الطرق وبناء منشئات صناعية ، كما ادخل زراعة القطن بصفة واسعة الى البلد .

وفي نفس الوقت عني محمد علي بتدريب جيش مهم وتجهيزه بوسائل القتال الحديثة ، كما بنى اسطولا مهما .

اتجهت حركات التوسع المصري في عهد محمد علي الى الشرق والجنوب فاستولى على مصوع وسواكن على البحر الاحمر . وفي سنة 1820 ، احتل جيشه سنار وكردفان ، وجعل الخرطوم عاصمة بلاد النوبة التي اصبحت جزءا من مصر ، كما كان الحال في عهد الفراعنة .

على أن خلفاء محمد علي ، أهملوا كثيرا من مرافق الانتاج فتضعضعت المالية المصرية التي انتقلت السيطرة عليها الى ايدي الاروبيين ، ولا سيما عقب فتح برزخ قناة السويس في عهد الخديو اسماعيل (1879 ـ 1863) .

ولما حاول المصريون القيام برد فعل ضد التوغل الاروبي في الحركة التي كان يتزعمها عرابى باشا ، قمعت انجلترا هذه الثورة لحماية طريق الهند .

كان من بين الولاة المصريين على السودان ، والي اسمه الزبير باشا الذي اشتدت سطوته وقوي سلطانه الى درجة خشي معها الخديو أن يثور ويستقل بتلك البلاد ، ولذلك استدعاه إلى القاهرة ، ليضع على رأس مختلف ولايات السودان عددا من الافاقين الاروبيين الذين من بينهم صمويل باكر وشنيتز الالماني وسلاتن النمساوي ، وهؤلاء اخضعوا السودان لنظام من الحديد والنار ، فكانوا يقمعون كل حركة وكل ثورة بلا شفقة ولا رحمة .

وبعد سقوط الخديو اسماعيل ، ظهر فراغ كبير في أطراف الامبراطورية المصرية . وهذه الظروف ، هي التي ظهر فيها في اعالي النيل السوداني شبح رجل يلقب نفسه بالمهدي .

كان محمد احمد المهدي ، على شاكلة عثمان دان فوديو ، رجلا متقشفا ميالا الى التصوف ، وكان في الأربعينات من العمر . وفي جو الاضطهاد وسوء الإرادة المصرية ، كان السودانيون في حالة من اليأس والقنوط بحيث لا ينظرون العون والخلاص الامن العناية الالهية ، وكان السواد الاعظم منهم يعتقدون أن الاوان قد آن لظهور المهدي المنتظر لكي ينشر العدل والقسطاس .

وفي هذه الاثناء كان محمد أحمد يجاهر بمعارضة الحكم المصري ، بل وبلغ به الامر أن اقسم يوما من الايام أنه سوف يخلص السودان من قبضة المصريين .

ولتحقيق هذه الغاية بعث من جزيرة «أبا» في أعالي النيل بمنشور الى جميع اعيان السودان يعلن فيه انه هو المهدي المنتظر في آخر الزمان ليملأ الدنيا عدلا وأمنا ، تماما كما صنع من قبله في جبال الاطلس بالمغرب محمد ابن تومرت .

ومنذ سنة 1881 ، وجهت الحكومة المصرية جيشا إلى السودان كلفته بمهمة القاء القبض على الثائر . وهذا الجيش مزقه انصار المهدي شر تمزيق بالحراب والدبابيس التي كانت هي الاسلحة الوحيدة التي يملكونها .

وهذا الانتصار الساحق لم يلبث ان ترددت أصداؤه في مختلف انحاء السودان واعتبرت معجزة المهدي الذي تكاثر اتباعه وزاد عدد انصاره واشتدت قوته بسرعة .

وفي السنة التالية (1882) قاموالي مصر الألماني جيجلر بحملة أخرى ضد المهدي ، فلم يكن مصيرها أحسن من مصير الحملة الأولى ، حيث شتتت هي الأخرى .

وبعدما انتشر نفوذ المهدي في الشمال الذي ارهقه التعسف واثقلت كاهله الضرائب ، ذاع صيت المهدي في الجنوب أيضا ـ الجنوب الذي كان مستودعا للعبيد ومسرحا لنشاط مصري واسع النطاق في تجارة الرقيق . وسكان الجنوب كانوا غير خاضعين لأي سلطان ، وكانوا يعيشون حياة بدائية لم يهذبها الاسلام ، وكانوا يغيرون ويسبون ويبيعون سبيهم للنخاسين .

وهكذا رأت قبائل السود أن ثورة المهدي سوف تتيح لهم ، متى اشتركوا فيها فرصة للتوغل الى الشمال ومواصلة نشاطهم التقليدي في العزو والاغارة . ومما زاد من خطورة قوات الجنوب انها كانت مسلحة بالبنادق .

وفي المرحلة التالية ، زادت قوة المهدي وزحف على ولاية كردفان واستولى على عاصمتها في سنة 1883 .

كانت الحكومة البريطانية حريصة على الاترى مصر تتحمل أعباء مالية جديدة في حرب السودان ، بل إن رئيس الوزارة جلاد سطون ، كان يرى في ثورة المهدي على النظام المصري نوعا من حرب التحرير .

ولكن البريطانيين اضطروا في آخر الامر الى السماح لصنيعتهم ، توفيق باشا بإرسال حملة إلى السودان حتى يرفع سمعته بعض الشيء في مملكته . بل انهم ، زيادة على ذلك ، زودوه بضابط بريطاني قديم ليتولى قيادة هذه الحملة .

سار الجيش المصري في أراضي وبين قبائل موالية في معظمها للمهدي ، وكانت دعايته في كل مكان تعلن أنه لا أمل في التغلب على جنود الله .

وكما كان يأمل أنصار المهدي ويتوقعون، انتهت المعارك بينهم وبين الجيش بهزيمة ساحقة لقوات الخديو توفيق .

وعقب ذلك قرر الانجليز ضرورة جلاء المصريين عن السودان ما عدا الخرطوم التي تقع على النيل وسواكم التي تقع على البحر الاحمر .

وأما الاروبيون الذين يحكمون بعض الولايات فقد استسلموا أو ابتعدوا عن السودان . وكذلك أصبح النمساوي سلاتن الذي كان واليا على منطقة دارفور ، مستشارا تقنيا للمهدي .

وأما لوبتطون الذي كان يحكم المنطقة التي تمتد على بحر الغزال ، فقد قرر اعتناق الإسلام ، وأما أمين باشا (وهو الإسم الذي اتخذه لنفسه شنيترز الالماني) ، فقد توغل من المنطقة الاستوائية التي يحكمها في الجنوب حتى وصل الى بحيرة فيكتوريا .

كانت الحكومة البريطانية مصممة على الاحتفاظ بموقع واحد في السودان وهو ميناء سواكم المهم على خط المواصلات مع الهند ، وفيما عدا ذلك ، كانت مستعدة للتسليم حتى في مدينة الخرطوم نفسها .

* * *

كانت الحالة في السودان عقب انتصارات المهدي المتوالية في اوائل الثمانينات تثير قلقا في صفوف الحكومة البريطانية . ولكي تتخذ القرارات الضرورية بعثت بالجنرال جوردن لدرس الوضعية عن كثب ، وذلك على الرغم من معارضة القنصل البريطاني في القاهرة لهذا التعيين . وفي نفس الوقت ، عينت بريطانيا بارينج حاكما عاما للسودان ، وقد سافر بارينج من لندن وهو مقتنع بأن المهدي ليس الا مشاغبا لا قيمة له وأنه سوف يتمكن من اقتاعه بتشتيت انصاره والقاء السلاح بدون عناء ، وذلك في الوقت الذي كان فيه المهدي قد بسط قبضته على البلد كله .

وأثناء وجوده في الخرطوم وهو يعد بوصول الإمدادات ويحاول رفع الروح المعنوية ، قطعت أسلاك الهاتف والبرق بين القاهرة والخرطوم ، وأصبح جوردن شبه سجين ، بينما أخذت القبائل الواقعة في أعالي النيل تنضم إلى صفوف المهدي زرافات ووحدانا ، وهذه الأحداث أثارت عاصفة من السخط والاستنكار لسياسة جلاد سطون الذي اضطر إلى توجيه حملة لتخليص جوردن بدلا من السودان .

ولكن المهدي احتل الخرطوم (26 يناير 1885) قبل وصول القوات البريطانية إليها ، وعلى الفور اتجهت جموع في فورة من الحماس إلى القصر حيث وصل أحد الثوار إلى جوردن وأغمد في صدره خنجرا وهو يصيح : «لقد حانت ساعتك أيها الملعون ! » . وقد قطعت رأس جوردن وحملت إلى المهدي ، الذي كان يفضل أن يحتفظ به رهينة . وكذلك عرضت رأس جوردن وطيف بها على الملأ .

كان لسقوط الخرطوم في يد المهدي دوي عظيم في بريطانيا كما كان هذا الحدث يمثل قمة مجد المهدي وانتصاره . وقد استقر في أم درمان على الضفة اليسرى للنيل ، في مقابل الخرطوم .

عين المهدي أربعة خلفاء له ليساعدوه على إدارة شؤون البلد ، ووكل إلى كل منهم مهمة قيادة جيش ، وخصص له علما يتميز به : العلم الأسود لعبد الله ، والأحمر لعلي ، والأخضر لمحمد الشريف وأما محمد المهدي السنوسي ، رئيس الطريقة السنوسية ، فقد رفض منصب الخليفة ، وبالتالي لم يخصص له علم .

ودخل حكومة المهدي يتكون من غنائم الحرب والضرائب وزكاة الفطر ، والزكاة على الحبوب والحيوانات والغرامات الإدارية ، وقد كان بيت المال يضرب السكة من الفضة والذهب .

على أن المهدي مات فجأة ، وقبل الأوان ، في سنة 1885 . وضريحه الفخم لا يزال قائما إلى اليوم في أم درمان . وفي عهده اتسعت رقعة مدينة أم درمان بحيث قيل أن عدد سكانها بلغ 4000 000 نسمة .

وفي عهد خليفته ، عبد الله ، اتسعت موارد بيت المال الذي يوجد على النهر ، وزادت كفاءة تنظيمه ، وأما نفقات الدولة ، فكانت تشمل الجيش والإدارة ومصارف أسرة المهدي ومصانع الأسلحة ، وكذلك فرضت الدولة رسوما على الملاحة في النيل تدفع عند مراكز معينة .

وأما جيش المهدي ، فقد كان ينقسم إلى جيشين : الجيش النظامي والجيش الشعبي (المليشيا) . والجيش النظامي الذي أطلق عليه اسم « الملتزمين » يتكون من محترفين من السود والعرب ، وقد وضع تحت قيادة شاه الدين ، ابن الخليفة ، وهذا الجيش مسلح باسلحة نارية وله معسكرات وثكنات في جميع المراكز الرئيسية في البلد .

وأما « المليشيا » ، فقد كانت تتكون خصوصا من السود المسلحين بالسيوف والحراب ، وأفراده غير مراقبين ، وهم إنما يحضرون إلى أم درمان بعد موسم جمع الغلال ، والجماعات والكتائب خاضعة لنظام عسكري هرمي ، ويتراوح عدد الواحدات بين عشرين نفرا وبضع مئات ، وكانت تحت قيادة « مقدم » .

بعد موت المهدي بدأت عوامل الانحلال تدب إلى هذه الحركة وتضعفها تدريجيا ، تماما ، كما حدث عقب موت عثمان دان فوديو . ومن بين الخلفاء

الثلاثة الذين عينهم المهدي في حياته ، كان عبد الله هو الذي تولى الحكم (1885 ـ 1898) .

كان عبد الله رجلا داهية واسع الحيلة ، وهي خصائص سمحت له بالتغلب على عدد من الثورات التي قامت بها قبائل واشخاص ، والى جانب اسلحة الجيش كان يلجأ الى التفاوض والاعتقال والاعدام بدون محاكمة والنفي من المملكة ، وكذلك نال في الخارج انتصارات باهرة ضد أثيوبيا التي غزاها جيشه .

وهذه الانتصارات شجعت عبد الله على إعلان الجهاد ضد مصر ، وقد بلغ اعتداده بنفسه وبقوته انه وجه رسائل إلى كل من الخديو توفيق وإلى الملكة فيكتوريا يدعوهما فيها للحضور إلى أم درمان لإعلان خضوعهما للمهدي ، ولكنه عقب ذلك بوقت قصير اصيب جيشه الذي شن هجوما على مصر والذي كانت تنقصه روح الحماس التي كان يتمتع بها في عهد المهدي ، بهزيمة منكرة في سنة 1888 .

والى جانب هذه الهزيمة شهد سودان المهدي عامين من القحط انتشر خلالهما وباء عم البلاد كلها .

ولكن التهديد الخطير الذي واجهته حركة المهدي ، هو تهديد الدول الاروبية . فبينما قام الايطاليون والانجليز بهجوم على السودان من ناحية البحر الأحمر ، كان البلجيك والفرنسيون الذين اقتسموا الكونغو ، يشنون حركة هجوم في منطقة بحر الغزال واعالي النيل .

وإزاء هذه الظروف ، قرر البريطانيون الزحف بصعود مجرى النيل من مصر ، حتى يسبقوا الفرنسيين والبلجيك الذين ينحدرون من اعاليه .

جمع خليفة المهدي جيشا يتكون من 60000 مقاتل لمواجهة حركة الغزو الاستعماري الذي يتخذ شكل كماشة ، وعمل على تدريبه حتى احرز درجة عالية من الكفاءة ، بينما كان القائد البريطاني كيتشنر يسير في اتجاه الخرطوم على رأس قوة تتكون من 25000 جندي وضابط .

وبعد فترة انتظار طويلة مشحونة بالقلق ، دخل الطرفان في معركة في شهر ابريل 1898 . استغرقت المعركة ساعتين من القتال بالسلاح الابيض وانتهت بسحق الجيش السوداني واسر قائده الذي واخذ الى مصر .

وفي هذه الاثناء سددت مدافع كيتشنر نيرانها على أم درمان مستهدفة ، على التحديد ، ضريح المهدي ، وذلك قبل أن يخرج الجيش الذي كان فيها ويتجه الى الخرطوم في استعراض هائل باعلامه وطبوله . وبعد معركة شديدة استغرقت عدة ساعات ، تفوقت الاسلحة الحديثة على الشجاعة الوطنية والايمان ، وتقرر مصير السودان لمدة نصف قرن ، ومن بين 27000 مقاتل من انصار المهدي ، استشهد 11000 وبقيت جثثهم في ساحة المعركة .

وكخاتمة لهذه المجزرة الفضيعة ، أمر كيتشنر باخراج جثة المهدي من ضريحه والقاها في نهر النيل .

تمكن الخليفة شاه الدين وعثمان دينجا من زعماء الحركة الوطنية من الفرار ، الى كردفان في الجنوب ، ولكن الأخير اعتقل فيما بعد ، كما قتل جميع زعماء حركة المهدي .

*

* *

الفصل التاسع

نموذج للتنمية في الصحراء

1 ـ الطريق العابرة للصحراء :

كانت الاتصالات بين شمال الصحراء والبلدان الواقعة على ضفتها الجنوبية عبر العصور تجري بواسطة القوافل التي تحمل البضائع وتنقل معها الأفكار والعقائد . ولكن تقلص دور الجمل أمام زحف السيارة في الصحراء ، قد قطع هذا التيار التقليدي للتبادل الانساني بين القسمين من القارة الشمالي والجنوبي دون أن يقوم مقامه نمط جديد للاتصالات . وهذه الفجوة شعرت بآثارها الدول الافريقية الواقعة عبر الصحراء والمحرومة من الموانيء ومن طرق الاتصال المباشر بالعالم بصفة خاصة . والطريق العابرة للصحراء سوف توفر الحلقة المنشودة لتعزيز العلاقات بين تلك البلدان والمناطق الشمالية ، وذلك في الوقت الذي تخرج فيه أجزاء من التراب الجزائري كانت غارقة في الصحراء ، من عزلتها الخانقة . وهذه هي الحالة بصفة خاصة بالنسبة الى ولاية تمنراست المحرومة من المرافق الحديثة والتي احتفل بوصول الطريق الصحراوية اليها في 19 يونيو 1978 .

وفي هذا اليوم الذي احتفل فيه أيضا بذكرى انتفاضة 19 يونيو ، هو الذي استقبلت فيه عاصمة الولاية الجنوبية رئيس الحكومة ومجلس الوزراء الذي اعلن برنامجا خاصا لتنمية ولايات الجنوب (ورقلة والاغواط وبشار وأدرار وتمنراست) .

وفكرة شق طريق معبد بالاسفلت تربط جنوب القارة السوداء بشمالها فكرة جريئة وباهضة التكاليف ، وقد راودت الساسة الفرنسيين الذين كانوا يحلمون بجمع امبراطوريتهم جيلا بعد جيل . وهي على مستوى المشروع الذي ساور البريطانيين في أواخر القرن الماضي بربط القاهرة برأس الرجاء الصالح بواسطة خط للسكة الحديدية .

ولكن ربط اجزاء القارة الافريقية عبر الصحراء سوف ينتظر استقلال الجزائر وقيام نظام ثوري لا يعرف المستحيل حتى متى كانت المسألة تتعلق بمقاومة العوائق الطبيعية .

فبعد سنوات من المشاورات بين الدول الواقعة على ضفتي الصحراء في نطاق الامم المتحدة ، وبعد سلسلة من الدراسات والبحوث قام بها الخبراء الدوليون ، وقع الاختيار على مشروع طريق يمتد من مدينة الجزائر الى تمنراست ، مع فرع يتجه الى مالي ، وفرع آخر يخترق النيجر ويتجه الى نيجيريا . وقد تبنت الحكومة الجزائرية مشروع الطريق العابرة للصحراء والذي اطلق عليه اسم طريق الوحدة الافريقية باعتباره تجسيما لبعض أماني الشعوب الافريقية في الوحدة ، وبدأ العمل في تنفيذ المشروع في سنة 1971 .

كانت ظروف العمل شاقة جدا بسبب الطقس الصحراوي وقلة الماء وصعوبة المواصلات لنقل العتاد ، كما كانت مهمة هندسة الطرق في الفيافي الرملية من أصعب ما واجهه المخططون للطرق في جميع الامكنه والازمنة ، بحيث كان تقدم العمل بطيئا ولا يتجاوز نحو 170 كيلو متر في السنة . ومن جهة اخرى واجه المهندسون صعوبات من نوع خاص في تعبيد الطريق التي تمتد بين عين صالح وتمنراست (694 كلم) حيث كان الجزء الذي يمرّ بجبال الهجار ، جنوب عين صالح أرضا من الصخر الصلد .

وفي أوائل سنة 1978 ، كان الطريق المعبد بالاسفلت والذي يمتد من الجزائر الى تمنراست قد وصل الى نقطة لا تبعد عن المدينة الاخيرة الاّ بـ 150 كيلو متر الى الشمال ، ولم تكد تحل ذكرى 19 يونيو حتى دشنت طريق الوحدة الافريقية التي تمتد الآن حتى عين صالح . واذا سار كل شيء على ما يرام ،

فسيتم الجزء الذي يصل الى عين جزّان ، على الحدود الجزائرية النيجيرية في الموعد المحدد لذلك (1981) .

لقد جندت الجزائر موارد مالية وبشرية هائلة لانجاز هذا العمل الأنساني العظيم ، وقد قام بهذا العمل رجال الجيش الوطني الشعبي . وليس من شك في أن هذه الطريق ستكون لها انعكاسات في المستقبل لا على حجم التبادل التجاري والعلاقات الاخوية بين البلدان الافريقية والجزائر فحسب ، بل وعلى جهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية في الجزائر نفسها ، بتحويل رصيد الخبرة والتجارب التي اكتسبها أولئك الشبان الشجعان من رجال الخدمة الوطنية لتستفيد منها ميادين ومرافق اخرى في البلد .

والجانب الايجابي الآخر لعمل رجال الخدمة الوطنية ، هو أن هذا العمل قد سمح بتخفيض تكاليف شق طريق الوحدة الافريقية وتعبيد تخفيضا كبيرا . فان تكاليف تعبيد الكيلو متر الواحد في الجزائر لا تتجاوز ما يتراوح بين 200000 و 250000 دينار جزائري (نحو 250000 و 300000 فرنك فرنسي) . وفي مقابل ذلك ، فان تقديرات تكاليف الكيلو متر الواحد في النيجر حيث ستقوم شركات المقاولة بهذا العمل ، ستكون ، على الاقل ضعفي هذه التكاليف .

لقد كان السفر إلى تمنراست عبر الصحراء في الماضي مغامرة لا يقوم بها الا السياح المغامرون . وكذلك كان وصول البضائع الى تلك المناطق أمرا غير مضمون ومحفوف بالاخطار . وعندما بدأت الشركة الوطنية للنقل البري تسيير شاحنات عبر الصحراء ، وجدت الشركات البريطانية والفرنسية والايطالية فرصة لتزيد من تدفق منتجاتها التي توجهها الى نيجيريا التي يشكل ازدحام موانئها وتكدس البضائع فيها عقبة كبيرة مما يتسبب في تأخير كبيرا في تسليم الواردات ونظرا لارتفاع تكاليف النقل الجوي والتأمين ، سيكون النقل البري عن الطريق العابرة للصحراء وسيلة لضمان الحصول على المنتجات التي تحتاج اليها التنمية والاستهلاك في البلدان الواقعة على الضفة الجنوبية الغربية للصحراء الكبرى . وكما كانت الحال في عصر القوافل التجارية في العصور الوسطى

فسوف ترافق الشاحنات الافكار وطرق الصنع التقنية وبسير التبادل الثقافي والحضاري في الاتجاهين .

وخدمات النقل البري للبضائع من الجزائر أصبحت منذ الآن تتمتع بشهرة عالمية بحيث اضطرت الشركة الوطنية الى تسيير قاطرات ساحبات من السيارات حتى تقلل من التأخير في نقل البضائع . وهذه الخدمات تقوم بها شاحنات صممت خصيصا لكي تتحمل السفر الطويل والشاق في المناخ الصحراوي .

ومتى سمحت ظروف الطقس السائدة في الصحراء ، يمكن قطع مسافة 3500 كيلو متر التي تفصل بين لاجوس ، عاصمة نيجيريا ومدينة الجزائر في ظرف ثمانية أيام . ولكنه متى تم العمل في انجاز الجزء الذي يمر بالنيجر من طريق الوحدة الافريقية في سنة 1981 ، سوف تنقص هذه المدة بحيث لا تتجاوز ستة أيام . وبنفس النسبة سوف تنخفض تكاليف الشحن والتأمين للبضائع المنقولة ، الامر الذي ستكون له انعكاسات على التنمية وفي ازدهار التجارة .

ومنذ الآن يوجد 950 سائقا للشاحنات من السائقين الذين تدربوا على النقل عبر الصحراء ، ولكنه لم يكن يسير في وقت واحد في طريق الوحدة الافريقية في أواخر سنة 1978 سوى 30 شاحنة . على المنتظر أن يزداد عدد وحدات هذه القافلة الصغيرة بسرعة في غضون السنوات المقبلة .

*
* *

2 ـ **السدّ الاخضر :**

تواجه الجزائر التي تشكل الصحراء نسبة 90 ٪ من أراضيها خطراجديا من زحف رمال الصحراء التي تلتهم عدة آلاف من الهكتارات سنويا من الارض الزراعية . وقد لوحظ أن هذا الخطر في تزايد مستمر لعدة اسباب ، أهمها :

ـ ضعف المقاومة في مناطق التلّ بسبب الخسارة الكبيرة التي لحقت الغابات الجزائرية نتيجة لاهمال هذا القطاع عدة سنوات اثناء حرب التحرير ،

بل ولقيام الجيش الفرنسي باحراق بعض الغابات عمدا حتى يحرم المقاومين من الالتجاء إليها .

ـ ميل سكان الصحراء الى نزع الاشجار واقتلاعها لاستعمالها وقودا ، مما يترتب عليه تعرية الصحراء وسهولة دفع الرياح للرمال . وقد قدر ما تقتلعه الاسرة الواحدة من الاشجار سنويا بـ 1000 كيلو جرام من الحطب .

ـ تأثير المزروعات الفصلية تأثيرا مباشرا . وذلك ان الرحل يقومون بزرع الحبوب وخلال عملية الحرث في الصحراء والهضاب العليا يجرّون بالمحراث النباتات الدائمة التي تسبب تماسك الرمال وتمنع زحفها .

ـ تشير الاحصاءات الى أن 250000 عائلة تمارس تربية المواشي في الهضاب العليا والصحراء ، الامر الذي يعرض على الاقل 250,000 هكتار من الأرض المعشوشبة للتعرية . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الرعاة والرحل يستغلون بصورة مكثفة نبات الحلفاء الذي يتخذون منه فرشا في داخل الخيم المتنقلة أو يستعملونه وقودا ، ولا سيما في فصل الشتاء البارد .

ـ لتربية المواشي في الهضاب العليا تأثير مباشر على زحف رمال الصحراء نحو الشمال . ومن المعلوم ان سكان المناطق السهبية يقومون بنشاط كبير لتربية الماشية التي تمثل رؤوس أموالهم والمجال الأساسي لاستثماراتهم . وبالتالي فإن حجم الثروة الحيوانية في تلك المناطق أكبر من كمية العشب المتـوفر ، وقد تولد عن ذلك اختلال « التوازن الدوري » حيث تقضي الماشية على جميع رصيد النبات ، الامر الذي يفسح الطريق لزحف رمال الصحراء .

ـ قلة الوعي بين السكان في منطقة الهضاب العليا بفائدة النبات على المدى البعيد كمورد اقتصادي وعامل للمحافظة على البيئة الطبيعية في نفس الوقت .

قامت الجزائر بالخطوات الأولى لإعادة التوازن إلى البيئة الطبيعية منذ الايام الاولى من استقلالها في سنة 1962 ، فأولت اهتماما كبيرا لمسألة اعادة بناء هيكل ثروة الغابات ، وكوّنت لهذه الغاية مديريات ودربت عمّالا وخبراء في مختلف مجالات التخصص ، كما شرعت السلطات في تنظيم حملات

تطوعية شارك فيها المواطنون في جميع أنحاء القطر من أجل غرس أكبر ما يمكن من الاشجار في المناطق التي كانت تعاني من تدهور الغابات . ولكن هذه الحملات كانت تتسم بعدم الفعالية بسبب عدم انتشار الوعي بين الجماهير بقيمة ثروة الغابات ، من جهة ، وبسبب ضعف مستوى التدريب التقني وقلة عدد العاملين ، ولذلك يمكن القول بان ضرر هذه العمليات كان اكبر من نفعها .

ورغبة في الخروج بهذه القضية من حيز الشعارات وفي إعادة درس القضية من أصلها ، عقدت السلطات في سنة 1968 ملتقى في دائرة الجلفة ركز أعماله حول البحث عن وسائل فعالة يمكن بفضلها تحويل الهضاب العليا والمناطق المتاخمة للصحراء أو شبه الصحراوية الى مناطق خضراء بتشجيرها .

وفي إطار البرامج الخاصة التي كانت الحكومة تضعها من وقت الى آخر للمناطق الاكثر تخلفا ، كانت تضع مشروعات بقصد النهوض بقطاع الغابات . وكذلك اشتمل البرنامج الخاص لولاية تيطري في سنة 1969 على اعتمادات لتشجير المنطقة بالغابات بلغت 9 ملايير من الفرنكات القديمة .

وهذه التجربة سوف تتكرر في نطاق البرنامج الخاص الذي وضع لمنطقة أوراس في سنة 1970 ، فاستصلحت غابات بني مولود وغابات السقاق ، وقد امتدت هذه العمليات في سنة 1971 واستعملت فيها وسائل حديثة فشملت عدة مناطق من سعيدة . وربما كان اكبر مجهود بذل في مجال التشجير حتى سنة 1972 ، هو ذلك الذي أدّى الى تشجير مساحة تبلغ نحو عشرة الاف هكتار في منطقة البيض .

وفي غضون هذه العمليات التي تمتد على عدة سنوات ، استطاعت الجزائر ان تجمع رصيدا من الدراسات والتحليلات لا لمشكلة التشجير وحدها ، بل وأيضا للمشكل العام والخطير الذي يمثله زحف الرمال الصحراوية في اتجاه الشمال . وبعبارة أخرى ، فقد أصبح من الممكن الآن القيام بتجربة رائدة لا مثيل لها في العالم المتاخم للصحاري ، وتلك هي عملية السدّ الاخضر.

ونظرا لان تهديد زحف الرمال لا يقتصر على منطقة دون اخرى ، بل هو يشمل جميع أطراف البلد المتأخمة للصحراء ، فقد تقرر مواجهة المشكلة

بطريقة شاملة ، ووضعت التصميمات لتشجير حزام يمتد على 1500 كيلو متر طولا ، أي من الحدود التونسية شرقا ، حتى الحدود مع المغرب الاقصى غربا ، وذلك في عرض يتراوح بين 15 و 20 كيلو متر .

وفي مطلع سنة 1975 بدأ العمل في انجاز هذا الحزام الاخضر الذي وكلت مهمة القيام به الى الشبان الذين يؤدون الخدمة الوطنية العسكرية .

ولتنظيم هذا المجهود وتسهيل عملياته ، انشئت عدة مناطق تجمعية لشباب الخدمة الوطنية في المناطق التالية :

1 ـ منطقة الجلفة
2 ـ منطقة البيض
3 ـ منطقة بريكة
4 ـ منطقة الاغواط
5 ـ منطقة تبسة
6 ـ منطقة بوسعادة

على أن المناطق الثلاث الأخيرة لم تبدأ عمليات التشجير فيها إلا في سنة 1976 ، بينما بدأ العمل في غرس الاشجار في المناطق الثلاث الاولى في سنة 1975 ، ويرجع هذا التأخير الى عدة اعتبارات : .

ا ـ أن بعض المناطق الاولى حظيت من قبل بعمليات للتشجير (وهذه هي الحالة بالنسبة الى بريكة) .

ب ـ إن المناطق الاولى اكثر ملاءمة من ناحية المناخ من المناطق الثلاث الاخيره لاعمال غرس الاشجار ، بحيث كان سقى الاشجار في مناطق مثل تبسة وبوسعادة بواسطة المرشات في فصل الصيف امراً ممكنا .

وعملية تشجير السد الأخضر ليس من المقدر أن تتم دفعة واحدة أو في بضع سنوات ، بل هو مجهود شبه مستمر ، ويكفي لكي ندرك مدى «طول نفس» هذه العملية إن نتذكر أن المرحلة الاولى منها تمتد على عشرين سنة ، وسوف يتم في غضونها تغطية نحو ثلاثة ملايين هكتار من السهوب بنحو 7 ملايين شجرة من

مختلف الانواع ، ولكنها كلها من الصنف الذي يقاوم الجفاف ويحافظ على خضرة اوراقه وأغصانه ، مثل الصنوبر .

وأهمية السد الأخضر الاقتصادية لا تنحصر في إقامة حواجز أمام زحف رمال الصحراء وتوفير المناخ الرطب في تلك المناطق المشهورة بشدة الجفاف ، فان السد الاخضر سوف يكون أيضا وسيلة فعالة لتحويل البيئة الاجتماعية وللنهوض اقتصاديا بمنطقة السهوب . انه يمثل مشروعا شاملا لانماء الهضاب العليا ، ولا سيما في مجال الرعي وتربية الحيوانات فان اشجار السدّ تستقطب الامطار التي تحملها السحب الاتية من الشمال ويكون من نتائج هطولها توفير الماء والكلا .

وكذلك يتضمن مشروع السد الاخضر على بناء عدد من التعاونيات والقرى الرعوية التي ستستقطب البدو الرحل وتوفر لهم مجالا للاستقرار ومتى توفرت الامطار بصورة منتظمة ، امكن استصلاح مساحات شاسعة من أراضي السهوب وتحويلها الى مناطق زراعية ، وفي مرحلة تالية ستوفر هذه الغابات موردا مهما للاخشاب التي تستورد منها الجزائر كميات كبيرة . وقد استغرقت الدراسات الجيولوجية والطبوغرافية وغيرها من التجارب حول نوعية الاشجار الصالحة للغرس في الصحراء ما يزيد عن سنتين ، وتوج هذا المجهود في النهاية بنتائج ايجابية مكنت من انطلاق اعمال السد الاخضر في 14 أوت 1974 بتادمايت (الجلفة)

ونظرا لضخامة هذا العمل الانساني المنقطع النظير ، فقد قسم العمل فيه على صعيد العمليات إلى مرحلتين أساسيتين : يمتد العمل في المرحلة الأولى من الشرق الى الغرب على طول امتداد السد بعرض 10 كيلو مترات فقط ، ويتم انجاز هذه المرحلة في ظرف عشر سنوات (المرحلة الاولى من عمر السد) . وهذه العملية تتناول غرس الاشجار غير المثمرة .

واما المرحلة الثانية فيجري العمل في غضونها في العشر كيلو مترات الباقية والممتدة أيضا من الشرق الى الغرب وفي الفترة العشرية الباقية من عمر السد ، وفي اطارها يجري غرس الاشجار المثمرة فقط .

وبعبارة اخرى ، سوف يتم تشجير حوالى 1500000 هكتار خلال كل مرحلة من المرحلتين . وبذلك يبلغ مجموع المساحة التي يشملها التشجير في

نطاق اشغال السد الاخضر ، حوالى 3000 هكتار تغرس فيها نحو 7 ملايين شجرة ، وتكون حصة الهكتار الواحد 2400 شجيرة .

والسد الاخضر سيكون من العوامل الحاسمة في تتبب الاوضاع الايكولوجية في الصحراء ويعيد الى هذه المناطق الجرداء ما كانت تتمتع به من الخضره والخصوبة والرونق في عصور ما قبل التاريخ ، حينما كانت مرتعا للفيلة وكانت انهارها وبحيراتها تعج بالتماسيح وفرس النيل وغير ذلك من الحيوانات التي انقرضت الآن كلها في ربوع الصحراء .

وعلى الصعيد الوطني ، سيكون للسد الاخضر على المدى البعيد اثر فعال في احداث التوازن الجهوي المنشود بين مختلف المناطق ويزيل تلك الهوة التي تفصل بين الشمال والجنوب . ومتى استكمل الشجر نموه سيوفر للمناطق الصحراوية ماده الخشب التي كانت تشكو من حرمانها منها في جميع العصور ، بحيث يمكن التشيد العمراني والصناعي بسهولة وباسعار معقولة .

والسد الاخضر سيكون قاعدة من قواعد الثورة الزراعية عندما تدخل في مرحلتها الرابعة التي يعتبر تنمية الغابات من أهم عناصرها .

البرنامج الخاص لتنمية ولايات الجنوب الجزائري :

جرت السلطات الجزائرية على عادة منح برامج خاصة لبعض المناطق التي تعاني من درجة من التخلف في نطاق التخطيط الوطني العام ، وذلك تطبيقا لسياسة التوازن الجهوي . ومن ضمن المناطق التي لا تتوفر فيها المرافق الاساسية التي تستوعب حظها من الاستثمارات في نطاق التخطيط العام وتشكو من ضعف الموارد الطبيعية والبشرية ، ولايتا تمنراست وادرار . وفي اجتماع للاطارات عقد في سنة 1975 لدرس حالة الولايتين برزت هذه الحقيقة بوضوح واستقر الامر على منحهما أولوية خاصة . ولكن حقيقة أخرى لم تلبث أن ظهرت واستحوذت على اهتمام المخططين ، وتلك هي أن بعض المناطق الجنوبية التي كانت تابعة لولايات من الشمال ، قد أصبحت ولايات عقب الاصلاح الاداري الذي وقع في سنة 1974 ، وبذلك نقصت الموارد المحلية التي يمكن ان تستعين بها

لمعالجة مشاكلها الاقتصادية ، وبالتالي ، فهي في نفس وضع ولايتي تمنراست وادرار.

والمناطق الجنوبية التي تشكو بصفة خاصة من الحرمان وأصبحت تتمتع باستقلال اداري ، هي الاغواط وورجله وعين اميناس ومتليلي والمنيعة وجنات وتندوف وبشار وبني عباس ، وذلك إلى جانب تمنراست وأدرار. وبالنظر إلى تشابه أوضاع هذه المناطق ، فقد اتجه الرأي إلى دراسة أحوالها مجتمعة. وقد عقد اجتماع لهذه الغاية بولاية أدرار برئاسة وزير الداخلية في سنة 1977 ، اشتركت فيه السلطات المحلية ، وعلى رأسها الولاة. وتلى هذا الاجتماع اجتماع آخر عقد في تمنراست اسفر على قرار يقضي بوضع برنامج خاص يشتمل على مشاريع تغطي جميع القطاعات في ولايات الجنوب بهدف اخراجها من حالة التخلف ومحو الفوارق بينها وبين الولايات الاخرى.

وبعد ذلك ، قامت السلطات المحلية في جميع هذه الولايات بتقدير حاجاتها وبدرس مختلف القطاعات وبوضع برامج شاملة لكل منها.

والمعطيات الاساسية التي تتصل بولايات الجنوب الجزائري ، يمكن تلخيصها في سياق هذا البرنامج بالارقام التالية :

يبلغ عدد السكان الذين اعتمدت الاستمارات الجديدة لتنمية مناطقهم 267836 نسمة. وهم في مجموعهم لا يمثلون الانسبة 1.43 ٪ من مجموع سكان الجزائر ، ولكنهم يعيشون في أرض تمثل مساحتها ثلث مجموع أراضي الجمهورية (1.5 مليون كيلو متر مربع).

فاما ولايتا تمنراست وادرار ، فانهما تشكلان المنطقتين الاساسيتين للبرنامج الخاص. وأما المناطق الاخرى ـ متليلي والاغواط والقليعة وورجله وعين أميناس وجنات وبشار ودائرتا تندوف وبني عباس ، فإنها لا تستفيد من البرنامج إلا بصورة ثانوية.

وحجم الموارد المخططة في البرنامج الخاص لولايات ودوائر الجنوب يبلغ 7 مليارات من الدنانير توزع على القطاعات حسب الحاجة وحسب أهمية كل منها.

فالصناعة تحظى بعناية وأولوية حيث خصص لتنميتها مبلغ اكثر من مليار دينار جزائري .

والهدف الاساسي لهذا المشروع هو تشجيع التصنيع وإقامة منشئات صناعية في هذه المناطق التي لا يوجد فيها أي نشاط صناعي (فيما عدا عين اميناس حيث يوجد مركز صناعي) . ويتجه المشروع بصفة خاصة الى خلق الصناعات الصغيرة والمتوسطة ومن أهم مشاريع هذا الباب ، مشروع لبناء مصنع كبير للاسمنت يفي بحاجات جميع المناطق الجنوبية الى هذه المادة .

وفي مجال الزراعة يستهدف البرنامج الخاص استغلال جميع موارد المياه المتوفرة لضمان ري أقصى مساحة ممكنة للزراعة ولهذه الغاية سوف تنفذ عدة مشروعات لحفر آبار (ولا سيما في ولاية أدرار) ، في الوقت الذي تبذل فيه جهود لتحديث نظام الري الموجود حاليا (الفجارات والقنوات الخ .) ، وسيتجه العمل بصفة خاصة الى بساتين النخيل بقصد زيادة انتاج النخلة . وسوف تعزز التعاونيات المتعددة الخدمات لكي توفر السد التقني الضروري في مجال التنمية الزراعية .

وقطاع الخدمات الاساسية (الطرق والمطارات والاتصالات اللاسلكية) يستحوذ على قسط هام من موارد البرنامج الخاص (2 مليار دينار) .

وشق الطرق وتعبيدها تحظى مشروعاته باهتمام خاص ، وذلك بهدف :

- اخراج مناطق وسكانها من العزلة
- اعادة تخطيط وتحسين الطرق الرئيسية التي تربط الولايات
- المساهمة في تحقيق الوحدة الافريقية بتسهيل المواصلات بمدّ طرق حتى الحدود مع البلدان المجاورة .

ونفس الهدف هو الذي يسعى البرنامج الخاص لتحقيقه ببناء المطارات ، فان سعة رقعة البلد تجعل من الضروري بل ومن الحيوي خفض المسافات التي تفصل بين المناطق الصحراوية ومدن الشمال ، وذلك ببناء عدد من المطارات .

وفي مجال الاتصالات اللاسلكية يهدف البرنامج الخاص ، بالاضافة الى صيانة الشبكة الموجودة والمحافظة عليها ، الى توسيعها وضمان تغطية وافية بالاذاعة والتليفزيون .

والتعليم والتكوين يحظى باعتمادات قدرها 400 مليون دينار.

وهدف هذا المشروع هو توفير الوسائل الضرورية لضمان دخول جميع الاطفال في المنطقة الى المدارس ، وذلك الى جانب تزويد كل مدينة وكل قاعدة إدارية بمركز للتدريب والتكوين المهني .

وقطاع التخزين والتوزيع يحظى باعتمادات تبلغ حوالي مليار دينار . ومشروعات هذا القطاع تهدف إلى توفير تسهيلات جديدة وإلى تحسين الإمكانيات الموجودة للتخزين ، وذلك فيما يتعلق بمواد الاستهلاك الجاري ومواد البناء ، وكذلك تحسين خدمات التوزيع بانشاء نقاط للبيع بالتجزئة .

وفيما يتعلق بالمحروقات ، سوف يتجه العمل الى بناء مستودع كبير للوقود ومخازن لمشتقات البترول في تمنراست ومستودع آخر في تندوف وثالث في ادرار . وكذلك يهدف المشروع الى بناء نقاط اخرى للتوزيع .

وفي مجال النقل الذي تشكو المناطق الصحراوية من نقص كبير فيه يستهدف البرنامج الخاص تحسين الحالة بانشاء شركات تتولى النقل بين الولايات .

وقطاع بناء المساكن الذي تبدو الحاجة فيه كبيرة يستهدف البرنامج الخاص إزالة المنازل القديمة المبنية بالطوب وإرضاء الحاجة الملحة الى المنازل . وكذلك ينص المشروع على تجديد مدينة عين صالح .

والاعتمادات المخصصة لقطاع الصحة تبلغ 3 ملايين دينار وستنفق لضمان تغطية صحية شاملة بانشاء المرافق الصحية ووحدات العلاج الضرورية في كل مدينة ومركز عمراني .

وفي مجال التجهيز الجماعي سوف يتجه العمل الى توفير مياه الشرب وإنشاء نظام لتصريف المياه المستعملة .

والتجهيز الإداري يشمل بناء مدن للدوائر ومراكز للأمن ووحدات للحماية المدنية وثكنات عسكرية وإدارات للجمارك . وتبلغ نفقات هذا البند 250 مليون دينار .

وتنفيذ هذا البرنامج سوف يتطلب وسائل غير عادية ، ولا سيما فيما يتعلق بتوفير الخبرات والكفاءات . ولهذا وحتى لا يقع تأخير في الانجاز ، ينص البرنامج على تعزيز الهياكل والمنشئات المحلية وانشاء هياكل اخرى مشتركة بين الولايات وذات مصلحة عامة .

وإذا اتيح لهذا التخطيط المحكم وللموارد المعتبرة التي اعتمدت له انجاز **بالصورة المتوقعة وتوفر لادارته ولتنفيذه العنصر البشري الذي كثيرا ما كان له تأثير سلبي متى فقد على أعظم المشروعات ، فسوف يمكننا أن نأمل في أن تخرج الصحراء الجزائرية من حالة الفاقة والعزلة التي عرفتها منذ قرون لا تحصى .**

الحزام الاخضر لصحراء مالي

جاء في بيان أصدره السيد كورت فالدهايم ، الأمين العام للأمم المتحدة مؤخرا في سياق تحذير موجه الى الدول المجاورة للصحراء من خطر زحف الرمال وتقدم الصحراء المطرد قوله :

« انه يوجد خطر في أن يمحو زحف الصحراء في ظرف خمسين سنة ثلاث أو اربع دول من الخريطة كلية » .

واهتمام الامم المتحدة والمنظمات العالمية بزحف الصحراء هو الذي حملها على عقد مؤتمر في نيروبي (كينيا) في اغسطس 1977 ، اشترك فيه 1500 من الخبراء الدوليين وممثلي المنظمات الدولية المتخصصة للبحث عن حلول لمشكلة زحف الصحراء التي تواجه في المكان الاول دول العالم الثالث وتجعل جهودها في استصلاح الاراضي الزراعية لغوا وبدون فائدة ، والمشكلة في مجموعها تمس بلدانا متباينة متباعدة في آسيا وافريقيا وأمريكا الجنوبية ، ولكنها كلها بلدان متخلفة تقاوم الجوع ونقص الاغذية ، وذنبها الوحيد هو أنها تقع في المناطق

الاستوائية . ونحن ندرك أبعاد هذه المشكلة وخطورتها إذا عرفنا أن الصحراء تلتهم 5.7 ملايين من الهكتارات (وهو يساوي مجموع المساحة الزراعية في الجزائر) من الاراضي الصالحة للزراعة كل سنة في العالم .

ولوضع حد لزحف الصحراء في المناطق الاستوائية والشبه الاستوائية ، تقدم العلماء والخبراء الذين شاركوا في مؤتمر نيروبي بعشرين توصية تعالج جذور المشكلة وليس مجرد أعراضها ، وأهم هذه التوصيات تتعلق بتحسين استغلال الارض وتعزيز التكنولوجية المحلية ، وتحسين شروط المساعدة التقنية الدولية وغير ذلك مما لا يتسع هذا الموضوع لعرضه ، ونحن نكتفي بان نلاحظ هنا أن رأي الخبراء الدوليين وتوصياتهم سوف تصطدم بعقبة سياسية كأداء ، وذلك لان تطبيقها سوف يتطلب نفقات مالية ضخمة ، وقد لا تؤدي إلا الى زيادة حدة المجابهة في غضون العقد القادم بين الدول الصناعية المتقدمة ودول العالم الثالث .

وفيما يتعلق بالبلدان الافريقية الواقعة على الشواطيء الجنوبية والغربية ، كان أول من نادى بصورة جدية بضرورة وضع حزام اخضر يمتد على 20 كيلو متر عرضا ليكون حاجزا أمام زحف الصحراء في بلدان الساحل ، هو الاستاذ ستيبينج (E. Stebling) ، الأستاذ بجامعة ادنبرة (اسكوتلاندة) وذلك في سنة 1935 .

وفي الوقت الحاضر يوجد عدد من المشروعات التي وضعت لغرس الاشجار بهدف منع زحف الرمال . ومنذ سنة 1973 ، اتفقت الدول الناطقة باللغة الفرنسية الاعضاء في « اللجنة الدائمة المشتركة بين الدول لمقاومة الجفاف » (وهي السنغال وموريتانيا ومالي والفولتا العليا والتشاد والنيجر) على حل عام لهذه المشكلة ، ولكن هذا المشروع ، الى جانب الصعوبات التقنية الكبيرة التي تواجهه ، يثير اعتراضين أساسين :

فان غرس الاشجار في مساحة تمتد من المحيط الاطلسي حتى البحر الاحمر على 15 مليون هكتار ، سوف يتطلب نفقات مالية لا تقل ، في أحسن التقديرات واكثرها تفاؤلا عن 3 ملايير من الدولارات (باسعار 1970) . وزيادة على ذلك ، فان الحزام الاخضر ، حتى لو أقيم ، لن يتمكن من وقف زحف رمال الصحراء ، أو

بعبارة أدق ، إمتداد الصحراء . لان هذا التقدم لايجري في واجهة منتظمة ، وإنما هو ظاهرة كثيرا ما تتخذ شكل بقع جافة وجرداء تنتشر هنا وهناك في مختلف أطراف المناطق المجاورة للصحراء .

على أن هذه الاعتبارات كلها لم تحل دون قيام دولة مالي بعملية تحت عنوان « الساحل الاخضر» بمساعدة وكالة التعاون التقني والثقافي (A.C.C.T.) التي شكلت في نيامي ، في سنة 1970 وتضم 27 من الدول الناطقة باللغة الفرنسية ، والمهمة الاساسية لهذه الوكالة هي تقديم المساعدة للبلدان تتضرر من زحف الصحراء وذلك بتمويل عمليات يقوم بها الشبان من ابناء تلك البلاد لغرس الاشجار. والمواقع التي بدأ العمل فيها فعلا ، هي « جوندمان » (Goundman) و« كايس » (Kayes) و« نيور» (Nioro) و« نارا » (Nara) و« جوا » (Goa) و « موبتى » (Mopti) .

والأعمال التي بدأت في سنة 1977 ، تستهدف تشجير حزام يتراوح عرضه بين 50 و 100 كيلو متر ، تشتمل على مناطق زراعية ومناطق لوقاية التربة من زحف الرمال ، وأخرى للمراعي الى جانب المناطق التي لا تشتمل الاعلى الاشجار.

والمشروع المالي ، الى جانب أهميته لوقف زحف الرمال ، سوف يسدّ كثيرا من حاجة هذا البلد إلى الأخشاب ، فإن مالي لا يملك حاليا إلاّ 4,6 مليون هكتار من الغابات ، اي نسبة 9.5 ٪ من مجموع المساحة الريفية ، ولكن البلد في حاجة الى زيادة مساحة الغابات بحيث تبلغ نسبة 30 ٪ من مجموع مساحته الخضراء لكي يسد حاجته الى الأخشاب . ووقف زحف رمال الصحراء في مالي ، يتطلب عملا للتشجير ، في رأي الخبراء ، يمتد على 25 سنة ، وغرس 2,4 هكتار بالاشجار في المرحلة الاولى التي تمتد حتى سنة 1985 .

ولكن انجاز المشروع يجري ببطء كبير . فان سنة 1976 لم تشهد سوى غرس 115000 شجرة تغطي مجموع مساحة 76 هكتار ، وذلك في مواقع العمليات الثلاثة : كايس ، ونيورو الساحل ، ونارا . ولكن هذه النتائج تضاعفت في سنة 1977 ، بفضل فتح مواقع جديدة للعمليات في جوا وموبتي وجوندمان ، وأما مجموع تكاليف العمليات فقد بلغت 100 مليون فرنك مالي .

على أن قيمة المشروع لا يمكن تقديرها بعدد الاشجار التي تمّ غرسها فقط ، بل يجب ان تؤخذ الى الاعتبار أيضا كميات الاشجار التالفة منها . ونحن نذكر في هذا السياق على سبيل المثال أن نسبة التّالف من المغروس قد بلغت 65 ٪ في موقع نارا وحده . وكذلك يبدو أن احساس السكان ووعيهم بخطر زحف الصحراء وإدراكهم لاهمية التشجير هو المعيار الاول الذي يقاس به نجاح المشروع وفشله . وكذلك صرح احد الخبراء الذين يعملون في المشروع بأن الاهداف المنتظرة منه لا يمكن ان تتحقق الا إذا قامت حملة ناجحة للتوعية وأمكن تجنيد السكان العاملين للمساهمة فيه .

ولكن الحقيقة والواقع أن سكان مالي الذين يعيش 80 ٪ منهم في الاحراش والذين يعانون من فقر نادر المثال بين البلدان المتطورة بحيث لا يتجاوز دخل الفرد منهم 74 دولار في السنة ، لا يمكن ان نتوقع منهم يقظة أو فهما لمشاكل البيئة المعقدة . ويقول الذين يعملون في المشروع ان الاغلبية الساحقة من السكان يعتبرون التشجير ومقاومة الصحراء من الشؤون الإدارية والحكومية ، هذا إذا استثنينا مواقع العمليات في جوندام ونارًا حيث تبنت القرى العمليات .

وبسبب قلة وعي السكان واهتمامهم ، اضطرت السلطات المالية الى استعمال الضغط . فان القاضي في احد مواقع العمليات قد فرض غرامة قدرها 500 فرنك مالي على كل عائلة مالية لا تروي الاشجار التي وضعت تحت عهدتها . بل إن احد القضاة قد هدد جديا بان السلطة سوف تقطع الماء على كل عائلة تموت اشجارها ولا تطلب مدّها باشجار أخرى لغرسها مكانها .

وهذه الاجراءات قد تبدو متشددة ، فاذا كان الماء شحيحا في البلد ، فكيف نتوقع من أسرة ان تتجاهل حاجتها من الماء للغسيل والطبخ والشرب وتسقي به الاشجار ... التي سينتهي الامر بها على كل حال الى أن تلتهمها المعزة والحمار !

ولكنه على الرغم من النتائج المتواضعة التي تحققت ، وعلى الرغم من ضعف مساهمة السكان في مشروع «الساحل الاخضر» ، فان العمليات لا تعتبر فاشلة في نظر وكالة التعاون الثقافي والتقني وهذه أيضا هي نظرة زعماء الشباب الذين يقومون بالعمليات .

والمسالة الاساسية الآن ، هي أن العمل يتطلب السرعة لكي تتفادى بلدان الساحل مأساة **القحط** الذي عرفته في غضون الفترة بين 1968 ـ 1973 وعلى الرغم من الامطار الغزيرة التي هطلت في سنة 1977 ، فهي لم توفر كمية كافية من الماء للزراعة . وكذلك يشتد القلق في كل من السينغال وساحل العاج والفولتا العليا خشية أن تواجه المتاعب التي عرفتها من. قبل ومما يزيد هذه المخاوف حدة، أن مياه نهر النيجر قد انخفضت كثيرا في السنتين الاخيرتين ، بحيث أن السفن التي تصعد من جاو الى باماكو كثيرا ما تتأخر عن موعد وصولها بشهر كامل . بل ان قوارب الصيد المزودة بالمحركات نفسها لا تتجاوز جاو في صعودها إلا بمشقة بسبب انخفاض مستوى النهر.

*

* *

الفصــل العاشر

موريطانيا حلقة وصل بين المغرب وافريقيا السوداء

تحتفل جمهورية موريطانيا الاسلامية بعيد استقلالها الذي نالته في سنة 1960 في 28 نوفمبر من كل سنة ، ولكنها منذ عامين أضافت احتفالا قوميا جديدا الى هذا الاحتفال ، وهو 10 يوليو ، التاريخ الذي طوح فيه الانقلاب العسكري في سنة 1978 بحاكم البلد الاسبق ، مختار ولد داده الذي كان يطلق عليه لقب « والدالامة » .

ومختار ولد دادة قد ناضل من أجل استقلال بلاده كما قاوم أطماع المغرب الاقصى لضم موريطانيا الى أراضيه سنين طويلة ، وتمكن من تدعيم مكانة الدولة الجديد على الصعيد الدولي .

وموريطانيا هي التي انطلقت منها دولة المرابطين التي قامت على عاتق صنهاجة ولمتونة والتي استولت على المغرب الاقصى والاندلس وامتدت حدودها شرقا حتى مدينة الجزائر في القرن الخامس الهجري . والموريطانيون يعتزون بان يذكروا العالم العربي والعالم الاسلامي بانهم هم الذي قاموا بنشر الاسلام في اصقاع افريقيا الغربية وراء الحدود التي وصل اليها الفرسان المسلمون في القرن الثاني الهجر وتراجعوا عنها بعدما فتكت ذبابة « تسي - تسي » بمعظمهم . ومن هنا وبفضل الدور الهام الذي لعبته موريطانيا في تاريخ الاسلام ، فقد أصبح هذا البلد حلقة وصل بين افريقيا السوداء وافريقيا الشمالية العربية الاسلامية . وبعبارة اخرى ، **فهي تمثل نقطة ارتكاز هامة في قلب الصحراء .**

وموريطانيا التي تمتد مساحتها على 1,080,000 كيلومتر مربع ويبلغ عدد سكانها 1500,000 نسمة ، بلد صحراوي يقع بين السنيغال ومالي والجزائر والصحراء الغربية والمحيط الاطلسي وعاصمتها نواقشوط . وأراضي موريطانيا تتكون من السهل الساحلي والمناطق الصحراوية . وسكانها الذين يعيشون خصوصا على تربية البقر والغنم والابل ويمارسون صيد السمك ، هم اخلاط من العرب والبربر والزنوج . وللبلد صناعة منجمية هامة سنعود للحديث عنها ولهذه الاعتبارات وغيرها ، فان موريطانيا لها شخصية متميزة المعالم ولا مثيل لها بين البلدان الواقعة في المنطقة التي تمتد بين المحيط الهندي والمحيط الاطلسي ، فهو البلد الوحيد بين البلدان الواقعة على شواطيء الصحراء والذي تتكون أربعة أخماس اراضيه من الرمال الصحراوية ، وهو البلد الوحيد الذي جاءه الاستعمار الفرنسي من الجنوب ، كما أنه من بين البلدان الصحراوية ، البلد الوحيد الذي امتزج فيه العنصر البربري والعنصر العربي بصورة تشكل وحدة متجانسة ، ومن هنا ميول موريطانيا القوية إلى المغرب وإلى العالم العربي بصفة عامة .

وقد ظلت موريطانيا حتى وقت متأخر ، ومثلها في ذلك مثل معظم المجتمعات الساحلية، عبارة عن تجمعات من القبائل ، ومعظمها من البدو الرحل ، ويسود نشاطها الطابع الصحراوي التقليدي . وأما ظهور القطاع الاقتصادي الحديث الذي يقوم على استخدام اليد العاملة ورؤوس الاموال وتثبيت الرحل واقرارهم ، وعلى التوسع العمراني الفوضوي في المدن ، فقد كان من نتائجه قيام توترات واضطرابات في المجتمع الموريطاني التقليد لم يتمكن بعد من السيطرة على أعراضها ، وقد زاد من استفحال آثارها أوار الحرب الصحراوية التي شلت نشاط البلد خصوصا ، في مجال التعدين ، وسمحت بظهور النعرات القبلية والاثنية التي بقيت شرارة في الرماد في فترة ما بعد الاستقلال .

وأبرز هذه النعرات واشدها خطرا هي تلك التي ظهرت طبقة بين زنوج الجنوب الذين ينحدرون من أصل من العبيد . وخطر هذه الحركة في أنها تتستر وراء مطالب ثقافية وتعارض نشر اللغة العربية والقيم الاسلامية لصالح القيم واللغة الفرنسية التي تتمسك بها ، وذلك في الوقت الذي تعمل فيه في الحقيقة لتحقيق اهداف اقتصادية وسياسية على حساب الاغلبية العربية البربرية .

ومما يزيد من ثقل هذه الطائفة أنها تجد تأييدا صريحا من السنغال المجاور والذي نعرف جميعا اختياراته الثقافية والسياسية .

لقد عنى الاستعمار الفرنسي منذ البداية بتدريب الزنوج وتعليمهم وإقرارهم في المدن ، فافسح لهم المدارس والمعاهد التقنية التي تخرجت منها فئات الموظفين والمهندسين والتقنيين والبيروقراطيين الذين انتشروا في مختلف انحاء البلد ، واتخذ منهم نواة نشيطة لنشر الحضارة الاروبية ولتمدين العرب والبربر ، فيما كانوا يزعمون .

على أنه يجب الا يفهم من هذا أن الاستعمار قد علم الزنوج كلهم ومدنهم على طريقته ، لأن الحقيقة هي أن أغلبية الزنوج لا تزال تحتفظ بكيانها الاجتماعي التقليدي في الجنوب حيث لا تزال الاغلبية الساحقة منهم تعيش على فلاحة الارض التي لا يتجاوز متوسط ما تملكه الاسرة الواحدة منها ثلاث هكتارات (ولو أن اسر النبلاء في التكرور قد تملك ما يتراوح بين 30 و 40 هكتارا للاسرة الواحدة) .

وتدل نتائج الاحصاء الذي اجرى في سنة 1976 على أن نسبة الزنوج الافريقيين في موريطانيا تتراوح بين 20 ـ 25 ٪ ، في مقابل نسبة 75 ـ 80 ٪ من العرب والبربر (les Maures) ونسبة 78 ٪ من الزنوج الموريطانيين يعيشون في حوض نهر السنغال الذي تشكل أراضيه اخصب الاراضي في موريطانيا .

والزنوج الموريطانيون الذين يقطنون وادي السنغال ، ينقسمون ، حسبما تدل احصائيات أجريت في سنة 1957 ـ 1958 ، الى الاصول العرقية التالية : 55 ٪ من التكرور ، 16 ٪ من البولس ، 29 ٪ من السّراكولى والوولوف . وهذه العناصر كلها لها عروق تمتد بعيدا الى الجنوب (السنيغال) والشرق (مالي) ، وهي من أبرز النتائج التي اسفر عنها مؤتمر برلين لتقسيم القارة الافريقية تقسيما لا تراعي فيه القبائل والقوميات ولا يقوم على أسس طبيعية أو بشرية .

وأما البنية الاجتماعية للعرب والبربر ، فتدل التقديرات التي اسفرت عنها احصائيات سنة 1976 ، على أن عدد الرحل من بينهم يبلغ 514000 نسبة ،

في مقابل 906000 من المستقرين في المدن والارياف ، ومن الجدير بالتنويه أن امتلاك العبيد قد استمر في عهد الاستعمار الذي تقوم أطروحته الكبرى لتبرير استغلاله لشعوب القارة على انه إنما جاء لالغاء نظام الرق وتحرير الانسان ذي البشرة السوداء ، وقد تم الغاء الرق نهائيا في البلد بعد الاستقلال ومنذ وقت غير بعيد .

وأما عدد الحراثين في البلد ، وهم أبناء العبيد الذين أسرتهم القبائل العربية والبربرية ، خصوصا ، في أوقات الحروب ، فتقدره دراسة ميدانية اجريت في سنة 1973 بنحو 250000 نسمة . ومعظم هؤلاء من المعتوقين الذين تربوا في احضان الاسر العربية الاسلامية ، وبالتالي ، فهم معربون ومسلمون ويرتبطون ارتباطا روحيا واجتماعيا قويا باسيادهم السابقين . على أن حركة ظهرت بين الحراثين في الجنوب في شهر يوليو 1978 ، تطالب الحكومة بمنحها الاراضي الزراعية التي تستغلها لحساب الاسياد السابقين وقد نجم عنها توَتّر حاد ونزاع بين ملاك الارض من العرب والبربر الذين لا يزالون يستخدمون عبيدهم السابقين وهذه المطالب ، مثل المنظمة التي تشكلت تحت اسم «الحرّ» بين الحراثين كانت مصدر قلق للحكومة الموريطانية التي وعدت مؤخرا بدراسة مشكلة الاصلاح الزراعي في الاراضي التي لا يزال يستغلها العبيد سابقا . ولكن الجدير بالملاحظة هو أنه على الرغم من شعور الحراثين بالظلم الاجتماعي فهم لا يؤيدون مطالب الأقلية من الزنوج الثقافية والاقتصادية الخ ، لأنهم ينطلقون من مبدإ الولاء للعربية والاسلام .

يقوم الاقتصاد الموريطاني على ثلاث ركائز أساسية : الزراعة وتربية الانعام ، وهو النشاط التقليدي للبلد منذ أجيال لا تعيها ذاكرة الانسان ، وصيد السمك ، والتعدين ، وينبغي أن نخصص لكل واحد من هذه القطاعات فقرة لنستعرض ما يتسم به من قوة وضعف وما يواجهه من مشاكل في الوقت الحاضر .

إذا سافرت بالطائرة من دكار الى نواقشوط فسيسترعي نظرك حينما تحلق فوق نهر السنيغال أنه في الوقت الذي تزدهر فيه الضفة اليسرى للنهر بالاشجار والاعشاب ، فاذا بالضفة اليمنى تبدو عليها سمات المحيط والمناخ الصحراوي .

وهذه الظاهرة التي تصدم عابر سبيل ، تبرزها الارقام بوضوح فان موريطانيا التي تمتد مساحتها على مليون وثمانين ألف كيلو متر لا تملك من الارض الصالحة للزراعة الا أقل من 200000 هكتار (190000 منها تسقى بالمطر و 40000 بالخزانات و 48000 بمياه نهر السنيغال) .

ومساحة 70,000 هكتار مروية بالمطر و 31000 هكتار مروية بالخزانات تكرس خصوصا لزراعة الذرة والسورغو ، بينما يحتفظ بمساحة 2000 هكتار مروية لزراعة الرز الذي يبلغ محصول الهكتار منه 3.7 طن للهكتار الواحد . وكذلك تخصص مساحة نحو 250 هكتار لزراعة الفواكه والخضروات ، ويبلغ انتاجها 2000 طن ، بمعدل 8 أطنان للهكتار الواحد ، وذلك بالاضافة الى مجموع 12000 طن من التمور.

وهذه الارقام في حد ذاتها كافية لتوضح العجز الذي تعاني منه موريطانيا في المواد الغذائية ، ولا سيما من الحبوب ، ذلك العجز الذي يبلغ في السنة الجارية 75000 طن ، (و 80000 في السنة الماضية (1979) . وأما مجموع استهلاك البلد من الحبوب فيبلغ 000 120 طن .

وهذه الوضعية المحزنة تفاقمت ، خصوصا ، بسبب حالة القحط التي تعرضت لها بلاد الساحل كلها منذ سنة 1975 ، وكذلك كان من نتائج الجفاف تواصل هجرة عارمة من سكان الارياف والقرى في اتجاه المدن التي اتسع عمرانها بالخيم والاحياء القصديرية . وبينما كانت نسبة سكان الارياف تقدر منذ عشر سنوات بـ 85 ٪ فاذا بالتقديرات الحالية تدل على أنها هبطت الى ما يتراوح بين 40 و 50 ٪ من مجموع السكان . ونسبة البدو الرحل نفسها هبطت بصورة أقوى من 78 ٪ الى 27 ٪ في نفس الفترة .

والجدير بالتنويه أن حالة تخلف الإنتاجية في القطاع الزراعي كانت سائدة على الرغم من أن النظام السابق كان يعطي الاولوية للقطاع الزراعي ـ على الاقل في التخطيط النظري . وهذا الاختيار هو الذي اعتمدته أيضا اللجنة العسكرية للانقاذ الوطني ، التي حددت ثلاثة اهداف للتنمية الزراعية وهي :

1) الاكتفاء الذاتي في انتاج المواد الغذائية 2) وقف زحف الهجرة الريفية 3) تحديث المحيط الريفي وتجديده .

ومن الاعمال الهامة التي تجري في مجال التنمية والتي يجب ان ننوّه بها بصفة خاصة ، ذلك المشروع العظيم الذي يجري تنفيذه في نطاق منظمة نهر السنيغال والذي ينص على بناء سدين عاليين وضع الحجر الأساسي في أولهما في سنة 1979 وتبلغ تكاليفه حوالي 600 مليون فرنك فرنسي ، وهو في اسفل النهر ، ويجري تنفيذ المشروع بتعاون مع العراق والسينغال .

وأما السد الثاني الذي سيسمح لمالي بري نحو 400000 هكتار ، فستبلغ طاقته للتخزين 16 مليار متر مكعب من الماء وستكون تكاليفه اكبر من الاول قليلا ، ولكن من أهم مزاياه أيضا أنه سيوفر 800 مليون كيلو واط من الكهرباء ، في الوقت الذي يجعل فيه النهر قابلا للملاحة طوال فصول السنة في المسافة التي تمتد بين سان لوي وكايس . ومجموع أعمال تنمية نهر السنيغال ستستغرق نحو أربعين سنة ، ولكن تلك التي تتعلق منها باستصلاح 50000 هكتار سوف تنجز في ظرف بضع سنوات .

وفيما يتعلق بصيد السمك ، فان موريطانيا تملك ثروة غير قابلة للنفاد وتبذل الدولة كل جهودها للسيطرة عليها . ونحن يجب أن لا ننسى أن موريطانيا تملك 800 كيلو متر من الشواطيء التي تمتد من ميناء نواقشوط حتى مصب نهر السنيغال ، على طول واحدة من أغنى مناطق العالم يالاسماك . فان المياه البحرية الموريطانية تشكل منطقة تلتقى عندها التيارات المحيطية المتغيرة مما ينتج تغيّر موسمي في درجة الحرارة وظروف مثالية لتوالد الاسماك .

على أن العائق الاكبر في طريق استغلال هذه الثروة السمكية الطائلة ، هو جهل سكان الشواطيء بالطرق الحديثة للصيد ، ومن هنا فقد اضطرت الحكومة حينما أولت عنايتها لتنمية هذا القطاع الى البدء من الصفر .

ونحن لكي ندرك مدى أهمية قطاع صيد الاسماك في بحر موريطانيا يكفي أن نشير الى ماورد في تقرير أصدرته مؤخرا منظمة الاغذية والزراعة التابعة للامم المتحدة من انه يوجد في هذه المناطق ما يقرب من أربعة ملايين طن من

السمك ، وأنه يمكن لموريطانيا ان تصطاد منها سنويا ما يتراوح بين 500,000 و 750000 طن دون أن تتأثر هذه الثروة بصورة جدية .

وبدلا من أن تستغل موريطانيا ثروتها السمكية الهائلة تقوم بهذا العمل أساطيل حديثة ترسلها في كل سنة كل من اليابان والبرتغال وهولندا والاتحاد السوفيتي وغيرها من البلدان الصناعية المتقدمة ، وهي أعمال تعتبرها السلطات الموريطانيا بحق نهبا استغلاليا لثرواتها القومية الطبيعية .

ونتيجة للقرارات التي اتخذها مؤتمر الامم المتحدة حول حقوق الدول البحرية ، فقد اضطرت موريطانيا ، ومثلها في ذلك مثل معظم دول العالم الثالث ، الى إعلان تمديد منطقة مياهها الاقلمية الى 70 ميلا بحريا ، والى تحديد المنطقة الاقتصادية من شواطئها بـ 200 ميل بحري . وهذا لاجراء من شانه أن يضع تحت سيادتها ، على الاقل نظريا ، نحو 90 ٪ من ثروة البلد السمكية . ونحن نقول نظريا لان الصيد بطريقة غير شرعية لا يزال يمارس حتى في الوقت الحاضر

وأما الثروة المعدنية الموريطانية فنحن لكي ندرك أهميتها يكفي أن نذكر أنها تشكل 40 ٪ من الناتج المحلي الاجمالي . وقد بدأ استغلال الثروة المعدنية في البلد في أوائل الستينات في منجمي الكدية وإيجل الذين يتراوح محتوى تربتهما من الحديد بين 60 و 70 ٪ . وقد كانت الاستثمارات الكبيرة والوسائل غير العادية التي كانت تتطلبها صناعة استخراج الحديد ، عاملا في تغيير جذري في الحياة الاقتصادية التي كانت حتى ذلك الوقت تعتمد ، خصوصا ، على الزراعة وتربية الحيوانات . وكذلك أدى دخول البلد في عهد التنجيم إلى تعميم استخدام النقود في المعاملات والى ظهور طبقة عاملة .

وكذلك تقدمت صناعة التنجيم بسرعة ولم تكد تحل سنه 1970 حتى كانت موريطانيا تصدر 10 ملايين طن من الحديد الخام ، وأصح قطاع التعدين يمثل 80 ٪ من صادرات البلد ، ويوفر ربع الاجور المدفوعة في القطاع الحديث ، ومع ذلك ، فقد ظل جزيرة منغرلة ، حيث كانت الادارة الرأسمالية مصدرا لجميع القرارات ولم تكن الحكومة تملك حق التدخل لا في تسيير المناجم ولا في سرعة الاستغلال ، ولا في اختيار أنواع التكنولوجيا . وهكذا

أصبحت شركة «ميفرما» (Mifrma) دولة داخل الدولة . وقد كان من بين الاخطار التي تواجهها موريطانيا والتي كانت تقلق راحة حكامها ، الخوف من نفاذ الاحتياطي دون أن تقوم نشاطات صناعية على أساس التعدين تدعم الاقتصاد الوطني .

وكذلك كان تدخل الدولة بتأميم هذه الشركة في سنة 1974 أمرا ضروريا تفرضه اعتبارات تتصل بسلامة الدولة وامنها الداخلي وبالامن الاقتصادي .

على أن اجراء التأميم صادف سلسلة من الحوادث الدولية والاقليمية غير المتوقعة والتي ستقف حجر عثرة في طريق صناعة التنجيم وتهدد مستقبل موريطانيا بوصفها مركزا من مراكز صناعة التعدين ومصدرا كبيرا للحديد الخام . وأهم هذه العوامل اشتداد الازمة الاقتصادية التي تعاني منها البلدان الاروبية المستورد للحديد الخام الموريطاني ، وبذلك نقصت صادرات موريطانيا من هذه المادة من 11.6 مليون طن في سنة 1974 (وهو رقم قياسي) إلى مجرد 8.4 مليون طن في سنة 1977 ، لتهبط من جديد إلى 6.4 مليون طن في سنة 1978 ، وذلك في نفس الوقت الذي انهارت فيه أسعار الحديد الخام في الأسواق الدولية .

وعلى الصعيد الاقليمي أدت الحرب التي يشنها البوليزاريو من أجل استرجاع استقلال الصحراء الغربية ووادي الذهب ، الى كارثة وسددت ضربة قاسية الى شركة التعدين الوطنية الموريطانية الجديدة . فقد كانت السكة الحديدية التي ينقل عن طريقها الحديد الخام والتي تمتد بين زويرات ونواديبو الهدف المفضل لضربات الثوار الصحراويين . فان سنة 1977 وحدها شهدت القضاء على 170 قطارا محملا بالحديد الخام ، وهي شحنات تمثل 18 ٪ من صادرات موريطانيا السنوية من هذه المادة .

وهذه الضربات جعلت من المستحيل حتى مواصلة التصدير بانتظام ، فضلا عن البدء في تنفيذ مشروع «غَلْب» الذي وضع لفتح منجم جديد لضمان استمرار نشاط التعدين . وهذا المشروع قدرت تكاليفه بـ 500 مليون دولار ، وهو مبلغ يفوق طاقة موريطانيا بكثير ، وقد وعد البنك العالمي وعدد من البلدان العربية وهيئات التمويل الاروبية بتقديم قرض بفائدة صغيرة الى موريطانيا

قدره 360 مليون دولار للمساهمة في تمويل المشروع ، شريطة أن تقوم الشركة الوطنية (Snim) للتعدين بتوفير 100 مليون دولار من جانبها . ولو قدر لهذا المشروع آن يتم في الوقت المقدر له (1983) لعوض عن تناقص انتاج المناجم القديمة بحيث يبلغ مجمل انتاج موريطانيا 14 مليون طن ، ولكن العراقيل الاساسية التي واجهها نشاط التعدين الموريطاني مؤخرا ، الأزمة الاقتصادية الاروبية والحرب الصحراوية ـ لا تزال قائمة ، ومن ثم فان المستقبل محاط بكثير من الغموض .

*

* *

القســم الثــاني

الفصل الحادي عشر

لمحات من تاريخ الصحراء

عهد الرومان :

بعد سقوط قرطاجنة ، اخذت أفواج المعمرين الرومان تتقاطر ، زرافات ووحدانا على افريقية ، تغرى جشعهم ثروات هذه البلاد وخصب أراضيها . وبذلك عززت روما قوتها العسكرية بسلطة سياسية . وأما ردود فعل السكان ، فقدكانت مائعة نوعا ما في المرحلة الأولى ، وقد عرفت افريقية في عهد «ميسيبسا» (Micipsa) هدوءا نسبيا استمر حتى سنة 119 ق . م . لدى وفاة هذا الامبراطور .

وعقب ذلك قام السكان قومة رجل واحد بزعامة يوغوطة في محاولة للتخلص من نير الاستعمار الروماني . وبعدما سجلت هذه الثورة انتصارات عظيمة في الشمال ضد الجيوش الرومانية دارت الدوائر واضطرت الى تحمل ثقل القوة الساحقة . على أن الصحراء ستظل موئلا للثورة وموقدا للحرب . أبدا ، حتى سقوط روما . وكما سيصنع الامير عبد القادر مع الفرنسيين بعده بنحو ألفي سنة . كان يوغورطة يقاتل الفيالق الرومانية في الشمال ، فإذا اشتدت وطأة الحرب عليه ، انسحب الى البراري وأعتصم بالصحراء . وفي المرحلة الاخيرة من حروبه ، التجأ يوغورطة إلى مدينة تسمّى «تالا» (Tala) لا نعرف موقعها بالضبط ولكن بعض الباحثين يقترحون أن تكون غير بعيد من ثوقورت .

وقد تعقبته جيوش «ميتلوس» (Metellus) الى هذه المدينة وشددت عليها حصارا ولم يغادرها الا بعد مادمّرها وحولها الى انقاض . ولكنه ، مع ذلك لم

يصل إلى هدفه ، وهو القبض على يوغورطة ، لأن الأخير كان قد هرب منها في الوقت المناسب ، ليظهر للرومان من جديد على رأس قوة من الجيشطول وليشن حرب عصابات لا هوادة فيها . وقد كانت قوات يوغورطة تسدد ضرباتها في الجنوب ، خصوصا ، الى مراكز تموين القوات الرومانية المتوغلة بعيدا عن قواعدها . وأما غنائمه ، فقد كان يرسلها إلى قفصة في الجنوب الشرقي ، ولما وقعت قفصة في يد الرومان وفقد الزعيم الوطني امواله وامتعته ، أصبح خفيفا ويتنقل بسرعة ، كما كان الامير عبد القادر يشعر عندما سقطت الزمالة في يد اعدائه ، مما تمكن معه من السيطرة على الخط الفاصل بين التل والصحراء ،

كان استيلاء الرومان على قفصة وتخريبها في سنة 107 ق . م . وفي السنة التالية (106) ، واصلت جيوش « ميتلوس زحفها في الاتجاه الغربي ، حتى وصلت ــ فيما يقول » « سالوست » ــ إلى « ملوشة » أي نهر ملوية ، ولكن هذا النجاح العسكري لم يزد قبائل البربر الاعزما وتصميما على المقاومة .

ولدى عودته من الغرب إلى سرت ، واجه هجوما عنيفا قامت به جيوش يوغورطه باشتراك مع جيوش « بوكوس » (Boeckus) وكادت تقضي على فيالقه ، فبعد معركة انتصر فيها البربر ، غمر المعسكر شعور من الفرح فراحوا يغنون ويرقصون الليل كله ، مما تمكنت معه الجيوش الرومانية من جمع شتاتها وشن هجوم مضاد عليها في الصباح . وعقب ذلك ، وقعت اعظم خيانة قام بها ملك بربري في العصور القديمة ، فقد سلم بوكوس يوغورطة ، خليفته وزوج ابنته الى القائد الروماني « سيلا » (Sylla) . وبينما كان يوغورطة ينتظر حبل الجلاد بفارغ الصبر ليخلصه من عذاب الجوع ، كان الغادر بوكوس يتلقى امارات التعظيم والتشريف من الغزاة المستعمرين الرومان الذين ولوه صنيعة على مملكة تشكل ثلث بلاد البربر .

مرة اخرى ، انسدل ستار النسيان على بلاد البربر ، واستمر الهدوء النسبي مدة نحو نصف قرن ، ولكن مقتل القيصر والنزاع الذي احتد بين انصار أكتاف وانصار أنطوان ، سيكون بمثابة الضوء الاخضر لثورة عارمة في افريقية ، انطلقت من الصحراء وسرت في اتجاه الشمال ، كما تسرى النار في الهشيم ، كانت

ثورة شعبية تلقائية ، لم يقلل من عنفها وشمولها كونها تفتقد بطلا مثل يوغورطة . وكذلك اضطر الرومان إلى زيادة عدد قواتهم وإلى إنشاء عدة قواعد ومراكز محصنة في تبسه وفي أماكن أخرى على حافة الصحراء .

ومن جهة اخرى ، وسعت مملكة جوبا الثاني ، في سنة 17 ق . م . بحيث اصبحت تشمل ثلثي الاراضي الموريطانية ، وهي ترضيه معتبرة للجيشطول ولغيرهم من قبائل البربر. ومع ذلك ، فان الثورة ظلت متقده على حافة الصحراء ، وقد كان عدد الجنرالات الرومان الذين يدينون بنياشينهم وترقياتهم للثورة عظيما . ولكن الانتصارات لم تكن الاسرابا خداعا في الصحراء حيث لا توجد مدن يهدّمها الطغاة ولا تصل يدهم الى السكان والارض المعمورة . انه غزل « بنيلوب » ، فما يحاك بالنهار ينقض بالليل ، وذلك في حركة لا نهاية لها ، كما شهدت بذلك الجيوش الفرنسية في اواخر القرن التاسع عشر.

وبفضل طول العراك وحدته ضد جيوش كبيرة ومنظمة تنظيما محكما ، اكتسب الصحراويون تجارب ومهارة ثمينة في فنون الحرب والمقاومة . وهذه المهارة وشعور البغض المشترك الذي يعتلج في نفوس الناس ضد المعمرين الغزاة ، كان هو العامل الاساسي الذي سمح باستمرار النضال في الجنوب حيث كان الشعب يعتبر جوبا الثاني خائنا وصنيعة للاستعمار.

وكذلك هزمت جيوش جوبا الثاني عدة مرات في هذه المناطق ، وقد كان من الممكن أن ينال على أيدي المقاومين هزيمة نهائية لو لم تنجده روما بفيالقها بقيادة «كاسيوس» (Cassus) . ومع ذلك فقد ظلت الحرب عند أطراف الصحراء عوانا ولا هوادة فيها مدة طويلة ، ولم يعلن هذا القائد الذي اطلق عليه لقب « الجيشطولى » في روما انتصاره الا في سنة 6 بعد الميلاد .

منذ سقوط المدينة الصحراوية العتيدة ، جرمة ، التي كان يدافع عنها شعب الجرمانت ، في سنة 19 ق . م . وتخريبها على يد قائد حملة رومانية ، وهو كورناليوس بالبوس (Cornelus Balbus) وهذا الشعب يواصل هجماته في اتجاه الجنوب بتعاون مع الجيشطول وفي تحالف مع الناسمون ، حتى وصلوا ، كما يقول هيرودوت الى نهر سرت الكبير . لقد كان هذا التحالف يظم قوة هائلة تشمل

جميع القبائل الصحراوية ، وبلغ عنف الثورة التي تشنها حدا من الخطورة كان يتطلب كل حصافة الامبراطور «كارينيوس» (Caunius) ودهائه لكي يتغلب عليها .

قيل إنه لوكانت روما أشد قوة وكانت ترغب في احتلال الصحراء لأمكنها ذلك . ولكن هل كان يمكن لروما حقا أن تحتل الرمال غير المتناهية ، وتدفع بفياليقها في متاهات لا تجد فيها الماء والمؤن الضرورية وتتحمل العطش والقيظ والمخاطر ، وكل ذلك من أجل ماذا ؟ فالرومان إنما جاءوا إلى افريقية للاستعمار وللنهب والسلب ، ولكن الصحراء لا تحتوي الا على المتاعب . وفي نفس الوقت ، لا يمكن للامن أن يستتب في الهضاب وعلى حافة الصحراء ، دون اخضاع الصحراء . وهذه حقيقة ادركها الاستعمار الفرنسي جيدا ودفع ثمنها غاليا . ومع ذلك ، فاذا تمكن من إقامة مراكز عسكرية هنا وهناك ، فهولم يخضع الصحراء قط ، لأن روح الحرية التي كانت تدفع الرحل الى الثورة في العصور القديمة كانت لا تزال متأججة في نفوس الصحراويين ، والثورات العديدة التي قامت بها الطوارق واولاد سيدي الشيخ وغيرها من المناطق والقبائل الصحراوية هي اكبر دليل على ذلك .

كان «تاكفارينا» البربري يعمل جنديا في الجيش الروماني ، فهرب من الجيش وكون حركة ثورية لم تلبث أن وجدت عددا متزايدا من الاتباع والانصار . وبعد وفاة جوبا الثاني ازدادت الحركة قوة وشوكة في غضون سنة 17 . م . واستغل تاكفرينا هذه الظروف لزيادة ضغوطه على الغزاة الرومان . وكذلك دفع بقوات عظيمة إلى المعركة ووجهها ضد المنشئات الرومانية في الأوراس وعلى الرغم من جلد رجاله وصبرهم وشجاعتهم المتفوقه ، فقد صده الرومان وانسحب بعد ذلك الى الصحراء .

كان تاكفارينا ، وهو جندي روماني قديم يدرك تماما نواحي الضعف في مقاومة البربر وفي حركته العسكرية بصفة خاصة ، وقد دلته تجربته في العراك أن قلة النظام بين القبائل وانعدام الطاعة ، هي الخصائص التي تنقص الجندي البربري وتجعل شجاعته المتفوقة غير ذات تأثير . وكذلك استغل فترة الهدوء

التالية وخصصها للتدريب وللقيام بمناورات عسكرية في الصحراء التي يخشى الرومان التوغل فيها . وبعد ذلك راح يشن هجمات متوالية .

وبعدما احرز نجاحا معتبرا ، تمكن الوالي الروماني ، أبرونيوس (L. Apronius) من دفعه الى الجنوب في سنة 20 م . ولما أعاد الكرة ، صده الوالي الروماني الذي خلف ايرونيوس ، بعدما تلقى امدادات عسكرية كبيرة من روما . وقد بدا للرومان في هذه المرحلة انهم قضوا على حركة تاكفارينا نهائيا ، بحيث اصدر الامبراطور تيبير (Tibère) في سنة 22 م . أوامر الى الجيش بان ينسحب في اتجاه الشمال .

ولكن هذا القرار الذي اتخذه الامبراطور تحت تأثير عامل الخوف الذي كان دائما يساور الاباطرة الرومان ، من أن يستغل القواد العسكريون في افريقية القوة العسكرية الكبيرة التي تحت اوامرهم ليقوموا بانقلاب ، قد جاء في وقت ملائم لتاكفارينا ، حيث أنه صادف موت جوبا الثاني .

وهكذا شرع الزعيم الافريقي في تعبئة جميع قبائل الجنوب ، وفي مقدمتهم الجرامانت الذين تقول الرواية انهم اجداد شعب الطوارق ، وكون جيشا هائلا اجتازعلى رأسه التل من أقصاه الجنوبي إلى أقصاه الشمالي وراح يدمر ضياع المعمرين ويقتل الرومان دون أن يقف في طريقه عائق يذكر حتى وصل الى « تيكلات » (توبوسكوتوس القديمة) التي تبعد عن بجاية بنحو 30 كيلو متر في الجنوب العربي ، وضيق الحصار على هذا الحصن المنيع .

ولما بلغت أخبار هذا الهجوم الوالي الروماني « دولابيلا » (Dolabella) سار الى تعبئة الجيوش والى وضع مراكز عسكرية وضع فيها حاميات قوية لكي تحول دون وصول الإمدادات العسكرية التي كان ينتظرها تاكفارينا ، ويبدو أن هذه الخطة نجحت في عزل الزعيم الافريقي وقطعه عن قواعده ، حيث أنه اضطر عندما أدرك الوضعية التي هو فيها ، أن يرفع الحصار على تيكلات وينسحب في اتجاه الجنوب ، مستعينا بطبيعة الأرض الجبلية التي اتخذ طريقه فيها في الانسحاب .

ولكنه في سنة 24 م . أعاد الكرة ووصل في هجومه حتى مكان قريب من « أوزيا » التي هي سور الغزلان الحالية ، حيث ضرب معسكرة . على أن

سوء الطالع شاء أن يفاجئه الرومان في هجوم ليلي غادر بقيادة دولابلا فالحق بجيشه خسائر كبيرة ، وقد قتل تاكفارينا في هذه المعركة . (سنة 24 م) .

وهكذا انتهت معركة ضد الغزاة الرومان دامت ثمان سنوات ، وكانت أمواجا متتالية من الحملات المتدفقة من الصحراء بقيادة تاكفارينا ، الذي لم يعرف تاريخ المقاومة الافريقية للرومان مثيلا سوى يوغورطة .

وكما خلف تاكفارينا يوغورطة بجدارة في قيادة المقاومة ضد الرومان ، قام زعيم آخر اسمه «أودَمون» (Aedmon) ليرفع مشعل الحرية وليقود البربر في عدة معارك مظفرة ، عقب وفاة بطولمي الذي خلف جوبا على العرش . وعلى الرغم من أن أودمو لم يكن يتمتع بجميع الخصائص والمهارة السياسية والعسكرية التي اكتسبها تاكفارينا خلال عراكه الطويل ، فانه كان يبدي ضروبا من البطولة ومقدرة على التنظيم لم تجد معها روما بدّا من تجريد عدة جيوش والقيام بحملات متتالية قبل أن تتمكن من اخضاعه .

وبعده قام بقيادة المقاومة ملك افريقي لا نعرف مع الاسف الا اسمه وإلا كونه خاض عدة معارك ضد الرومان قبل أن تدفع به الفيالق الرومانية الى الجنوب ليحتمي بالصحراء ، تلك الصحراء التي ستظل ، قرنا بعد قرن مستودعا للمقاتلين وموئلا لشعلة الحرية .

ولكن الصحراء كانت أيضا مستودعا لمنتجات الترف والحيوانات النادرة وللتبر الذي تنقله القوافل الى الشمال مع العبيد والغزال والفيَلة وغير ذلك مما يحتاجه الاسياد الرومان لارضاء حاجتهم الى البذخ ولتنظيم العابهم الوحشية . هل تحولت الصحراء الى متجر ضخم ومورد لبضائع الترف للرومان خلال مدة الثلاثين سنة التي لم يترك لنا المؤرخون أية معلومات فيها عن المقاولة الافريقية ؟ ومهما يكن من شيء ، فان سنة 70 م . (وهي السنة التي احتلت فيها القدس) قد شهدت زحف جيش روماني بقيادة «فيستوس» (Festus) الى فزان الذي فرض عليه دفع الجزية في المرحلة الاولى ، ثم جيش آخر بقيادة «ماترنوس» (Martenus) سار في أعقابه وتوغل في اعماق الصحراء في مرحلة تالية . وهذه الحملات التي تتردد فيها اسماء بعض القبائل ، مثل «ليبيا» و «الجرامانت»

الخ ، لا نكاد نعرف شيئا عن مداها ولا عن أهدافها . وما قيل من أن الجيوش الرومانية قد سارت مدة سبعة اشهر في الصحراء ، لا يزيد معلوماتنا شيئا ، على الرغم من أن هذا الخبر قد يوحي بانهم تمكنوا من اختراق الصحراء ، وهو أمر لا يوجد ما يثبته .

وهذه الجولة التي لابد وأن الجيش الروماني قد واجه فيها صعوبات وراء كل تصور ، وقعت في وقت ما بين سنتي 81 ـ 96 م ، فيما يقول المؤرخ ارنست ميرسيى .

ولكن الصحراء ستكون موضوع الحديث في الدوائر العسكرية في روما مرة اخرى في سنة 115 ، في عهد الامبراطور « تراجان » (Trajan) وذلك بمناسبة قيام اليهود الذين يقطنون منطقة برقه بثورة على الحكم الروماني ، وبعد قمع هذه الثورة ، هاجر اليهود الى الصحراء حيث عززوا أقلية من ابناء جلدتهم كانت موجودة في مختلف المناطق منذ احقاب لا تعيها ذاكرة التاريخ .

وفي سنة 117 ، قامت قبيلة بربرية صحراوية مهمة تحمل اسما لاتينيا (Lucius Quetus) بثورة عارمة ولكنه لا يوجد لدينا ما يدل على ابعادها في الشمال وعلى خطورتها السياسية والعسكرية . ولكن بعض القرائن تشير الى أنها أقلقت مضجع الرومان مدة من الزمان ، حيث أن المراكز العسكرية والحصون التي وضعوها على أطراف الصحراء إنما أنشئت عقب هذه الثورة (في أوائل سنة 124 م . على الارجح) . وقد وضع مركز قيادة الفيلق الثالث في لامبيس ، بحيث يكون قريبا من الصحراء وحتى يتمكن من قمع الاضطرابات فيها بالسرعة المطلوبة . وهكذا ، فقد اقتنعت روما من الغنيمة بالاياب في الربع الاول من القرن الثاني ، بقدر ما يتعلق الامر بالصحراء ، وبدلا من المشروعات الطموحه للسيطرة على الصحراء والتي كانت المرحلة الاولى منها في اواخر القرن الأول غزو فزان ، أصبح الرومان الآن قانعين بالمحافظة على الحدود التي تفصل التل عن الصحراء ، ولكن هذه الخطة المتواضعة نفسها لم تنجح روما في تنفيذها ، حيث أن غارات الجيشطول وغيرهم من القبائل الصحراوية على التل والهضاب العليا كانت حوادث شائعة ومعتادة . ويثبت ذلك نقل اسرى ملثمين الى روما

خصوصا في عهد الامبراطور سبتم سيفير (septime sévère) الذي كان من الجنرالات الافريقيين قبل ان يرتقي العرش .

ولكن الامبراطورية الرومانية بدأت تتضعضع منذ عهد هذا الامبراطور ، والمؤرخون الرومان أصبحوا مشغولين بتسجيل أحداث جديدة في اروبا وآسيا ، وتحولوا عما يجري في افريقيا من ثورات وتنظيم حملات عسكرية لقمعها . ومع ذلك ، فإن هذه فترة ملائمة لقبائل الصحراء لتسدد ضربات فعالة إلى الغزاة المعمرين ، وهذا الفرض ربما وجد ما يدعمه فيما نعرفه من أن الرومان قد نقلوا مراكزهم العسكرية من أطراف الصحراء ليتوغلوا بعيدا فيها لأعمال القمع في عهد الأمبراطور الاسكندر سيفير .

والواقع أن الفترة التي تلت وفاة هذا الامبراطور في سنة 235 م والتي تمتاز بوقوع اضطرابات خطيرة وتمتد حتى غزو الوندال ، قد شهدت ثورة من أعنف وأكبر الثورات التي قامت في افريقيا ضد الرومان ، ونعني بذلك ثورة « الكينكيجانتيان » (Quinquegentiens) التي جرت فيها أنهار من الدماء في عهد الامبراطور « ديوكليسيان » (Dioclétien) . ولكن هذه الثورة وقعت في الشمال وليس في الصحراء ، وبالتالي ، فهي لا تهمنا في سياق الحديث عن الصحراء ، لولا ما تذكره رواية لابد من التحفظ بشأنها ، من أن الناجين من ابناء « القبائل » من عقابيل هذه الثورة هم الذين التجأوا الى الصحراء واستقروا في تاسلي وفي الهجار ، أي أنهم أجداد شعب الطوارق . ولكن هذا الرأي يعوزه الدليل ، وشانه في ذلك شأن جميع حركات الهجرة التي وقعت في العصور القديمة . ونحن تعوزنا الوثائق لمناقشتها ، وذلك فضلا عن أن الاطار الذي حددناه لهذا البحث لا يسمح لنا بالخوض فيها .

عهد الوندال والبيزنطيين :

بدأ الوندال مسيرتهم من آسيا واستقر بهم المقام ردحا من الزمن في رومانيا ، في السهول التي تمتد على الضفة اليمنى واليسرى لنهر الدنوب ، وفجأة ، استأنفوا حياة الترحال والتجوال ، لان شعبا آخر أقوى منهم طردهم من تلك البقاع ، في رأي البعض ، أو لانهم كانوا قد ملوا المقام وشعروا بالحاجة الى التنقل ،

في رأي البعض الآخر . وفي مسيرتهم الجديدة كانوا يتجنبون الجبال والمناطق الكثيفة السكان مفضلين السهول كلما أمكن ، متجهين في حركتهم الى الشمال .

وفي مرحلة معينة انقسم الوندال الى قسمين ، سار احدهما الى شبه جزيرة سكندناوة ، بينما عرج القسم الآخر نحو الجنوب الغربي واجتازوا المانيا ، ليتوغلوا في فرنسا . وعندما وصلوا إلى أراس ، عرجوا مرة أخرى في اتجاه الجنوب الغربي حتى وصلوا إلى اسبانيا . ومن هناك اتخذوا طريقهم نحو جبل طارق واجتازوا المضيق الى المغرب ، ثم واصلوا زحفهم عبر الجزائر شرقا حتى شواطيء تونس الشرقية . وفي هذه المسيرة كانوا يحملون أثقالهم ونساءهم وأطفالهم في عربات ثقيلة وكان عليهم أن يأخذوا طعامهم وملبسهم حيث يجدونه مستعملين القوة ضد أهالي المناطق التي يمرون بها متى اعترضوا سبيلهم .

اجتازت حشود الوندال بقيادة ملكهم «جينسريك» (Genséric) مضيق جبل طارق من جزيرة طريفة ونزلت في سبتة أو طنجة في رأي المؤرخ ف . جوتييه ، وذلك في سنة 429 م (شهر مايو) ، وقد كان عدد الغزاة 80000 نسمة من بينهم ما يتراوح بين 10 و15 ألف من الجنود . ومنذ نزولهم على الشواطيء الافريقية كانت مسيرة هذه الحشود عبارة عن سلسلة غير متناهية من أعمال تخريب الزرع واحراق القرى وتدمير الكنائس وتقتيل الاطفال والنساء والشيوخ .

كانت الامبراطورية الرومانية التي بلغت درجة متقدمة من الانحلال عاجزة عن مقاومة الحشود الغازية لدى نزولهم الى البر ، وبذلك وجدوا الطريق مفتوحة أمامهم . ومن جهة اخرى ، كان الرومان مكروهين من السكان بسبب نظامهم الاستعماري البغيض والذي كان لا يعتمد إلا على القوة . وهذا البغض كان دائما في درجة الغليان في الصحراء ، خصوصا بسبب محاولات السلطات الرومانية منع البدو الرحل عن التنقل لانتجاع الكلإ الذي هو مسألة حياة أو موت بالنسبة إليهم .

وبعدما عقدوا معاهدة مع الرومان (معاهدة هيبون = عنابة) في سنة 435 م ، استغل الوندال أول فرصة لنقضها واستولوا على قرطاجنة في سنة 439 م ، وبذلك استقر لهم الامر في البلاد .

إنه لمن المعقول أن نفترض ، على الرغم من أن الوثائق تعوزنا لتدعيم هذا الفرض ، أنه إزاء النظام الارهابي الذي فرضه الوندال وإزاء الدمار والخراب الذي نشروه في البلاد ، التجاه بعض القبائل الى الصحراء ، فرارا من هذه الوضعية . والشيء الثابت ، على كل حال ، هو أن الوندال لم يلتزموا بالتخوم المحصنة التي وضعها الرومان على أطراف الصحراء . وقد كان احتلالهم للبلد ، لدى وصول البيزنطيين ينحصر في مثلث يرسم قاعدته خط مائل يمتد بين بجاية وقابس . وهذا معناه أن إدارة الوندال (إن كانت هناك إدارة) لا تشمل الصحراويين الذين تركوا وشأنهم بحيث كانوا يدخلون في حروب ونزاعات داخلية لا أحد يعرف مداها . وفي نفس الوقت ، يتمتع الصحراويون بالحرية في التنقل وانتجاع المراعي في الهضاب العليا ، الأمر الذي كانت تحول بينهم وبينه الحاميات التي وضعت في الحصون على التخوم في العهد السابق .

وهذا الاتصال الجغرافي لابدّ وأن يكون من نتائجه اتصال الصحراويين بالوندال ، بل إن هناك ما يدل على انخراط بعضهم في جيوش الغزاة لأن الجيش الذي نهب جينسريك على رأسه روما في سنة 455 م ، كان يشمل على عناصر من الجرامانت والجيشطول .

كانت الوضعية مضطربة والأمن مفقودا والفوضى شاملة حينما أعلن امبراطور بيزنطة الحرب على الوندال ونزل القائد « بيلسير » (Bélisaire) بقواته على شواطيء افريقية . وقد حقق هذا القائد انتصارا سهلا وضع به افريقيا في يد بيزنطة ، في سنة 533 م .

ومثل الوندال ، لم يفكر البيزنطيون في توسيع رقعة احتلالهم لافريقيا في اتجاه الجنوب . وبدلا من طريقة القوة والعنف التي كانت تميز عهد الرومان ، كان البيزنطيون ، على الاقل في مبدإ الأمر ، يعملون للتقرب الى القبائل الكبرى البعيدة على الشواطيء ، وكذلك اعتنقت بعض القبائل ، مثل « ناسمون » و « غدامس » المسيحية في حوالي سنة 548 م ، في عهد الامبراطور جوستانيان .

وفي سنة 569 م . غقد قبيل الجرامانت الذي كان يقطن في منطقة فزان معاهدة سلام مع بيزنطة واعتنقوا المسيحية بدورهم ، وكذلك كان التبشير ونشر

الدين في العهد البيزنطي ، كما سيكون بعد ذلك في العهد الفرنسي ، وسيلة من وسائل نشر النفوذ السياسي وإقرار الاستعمار اللاتيني .

وفي هذا السياق يقول المؤرخ المسيحي ، بروكوب : «لقد كانت الدعاية الدينية وقتا طويلا واحدا من الاشكال المفضلة للتوسع البيزنطي ، وقد كان من نتائج ذلك أن اعتناق الاهالي للمسيحية كان تحولا سياسيا اكثر منه دينيا ، حيث أنه كان يجري بدون تعليم مسبق لمباديء المسيحية» . وهذا الاعتبار هو الذي يفسر لنا عدم وجود أي تأثير مسيحي يذكر في الصحراء والسهولة التي تقبل بها السكان الصحراويون الدين الإسلامي عندما أوصله اليهم التجار والعلماء .

كانت بيزنطة تحتل مربعا غير منتظم يحده شمالا وشرقا البحر ، وغربا خط يمتد من بجاية الى المسيلة ، وجنوبا خط آخر يمتد بين رأس كبوديا والمسيلة . ومن ثم ، فان الصحراويين كانوا يتمتعون بكامل الحرية في انتجاع المراعي وشن الغارات في الجزء الاكبر من الجزائر والمغرب الاقصى .

ونحن نعرف أن سياسة المهادنة والمصالحة التي سارت عليها بيزنطة في المرحلة الاولى ، لم تلبث أن اتخذت شكلا من العنف والاضطهاد يفوق حتى ما عرفته البلاد في عهد الرومان والوندال . وكذلك سجل التاريخ انه عندما تقدم 79 من شيوخ لمتونه بطلب خلع السلطة المحلية عليهم ، ذبحهم سيرجيوس في طرابلس عن آخرهم في سنة 543 م .

وعقب ذلك بدأت رياح الثورة تتحول الى عواصف في جميع انحاء الصحراء .

كانت لواته أقوى قبائل البربر في ليبيا ، وقد بعثوا بشيوخهم الى الوالي البيزنطي لكي يتباحثوا معه بقصد إقامة علاقات سلم ، وليس أدل على نياتهم السلمية من أنهم حضروا إليه مصطحبين معهم نساءهم وأطفالهم وعبيدهم ، وحرسهم وضربوا مخياتهم في الرمال . ولكن سيرجيوس اتهمهم بالتآمر وانقض عليهم وقتلهم كلهم ما عدا شيخ واحد وعبد ، وهؤلاء هم الذين ابلغوا القبيلة نبأ الكارثة التي حلت بها .

وقد وجدت لوّاتة والقبائل الحليفة لها زعيما وقائدا في شخص رجل من البربر يسمّى «أنتلاس» كان ، مثل تاكفارينا ، يعمل ضمن الجنود المرتزقة في الجيش البيزنطي ، ولكنه بعدما ارتقى وأصبح قائدا ، حرم ذات يوم من مرتبة وخلع من قيادته . وبعد جولات مع البربر المحالفين لبيزنطة ، تحول الى مقارعة الجيش البيزنطي نفسه السلاح .

ولما بعث إليه سيرجيوس بابن أخيه على رأس جيش ، تمكن أنتالاس من الحاق هزيمة بجيشه وقتله ، وعندما رأى سيرجيوس أنه أمام ثورة لا يستطيع الوقوف أمامها بجيشه الضعيف لجأ إلى خزائنه وأخذ يلوح لزعماء الثوار ببريق الذهب ، ثم وزع عليهم ثلاثة آلاف «إكيو» من الذهب ، وهكذا انتهت حملة لواتة في سنة 545 م ، وعاد كل زعيم من الثوار الى واحته وهو يعتقد أنه أصبح الآن غنيا وأن القبيلة في وضع أفضل .

وأما انتلاس ، فقد واصل نضاله وجمع جيشا آخر بعدما قوي نفوذه وانتشر ذكره في الصحراء ، وقد بلغ من القوة بحيث ضرب حصارا على قرطاجنة التي كان جان طروجليته (J. Troglita) قائد جيشها .

ولما رأى القائد البيزنطي أنه لا يستطيع مواجهة الزعيم البربري في معمعة القتال ، لجأ الى الحيلة والرشوة لتفريق الزعماء الصحراويين .

ولكن انتالاس سوف يعيد الكرة مستعينا بقوة جديدة تمثلها محالفته مع الأمير «كاركسان» (Carcassan) ليدخل مع البيزنطيين في معركة كبيرة في «كانطون» (Canton) قتل فيها 17 من زعماء البربر ، ومن بينهم كركسان . ونتيجة هذه المعركة (548) ستضمن لبيزنطة 15 عاما من الهدوء والاطمئنان النسبي .

كان البيزنطيون عاجزين عن توسيع مناطق نفوذهم بالقوة العسكرية بسبب شدة المقاومة التي يلقونها ، ولذلك لجأوا الى سياسة الاعتماد على مساعدة الملوك والرؤساء في جميع المناطق التي تمتد من شواطيء البحر الابيض حتى قلب الصحراء . وفي هذه الاثناء ، اهملت الزراعة بسبب تخوف الفلاحين من

الغارات وتحوّلت المدن الى خرائب ، وانحصر دور الحكام البيزنطيين في ارهاق الناس بالضرائب وفي الدّس والغدر والسعي للتفريق بين ملوك البربر وزعمائهم .

وحالة انحلال جهاز الحكم واضطراب الامن كانت له عواقب اقتصادية وخيمة على سكان الصحراء حيث انقطعت الطرق التجارية وتوقف سير القوافل . وحتى التبر المستخرج من الصحراء والعبيد ، وهي الصادرات الرئيسية للصحراء في ذلك الوقت لم تعد لها قيمة ، حيث كان نقلها الى الاسواق التي تروج فيها عملية محفوفة بالمخاطر.

والعهد البيزنطي هو الذي طوح به الفاتحون المسلمون ، وفي مقدمتهم عقبة بن نافع وحسان بن النعمان الذين طبعوا المغرب ، بما في ذلك الصحراء ، بطابع الإسلام الذي قدر له الاستمرار والخلود . ونحن قد عالجنا التاثير الإسلامي في الصحراء في الباب الذي خصصناه للحياة الثقافية في الصحراء .

*
* *

الفصل الثاني عشر

امبراطورية غانة

غانة :

حدّد أبو عبد الله الشريف الادريسي موقع مملكة غانة الذي لا ينطبق على ارض غانة الحالية ولكنه يمتد متوغلا في الشمال حتى يشمل أراضي مالي ، حدّده بالعبارات التالية :

« وأرض غانة تتصل من غربيها ببلاد مقزارة (ومقزارة هؤلاء هم اجداد التكرور وولُوف) ، ومن شرقيها ببلاد وَنْقَارة ، وبشماليها بأرض الصحراء المتصلة بين أرض السودان وأرض البربر من اللّملمية وغيرها . ومن مدينة غانة الى بلاد ونقارة ثمانية أيام » .

وتفصل غانة عن سجلماسة مقازة يحْتازها المسافرون في 12 عشر يوما اسمها مجابة نيسر ، وهي عبارة عن صحراء قاحلة لا أثر للماء فيها ، وأرضها رمال متنقلة تذروها الرياح من مكان الى مكان .

وأرض غانة قد اشتهرت مع أرض ونقارة المجاورة لها بالتّبر الكثير الخالص والذي كان سببا في حركة واسعة من البربر في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) في اتجاه الجنوب بهدف السيطرة على مناجم الذهب أو على الأقل ، على الطرق التي ينقل فيها . بل إن هذه الحركة بدأت منذ القرن التاسع حينما تجمّعت قبائل لمْتونه ومَسُوَفه وجُدالة تحت جناح صنهاجة ، الأمر الذي زاد من قوة هذه القبيلة

البربرية ومن شدة بأسها ، ولا سيا في عهد زعيمها الكبير «تيلوطان» (836 ـ 837 م = 222 ـ 223 هـ) .

وقد انتشر سلطان هذه الكتلة من القبائل بين مختلف قبائل البربر والسود الذين تمتد أراضيهم حوالي أودغست وغيرها من المراكز والتجمعات التي تقع في أراضي موريطانيا الحالية .

ولكن لنعد إلى ذهب غانة الذي اتجهت إليه أنظار الشماليين منذ هذه الفترة . وقد تعرض الإدريسي لوصف بلاد غانة وعاصمتها التي تحمل نفس الإسم ، فقال إن مدينة غانة «الكبرى» مدينتان على ضفتي البحر الحلو ، وهي أكبر بلاد السودان قطرا ، وأكثرها خلقا ، وأوسعها متجرا ، وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها ، ومن سائر بلاد المغرب الأقصى . وأهلها مسلمون ، وملكها ، فيما يوصف ، من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب .

ويمضي الادريسي ، فيحدثنا عن ملك غانة ، فيقول : «وهو يخطب لنفسه لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي وله قصر على ضفة النيل قد أوثق بنيانه وأحكم إتقانه ، وزينت مساكنه بضروب من النقوشات والادهان ، وشمسيات الزجاج ، وكان بنيان هذا القصر في عام 510 من الهجرة ، وتتصل مملكته وأرضه بأرض ونقارة ، وهي بلاد التبر المذكورة والموصوفه به كثرة وطيبا والذي يعلمه أهل المغرب الأقصى علما يقينا لا اختلاف فيه ، هو أن له في قصره لبنة من ذهب وزنها 30 رطلا من ذهب ، تبرة واحدة خلقها اليه (تعالى) خلقة تامة من غير ان تسبك في نار أو تطرق بآلة ، وقد نقر فيها ثقبا . وهي مَرْبَطَة لفرس الملك ، وهي من الاشياء المغربة التي ليست عند غيره ولا صحت لأحد ، إلا أنه يفخر بها على سائر ملوك السودان ، وهو أعدل الناس فيما يحكي عنه .»

«إن له جملة قواد يركبون الى قصره في صباح كل يوم ولكل قائد منهم طبل يضرب على رأسه . فاذا وصل الى باب القصر سكت . فإذا اجتمع إليه قواده ركب وسار يتقدَّمهم ويمشي في أزقة المدينة ودائر البلد . فمن كانت له مظلمة أو نايه أمر تصدى له ، فلا يزال حاضرا بين يديه حتى يقضي مظلمته

ثم يرجع الى قصره ويتفرق قواده فإذا كان بعد العصر وسكن حرّ الشمس ، ركب مرة ثانية وحوله اجناده ، فلا يقدر أحد على قربه ولا على الوصول إليه . وركوبه في كل يوم مرتين سيرة معلومة ، ولباسه إزار حرير يتوشح به أو بردة يلتف بها وسراويل في وسطه ، ونعل شركي في قدمه ، وركوبه الخيل وله حلية حسنة وزي كامل يقدمه أمامه في أعياده ، وله بنون كثيرة وراية واحدة ، وتمشي أمامه الفيلة والزرائف وضروب الوحوش التي في بلاد السودان . ولهم في النيل (نيل غانة ـ نهر النيجر) زوارق وثيقة الانشاء يتصيدون بها ، ويتصرفون بين المدينتين بها ، ولباس أهل غانة الازر ، والفوط ، والاكسية ، كل واحد على قدر همته .»

وبعد هذا الوصف ، يتعرض الادريسي لوصف البلدان التي تقع في المنطقة ، ولا سيما بلاد ونقارة التي يحيط بها نهر النيجر ويضمها بين ذراعيه ويقول انها جزيرة طولها 300 ميل وعرضها 150 ميل ، ثم يضيف :

« إن جملة هذه البلدان التي ذكرناها في طاعة صاحب غانة ، واليه يؤدون لوازمهم ، وهو القائم بحمايتهم » .

كان هذا هو وصف الادريسي في منتصف القرن السادس الهجري لغانة وملكها ، وأما ابو عبيد البكري ، الجغرافي الاندلسي الذي كان يكتب في أوائل النصف الثاني من القرن الخامس ، فقد ترك هو أيضا وصفا لا يقل دقة وأهمية عن وصف الجغرافي الروجري .

فبعدما يخبرنا هذا الكاتب أن « غانة سِمَة لملوكهم [وأن] اسم البلد « أوكار» ، يفيدنا بان اسم ملك غانة في سنة 460 هـ . هو تنكامين الذي ورث الملك عن ملك اسمه بسي .

ومن الطرائف التي ذكرها البكري عن وراثة الملك في مملكة غانة ، أن الذي يتولّى العهد ليس هو ابن الملك كما جرت العادة في مختلف ممالك العالم ، بل هو ابن اخته ، وذلك لان ابن الملك قد يقع التشكك في نسبه ، وأما ابن الاخت فهو مقطوع بصحة اصله ...

وأما مدينة غانة ، عاصمة المملكة ، فقد كانت منذ منتصف القرن الخامس ، في رواية الجغرافي الاندلسي على جانب عظيم من التقدم والازدهار ، الذي

يعود الى الكميات التي يبدو أنها كانت هائلة من الذهب الذي يملكه ذلك البلد والذي يبدو أن الاندفاع إليه لم يكن قد اتخذ بعد الشكل العارم الذي اتخذه في العصور التالية.

والنقطة الأخرى التي تستَرعي انتباهنا بصورة خاصة في رواية البكري ووصفه لمملكة غانة، هي أن البلد لم يكن قد أسلم بعد كله في هذه المرحلة، كما يستخلص من رواية الادريسي.

فعلى الرغم من أن الملك في يد المسلمين، فان الوثنيين الذين يدينون للملك بالولاء، لا يزالون يحتفظون بعقائدهم ومكانتهم الاجتماعية، وحتى في الاستقبالات الرسمية كانوا يقدمون أمام الملك طبقا لرسوم خاصة بهم. وكذلك يفهم من هذه الرواية أنه كان يوجد عدد من الملوك الوثنيين المجوس الذين يعبدون الاوثان، أو الدكاكير. ولكن رواية البكرى لكي تتم الفائدة بها والمتعة منها لابد من نقل الفقرات الرئيسية منها بنصها،

يقول البكرى في وصف مدينة غانه بعدما يشيد بعظمة ملكها تانكين، انها:

«مدينتان سهليتان، أحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا أحدها يجمعون فيه، ولها الائمة والمؤتمنون والراتبون، وفيها فقهاء وحملة علم، وحواليها آبار عذبة يشربون منها وعليها يعتملون الخضروات ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمّى بالغابة، والمساكن بينهما متصلة، ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط. وللملك قصر وقباب وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور. وفي مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين، على مقربة من مجلس حكم الملك».

ويستطرد البكري فيعطينا لمحة عن الوثنيين في مدينة غانة، فيقول إن المدينة محاطة بغابات وشعراء يسكنها سحرتهم الذين يقيمون ديانة الوثنيين، وفيها دكاكيرهم وقبور ملوكهم.

وهذه الغابات ذات طابع مقدّس عند الوثنيين الذين يسهرون عليها ويقيمون عليها حرساً بحيث «لا يمكن لاحد دخولها ومعرفة ما فيها».

وفيما يتعلق بهياكل دولة غانة ، فان اعوان الملك وتراجمته ووزراؤه ، ومن بينهم صاحب بيت ماله ، كلهم من المسلمين .

ومن الطرائف الاخرى التي تتعلق بملوك غانة انهم يلبسون الحرير والديباج ويتزينون بالحلى ، مثل النساء في عنقهم واذرعهم ، ويجعلون على رؤوسهم الطراطير المذهبة ويلبسون عليها عمائم القطن الرفيعة .

وملك غانة في العصر الذي يكتب فيه البكرى ، كان يتولى القضاء والفصل في النزاعات بطريقة تنطوى على كثير من الشكليات كما كان يحيط نفسه بمظاهر الجلال والابهة .

فهو ، فيما يقول البكرى ، يجلس للقضاء « في قبة ويكون حوالي القبة عشرة فرسان بثياب مذهبة ، ووراء الملك [يقف] عشرة غلمان يحملون الحُجُف (اي تروسا من جلد بلا خشب) والسيوف المحلاة بالذهب ، وعن يمينه اولاد ملوك بلده قد ضفروا رؤوسهم على الذهب ، وعليهم الثياب الرفيعة ، ووالي المدينة بين يدي الملك جالس على الارض وحواليه الوزراء جلوسا على الأرض . وعلى باب القبة كلاب منسوبة لا تكاد تفارق موضع الملك ، تحرسه في أعناقها سواجير الذهب والفضة ، يكون في الساجور عدد رُمَّانات ذهب وفضة . وهم ينذرون بجلوسه بطبل يسموه دَبَا ، وهو خشبة طويلة منقورة » .

ومن التقاليد التي كان يسير عليها سكان غانة من الوثنيين أنه إذا مات ملك من ملكوهم ، عقدوا له قبة عظيمة من خشب الصباح ووضعوها في موضع قبره ، ثم اتوا بجثمان الملك على سرير فادخلوه تلك القبة ووضعوا معه حليته وسلاحه وآنيته التي كان يأكل فيها ويشرب وملؤوها بالأطعمة والأشربة التي كان يحبها ، ثم ادخلوا مع الجثة الرّجال الذين كانوا يخدمونه في حياته في طعامه وشرابه وأغلقوا عليهم باب القبة ، وجعلوا فوق القبة الحصر والامتعة ، ثم اجتمع الناس فردموا القبة بالتراب حتى ترتفع كالجبال ، ثم يذبحون الذبائح للهالك ويقربونها له مع الخمور.

وافضل مناجم الذهب في غانة هي التي تقع في غيارو وهي مدينة تبعد عن عاصمة الملك بمسيرة ثمانية عشر يوما في بلاد معمورة بقبائل السودان ومساكن متصلة .

والذهب النادر الجودة الذي يستخرج من هذه المعادن يكون من نصيب الملك ، وإنما يتعامل الناس تجاريا بالتبر الدقيق .

وملك غانة ملك قوي ذو سلطان وبأس شديد . فان ما في مملكته من الذهب يضمن له الجاه والسمعة ولكنه كان يشكل قاعدة لقوته العسكرية أيضا ، فان البكرى يخبرنا انه متى اقام الملك احتفالا استعرض فيه جيشه الذي يتكون من مائتي ألف يزيد عدد الرماة من بينهم على أربعين ألفا .

وأما ثروة غانة الاقتصادية ، عدا الذهب ، فهي تتكون خصوصا من الزراعة التي يرويها نيل غانة ، وهم يزرعون مرتين في السنة .

وحالة الثروة الطائلة التي تقوم أساسيا على معادن الذهب كانت غانة تتمتع بها قبل الوقت الذي كان يكتب فيه البكرى . فان ابن حوقل الذي بلغت به أسفاره حتى أوغست (360 هـ = 970 م) يصف غانة بأنها أغنى بلاد العالم بسبب ما تملكه من الذهب .

وفي القرن السابع الهجري ، ذكر ابن سعيد المغربي مدينة غانة وقال انها تقع على ضفتي النهر الذي يحمل اسمها (نيل غانة = نهر النيجر) كما ذكر أن ملكها ينحدر من ذرية الحسين بن علي (ض) ، وقد أشار الى امتلاكه الذهب ، ولكنه لا يكاد يضيف شيئا الى وصف من تقدمه ، إذا استثنينا قوله ان الاسلام « فشا بينهم » .

وأما ياقوت الحموي ، فقد ذكر غانة في مادتي «غانة والتبر» ولكنه لا يفيدنا بأية معلومات تذكر ، عدا وصفه للاسفار في الطريق التي تنطلق من سجلماسة الى غانة وما يلاقية التجار فيها من العناء والمشقة من شدة الحرّ وعدم وجود الماء فيها . فهم يحملون معهم جمالا لا أوقار عليها يعطّشونها قبل ورودهم على الماء نهارا أو ليلا ثم يسقونها نهلا وعَلَلاً الى أن تمتلىء أجوافها ثم تسوقها الحداة ، فاذا نشف ما في قربهم من الماء ، نحروا جملا منها وشربوا ما في بطنه من الماء .

وفي كتاب نفح الطيب للمقَّرى ، وردت إشارة تدل على أن مملكة غانة كانت لا تزال في حالة الازدهار ، وان العلاقات التجارية كانت قائمة بينها وبين سجلماسة في القرن السابع الهجري ، وذلك على الرغم من العراقيل التي كان يضعها ملك تلك البلاد (وهو من الوثنيين) في طريق التجارة .

فقد ذكر المقري أن أبا الربيع سليمان بن عبد الله بن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي الذي كان واليا على سجلماسة وأعمالها ، قد كتب رسالة الى ملك السودان بغانة ، ينكر عليه فيها إعاقة التجارة ، ومن ضمن ما جاء في الرسالة قوله :

« نحن نتجاور بالاحسان ، وإن تخالفنا في الاديان ، ونتفق على السيرة المرضية ، ونأتلف على الرفق بالرعية ، ومعلوم ان العدل من لوازم الملك في حكم السياسة الفاضلة ، والجور لا تعانيه الا النفوس الشريرة الجاهلة . وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده . وتردد الجلابة الى البلد مفيد لسكانها ، ومعين على التمكن من استيطانها . ولو شئنا لا حتبسنا من في جهاتنا من أهل تلك الناحية ، لكنا لا نستصوب فعله ، ولا ينبغي أن ننهى عن خلق ونأتي مثله » .

ونحن إذ صعدنا القرون ، وجدنا إشارات ضافية الى امبراطورية غانة في تواريخ محمود كَعْت وعبد الرحمن السعدي (القرن السادس عشر والسابع عشر) . وأما الحسن ابن محمد الوزان (المدعوّ ليون الافريقي) ، فعلى الرغم من انه ذكر اسم غانة في القسم السابع من كتابة وصف افريقيا (الجزء الثاني) ، ذلك القسم الذي خصصه للحديث عن ممالك السود ، فهو لا يقدم لنا آية معلومات عن ذلك البلد البتّة .

تقع عاصمة غانة حسب رواية البكرى ، في المنطقة التي تحمل على الخرائط المعاصرة اسم «أوكر» بين «تاجنانت» والساحل (أي في الزاوية الجنوبية الشرقية لجمهورية موريطانيا الاسلامية) وفي منطقة حَوض ، على مسافة حوالي 60 ميلا في جنوب تلال أوْكَر الرملية المتحركة ، تقع خرائب مدينة «كومي صالح» القديمة .

كان مؤرخ هذه المنطقة ، دولافوس ، أول من اقترح اعتبار خرائب كومي صالح موقع مدينة غانة ، عاصمة المملكة التي تحمل نفس الاسم .

وفي سنة 1914 قام سائح أروبي بالتجوال في هذه المنطقة ، وهو بونيل دوميزيير ، وسأل عددا من سكان منطقة ولاته المجاورة والذين يحتفظون

بالروايات المحلية حية في ذاكرتهم ، عن غانة وما كان منهم الا أنهم أرشدوه الى كومي صالح .

ومنذ تلك السنة أجرى دوميزير عمليات الحفر في خرائب كومي صالح ، واصلها لازارنيج في سنة 1939 ، ثم ثومازي وموني وسزوموسكي ، من بعدهما في غضون الفترة 1949 ـ 1951 .

وتدل الآثار التي اكتشفت في المنطقة على أن المدينة كانت مدينة عظيمة مزدهرة العمران ، حيث أن رقعتها تمتد على ميل مربع ، وكانت تحتوي على منازل فخمة يتكون بعضها من طابقين ، كان الأسفل منهما يستعمل مخزنا للبضائع والأعلى منهما مسكنا لربّ الدار . ويرجع بعض الباحثين ، وفي مقدمتهم الباحثة الأمريكية «نهيمة ليفتزيون» في كتابها المعنون «غانة القديمة ومالي» أن هذه المنازل الفخمة كانت ملكا للتجار المغاربة .

ومنازل المدينة متقاربة تفصل بينهما مساحات صغيرة وتقطع المدينة شوارع ضيقة نوعا مّا ، ولكنه يوجد في المدينة شارع واحد كبير يخترقها من الغرب الى الشرق ، ويبلغ عرضه عندما يقترب من المسجد 12 مترا .

وأما مسجد المدينة الذي كشفت عنه الحفريات ، فهو يمتد في وسطها على مساحة نحو 46 مترا من الشرق الى الغرب و 23 مترا من الشمال الى الجنوب ، ويغلب عليه الطابع المعماري للمساجد السائد في جنوب السودان .

ومما يدل على ضخامة المدينة التي قدر عدد سكانها بما يتراوح بين 15 و 20 ألف نسمة ، وجود مقبرتين كبيرتين بجانبها .

وقد عثر في أنقاض مدينة كومي صالح التي يتعرف فيها عالم الآثار ، موني ، على مدينة غانة الاسلامية ، على كثير من الادوات المصنوعة من الحديد والحراب وموازين صغيرة تستعمل لوزن التبر . وكذلك اكتشف فيها 53 حجرا تحمل نقوشا بالعربية وبعضها من الآيات القرآنية .

كانت كومي صالح (أي مدينة غانة) محاطة بالمزارع من مختلف جوانبها ، وقد عثر فيها على ثلاثة صهاريج كبيرة فيها كانت تستعمل لخزن مياه الامطار .

وقد دل التأريخ بالكاربون 14 ، على أن المدينة ظلت عامرة حتى بعد غزو المرابطين لهذه المناطق (سنة 469 هـ = 1076 م) ، وأن إهمال المدينة والتخلي عنها لم يقع إلا في القرن السابع في عهد اسرة «صوصو» المالية .

ونحن نرجح أن يكون تدهور مدينة غانة قد وقد في أواخر هذا القرن . حيث أن الرسالة التي كتبها ابو الربيع سليمان الموحدي قد كتبت ، على الارجح في عهد الناصر المؤمنى ، أي في أوائل ذلك القرن ، وهي تدل بوضوح على ان مملكة غانة كانت لاتزال مزدهرة العمران وفيرة الانتاج واسعة التجارة وقت كتابتها .

كان عدد كبير من ممالك السود ، كما يقول اليعقوبي ، تابع للملك غانة العظيم . ومن أهم هذه الممالك ، البتكرور والصوصو في الجنوب ، وفي الشرق ، البلدان الواقعة في دلتا نهر النيجر . ومن بينها عدد من الامارات البربرية ، مثل ولاته وأودغست . وهذه الأخيرة أشهرها جميعا ، حيث كانت أهم المحطات التجارية بين سجلماسة والسودان .

ظهرت أهمية أودغست التي هي واحة صحراوية منذ القرن السادس الميلادي ، ولكنها أصبحت خلال الفترة بين القرن التاسع والقرن الحادي عشر محطة تلتقي عندها أهم الطرق التجارية الصحراوية . وهذه المدينة العظيمة التي أمكن التعرف عليها في تَغْدَوْسْت الحالية ، تعرضت للتخريب ولإعادة البناء عدة مرات في حياتها . وكانت احدى هذه المرات حينما استولى عليها المراديون الذين خربوها ونهبوها (446 هـ) .

وتدل نتائج الحفريات التي قام بهافريق من علماء الاثار برئاسة ج . ديفيس (J. Deviss) وروبر (S. Robert) منذ سنة 1960 والتي نشرت في سنة 1970 تحت عنوان «تَغْدوست» ، على أن عمران أودغست وازدهارها استمر حتى القرن الرابع عشر ، لان ابن سعيد المغربي (من القرن الثالث عشر) ذكرها وقال إن سكانها «أخلاط من البربر المسلمين والرئاسة لصنهاجة» .

وقبل تعرف المتأخرين ممن قاموا بالحفريات على أودغست في موقع تغدوست ، كان الميجر رومل قد تعرف عليها في مدينة أجاديس الحالية ، وهو تعرف سجلة رينو مترجم تقويم البلدان لابي الفداء .

وبعد هذا الباحث تعرف العالم الانجليزي ، كولى في كتابه «أرض الزنوج» الذي سبق ذكره ، على أودغست في مكان يقع في شمال بحيرة التشاد واثبت ذلك على الخريطة التي الحقها بكتابه .

وقد ظلت أودغست عدة قرون مركزاً لحضارة اسلامية مزدهرة وكانت تشتمل على عدد من المساجد والمدارس والمؤسسات والاسواق ، وكان يجري فيها تبادل المنتجات المغربية بالعبيد والذهب الذي يستخرج من مملكة غانة .

كانت أودغست التي تبعد عن مدينة غانة بمسافة خمسة عشر يوما بسير القوافل في اتجاه الجنوب الشرقي مزدهرة في نفس الوقت مع عاصمة غانة المشهورة . وكذلك كانت بعض قطع الاثار التي اكتشفت في تغدوست متشابهة مع مثيلاتها التي عثر عليها المنقبون في خرائب كومبي صالح التي يرجح أن تكون هي مدينة غانة .

ومن بين هذه القطع الاثرية نذكر نوعا من مصابيح الاستضاءة كانت منتشرة في مختلف أنحاء العالم الاسلامي حتى القرن الثالث عشر ، وقطع زخرفية مصنوعة من النحاس . وكذلك عثر في الموقعين على قطع من الزخارف الزجاجية من نفس الطراز الذي اكتشف في رقاده ، عاصمة الاغالبة في افريقية .

وإلى جانب ذلك عثر في كومبي صالح على موازين صغيرة للذهب مصنوعة من الزجاج ، وذلك بالاضافة الى ثلاثة قضبان من الذهب اكتشفها المنقبون ملفوفة في قطعة من القماش وهي أول ذهب عثر عليه في افريقيا الغربية .

كانت أودغست ، مثل تدْمكّة ، اكثر من مجرد محطة تقف عندها القوافل للتزود فيها لمواصلة سفرها في المرحلة الاخيرة نحو بلاد السود ، بل هي مدينة تجارية قائمة بنفسها ، فان التجار المغاربة كانوا يفضلون أن تكون متاجرهم ومستودعاتهم في قاعدة بربرية اسلامية مجاورة للسودان الوثنيين . ولكنه باتساع رقعة الاسلام مع مرور الزمن في بلاد الزنوج ، تأكد مركز أودغست وسمعتها بوصفها مركزا رئيسيا للتجارة .

عاشت أودغست مركزا للتجارة والحضارة الإسلامية في بلاد الزنوج عدة قرون ، وتدل المعطيات الاركيولوجية على أن دورها قد انتهى في أواخر

القرن الثالث عشر. ونحن نجد أثرها عند الجغرافيين العرب في مختلف مراحل حياتها.

وصف الرحالة والجغرافي الشهير، ابن حوقل النصيبي الذي كان يتجول في المغرب وأطراف الصحراء، في أواخر القرن العاشر، أودغست التي زارها، بانها تقع على مسافة شهرين بسير القوافل من سجلماسة، وعلى مسافة بضعة عشر يوما من غانة. وأما المدينة نفسها فقال عنها إنها «لطيفة أشبه بلاد الله بمكة وبمدينة الجزروان من بلاد خراسان، لانها بين جبلين ذات شعاب».

وفي مكان آخر من كتابه «صورة الارض» يضيف الرحالة، في معرض الحديث عن ثروة أودغست ونطاق الصفقات التجارية التي تعقد فيها، فيقول:

«ولقد رأيت باودغست صكا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست، وهو من أهل سجلماسة، باثنين وأربعين ألف دينار، وما رأيت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبها ولا نظيرا، ولقد حكيتها بالعراق وفارس فاستطرفت».

كانت أودغست في النصف الثاني من القرن العاشر في يد صنهاجة، ويبدو أنها قد انفصلت عن غانة في هذه المرحلة وأصبحت تشكل أمبراطورية قائمة بنفسها، حيث أن ملكها في ذلك العصر، ابن ويستو بن نزار الصنهاجي كان يسيطر على أكثر من عشر مملكة من ممالك السود وجميع ملوكها يؤدون له الجزية.

وقد عُني ابو عبيدة البكري الذي كان يكتب في ذلك الوقت خصوصا بوصف ناحيتين من الحياة في أودغست، وكلتاهما لا تزال تتمتع بالجدة والأهمية حتى في أيامنا هذه، ونعني بذلك النساء والذهب.

فان نساء أودغست طبّاخات محسنات، ولكنهن أيضا حسان الوجوه منثنيات القدود بيض الالوان لا تنكسر لهن نهود، ضخام الارداف، واسعات الاكتاف.

ويروي الكاتب عن أبي رستم النفوسي الذي كان من تجار أودغست أنه «رأى امرأة منهن راقدة على جنبها، ورأى ولدها طفلا يلاعبها فيدخل

تحت خصرها وينفذ الى الجهة الاخرى من غير أن تتجافى له شيئا لعظم ردفها ولطف خصرها » .

وفيا يتعلق بالذهب والتبادل التجاري بين أودغست وبلدان المغرب عموما ، فيذكر الكاتب أنه يجلب إلى المغرب منها العنبر الذي يستخرج من المحيط الأطلسي القريب منها «والذهب الابريز الخالص ، خيوطا مفتولة ، ويضيف أن ذهب أودغست أجود ذهب أهل الأرض وأصحه» .

وفي مقابل العنبر والذهب الذي تقدمه أودغست يتجهز التجار المغاربة إليها بأواني النحاس وبثياب مصبغة بالحمرة والزرقة مجنحة ، أي من النوع الذي نشاهد نماذجه الآن على حدود بلدنا والذي تستورد انماطه من النيجر ومالي . .

وأما امتداد مملكة أودغست في القرن العاشر (الرابع الهجري) فان هذه البلاد كانت تشمل مساحة مفرطة السعة ، مما يحمل الانسان على التساؤل عن مدى دقة المعلومات التي يقدمها البكري بشأن هذه النقطة وبشأن قوة المملكة بصفة عامة ، وذلك حين يخبرنا أن سلطان ملكها يمتد مسيرة شهرين في مثلها ، وأن له جيشا يتكون من مائة ألف نجيب ، وأنه شن غزوة على مملكة أوغام من السود ذات مرة على رأس خمسين ألف نجيب ، فدخلت البلد على غفلة من جيشه فغنمت ما فيه وأحرقته ، فلما رأي ملكها ما حل بمملكته لم يطق ذلك وانتحر ، وانتحرت معه نساؤه .

ولكن عظمة أودغست بوصفها مملكة ومركزا تجاريا سوف تتقلص كثيرا في القرن الثاني عشر ، بل إن المدينة التي لابد وأن تكون واسعة في العصر السابق قد أصبحت ؛ فيا يروي الادريسي ، «مدينة صغيرة في صحراء ماؤها قليل ، وعامرها قليل »

ويضيف الكاتب الروجرى : «وليس بها كبير تجارة» وان أهلها الذين يملكون الجمال يتعيشون من جمالهم .

وهكذا مالت شمس أودغست الى الغروب وطوت الرمال القاسية معالم حضارتها قبل الاوان ، ولو ان المدينة ستتسمر في عيشة قانعة بائسة . وبدلا من

مواكب الملوك السود الذين ياتون إليها ليحملوا الجزية والهدايا الى ملكها ، وبدلا من القوافل التي تنقل منها العنبر والذهب الى مراكز الحضارة في الشمال ، لا يجد الادريسي ما ينسبه إليها في عصره من الطرائف النادرة سوى النبتة التي تنبت بارضها والتي يطبخونها مع لحم الجمال ، ويزعمون ان ذلك الطعام لا يوجد له مثيل في العالم ...

ما هي أسباب انهيار مراكز أودغست وغانة وغيرهما من المدن الصحراوية المجاورة ؟ إن نطاق هذا البحث لا يسمح لنا حتى بعرض الأسباب الرئيسية منها ، فضلا عن تحليلها ، ولكننا مع ذلك ، نشير الى السبب الرئيسي ، وهو حركة عبد الله بن ياسين الذي وصل إلى جُدَالة في سنة 431 هـ (1039 ـ 1040 م) تلك الحركة التي ستكتسح الصحراء ، أولا ، ثم الشمال والاندلس في مرحلة تالية باسم « المرابطين » ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فقد حل محل كل من أو دغست وغانة مركز تجاري آخر عظيم وأخذ مكانتهما تدريجيّا ابتداء من اوائل القرن الثالث عشر ، وهي ولاته التي ستلعب دور محطة لتجارة العبور في الصحراء ، قبل ان تأخذ مكانتها العاصمة الكبرى ، تمبكتو. وهذا التطور كان نتيجة حتمية لا تساع رقعة الاسلام نحو الجنوب ، وللاختلاط الذي تم في ظل حكمه ومبادئه بين البربر والزنوج .

وهكذا ، فان انهيار الحضارة والتجارة في أودغست وغانة الذي يمثل للنظرة الاولى كارثة تاريخية ، هو ، في الحقيقة مظهر من مظاهر تقدم الحضارة والقوانين اسلامية لتشمل رقعة أوسع في القارة السوداء .

ومن الادلة التي تبرز هذه الحقيقة ، أن ولاته (التي تسمى « بيرو » بالبربرية لم تلبث أن أصبحت بدورها مقصدا للتجار المغاربة ، كما أن قبيلة مَسُوفة البربرية من الرحل الذين كانوا يمارسون دور الادلاء للتجار في الصحراء ، سوف يستقرون في اعداد كبيرة في ولاته . وعندما زار ابن بطوطة ولاطة ، كان معظم سكان المدينة من مَسُوفة كما كانت تشمل على عدد كبير من التجار والعلماء من البربر.

كان سكان ولاته يهرعون لاستقبال القوافل بالماء والزاد بمجرد ما يصل رسلها الى المدينة يحملون رسائل من التجار لاعوانهم لكي يحجزوا لهم أماكن

في الفنادق ويبتاعون لحسابهم ما يحتاجون إليه في بقيـة طريقهم الصعبـة . وهنـاك في ولاتـه يستقبل كبـار التجـار أصدقاءهم القادمين ويزودونهم برسائل التوصية للولاة الخ . كما يحيطونهم علما بمستوى أسعار البضائع .

وقد كان من بين كبار التجـار المغاربة الذين استقر بهم المقـام في ولاته في منتصف القرن الثالث عشر ، اثنان من أسرة المقري ، وهما عبد الواحد وعلي . وكلاهما بني لنفسه منزلا فخما من الحجر في المدينة وتزوج بسيدة من أعيانها وكان يملك عددا من العبيد .

ولما غـزا ملك مـالي ولاتـه أصيبت مصالح الاخـوة المقـري بأضرار كبيرة ، فاستأجرا مقاتلين للدفاع عنها . وبعد مقابلة جرت بين أحد الأخوين والملك ، بسط عليهما حمايته وأبقى على أملاكهما . بل انه تراسل في مرحلة تالية مع بقية اخوتهمـا في تلمسان ليطلب إليهـم موافـاتـه بالبضائع التي يحتـاج إليها ، على أن تجـارة الاخوين التي ازدهـرت فيمـا بعـد وتجمعت منها ثـروة طائلـة سوف يبـددهـا أبناؤهم ، بحيث أن القـاضي والكاتب أبـا عبـد الله ، حفيد أبي بكـر ، لم يرث عن والده سوى مكتبة مهمة .

والآن وفي ختـام هذا البحث عن غانـة القديمـة يطـرح السؤال نفسه : ما هي العلاقة بينها وبين تسمية ساحل الذهب (سابقا) غانـة ؟

كانت تسمية ساحل الذهب غانـة عندما استقل هذا البلـد في سنة 1957 ، نتيجة لمحاولات مـن المؤرخين الغانـيين لاعادة أصل شعب «أكـان» (Akan) إلى الشمال . وقد كان القسيس بالمـر (W. Balmer) هو أول من دافع في سنة 1926 بحماس عن هذه الفكرة .

وفي سنة 1950 ، تقدمت الكاتبـة الانجليزيـة «مايروفيتـز» (Meyerewitz) بنظرية أسهمت كثيرا في تقـدم الفكرة القائلـة بأن شعب «أكـان» قد هاجر من غانـة القديمـة من الشمال . على أن كثيرا من ادعاءات السيدة مايروفيتز قد فندها النقاد عقب نشر كتابها مباشرة . والنظرية السائـدة الآن بين المؤرخين تذهب إلى أنه لا توجد صلة بين أكان ومملكة غانة القديمة ، وتثبت أن العلاقة بين هذا الشعب وبين الشمال لم تبدأ إلا في القرن الرابع عشر ، حينما فتح تجار ديولا طريقا تجارية

إلى مناجم الذهب وغابات ومزارع شعب أكان . وهذا التبادل التجاري كان من نتائجه قيام احدى الدول الأولى لشعب أكان .

كانت نظرية الصلة بين غانة القديم وساحل العاج لا تقوم على أساس من الحقيقة التاريخية ، ولكنها مع ذلك ألهبت خيال الوطنيين في ساحل العاج الذين كانوا يناضلون من أجل حريتهم واستقلال بلدهم ، وهكذا كانت الاسطور أقوى اثرا من التاريخ .

وجمهورية غانة الجديدة التي تقع على ساحل المحيط الاطلسي تفصلها مئات الاميال عن غانة القديمة ، ولكن العواطف الوطنية والارادة الشعبية قلما يأخذ العوامل الجغرافية في الحساب ، وكذلك كانت غانة التي يبلغ عدد سكانها تسعة ملايين نسمة أول بلد افريقي ينال استقلاله .

*

* *

الفصل الثالث عشر

امبراطورية مــالي

مالي :

ظهرت مملكة الماندنج (أو مالي) في القرن الثالث عشر ، عقب سقوط امبراطورية غانة ، في المنطقة التي تمتد بين أعالي النيجر والسنيغال ، ودامت حتى القرن السابع عشر . وأصل هذه الدولة يحيط به كثير من الغموض ، ولكن الاعتقاد السائد بين المتخصصين في تاريخ افريقيا الغربية ، هو أن هذه المملكة التي بدأت صغيرة قامت على أكتاف عدد من روساء القبائل الافريقية في المنطقة .

ومن أهم الرووساء والزعماء الاوائل الذين وصلتنا اسماؤهم والذين كان لهم شأن في النصف الثاني من القرن الثاني عشر نذكر الرواية ثلاثه ، وهم : همّانا وجيجوى بيلالي (1175 ـ 1200 م) وموسى كايْطا الذي قام بعدة حجّات الى الاماكن المقدسة ، مما يدل على أن الاسلام قد تمكن في هذه الأسرة الملكية التي كان على رأسها .

وأما ابن موسى ، ناري فامغان (1218 ـ 1230) ، فقد اشتهر خصوصا بحروبه وغزواته للمناطق الجنوبية والجنوبية الغربية وعلى الضفة اليمينية لنهر النيجر . وقد كان سُومونو من أهم الملوك الذين انتصر عليهم وخضعوا له في غضون هذه الحروب .

كان لناري فامغان عدة نساء تسمى إحداهن سوجلون كونتي ولدت له ولدا ضعيف البنية بحيث انه كان يمشي على أربع حتى السنة السابعة من العمر ، اسمه سوندياتا (أو ماري جاتا) ومعنى الكلمة «أسد مالي» . ومن زوجاته الاخرى ولد لناري فامغان أحد عشر ولدا آخر ، قتلهم الملك الوثنى الساحر سوماورو عن آخرهم ونجا سوندياتا بسبب عاهته التي احتقر أمره من أجلها عندما غزا مملكةماندينج .

وذات يوم أحس سوندیانا بأن الذل والهوان الذي يتعرض له وطنه على يد الغازي الاجنبي لا يحتمل فقرر أن يعمل لتحريره ولتخليصه من تلك الحالة . تقول الاسطورة إن سوندیانا ، طلب الى أخصائه ان يمدّوهْ بقضيب من حديد ليستعمله عصا ينهض بها ويتوكّأ عليها . ولما توكّأ على القضيب محاولا النهوض على ساقيه ، أعوجّ القضيب ثم تكسّر تحت ثقل جسمه . وبعد ذلك طالب بقضيب ثان ثم ثالث كان مصير كل واحد منهما مصير القضيب الاول .

وأخيراً ، صاح أحد اتباعه : «اعطوه صولجان أبيه ! لكي يعتمد عليه وينهض على ساقية» . ولما توكأ على الصولجان نهض سوندیانا بدون عناء ، وقد كان ذلك بداية لعهد حافل من تاريخ مالي .

ولكن الغيرة لم تلبث ان دبّت عقاربها في صفوف أقاربه الذين لم يكونوا يكنون له الحبّ والولاء . وإزاء الضغوط التي واجهها التجأ الى بلد اجنبي وأقام في منطقة ميما «ردحا من الزمن» .

وإزاء استمرار تعسف سوماور واستبداده ، بعث إليه كبار المملكة وفداً ليدعوه الى العودة الى بلده ليقود نضاله . وهكذا استجاب سوندياتا لنداء وطنه ، ولم يلبث عقب عودته أن جمع جيشا وأخذ يعمل على رأسه في منطقة سانكران وتين كيسو وفوتاجالون .

ولم تحل سنة 1234 م حتى كان سوندياتا على رأس قوة كبيرة من الشعوب والقبائل المتحالفة لنصرته والتي كانت مصممة على تحرير الوطن .

وبعد معارك كان الفشل فيها في المراحل الاولى من حظ سوندياتا ، قرر أن يلجأ في حرب خصمه صوصو الى الديبلوماسية والسحر . ولتنفيذ مخططة ،

تطوعت اخته ، مينيامبا سوكو لكي تقوم بمهمة خاصة لدى الملك الطاغية . لقد أرادت أن تكتشف سرّ مناعته بحيث لا تؤثر فيه السهام . وهكذا أهداها سونديااتا الى الملك كعربون على ولائه واخلاصه ، ولم تلبث أن الهبت نار الحب في قلبه .

وفي ليلة الزفاف اقترب الملك الزوج من عروسه ، ولكنها صدت كل محاولة منه قبل ان تَعرف كل اسراره .

وبعد أيام من التردد والتفكير ، انتهى الأمر بصوصو الى أن يفشي اسراره لزوجته متناسيا نصائح أمه : انه لا يمكن ان يقتل الا بواسطة ظفر ديك ابيض ! ولمّا استحوذت المرأة على السر الخطير ، تظاهرت بالرضى قبل أن تهرب تحت جنح الليل بمساعدة بعض أعوانها لتلتحق بمعسكر أخيها .

وبذلك انفتحت أبواب المملكة في طريق سونديااتا . وفي سنة 1240 ، كان سونديااتا يتربع على عرش امبراطورية كبيرة . ولما رأى ان مدينتي جيليبا عاصمة المملكة لم تعد تتسع لبلاطه ولنشاط دولته ، نقل عاصمة ملكة الى نياني التي تقع في مكان غير بعيد كان قد سجل فيه واحدا من أعظم انتصاراته ، وأعاد بناء تلك المدينة التي كانت في ذلك الحين من الخرائب .

وهذه العاصمة التي قام فيدال وجايارد في سنة 1920 بالتنقيب في خرائبها وبجمع بعض المعلومات الشفاهية عنها شهدت عمرانا وازدهارا كبيرا في عهد سونديااتا والملوك الذين تولوا العرش من بعده ، ولكنها تعرضت في القرن السابع عشر لهجوم شعوب بامبرا والفولب الذين خربوها . وقد اضطر ملوك البلاد الى الانتقال الى ماني ـ كورا (اي مالي الجديد) وهي عبارة عن قرية تقع على الضفة اليمني لنهر النيجر عند المكان الذي يلتقي فيه بنهر سانكراني . ومن « مالي الجديدة » انتقل ملوك كايطا في مرحلة تالية الى كابا (أوكنجبا) على الضفة المقابلة للنيجر .

وعاصمة مالي نياني وصفها كل من ابن فضل الله العمري الذي ينقل عن الشيخ الدكلى الذي عاش في مالي ، وابن خلدون ، وقد ذكر الاول ان المدينة تمتد في مساحة شاسعة وأن سقوف بيوتها مخروطية الشكل ومبنية بالخشب والقصب . أما قصور الملك فتقع في مكان واحد وتحيط بها اسوار . وأما ابن خلدون ، فيذكر

هو أيضا أن المدينة واسعة وتجري فيها مياه ولها أسواق مقصودة وأنها قد أصبحت في عهده محطة للقوافل الاتية من المغرب الاقصى وافريقية ومصر. وهذه المعلومات قريبة من المعلومات التي يقدمها ابن بطوطة الذي أقام في المدينة بعض الوقت.

ومهما يكن من أمر، فان سوندياتا، وجه حملات عسكرية من عاصمته، نياني، في اتجاه الغرب ولم تلبث ان وسعت حدود المملكة بان ضمت اليها منطقة حقول الذهب الكبرى، بامبرك، وتواصلت العمليات العسكرية حتى بلغت اسفل نهر السنيغال ونهر جامبيا ومستنقعات التكرور، وبذلك أصبحت مالي اعظم واقوى ممالك السودان حيث شملت فيما شملته ولايات غانة الواقعة في أقصى الغرب.

كانت مالي في هذا العصر غنية بالثروة التي تاتيها من حقول وانجارا، ولكنها كانت في نفس الوقت بلدا زراعيا. وتقول الرواية ان سوندياتا كان يولي عناية خاصة للتنمية الزراعية، وأنه هو الذي أدخل الى البلد زراعة القطن والاراشيد وغيرها من المزروعات، كما اهتم بتربية الحيوانات.

وبعد عشرين عاما من الحكم لقي سوندياتا حتفه في سنة 1255 في حادث غريب، فقد اراد احد انصاره، تيرايولي، ان يشكره على نعمة اسداها اليه فنظم حفلة للرماية فانطلق سهم طائش من قوس ابنه فاصاب الامبراطور وارده قتيلا.

ترك سوندياتا مملكة مزدهرة الاقتصاد ولكنها أيضا مملكة متحدة في وقوفها ضد امبيريالية صوصو. وفي معمعة النضال والحروب درّب سوندياتا جيشا منظما قويا يقود كل فرقة من فرقه قائد دائم (كيلي بولون) بينما كان يتولى هو شخصيا منصب القائد العام (كيلي تيجي). وقد كان سوندياتا هو الذي يتولى بنفسه قيادة الخيالة التي كانت مسلحة بالسيوف، في الوقت الذي كان فيه جيش المشاة مسلحا بالفؤس والسهام والحراب الطويلة (طامبا) التي تبعث الرعب في قلوب الاعداء.

وعلى الصعيد الاجتماعي، نظم سوندياتا مملكته على أساس طبقات بين القبائل المتحالفة معه فبلغ عدد الطبقات ثلاثين طبقة، منها 5 طبقات للصناع

اليدويين و 4 طبقات للمحاربين ، و 5 طبقات للعلماء والمرابطين ، و 16 طبقة من الرجال والنساء الاحرار الذين اطلق عليهم ، مع ذلك ، اسم «عبيد المجتمع» ، وهذه الطبقة هي طبقة الفلاحين والعمال الذين يأخذ الجيش منهم حاجته من المشاة في وقت الحرب .

كان سوندياتا ملكا عظيما وقائدا محنكا ، ولكنه كان أيضا إنسانا قوي الاحساس بانسانيته . ولم يكن الامر ليكون غير ذلك . ألم يقض طفولته وردحا من شبابه وهو يعاني الهوان والألم من جراء العاهة التي ولد بها ؟

تقول الرواية انه كان لدى سوندياتا زوجة يحبها اسمها «ديوروندي» ، وأن أخاه الاكبر اعتدى عليها بالضرب بينما كان هو يقود حملة عسكرية ومشتبكا مع العدو . وفي دخيلة نفسه ساوره إحساس بهذا الحادث ، فاصدر الامر الى جيشه بالعودة الى عاصمته قائلا إنه يحس انه يوجد فيها انسان يتألم .

وقد أعقب سوندياتا على عرش مالي ، ابنه ، مَنْسَي أُولِيَ (1255 ـ 1270) الذي اشتهر بالتقوى والميل الى العبادة (وقد قام باداء فريضة الحج الى بيت الله الحرام) . وفي عهده شهدت الامبراطورية اتجاها الى اللا مركزية ، بعد ما أقطع أراضي لكبار قواده ، وفي مقدمتهم فران وكمرا وسيريمان كايطا .

وبعد وفاة الملك أبي بكر الاول ، في سنة 1285 ، واجه البلد مشكلة بشأن من يخلفه على العرش . وقد استغل احد أفراد الاسرة ، واسمه سَكُورا ، ظروف الاضطراب في الرأي فارتقى على العرش ، وقد اثبتت الحوادث فيما بعد أن سكورا كان رجلا كفأ وأنه رجل الحرب والسياسة معا . فهو لم يكتف بادارة الامبراطورية التي خلفها سوندياتا على افضل وجه ، بل عمل على توسيعها فمدّد حدودها شرقا ، على حساب مملكة جَاوْ الحديثة الظهور ، وغربا حتى ضم أراضي التكرور .

وكذلك ضم الملك سكورا منطقة مسينا التي كانت تابعة لملك جاو ، في الوقت الذي أخضع فيه الملك ديارا ، ملك التكرور ، وأصبح تابعا له .

واتساع رقعة مملكة مالي معناه الثروة والسمعة والازدهار الاقتصادي ، وهكذا ، فان المملكة لم تلبث أن اصبحت ملتقى للطرق التجارية وللقوافل العابرة للصحراء والآتية من مختلف بلدان المغرب ، ابتداءا من طرابلس .

قام سكورا باداء فريضة الحج ، وعند عودته اغتاله قطاع الطريق لدى نزوله عند الشواطيء الطرابلسية ، وقد قام رفقاؤه في السفر بتحنيط جثته ووضعوها في جلد ثور ونقلوها الى بلد بورنو الذي بعث ملكه بمن يحمل جثة الامبراطور لتدفن في بلده : مالي .

وفي سنة 1303 م (703 هـ) ارتقى عرش مالي أبو بكر الثاني ابن أخ سوندياتا ، الذي اشتهر ، خصوصا ، بمحاولة قام بها لاستكشاف المحيط الاطلسي الذي كان يرفض ماتواتر من انه بحر لا حدود له .

ولهذه الغاية أعدّ الملك مائتي سفينة وجهزها بالرجال والمواد الغذائية وأرسلها في مهمة للبحث عن شواطيء المحيط الغربية . ولكن هذه المحاولة التي سبقت محاولة كريستوف كلومب بنحو قرنين ، كانت سابقة لاوانها ، لانه لم يعد من ذلك الاسطول الضخم الى قاعدته سوى سفينة واحدة أخبر رجالها أنهم قابلوا بعد جولة طويلة ، تيارا عنيفا في داخل البحر ابتلع جميع وحدات الاسطول العاثر الحظ .

وتقول الرواية التاريخية أن أبا بكر الثاني لم ييأس ولم يفلّ هذا الفشل في عزيمته ، فجهز اسطولا ثانيا يتكون من الفين سفينة ، نصفها خصص لحمل الماء والمواد الغذائية . وقد تولى الملك بنفسه قيادة هذه البعثة العظيمة الاولى لكشف أمريكا الجنوبية . ولكن هذا الاسطول لم يكن حظه أفضل من الاول ، لان تجهيزه التقني لم يسمح له بمواجهة التيارات والامواج العنيفة التي اشتهر بها الاطلسي ، وكذلك غرق الملك مع كامل قطع اسوله ولم يعد أحد ليروي تفاصيل هذه المأساة النادرة المثال .

لقد برهنت أسرة سوندياتا التي خرج منها حتى الآن عدد من الملوك العظام انها جديرة بمؤسسها ، ولكن أعظم هؤلاء الملوك وأشهرهم في العالم هو الذي سيتولى العرش بعد أبي بكر الثاني .

تولى العرش منسى موسى ، أو كونكو موسى كما يسمى أحيانا (باسم أمه ، كونكو) في سنة 1307 م (707 هـ) ، أي بعد نصف قرن من وفاة سونديانا ، وفي سنة 1324 م . (725 هـ) ، قام الملك برحلة الى البلاد المقدسة لاداء فريضة الحج ، وقد رافقه في هذه الرحلة نحو ألف (وصاحب تاريخ السودان يخبرنا بان عددهم 60.000) من رجال الحاشية والخدم .

وقد قطع الصحراء عن طريق ولاته وواحة توات واتجه الى القاهرة حيث بهر العقول بعظمته وبضخامة هذه المسيرة النادرة . فان هذه القافلة من الحجاج كانت تحمل ضمن ما تحمله طنين من الذهب لابريز الذي خصص لحمله فيما يقول ابن فضل الله العُمَرى نحو 100 جمل .

ويقول العمرى الذي حضر الى القاهرة يعد وصول منسي موسى إليها ، إن الناس بعد مرور هذه الفترة كلها لا يزالون يشيدون بعظمة امبراطور مالي ويغدقون عليه المدح والثناء ، حيث استفاد من سخائه صغار الموظفين مثل التجار الذين كانوا يتعاملون مع أصحابه ، حيث كان الواحد منهم يدفع بدون تردد خمسة دنانير لثوب لا يكاد يساوي اكثر من دينار واحد . وقد طرح من الذهب في أسواق مصر ، عقب نزول منسى موسى بها بفضل كرم السودانيين وترفهم ، ما جعل قيمة الذهب تهبط في مصر هبوطا شديدا ، ولم يستعد الذهب سعره السابق الاعقب مقدم العمري الى مصر بوقت .

والى جانب ثرائه وسخائه ترك منسى موسى آثرا في مصر خصوصا بجلال مظهر ووقاره . وعلى الرغم من انه كان يُحْسن اللغة العربية ، فهو لم يكن يتحدث الى زواره الابواسطة ترجمان . وعندما قيل له إن قواعد البروتكول تحتم عليه أن يسجد بين يدى سلطان مصر عند مقابلته ، ذهل واستفضع ذلك . ولكنه لما مثل بين يديه خر ساجدا وهو يقول : انني اسجد لله العظيم الذي خلقني وخلق الكون كله .

لم يقتصر سخاء منسى موسى وكرمه على القاهرة ، بل كان ينشر الذهب حيثما حل ، وقد انطلقت يده بالعطاء ، خصوصا ، في الاماكن المقدسة حيث كان يوزع الهدايا يمينا وشمالا . ومن هنا ، لا نجد صعوبة في أن نصدق أنه

عندما وصل الى القاهرة في طريق عودته الى بلده كانت الثروة التي حملها معه قد نفذت ، الأمر الذي تسبب له في كثير من الحرج . ولتغطية تفقات العودة اضطر الى الاستلاف من أحد كبار تجار الاسكندرية . وقد سار التاجر في ركبه الى السودان لكي يسترد قرضه ، ولكن الرجل مات في الطريق في تمبكتو . على أن الملك سدّد مع ذلك دينه لورثة التاجر .

وفي مكة اتصل بالامبراطور شاعر من غرناطة اسمه أبو اسحاق الساحلي وظل ملازما له حتى أدخله في خدمته . وقد كان ابوإسحاق هذا يحمل الى جانب موهبة الشعر ، موهبة اخرى في صناعة البناء ، وكان من الاعمال الاولى التي كلفه بها الملك إعادة بناء المسجد القديم بحيث يكون أليق واكثر ملاءمة لوضع المملكة . وهكذا بنى في موضعه مسجدا جديدا بالأجر ، الامر الذي لم يكن معروفا في السودان حتى ذلك العهد . وقد ظل ذلك المسجد قائما مدة ثلاثة قرون ولا تزال أسسه قائمة حتى الآن .

وفي طريق عودته ، سمع منسَى موسى بان أحد قواده قد استولى على جاو ، عاصمة الصنغاي ، الامر الذي حمله على الاسراع بالعودة . وقد كانت مملكة الصنغاي كبيرة وتمتد على منعطف النيجر نحو ألف ميل ، انطلاقا من حدود مالي .

وفي جاو التي وصل إليها عن طريق غدامس وتمبكتو ، توقف الامبراطور ، وهناك قدم إليه ملك الصنغاي ، ديا أسيبا ، فروض الطاعة والولاء مع رهينتين ، وهما ابناه .

كان منسي موسى ملكا مسلما تقيا وقد عمل كثيرا لنشر الإسلام في امبراطوريته ، ولكنه كان واسع الصدر متسامحا ، فلم يرغم رعيته على اعتناق الإسلام ، بل ترك لهم الحرية والاختيار بين الاسلام ودفع الجزية . ومن اعماله الجليلة بناء المسجد الجامع المسمى « جينجربير » في تمبكتو :

كانت حضارة مالي وعظمته السياسية قد بلغت أوجها ، وقد كان الامبراطور يرتبط بعلاقات ديبلوماسية مع سلاطين القاهرة والمغرب الاقصى الذين كان لهم سفراء معتمدين في بلاطه ، كما كان له سفراء معتمدين في عاصمتي البلدين . وبفضل منسى موسى نال اسم مالي شهرة عارمة من الاندلس حتى خراسان .

ومنذ سنة 1339 م ، نجد اسم مالي مرسوما على خرائط العالم التي وضعه انجلو دولسرت . وعلى هذه الخريطة نشاهد طريقا تحترق جبال الاطلس ثم الصحراء الكبرى لتنتهي عند أرض «ملك مناجم الذهب» . والاطلس الذي وضعه ابراهام كريسك لشارل الخامس المعروف بالحكيم (ملك فرنسا) هو الآخر رسم عليه بلد مالي بوضوح .

وهذه الشهرة لا غرابة فيها ، فان هذا البلد الغني بالذهب وبموارده الزراعية التي توفرها الاراضي الواقعة على ضفاف نهر النيجر ، هو أيضا بلد واسع الرقعة بحيث قيل ان اختراقه بالطول يستغرق مشيا على الاقدام ، سنة كاملة ، فاذا كانت رقعة مالي لا تشمل أدرار اعفورة وتاجانت ، فهي ، مع ذلك تضم كل التجمعات البربرية الواقعة في جنوب الصحراء ، وتمتد سلطة ملكه جنوبا حتى غابات غينيا ، وفي الاتجاه الشرقي الغربي ، من المحيط الاطلسي حتى بلاد الهوسا .

وفي عهد منسى موسى ازدهرت التجارة والادب في تمبكتو . وبعد بناء السهلي المسجد الجديد ، قام بتشييد قصر الملك في هذه المدينة التي جذبت شهرتها بوصفها اكبر مدينة في العالم للتجارة في التبر التجار من مختلف الاصقاع ولا سيا من السوس ودرعة وسجلماسة وفاس وتوات وغدامس وفزان وأوجلة ، بل ومن مصر أيضا ـ مصر التي عززت علاقاتها التجارية بمالي بعد زيارة منسى موسى للقاهرة ، ومع التجار قدم الى تمبكتو الفقهاء والادباء والعلماء ليعقدو حلقات الدرس في مساجدها .

ولمّا مات منسى موسى في سنة 1332 م (733 هـ) خلف وراءه مملكة مترامية الأطراف وجد حلفاؤه من بعده صعوبة في المحافظة على رقعتها الشاسعة .

وبعد الملك ماغان (1332 ـ 1336 م) الذي وقع في عهده نهب تمبكتو على يد الموسيين والذي سمح تساهله بفرار أميري جاو اللذين اخذهما منسى موسى رهينتين ، تولى العرش منسى سليمان (1341 ـ 1360 م) الذي أصلح شؤون البلد المالية وربط علاقات طيبة مع سلاطين فاس وبعث هدايا فاخرة الى السلطان أبي سالم المريني بمناسبة اعتلائه عرش المغرب الاقصى ، وكذلك

استعاد سلطان مالي على الولايات الشرقية وأصبح رؤساء الطوارق في تكده (آير حاليا) يعترفون بسلطانه ويدينون له بالولاء .

وقد استقدم سليمان عددا من العلماء والفقهاء في المذهب المالكي (وقد كان هو نفسه فقيها على نفس المذهب) .

وبعد عدد من الملوك الذين خلفوه ، اعتلى عرش مالي الملك موسى الثاني (1374 ـ 1387 م) الذي كان أميل إلى الكسل وعدم الاكتراث بالشؤون العامة التي سلم مقاليدها إلى حاجبه (رئيس الوزراء) وهذا الحاجب أغلق عليه الأبواب وراح يتصرف وكأنه سيد أمره ، وكذلك شن حملة عسكرية على الطوارق ووجه أخرى إلى بورنو .

وبعد موسى الثاني قامت نزاعات ومنافسات في القصر وقعت اغتيالات ، وكان من نتائج كل ذلك انتشار الوهن والضعف في أطراف الامبراطورية ، في الوقت الذي ظهرت فيه قوة جاو التي اخذت تضم ولايات مالي الواحدة بعد الاخرى الى أراضيها الشرقية ، حتى استولت على جَنّى ، احدى عواصم مالي ، وكذلك انفصل التكرور عن مالي ، وأصبح يشكل منطقة من أراضي دول وولف .

وتوالت غارات عمر كنفري سيد جاو على أراضي مالي ، ولم تكد تحل سنة 1490 م حتى كان قد اخضع فوته ، وبودو ، وطورو ، واتجه الى نهر النيجر واستولى على مدينة ديارا الهامة .

وفي محاولة لوقف زحف جاو المتواصل ، عقد ملك مالي معاهدة تحالف مع الملك جان الثاني ، ملك البرتغال ، وفي نطاق هذا التحالف بعث الملك البرتغالي بعثتين لنجدة حليفة ، ولكنه لم تصل أية منهما الى مالي . وإزاء التهديد الذي يشكله التحالف المالي البرتغالي ، شن عمر كنفري هجوما خاطفا ساعد على نجاحه تعسف الولاة الماليين وتضعضع الواجهة الداخلية .

وبعد مقتل الملك طانجولا الاول وكارثة ديارا ، التجأ ابنه ، كولى طانجولا ، الى فوته جالون حيث أنشأ مملكة استمر في حكمها من سنة 1512 حتى سنة 1530 م . ومن فوطة جالون تمكن من استرجاع بعض ولايات مملكة أبيه .

وفي الفترات التالية تحول موقف مالي من الدفاع الى التراجع المستمر حتى بلغ الامر أن احتل الاسقيا داود عاصمته مدة اسبوعين في سنة 1545 م ، وتحت تأثير مختلف الضغوط انقسمت المملكة الى ثلاث ممالك . ومع ذلك ، فقد قام منسي محمد بمحاولة أخيرة لاسترجاع عظمة المملكة ، وجمع عددا من رؤساء منعطف النيجر وانضموا الى صفه لمواجهة المغرب الأقصى الذي خرب بجيوشه مملكة جاو . وقد تمكن الماليون من الوصول الى جنت ، ولكنهم تراجعوا عنها في وجه الاسلحة النارية التي لم يكونوا يعرفونها .

ومن الاحداث الهامة التي وقعت في عصر سلمان ، زيارة الرحالة المغربي ، ابن بطوطة الذي كان السلطان ابو عنان (749 ـ 759 هـ) قد أرسله في مهمة الى بلاد السودان . وقد بدأ رحلته في سنة 1352 (753 هـ) عن طريق سجلماسة وتغازى . وبعد مسيرة شهرين وصلت قافلته الى ولاتـه حيث كـان يعيش صديق للرحالة من سَلا يعمل في التجارة هناك . وبعد بضعة أيام قضاها في هذه المدينة التي يصف لنا أحوال معيشتها وصفا دقيقا ، رجل الى نياني مع ثلاثة من الرفاق ودليل . وفي غضون هذه الرحلة التى استغرقت اربعة عشر يوما لم يحمل معه ابن بطوطه ورفاقه طعاما أو ذهبا أو فضة ، بل اكتفوا بحمل كميات من الملح والخرز ، وهي بضائع كانوا يقايضونها بمختلف أنواع الطعام .

وفي نياني وجد الرحالة عددا من مواطنيه الذين اعتنوا به واكرموه ، وهناك استقبله الملك في قصره . وقد سجل لنا ابن بطوطة كثيرا من انطباعاته عن عوائد السودان وتقاليدهم واعطى صورة تدل في مجموعها على سخطه ، وإن كان قد مدح فيهم حب العدل والامن المنتشر في المملكة والامانة بين سكانها والحرص على أداء الصلوات في أوقاتها . ومما استنكره فيهم كون الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا تماما ، وكل شيء يدل على ان ابن بطوطة لم يكن متضايقا كثيرا اثناء إقامته في نياني ، لان هذه الاقامة دامت ما لا يقل عن ثمانية اشهر ، قبل ان يتجه على متن جمل في سنة 1353 (754 هـ) الى تمبكتو ، وقبل أن يعود الى بلده عن طريق واحة توات وسجلماسة .

التنظيم السياسي والاقتصادي :

كان الدين الاسلامي منتشرا بصفة واسعة في مالي وكانت الصلوات تقام

بانتظام في مختلف مساجد مدن الامبراطورية . وفي يوم الجمعة والاعياد يلقى الامام الخطبة ويتولى ترجمتها الى لغة مالينكي ، وكذلك كان الشعب يحتفل ببذخ بالاعياد ويحيط شهر رمضان بكثير من الاجلال والتعظيم . والطقوس الدينية والشعائر تقام على المذهب المالكي . والامام يتمتع بمركز كبير في البلد بحيث أن الشخص الذي يلجأ الى بيته لا تلاحقه الشرطة . وكذلك كان للمرابطين الذين يلبسون العمامة ويعيشون من الصدقات يعتبرون ضمن فئات النبلاء .

وكما جرت التقاليد في القصور الشرقية ، فان العبيد الذين يخدمون في قصر الامبراطور ، كانوا كثيرا ما يشغلون بعد عتقهم مناصب رفيعة في الدولة .

والملك يتمتع بسلطة مطلقة ويحييه الناس لدى مروره بالسجود ويضربون باكراعهم الارض بشدة قبل أن يهيلوا على انفسهم الغبار . وعند تتويج الملك يرفع لى جلد ثور حديث السلخ . وللملك عدد كبير من العبيد بعضهم من الصقالية الذين اشتراهم منسى موسى اثناء مروره بالقاهرة لاداء فريضة الحج . ومن التقاليد المتبعة في القصر ، منع العطس منعا باتا في حضرة الملك ، ومتى أحسّ أحد افراد الحاشية بالحاجة الى العطس ابتعد ورمي بنفسه على الارض ليعطس بحيث لا يلاحظه أحد . ولكنه متى كان الملك هو الذي عطس اخذ الحاضرون يضربون صدورهم بأيديهم ، ولباس حاشية الملك ، ورجال القصر ، فيما يقول ابن بطوطة بيضاء مصنوعة من القطن الذي تنتجه البلاد ، ونياشين ضباط الجيش وأوسمتهم ، عبارة عن أساور من الذهب الخالص . ومتى حصل على أوسمة اخرى منح حلقات من الذهب ليلبسها في رجله .

وكذلك يمنح الملك للمقاتلين الحق في لبس سراويل تكون واسعة بقدر ما أبدوه من الشجاعة في القتال ، وأما الملك فقد كان يلبس سراويل تتكون من عشرين قطعة .

وكبار الضباط يحصلون على منح عقارية وذلك بالاضافة الى منح مالية تبلغ أحيانا ما يساوي 250 كيلو جرام من الذهب .

والملك كما هي العادة في البلدان الاسلامية هو الذي يدير العدل ويفصل في الخصومات والنزاعات التي تقوم بين رعاياه . والاحكام القضائية التي يصدرها

لا تكتب في سجلات وانما هو ينطق ويتولى تنفيذها المعنيون بالامر . ومع ذلك فان للملك قضاة موزعون في مختلف المدن مهمتهم الفصل في القضايا ، وللقضاة عدول وكتاب ومحاكم .

والموسيقيون يشغلون مكانة مرموقة في القصر حيث يشنفون الأسماع بين الحين والحين بالطِّمطام ، ويعزفون على مختلف الآلات التي من بينها الكورا والقيثارة الخ .. والرقص شائع بحيث أن الملك نفسه وكبار رجاله لا يتورعون عن القيام برقصة خاصة بهم تسمّى « دوجا » أمام جمهور المتفرجين .

ولحكم هذه الامبراطورية الممتدة الاطراف والتي قيل إنها كانت تشمل في عهد محمود كعتي على 400 مدينة ، اعتمد ملوك مالي نظاما لا مركزيا للادارة . فاما المملكة المركزية فيحكمها الملك نفسه ويظهر في مختلف أطرافها بين الحين والحين . وأما الولايات التي تقسم الى دوائر ، فيعين على رأسها ولاة (دياماني تيجى) والمديرون ، والدائرة نفسها مقسمة الى قرى (دوجو) . والسلطة في القرية يمارسها أحد رجال الدين من الملاك مع أحد أعوان السلطة السياسية .

وهكذا تشكل مملكة السلطان النواة وقطب الدائرة بينما تكوّن مختلف أطرافها ممالك تابعة لها ولكنه يحكمها رؤساؤها التقليديون في خضوع تام للامبراطور . و « فابرا » الامبراطور يعمل في هذه الممالك بوصفه خليفة له أو وزيرا مقيما ، ويتولى تعيين الحكام طبقا للتقاليد المحلية . ومن مسؤوليات هذا الوزير أيضا ، مراقبة تصرفات المسؤولين المحليين وجمع الضرائب التي تدفعها الولاية ، وفي حالة الحرب يتولى جمع المقاتلين بين السكان .

ويُوجد نوع ثالث من الممالك ، وهي التي تقع في اقصى أطراف الامبراطورية. وهي تحتفظ بكيانها واستقلالها ولكنها تعترف بالسيادة للامبراطور ، وكرمز لهذا الاعتراف يبعث إليه ملكها بهدايا بانتظام . وهذه الممالك تشبه ما يسمى في العصر الحاضر « محميات »، وتبعيتها تكون قوية أو ضعيفة حسب قوة مركز السلطة وضعفه الدولة ودخل الدولة يتكوّن من الضرائب التي تدفع بالحبوب والمواشي أو بالذهب ، ومن الرسوم الجمركية ومن غنائم الحرب .

والامن الذي كان يسود مختلف اطراف البلد ، ساعد على ازدهار التجارة الداخلية والتجارة العابرة للصحراء بفتح طرق جديدة في اتجاه ليبيا (عن طريق فزان) ، بالاضافة الى الطرق التي كانت تربط مالي بالتكرور وسجلماسة وتلمسان .

وفي سياق التبادل التجاري بين مالي وتلمسان ، كتب احمد المقّري الذي كان بعض اجداده ، أبو بكر ومحمد وعبد الواحد يمارسون تجارة التصدير والاستيراد بين مالي من جهة ، وسجلماسة وتلمسان ، من جهة اخرى ، ويقول :

« وكان التلمساني (منهم) يبعث الى الصحراوي بما يرسم له من السلع ، ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر ، والسجلماسي كلسان الميزان ، يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ويكاتبهما باحوال التجارة واخبار البلدان » .

ويمضي الكاتب فيقول :

« لان بلاد الصحراء قبل ان يدخلها أهل مصر ، كان يجلب إليها من المغرب مالا بال له من السلع ، فتعاوض عنه بماله بال من الثمن » . وينقل عن رجل اسمه أبو حمّو أنه كان يقول : « لو لا الشناعة لم ازل في بلادي تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ، وياتون بالتبر الذي كل أمر الدنيا له تبع ، ومن سواهم يحمل منها الذهب وياتي اليها بما يضمحل عن قريب ويذهب ، ومنه ما يغير من العوائد ويجر السفهاء الى المغاسد » .

وهذا التنظيم السياسي والاقتصادي الذي يتسم بالذكاء والمرونة والذي جنب البلد اشكال البيروقراطية التي عرفتها بعض الانظمة السياسية الاسلامية بسبب تمسكها بنظام المركزية الدقيق ، كان بدون شك ، هو سرّ نجاح امبراطورية مالي واستمرارها . ففي غضون فترة تزيد عن قرن ،. استطاع امبراطور مالي أن يجمع في احضان مملكته شعوبا ذات اصول وعادات وتقاليد ولغات مختلفة ، مثل الطوارق وولف والصنغاي والتكرور وديالونكى ، وفي رقعة هذه المملكة الفسيحة كانت الاموال والسلع والافكار تتجول بحرية وأمن في كل اتجاه .

وإذا كانت عملة التبادل التجاري التي يستعملها الملك وحاشيته وفي المعاملات مع الخارج هي الدينار المغربي المضروب من الذهب ، فان التجارة في الداخل كانت تستعمل التبرأ والملح ، أو تتبادل السلع بطريق المقايضة .

وأما جمهورية مالي الحديثة التي نالت استقلالها في 22 سبتمبر 1960 فهي إذ تمثل استمراراً لقلب المملكة القديمة ، قد تقلصت رقعتها كثيرا (لحساب غانة بالخصوص) حيث ان رقعتها لا تزيد عن 1204021 كلم . مربع ، ولكنها لا تزال تحتفظ بالمنطقتين الرئيسيتين للامبراطورية : المنطقة التي تمتد على طول نهر النيجر وترتبط فيها المراكز التجارية التاريخية ؛ والاخرى تمتد في اقصى الجنوب ويسكنها الشعب الناطق بلغة الماندنج وبامبرا . والاسلام الذي كان دين الامبراطورية هو أيضا دين الجمهورية .

مدينة تمبكتو :

سواء أصحّ ما قيل في تحليل اسمها من أنه يعني « بئر بكتو» (وهي امرأة طارقية فيما تقول الرواية) أم لم يصح ، فان الثابت أن تمبكتو مدينة بناها طوارق مغشرن في مكان توجد فيه بئر ، وقد اتخذوه منتجعا لمواشيهم ، وذلك في نهاية القرن الخامس الهجري (1100 م) . وقد استعملت المدينة الجديدة في بداية حياتها مستودعا للحبوب . ولممتلكات الطوارق الرحل . ثم تحولت سريعا بفضل موقعها الى سوق تجارية يقصدها الناس من مختلف اطراف المنطقة ، وخصوصا ، شعب وجادو (Wagadu) .

كانت السوق المقصودة في المنطقة قبل تمبكتو ، تقع في « بيرو» (ولاتة) ، وكانت القوافل تاتي إليها من مختلف بلدان الشرق والشمال ، ولا سيا من مصر وواحات اوجلة وفزان وغدامس وتوات وتافيلالت وفاس والسوس وذرعه وغيرها . ولما بنيت تمبكتو تحولت إليها جميع هذه الطرق التجارية كما قصدها قبيل صنهاجة ولم تلبث أن حلت محل سوق بيرو القديمة .

كانت المنازل الاولى التي بنيت في تمبكتو عبارة عن اكواخ وعشش مسقوفة بحشائش الصحراء . ولما اتسع عمران المدينة تحسنت منازلها التي أصبحت تحاط باسوار . وفي مرحلة تالية بني بها مسجد جامع ، وذلك قبل أن يشيد مسجد

ستكور الجامع . على أن عهد رخاء المدينة ورفاهيتها لم يحل الا في اواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وأما جمع مختلف احياء المدينة وارباضها في مدينة واحدة ، فهي عملية استغرقت مدة طويلة ولم تتم الا في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) .

وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي ، اصبحت تمبكتو عاصمة اقليمية لمالي ، وازدادت اهميتها مع مرور الايام ، خصوصا ، بفضل موقعها الاستراتيجي ، حيث تواجه أراضي الطوارق من جهة ، وتشكل حلقة اتصال مع «جاو» في الاقليم الشرقي ، من جهة اخرى .

كانت جميع مدن المنطقة التي تستعمل اسواقا (وفي مقدمتها أودغست وولاته وكومبي صالح (غانة القديمة) ، كلها مدنا دأخلية لامنفذ لها الى البحر . وقد كان التجار السودانيون ينقلون بضائعهم على ظهور الحمير أو على رؤوس الجمالين الى موانيء نهر النيجر . ولما ظهرت تمبكتو ، أصبحت محطة للقوافل الصحراوية التي تقصدها خصوصا لمينائها على النيجر الذي لا يبعد عنها الا باثني عشر ميلا ، وكما قال عبد الرحمن السعدي ، كانت تمبكتو ملتقى لتجار البر واصحاب السفن النهرية .

كانت تمبكتو قريبة بالكفاية من نهر النيجر لكي تستفيد بمزاياه في النقل النهري ، ولكنها كانت بعيدة عنه بالكفاية بحيث تجنب الفيضانات العارمة التي اشتهر بها هذا النهر . فان جانة التي تقع في دلتا النهر تتحول الى جزيرة في موسم الفيضانات ولا يمكن الوصول إليها الا بواسطة القوارب ، واذا جانة تتمتع بموقع اكثر مناعة من تمبكتو ، فهي في نفس الوقت تعتمد اعتمادا كليا على النهر في تجارتها ، بل وفي حياتها اليومية أيضا .

نزح الى تمبكتو أول بيت حكمها من مالي وظل على حكمها من سنة 737 الى 837 هـ (1336 ـ 1433 م) . وفي هذه الفترة زار المدينة الرحالة المغربي الشهير ، ابن بطوطة (سنة 753 هـ) . فصد إليها في قافلة خرجت من المغرب الاقصى على رأس جماعة من تجار سجلماسة ، وقد حطت القافلة رحالها في تغازى ، حيث يقع معدن للملح ، ثم حطت مرة أخرى بولاته (ايوالاطن) أول بلاد

العبيد التي تقع على مسيرة شهرين من سجلماسة . وبعد مسيرة عشرة أيام وصل الرحالة بلدة «كارسخو» ثم قصد منها الى مالي على نهر «صنصرة» قبل أن يصل آخر الامر الى تمبكتو.

كانت اقامة ابن بطوطة غير مريحة لسببين أولهما لانه استنكر سير النساء عرايا بين المؤمنين . وثانيهما أنه وجد الزنوج الذين تعود ان يراهم رقيقا وخدما في بلده يعاملون معاملة الاسياد في بلادهم ، وقد استنكر ذلك ذوقه . ولما دعى الى بيت احد كبار شخصيات المدينة ولاته تردد كثيرا قبل ان يقبل تلك الدعوة . وفي ذلك كتب يقول :

«واستدعى (مشرف ايوالاتن) من جاء بالقافلة الى ضيافته فابيت حضور ذلك ، فعزم الاصحاب علي أشد العزم ، فتوجهت فيمن توجه ، ثم أتى بالضيافة ، وهي جريش مخلوط بيسير عسل ولبن قد وضعوه في نصف قرعة صيروه شبه الجفنة ، فشرب الحاضرون وانصرفوا ، فقلت لهم : الهذا دعانا الاسود ؟ قالوا : نعم ، وهي الضيافة الكبيرة عندهم . فايقنت حينئذ ان لا خير يرتجى منهم» .

وقبل ان يكمل رحلته قضى بضعة ايام في ولاته التي يخبرنا انه وحدها شديدة الحر وفيها يسير نخيلات يزرعون في ظلها البطيخ ، وماؤها من احساء بها ، ولحم الضأن بها كثير ، وثياب أهلها حسان مصرية واكثر السكان بها من قبيلة مسوفة ولنسائها الجمال الفائق ، وهن اعظم شأنا من الرجال .

وعندما زار ابن بطوطة السلطان سليمان في قصره وجد فيه من مظاهر الحضارة السودانية ما هو جدير بالتسجيل : «والسودان اكثر الناس تواضعا لملكهم واشدهم تذللا له» فاذا دعى بأحدهم عند جلوسه ... نزع ثيابه ولبس ثيابا خلقة ونزع عمامته وجعل شاشيته وسخة ... ورمى بالتراب على راسه وظهره ... وعلامة الاستحسان نزع القسي شكرا للسلطان ... والتضحية بما عزين يراد بها ابعاد العين الشريرة .»

وبينما كان في القصر صادف وجوده هناك بعض اكلة لحم البشر من وانجازا . وقد وصف السائح ما رآه بقوله :

« اكرمهم السلطان واعطاهم في الضيافة خادما فذبحوه وأكلوه ولطخوا وجوهم وايديهم بدمه وأتوا السلطان شاكرين . واخبرت ان عادتهم متى وفدوا عليه ان يفعلوا ذلك » .

وعلى الرغم من أن الانطباعات التي جمعها اثناء إقامته لدى السلطان سليمان قد اكدت أسوأ ظنون رحالتنا في السود ، فان اقامته في البلد ، بصفة عامة ، سمحت له بتوسيع افق معرفته بالسودانيين ، بعدما اكتشف بعض صفاتهم الحسنة ، مثل حبهم للعدل وحفظهم الامن على طول طرق المسافرين .

« فمن افعالهم الحسنة ، قلة الظلم ، فهم ابعد الناس عنه . وسلطانهم لا يسمح احدا في شيء منه ، ومنها شمول الامن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ، ولوكان القناطير المقنطرة ، انما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى ياخذه مستحقه ، ومنها مواضبتهم على الصلوات والتزامهم لها في الجماعات وضربهم اولادهم عليها » .

حكمت تمبكتو اسرة أخرى مدة اربعين عاما ، تنحدر من طوارق معشرن ، ثم خلفهم عليها غازيدعى سنى علي ، ظل على حكمها من سنة 873 إلى سنة 898 هـ (1468 ـ 1492 م) ، وقد دخلها دخول الظافر واعمل فيها القتل والنهب ، وقد وصفه مؤرخو بلده بأنه فاسق شرير ظالم سفاك للدماء مضطهد للعلماء ، وكان يسخر بالدين فيؤدي الصلاة جالسا .

على أن الاسرة المالكة التي انحدرت من هذا الرجل ، اسرة صنغاي ، كانت اسرة عظيمة بلغت المدينة في عهدها شأوا كبيرا من الرقي والازدهار .

واعظم سلاطين هذه الاسرة هو الاسقيا الهادي محمد الذي اشتهر خصوصا برعايته للعلم والأدب وبعنايته بالعلماء .

وقد توفي آخر سلاطين هذه الاسرة ، هو الاسقيا داود في سنة 935 هـ (1528 م) ..

وعقب هذا السلطان دخلت تمبكتو في حكم المغرب الاقصى حين غزاها محمود باشا وضمها الى أملاك سلطان المغرب احمد . وقد استمر خاضعة للمغرب حتى عام 1164 هـ (1750 م) وقد تميز هذا العهد خصوصا باضمحلال المدينة وبظلم الولاة المغاربة وقسوتهم وبغارات قبائل الطوارق عليها للسلب والنهب . وقد استعاد الطوارق حكم المدينة في سنة 1207 هـ (1792 م) قبل ان تقع في يد التكرور.

ومنذ القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) كانت تمبكتو قد دخلت في علاقات تجارية مع ايطاليا ، ولا سيما فلورنس ، عن طريق تونس وطرابلس ، وقد زار تمبكتو سائح ايطالي في سنة 875 هـ (1470) واسمه فلورنتين بنيتو ووصف بعض جوانب الحياة فيها ، وذلك قبل الحسن بن محمد الوزان (المدعوّ ليون الافريقي) الذي وصل إليها بعد ذلك ببضع سنوات ، وقد كان كثير الاعجاب بها . ومن ضمن ما جاء في وصفه للمدينة قوله :

«انها عامرة الحوانيت وبها مسجد من الحجر والكلس بناه مهندس بارع من سكان غرناطة ، وقصر رائع يقيم فيه الملك مزين بصور كثيرة وقضبان من الذهب يزن بعضها 1300 رطلا» .

ومنذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) انتشرت سمعة تمبكتو في أروبا بقصص تبرز من جهة مناعتها ، ومن جهة اخرى جمالها وثروتها الطائلة ، بوصفها من اعظم مراكز التجارة في الذهب والعاج وريش النعام والرقيق ، وذلك في الوقت الذي يحيطها فيه ستار كثيف من الاسرار والغموض . وقد حاول بعض الاروبيين استكشافها ومعرفة اسرارها وهلكوا دون ذلك ، ولكن الرائد الفرنسي روني كايبيه أفلح في ذلك ، في سنة 1828 .

وكذلك زار تمبكتو المستكشف الالماني بارث في سنة 1853. وفي سنة 1893 ، دخلت تمبكتو ضمن المستعمرات الفرنسية ، وقد أقامت بعثة هارث واودوان الاتصال بين تمبكتو والجزائر بالسيارة بعد ذلك بقليل .

ومن اشهر العلماء الذين ينتمون الى تمبكتو ، احمد بابا التمبكتي ، صاحب التاليف العديدة في الفقه وفي السير والتراجم ، وقد اسره المغاربة لدى غزوهم

تمبكتو واخذوه الى مراكش حيث عاش حتى سنة 1006 ه (1597) . وقد توفي هذا العالم في سنة 1036 ه (1626 م .) .

*
* *

الفصل الرابع عشر

امبراطورية صنغاي

يضطرب مجرى نهر النيجر في جزئه الأوسط عند نقطتين ، وهما : كيني (Kenie) جنوبي باماكو عاصمة مالي ، وبوسا (Bussa) حيث تشتد سرعة الماء في انحداره . وبين هاتين النقطتين تستقيم الملاحة في النهر مسافة ألف ميل ينحني خلالها النيجر انحناءآته الكبرى نحو الشمال . وينمو على ضفاف النهر في هذه المناطق نبات اليوجو بصورة شديدة الكثافة ، ويقصدها الناس من مناطق بعيدة لرعي حيواناتهم بهذه الحشائش . ومجرى النهر هنا مزدحم بالجزر (جمع جزيرة) كما أن شواطئه كثيرة التعرجات . وفي جنوب وشمال النهر تمتد مساحات كبيرة من الصحراء . وهذه هي مجالات طوارق النيجر .

والنيجر الأوسط هذا هو موطن أمبراطورية الصنغاي ، الذين لعبوا دورا كبيرا في تاريخ شمال غرب أفريقيا . وموطن هذا الشعب الأصلي هو دندي في النيجر الأدنى ، شمالي بوسا . ومن هناك انتشر على طول مجرى النهر إلى تمبكتو والبحيرات الكبيرة التي وراءها .

وعاصمة أمبراطورية الصنغاي هي جاو (Gao) التي تقع على الضفة اليسرى لنهر النيجر حيث يتصل به وادي تلمسي (Tilmsi) الذي ينحدر إليها من قلب الصحراء .

ونحن لا نعرف متى بنيت مدينة جاو على وجه التحديد ، ولكننا نعلم أن والد أبي يزيد الخارجي ، صاحب الحمار ، قد عاش في هذه المدينة في شبابه

ومارس التجارة فيها ، حسبما يروي ابن حماد في تاريخ العبيديين . وبما أننا نعرف أن أبا يزيد ولد في حوالي 272 هـ . (883 م) ، فإن من السهل الاستنتاج ، أن مدينة جاو التي يسميها العرب كوكو ، كانت قائمة في القرن الثالث الهجري (9 الميــلادي) .

وقد وصف البكري كوكو وقال : إن العرب تسمي أهلها البزركانيين وقال ان المدينة عبارة عن مدينتين ، مدينة الملك ومدينة المسلمين . ويمضي الجغرافي الأندلسي ، فيقول .

«وملكهم يسمى فندا ، وزيهم كزي السودان من الملاحف وثياب الجلود وغير ذلك ، بقدر جدة الإنسان منهم . وهم يعبدون الدكاكير ، كما تفعل السودان ، ويضرب بجلوس الملك الطبل ويرقص النساء السودانيات بالشعور الحثيلة المسترسلة . ولا يتصرف أحد في مدينته حتى يفرغ من طعامه ويقذف باقيه في النيل ، فيجلّلون عند ذلك ويصيحون ويعلم الناس أنه قد فرغ من طعامه . وإذا ولي منهم ملك دفع إليه خاتم وسيف ومصحف ، يزعمون أن أمير المؤمنين بعث بذلك إليهم . وملكهم مسلم ، لا يُمَلِّكون غير المسلمين . ويزعمون أنهم إنما سمو كوكو ، لأن نغمة طبلهم ذاك ، وتجارة أهل بلد كوكو بالملح ، وهو نقدهم . والملح يحمل إليهم من بلاد البربر (من بلدة) يقال لها توتك ، من معدن تحت الأرض إلى تدمكة . ومن تدمكة إلى كوكو» .

ومدينة جاو تقع في وصف الإدريسي في الجزء الثالث من الإقليم الأول . وقد ذكر الجغرافي الروجري ، كما يسمّى ، أن كوكو «مدينة مشهورة الذكر في بلاد السودان ، كبيرة . وهي على ضفة نهر يخرج من ناحية الشمال ، فيمرّ بها ، ومنه شرب أهلها . ويذكر كثير من السودان أن مدينة كوكو هذه على ضفة الخليج ، وذكر آخرون أنها على نهر يمد النيل (نيل غانة = النيجر) . والذي صحّ من القول أن هذا النهر يجري حتى يجوز كوكو بأيام كثيرة ثم يغوص في الصحراء في رمال ودهاس ، مثلما يغوص نهر الفرات الذي ببلاد العراق. وغوصه هناك في البطــائـح» .

ويمضي الإدريسي ويحدثنا عن ملك كوكو في عصره (منتصف القرن الثاني عشر) ، فيقول :

«ثم إن ملك كوكو ملك قائم بذاته خاطب لنفسه وله حشم كثير ودخلة كبيرة وقواد وأجناد وزي كامل وحلية حسنة . وهم يركبون الخيل والجمال ، ولهم بأس وقهر لمن جاورهم من الأمم المحيطة بأرضهم ، ولباس عامة أهل كوكو الجلود يسترون بها عوراتهم ، وتجارتهم يلبسون القداوير والأكسية ، وعلى رؤوسهم الكرازي ، وحليهم الذهب ، وخواصهم وجلتهم يلبسون الازر ، وهم يداخلون التجار ويجالسونهم ويبضعونهم بالبضائع على جهة المقارضة (ربما كانت الكلمة : المقايضة) . وينبت في أرض كوكو العود المسمّى بعود الحية ، ومن خاصته أنه إذا وضع على جحر الحية خرجت اليه مسرعة . ثم إن ماسك هذا العود يأخذ من الحيات ما شاء بيده من غير أن يدركه شيء من الجزع ، ويجد في نفسه قوة عند أخذها . والصحيح عند أهل الغرب الأقصى وأهل وارجلان أن ذلك العود إذا مسكه ماسك بيده أو علقه في عنقه لم تقربه حيه البتة ، وهذا مشهور . وصفة هذا العود مفتول لكنه أسود اللون . ومن مدينة كوكو إلى مدينة غانه شهر ونصف» ا.هـ

وفي القرن الثالث عشر تحدث ابن سعيد المغربي في كتاب الجغرافيا عن كوكو فقدم تفصيلات جغرافية حسنة ولكنه لم يضف شيئا جديدا إلى معلومات من سبقه . وأما القزويني فلم يتعرض للحديث عن المدينة ولا عن المملكة .

ولكن ياقوت الحموي (وهو أيضا من القرن الثالث عشر) يضيف معلومات لا تخلو من جدة حين يقول :

«وملكهم (كوكو ، يظاهر رعيته بالإسلام ، وأكثرهم يظاهر به . وله مدينة على النيل من شرقيه اسمها سرناة بها أسواق ومتاجر ، والسفر إليها من كل بلد متصل . وله مدينة على غربي النيل يسكنها هو ورجاله وثقاته ، وبها مسجد يصلى فيه . ومصلى للجماعة من المدينتين . وله في مدينته قصر لا يسكنه معه أحد ولا يلوذ فيه إلا خادم مقطوع . وجميعهم مسلمون ، وزي ملكهم ورؤساء أصحابه القمصان والعمائم ، ويركبون الخيل اعراء ، ومملكته أعمر من مملكة زغاوة ، وبلاد الزغاة أوسع . وأموال أهل بلده الأموال والمواشي ، وبيوت أموال الملك واسعة ، وأكثرها الملح» .

وأما الحميري ، صاحب الروض المعطار ، فإنه اكتفى بنقل وصف الإدريسي .

وفي القرن السادس عشر وصف الحسن بن محمد الوزان (اليوم الافريقي)، مدينة جاو ومملكتها وصفا دقيقا وممتعا في نفس الوقت، وهو أمر لا غرابة فيه إذا عرفنا أن الرجل تجول في هذه المناطق وعرف أهلها عن كثب. يقول الرحالة في كتابه «وصف افريقيا» (طبعة إيبولار)، ترجمتنا)-.

«مدينة كبيرة جدا، وهي تشبه المدينة السابقة (تمبكتو) أي أنها بدون أسوار. وهذه المدينة تبعد بنحو 400 ميل عن تمبكتو، وتقع في جنوبها الشرقي. ومعظم منازلها قبيحة، ولكنه توجد من بينها منازل جميلة للغاية يسكنها الملك وحاشيته. وسكانها من التجار الأثرياء الذين يتجولون باستمرار ببضائعهم. ويقصدها عدد كبير من السود الذين يحملون معهم كميات كبيرة من الذهب ليشتروا به البضائع المستوردة من بلاد البربر ومن أوربا. ومدينة جاو متحضرة جدا بالقياس إلى تمبكتو. والخبز واللحم كثير فيها، ولكنه لا يوجد فيها خمر ولا فواكه. وفي مقابل ذلك يوجد فيها البطيخ والخيار والقرع بكثرة، وأما الأرز فتوجد منه في المدينة كميات ضخمة. وآبار المياه العذبة فيها كثيرة. وتوجد في المدينة سوق يباع فيها في يوم معين من الأسبوع عدد كبير من العبيد والاماء. والفتاة التي تبلغ الخامسة عشرة من عمرها تباع بحوالي 15 دوقية، ومثل هذا الثمن هو الذي يدفع أيضا لعبد شاب. وأما الاطفال فان الواحد منهم يساوى نصف هذا المبلغ، وهو ما يدفع ايضا لعبد مسن. وللملك يملك قصرا خاصا بالعدد الكبير من محضياته ونسائه اللائي يوكل بحراستهن عنين. وللملك قوه كبيرة من الحرس والفرسان والمشاة المسلحين بالرماح. وبين المدخل العمومي والباب الخاص لقصره. يوجد بلاط كبير يحيط به سور. وبجانب كلا طرفي البلاط توجد قاعة استقبال للملك. وعلى الرغم من أن الملك هو الذي يتولى بنفسه الفصل في القضايا؛ فانه يوجد في قصره عدد كبير من الموظفين والمستشارين والضباط والمدبرون لشؤون القصر.

ودخل المملكة من الاموال دخل كبير جدا، ولكن النفقات كبيرة هي أيضا، بل واكثر. والفرس الذي يباع في اوربا بمبلغ 10 دوقيات يباع في جاو باربع دوقيات. والاقمشة الفاخرة، مثل التي تسمى «مناتشينو» والتي تسمى «مينيمو» تساوي 15 دوقية للقطعة الواحدة. والحرير الذي ياتي من البندقية يساوي 30 دوقية

للقطعة وأسوأ السيوف التي تباع بثلث دوقيـة في أوربا تساوي هنا أربع دوقيا أو ثلاث على الاقل . وهذا يصدق أيضا على المهماز واللجام . وجميع انـواع الأدوية والعقاقير عالية الاسعار كذلك .

وأما بقية المملكة ، فهو يتكون من مدن صغيرة وقرى يعيش فيها المزارعون والرعاة . وهؤلاء يلبسون في الشتاء جلود النعاج ، وأما في الصيف فهم يمشون حفاة عراة ، ولو أنهم يسترون العورة بقطع من القماش . وفي بعض الاحيان يلبسون لحماية اقدامهم جلود الجمال .

إن العامة جاهلة تماماً ولا يكاد المرء يعثر بينها على شخص يحسن القراءة والكتابة . ولكن الملك يعاملهم بما يستحقون ، لانه لا يترك لهم الا ما يقتاتون به . فان الضرائب التي يدفعونها ثقيلة جدا .»

ونحن إذا تركنا جانبا بعض الاساطير (مثل الاسطوره التي تقول بأن عربا من اليمن استقروا في منعطف النيجر منذ سنة 500 ميلادية) فاننا نلاحظ أن الرواية التاريخية تجعل الملك دياكوسوا (cassoi) الخامس عشر هو أو ملوك الصنغاي الذين اتخذوا جاو الواقعة على الضفة اليسرى للنيجر عندما يلتقي بالتلمبسى المنحدر من الصحراء ، عاصمة للمملكة . وأسرة دياهي أول اسرة ملكية في جاو تعتنق الاسلام . ومنذ هذه الفترة (منتصف القرن الثالث عشر) سوف ينتشر الاسلام انتشارا واسعا في المملكة ، بفضل نفوذ المرابطين في الصحراء عموما ، وبفضل توغل التجار المسلمين في المملكة .

ومنذ القرن الحادي عشر كانت مملكة جاو تتمتع بمستوى من الثراء والحضارة بحيث كانت تنافس مملكة غانة . ولكن ثروة جاو ، هي التي لفتت نظر جيرانها إليها وأغرت اطماع مالي .

ونحن قد رأينا عند الحديث عن مملكة مالي كيف أن منسي موسى ، او بالاحرى ، أحد قواده ، قد استولى في سنة 1335 على جاو في الوقت الذي كان فيه الامبراطور لا يزال في سفره الى الاماكن المقدسة .

ولكنه بعد ذلك بسنتين فقط ، نجح الاميران الجاو يان علي جولن وشقيقه سليمان في الأفلات من قبضة مالي حيث كان الامبراطور يحتفظ بهما رهينتين

لضمان استمرار خضوع مملكة ابيهما ، وهذا الحدث قد أدى إلى ارخاء قبضة مالي على المملكة (سنة 1337) وذلك ، على الاقل ، مؤقتا .

كان على جولون أول مؤسس لاسرة صونّي الملكية . وقد كان من بين كبار ملوك هذه الاسرة سليمان دمان وعلى صوني الذي تولى العرش خلال الفترة بين سنتي 1464 ـ 1493م . وفي عهد هذا الاخير الذي يلقب على الكبير ، شهدت المنطقة تحولا يشبه ذلك الذي وقع في عهد سوندياتا . وهذا الملك الذي كان يمارس الطقوس السحرية هو الذي خلص بلده نهائيا من ربقة احتلال مالي ووسع حدود مملكته على حساب المحتل السابق .

كانت نقطة الالتقاء هي مدينة تمبكتو التي كانت تحت سيطرة الطوارق الذين كانو يفرضون على السكان الاتاوات ويعيثون فيها فسادا بينما كان حاكم المدينة الطوارقي الذي أبعد منها سلطان ماندنج المالي عاجزاً عن اعادة النظام إليها . وهذا الحاكم هو الذي وجه الدعوة الى على الكبير لانجاده . ولما وصل جيش صنغاي إلى المدينة ذعر سكانها الطوارق والمثقفون والعلماء من مقدم هذه القوة ، وهربوا منها . بل إن حاكم المدينة الذي جاء الصنعاي بناء على دعوته هرب هو أيضا إلى ولاته . وهذه الحركة تضايق منها علي الكبير كثيرا وانزل عقابه بمن بقي في المدينة ووثقوا فيه (1468) .

وأعمال علي الوحشية هي التي كسبت له سمعة سيئة بين العلماء والمثقفين وجعل المؤرخين مثل السعدي ، في تاريخ السودان يصفه بالطاغية المتعطش للدماء ، بل ويتهمه بانه من الخوارج ... وقد كانوا ينكرون عليه خصوصا ، عادته في أن يجمع الصلوات الخمس في الليل ، بدلا من أن يؤدي كل واحدة في وقتها .

وفي سنة 1473 ، سقطت في يد ملك جاو مدينة جنه على الرغم من موقعها الذي تحيط به مستنقعات تشكل وسيلة دفاعية قوية ، وبالرغم من استماته سكانها ، وذلك بعد عدة سنوات من الحصار . وقد قام الماليون فيما قبل بتسع وتسعين محاولة لاسترجاعها ، ولكن بدون جدوى . وفي هذه الاثناء ، تزوج علي الكبير بأم أمير المدينة وبذلك ضمن لنفسه نوعا من الشرعية . وبعد جنه ، سقطت ماسينا . وبذلك بلغت أمبراطورية جاو ذروة جديدة في توسعها .

والشيء الذي عرف به علي الكبير ويعتبر من اعماله الايجابية هو حبه للعلماء والمرابطين في مملكته ، وجمعة لتروة طائلة وضعها في خزائن تحت رعاية احد المرابطين .

ولما مات علي الكبير في سنة 1492 ، ترك وراءه امبراطورية مترامية الاطراف ومدعمة في الجنوب والغرب . وكذلك ترك وراءه سمعة وشهرة واسعة بأنه قائد لا يقهر. وأما أبنه الذي تولى الحكم بعده ، واسمه بكاري ، فانه لم يبق في الحكم سوى سنة واحدة . ويرجع قصر عهد هذا الملك إلى أنه قد ارتد عن الدين الاسلامي . وبسقوطه انتهى حكم أسرة صنغاي الملكية التي حكمت البلاد نحو ثمانية قرون ، وقامت في مكانها أسرة الاسقيين ، من زنوج السوتنكي.

أسرة لاسقيين

ففي سنة 1493 ، اعتاض حاكم ولاية هامبوري الذي كان من ضباط علي سني ، وينتمي إلى قبيل التكرور ، واسمه محمد طورود ، استنكر ارتداد بكاري عن الاسلام ، وقام بانقلاب بمساعدة العلماء ، واستولى على الحكم في جاو باسم الاسقيا محمد .

كان الاسقيا محمد اكثر دقة واشد عناية بالنظام من سلفه ، وذلك بالاضافة إلى طيب القلب والتمسك بأهداب الإسلام . وبمجرد توليه الحكم فرض رقابة دقيقة على السلوك الاخلاقي ورفع مكانة المرابطين في الدولة . وقد بلغت صرامة رقابته إلى حد أن الشرطة تعتقل أي رجل يفاجأ ليلا في حديث مع امرأة غير ذات محرم ، وتزجّ به في السجن .

وكما صنع منسي موسى ، ملك مالي ، من قبل ، فقد سارع الاسقيا محمد لأداء فريضة الحج . وقد سافر إلى الأماكن المقدسة في سنة 1496 (902 هـ) مصطحبا معه 500 من الفرسان و 1000 جندي من جيش المشاة ، وحمل معه مبلغ 300000 قطعة من الذهب وزع ثلثه في الصدقة والإحسان . ولكن هذا الملك على عظمته ، كان أقل كبرياء من منسي موسى عندما حل في العالم العربي . ولربما كان تواضعه وعدم اندفاعه في نفقات الترف والبذخ هو السبب في قلة الفاته الانتباه إلى هذه الرحلة . ونحن نعرف انه قابل الخليفة العباسي ، المتوكل

في مكة ، وطلب إليه ترسيمه «خليفة على بلاد السودان» ولكننا نجهل ما إذا كان قد حصل فعلا على هذا الترسيم شفاهيا أوكتابة .

وعقب عودته إلى بلده ، سارع الاسقيا محمد إلى الجهاد وعمل على توسيع حدود امبراطوريته ، فاتجهت حملاته الأولى إلى البلاد الوثنية التي تحيط به من الغرب والجنوب ، فاستولى في الغرب على مناطق شاسعة من دولة مالي التي أصبحت مجرد شبح لما كانت عليه في الماضي . وقد بلغت فتوحاته حتى حافة المحيط الأطلسي .

ولكن أعظم فتوحات الاسقيا محمد ، هي تلك التي حققها بعد ذلك ببضع سنوات في بلاد الهوسا حيث أخضع المدن المحصنة في هذه المنطقة الواحدة تلو الأخرى . وقد كانت امارات الهوسا تمتد شرقا من النيجر حتى بحيرة التشاد ، وكانت أراضيها خصبة مروية في معظمها .

وفي غضون هذه الغزوات كان الاسقيا محمد يتجاوز حدود بلاد الطوارق الذين وقفوا في طريقه . وقد اسفر هذا النزاع على ضم بلاد آير إلى مملكة صنغاي ، وبذلك أصبحت أجاديس ، بعدما طرد الاسقيا محمد الطوارق منها آخر معاقل الامبراطورية في اتجاه الصحراء . وبفضل هذا المركز أتاح الامبراطور ا. فرصة للسيطرة على حياة البدو الرحل الذين ينتجعون هذه المناطق للرعي .

كان الهوسا ينتمون إلى أرومات مختلفة من الزنوج ، ولكنهم كاں جظ معتبر من النشاط والمهارة ، حيث كانوا يمارسون الزراعة والتجارة معا ، في الوقت الذي استهروا فيه بمواهبهم في الصناعات اليدوية ، ولا سيما ما يتصل منها بالنسيج والصباغة ودبغ الجلود . وقد شيدوا عددا من المدن وأحاطوها بأسوار ، أشهرها جوبر (Gobir) وكانو (Kano) وزاريا (Zaria) وكاستينا (Kastina) ، لفتت أنظار تجار البربر من الشمال إليها منذ وقت مبكر واستقر بعضهم فيها . وهذا معناه أن شعب الهوسا شعب عامل مسالم اتجه بكليته إلى النشاط الاقتصادي ، وكان من أبعد الشعوب عن حياة المغامرة والحرب ، وهذه الاعتبارات ، بالإضافة إلى عدم امتلاكهم وسائل الدفاع عن مدنهم ، هي التي جعلت بلادهم تسقط ضحية وبسهولة نسبيا لنزعة توسع الاسقيا الذي لم يجد منهم مقاومة تذكر إلا في كانو (النيجيرية حاليا) .

وبضم الهوسا والطوارق ومساحات شاسعة من ولايات مالي ، بلغت أمبراطورية جاو أوجها في عهد الاسقيا محمد . ولكنه :

إذا تـم شيء بـدا نـقـصـه ترقب زوالا إذا قيل تـمّـا

اشترك في حملة الاسقيا محمد ضد الهوسا والطوارق في آير ملك مملكة صغيرة اسمها كبّي (Kebbi) ، كان في مبدإ الأمر حليفا لجاو وضد طوارق آير ، ولكنه خاب أمله بعد الانتصار من النصيب الذي حصل عليه من الغنائم ، ولذلك أعلن الثورة والانفصال عن الامبراطورية . وكذلك اعتصم بقلعة سورام الضخمة والتي تحيط بها المستنقعات والتي لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم . ومن هناك دافع الملك كانتا (Kanta) ومن ورائه رجاله الشجعان عن مملكته حتى صدّ جيوش الصنغاي وحطم قبضتهم القوية .

ولكن السوس كان ينخر عظام الأمبراطورية من الداخل . فإن موسى ، ابن محمد الاسقيا ، قد قام بتدبير مؤامرة ولم يتردد في قتل عمه يحيا الذي استنجد به محمد . وقد انتهى الأمر بتنازل الأخير على العرش في سنة 1528 م .

وأما الاسقيا موسى ، فقد كان رجلا عنيفا سفاكا للدماء ولم يلبث إلا وقتا قصيرا قبل أن يغتال ويحل محله الاسقيا محمد الثاني .

اشتهر الاسقيّا محمد الثاني (بونكان كوراي) بقوة الجسم والشجاعة النادرة بحيث أنه لم يتردد في أن ينزل من جواده عند الحاجة ليقاتل جسما لجسم بجانب الرجّالة من جيشه ، ولكنه كان كذلك محبا للذات ولبذخ القصور . ومن مظاهر التجديد الذي أدخله على حياة القصر أن الحريم يحضرن المقابلات العمومية بدون حجاب ، وأن رجال البلاط يتلقون هبات من القماش وأساور الذهب . وكذلك شكل جوقة موسيقية في القصر ترافقه أنّى سار ، وقد زودها بآلات موسيقية حديثة ، مثل الصور ، كان أول من أدخلها .

وقد عزز الاسقيا محمد الثاني حرسه الشخصي بسبعة عشر ألف رجل ... على أن محمد الثاني الذي حكم البلاد خلال الفترة بين 1531 ـ 1537 ، ارتكب خطأ كبيرا في حق سلفه الاسقيا محمد الأول الذي وضعه في احدى جزر النيجر وكانت مليئة بالحيوانات الضارية ، في إهمال تام ، وقد فقد بصره هناك . وكذلك راح اخوته يناوشونه حتى انتصروا عليه وهرب إلى مالي .

وقد تولى العرش مكانه الاسقيا اسماعيل (1537 ـ 1539) الذي استدعى الاسقيا محمد الأول وأسكنه في القصر في جاو. ولكن عهد اسماعيل كان قصيرا ، وقد اشتهر ، خصاصا ، بمجاعة كبيرة عمت مختلف انحاء بلده .

وأما الاسقيا إسحاق الأول الذي خلفه على العرش ، فقد اشتهر في المرحلة الأولى بالحزم والسهر على شؤون المملكة ، مع حذق وبراعة . ولكنه في مرحلة تالية سَلك مسلك الشدة والقسوة تجاه المرابطين وتجاه اخوته أيضا .

وفي عهد هذا الملك ظهرت بوادر التوسع الامبريالي من سلطان المغرب الأقصى نحو الجنوب . وفي هذه الفترة كانت امبراطورية جاو تمتد من التكرور حتى أجاديس على مسافة تزيد عن 2000 كيلومتر ، ومن تغازى حتى بلاد موسى .

وبعد الاسقيا إسحاق الأول ، اعتلى عرش صنغاي الاسقيا داود (1549 ـ 1582) الذي حكم المملكة مدة 33 سنة ، أبدى خلالها ضروبا من الحنكة السياسية ، وكان أول ملك نقل مقر السلطة من جاو إلى توديني . ومنذ بداية عهده دخل في سلسلة من الحروب مع الموسي (1549) ثم مع البوهل في ماسينا قبل أن يشتبك مع مالي (1559) ، ولكنه توصل إلى اقرار السلم مع الطوارق الذين كانوا يمثلون في مختلف العصور شوكة في جنب مملكة صنغاي . وفي عهد هذا الملك وفدت على المنطقة قبائل بني حسان من العربان الذين كانوا يقطنون في منطقة الحوض ، في جنوب مورطانيا . وزحف هؤلاء العربان كان من العوامل التي سهلت التقارب بين الطوارق وصنغاي الذين كانوا جميعا يتخوفون من العنصر الجديد .

وفي عهد الاسقيا داود أصيب النيجر الأعلى بين جنة وتمبكتو بوباء خطير حصد نسبة معتبرة من سكان المنطقة .

وبعد داود تولى العرش ابنه الاسقيا محمد الثالث (1582 ـ 1586) الذي دخل في نزاع مسلح مع أخيه الهادي من أجل ولاية العرش انتهى بقتل قائد الأسطول للهادي . والسمة المميزة لعهد محمد الثالث هي الضعف والانحلال الذي أخذ يدب في المملكة ، وهو من العوامل التي شجعت أطماع أحمد الذهبي ،

سلطان المغرب في هذه المنطقة . وكذلك تحولت أوضاع المملكة الآن إلى فقر وبؤس صريح ، بعدما شهدته من العزة والقوة والثراء .

وقد خلفه على العرش الاسقيا محمد باني (1586 ـ 1588) الذي مات في حملة قام بها لقمع ثورة . ثم جاء بعده آخر ملوك الصنغاي ، إسحاق الثاني (1588 ـ 1591) الذي وجد المملكة في حالة مستعصية من الفوضى والاضطراب وضعف السلطة المركزية وفقر الخزينة ، وهذه الوضعية هي التي شجعت حاكم تمبكتو على الثورة عليه وقد كلفه استعادة هذه المدينة وولايتها سنة كاملة من الحرب . ولكن الحرب الجدية التي ستنتهي بتفكيك أوصال الامبراطورية نهائيا هي التي سيخوضها اسحاق الثاني دفاعا عن ما تبقى من مملكته ضد أحمد المنصور الذهبي .

ارتقى أحمد المنصور المعروف بالذهبي ، عرش المغرب بعد وفاة أبيه ، اسماعيل ابن الشريف، في سنة 1578 ، عقب المعركة الحاسمة التي وقعت بين جيش المغرب وجيش البرتغال الذي كان يقود الملك دون سباستيان في القصر الكبير والتي ابيدت فيها قوة الغزاة التي يبلغ عدد رجالها 26 ألف مقاتل ولم ينج منهم إلا أقل من مائة . وقد نال المغرب نتيجة لهذه الحرب صيتا وسمعة كبيرة في العالم الإسلامي كله وفي أروبا أيضا .

وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهها أحمد المنصور الذي لم يكن يتجاوز سن التاسعة والعشرين ، والتي كان من بينها منازعته في العرش من طرف أربعة مدعين ، فقد تغلب في نهاية الأمر على مشاكل العرش وسيطر على زمام الأمور ، وجني ثمرة النصر الحاسم الذي كان الفضل الأكبر فيه يرجع إلى شقيقه ، عبد الملك ، الذي كان يقود الجيش المغربي في المعركة .

وإذا كان من نتائج هذه المعركة فقد البرتغال لاستقلالها وانتقال سيادتها وسيادة أمبراطوريتها الضخمة إلى يد الملك فليب المتعصب . ملك اسبانيا ، فقد كانت النتيجة بالنسبة إلى أحمد المنصور تدفق الذهب من أروبا بدون حساب على خزائنه لفدية الأسرى الأروبيين الذين وقعوا في يد المغرب الأقصى .

وخوفا من أن تقوم الدول الأروبية المسيحية بشن حملة للانتقام لهزيمة البرتغال ، ظل المنصور يحتفظ بجيش جعله دائما على أهبة الحرب . ولكن

الأروبيين لم يتحركوا . فإن اتحاد عرشي اسبانيا والبرتغال لم يكن من نتائجه تكتل قوتين ، كما كان المتوقع ، وإنما كان يمثل اتحاد دولة منهزمة مغلوبة على أمرها بدولة (اسبانيا) ستدخل في حرب منهكة دامت عشرات السنين مع هولندا التي قامت بثورة لنيل استقلالها .

وهكذا كان على أحمد المنصور أن يبحث عن مجال آخر لاستخدام جيشه ، وكان السودان يبدو هو المجال المثالي ، أولاً لأنه بلد الذهب والملح ، وثانيا ، لأن الدولة السودانية الوحيدة القوية التي تحرس هذه الثروات الطبيعية ، جاو ، أصبحت متضعضعة عاجزة عن الدفاع عن نفسها . ولكن الطرق الصحراوية المؤدية إلى السودان طرق محفوفة بالمخاطر وعلى حافاتها تنتثر عضام الإنسان والحيوان .



وصف ابن بطوطة تغازى في القرن الرابع عشر ، كما وصفه ابن سعيد في القرن الثالث عشر ، بأنه حصن وقرية بيوتها ومسجدها مبنية بحجارة من الملح ، ومسقوفة بجلود الجمال . وهو بلد لا شجر فيه ، وكل ما يوجد فيه هو معدن الملح الذي يحفره عبيد مسوفة . وهؤلاء يتعيشون مما يجلب إليهم من تمر درعة وسجلماسة ، ومن لحوم الجمال ، ومن تغازة يحمل الملح إلى مختلف بلاد السودان ، ويباع الحمل منه بايوالاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية مثاقيل ، وبمدينة مالي بثلاثين مثقالا وربما وصل أربعين مثقالا من الذهب . وهكذا كانت لشهرة قرية تغازة الحقيرة شهرة عارمة في الصحراء حيث كان الناس يتعاملون فيها بالقناطير المقنطرة من الذهب . ويضيف الرحالة إلى هذه المعلومات قائلا :

« وأقمنا بها عشرة أيام في جهد ، لأن ماءها زعاق ، وهي أكثر المواضع ذبابا ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها » .

وتحدث الحسن بن محمد الوزان في القرن السادس عشر عن تغازى التي زارها ، فقال انه « مكان مأهول توجد فيه عدة مناجم ويشبه محجرا للمرمر ، ويستخرج هذا الملح من حفرة بنيت حولها منازل يسكنها أولئك الذين جعلوا من استخراج الملح مهنة لهم . والذين يمارسون هذه المهنة ليسو من السكان المحليين ، بل هم من

الأجانب الذين يأتون إليها مع القوافل ويبقون فيها للعمل في المناجم . يقومون باستخراج الملح ويحافظون عليه حتى تقدم قافلة أخرى لتشتريه منهم . ومن هناك ينقل الملح إلى تمبكتو وإلى درعة التي تقع كل منهما على مسافة عشرين يوما من تغازة . ويحدث كثيرا أن يعثر على أحد هؤلاء العمّال ميتا من الجوع في كوخه بسبب تأخر وصول القوافل بالطعام . وفي الصيف تهب رياح جنوبية تؤدي العيون وتتسبب في العمى ، وقد حدث أن أقمت في تغازى ذات مرة ثلاثة أيام في انتظار شحن الملح ، وكنت أشرب ماء ملحا يستخرج من آبار مجاورة لمنجم الملح » .

وإذا كان الملح يباع بالذهب ويستعمل عملة صعبة في الصحراء لمبادلته بكل ما يباع ويشترى فيها ، فإن من البديهي أن الاستيلاء عن تغازى يمثل ، بالنسبة للمغرب الاقصى أهمية حيوية للسيطرة الاقتصادية على الصحراء ، وذلك فضلا أهميته الاستراتيجية . ومن هنا ، فلا غزو أن تتجه إليها أنظار أحمد الذهبي .

وعندما اعتلى على عرش جاوالاسقيا داود ، وجه إليه السلطان المغربي هدية ثمينة مع سفير له أحسن استقباله وبعث له الاسقيا هدية تشمل ، فيما تشمله ثمانين من العبيد ، ويبدو أن هذه البعثة قد قامت بمهمة استطلاعية لفائدة مشروعات السلطان ، إلى جانب المهمة الأصلية .

وفي مرحلة تالية ، وجه المنصور واحدا من قواده ومعه مئتان من حملة الاسلحة النارية للاستيلاء على تغازى . ولكن الحملة لما وصلت إلى هذا الحصن وجدت أن جميع سكانه من الزنوج قد جلوا عنه ، فأدرك المغاربة أنه بدون العمال لا يمكن تشغيل المنجم ، وبالتالي ، لا فائدة من الاستيلاء عليه .

وكذلك تخلى المنصور عن احتلال تغازى التي ظل منجمها مغلقا بعد ذلك وعانى سكان النيجر من جراء هذا التعطيل الأمرين لانقطاع موارد الملح عنهم . وعلى الرغم من أن اكتشاف منجم للملح في تاوديني فيما بعد ، فإن بلاد الصحراء ظلت تشكو مع ذلك من هذا النقص ، حيث كان انتاجه أقل من إنتاج تغازى .

وفي سنة 1589 (998 هـ) ، قرر أحمد المنصور أن يهاجم ملك جاو من أجل توحيد قوة الإسلام ، في زعمه ، تحت قائد واحد .

ولما عارض وزراؤه هذا المشروع بحجة الأخطار العظيمة التي سيتعرض لها جيش كبير يسير في صحراء لا ماء فيها وتحت وهج الشمس ، رد عليهم السلطان بأن قوافل التجارة لا تفتأ تقطع تلك الصحراء وتتحمل صعوباتها بسهولة ، مع أنها أقل تجهيزا من الجيش الذي أعده لهذا الزحف . وأضاف أن أسلافه عجزوا عن تنفيذ المشروع الذي يريد هو تنفيذه ، لأن جيوشهم كانت تتكون من الفرسان المزودين بالحراب والسيوف والاقواس فقط ، وأما جيوشه هو ، فهي مسلحة بالأسلحة النارية ذات الأثر الفعال . وبالتالي ، فقد زين لهم أن مهمة الجيش سهلة ومضمونة النجاح .

وكذلك اقتنع الجميع بهذه الحجج وانتهى الأمر باختيار السلطان مملوكا خصيا من أصل اسباني ، اسمه جودر (Judar) لقيادة هذه الحملة ، وذلك على الرغم من أن هذا الشاب لم يكن يتمتع بأية خبرة في قيادة الجيوش ولم يكن يعرف شيئا عن الصحراء .

وبعدما رقي جودر إلى رتبة باشا وضع السلطان تحت أوامره جيشا يتكون من أربعة آلاف مقاتل ، وعلى رأسهم عشر من القواد ، أربعة منهم من الأسرى الأروبيين ، وذلك بالإضافة إلى 600 من الفعلة ، وألف من قائدي الجمال التي بلغ عددها ثمانية آلاف جمل .

كان فصل الخريف أكثر الفصول ملاءمة لعبور الجيش للصحراء ، وقد حدد السلطان يوم 16 أكتوبر (15 ذو الحجة) موعدا لانطلاق الحملة ، فخرج جودر باشا على رأسها من مراكش في منظر مهيب ، وهي على أحسن ما تكون نظاما وقوة ، واتجه نحو الجنوب ، عبر جبال الأطلس إلى درعة حيث استكملت الحملة ما تحتاج إليه من التموين والحيوانات ، وملئت القرب بالماء وحملت على ظهور الجمال .

ومن هناك سار الجيش المغربي عبر فيافي وصحاري قاحلة في طرق لا تفي موارد المياه المتوفرة إلا لعدد التجار الذين يسيرون في قوافل . كم هل من العطش والجوع والتعب من رجال هذا الجيش الذي يسعى وراء سراب الذهب والملح والذي تذكرنا قصته بقصة جيش مغربي آخر لم يزل يلهث منذ سنوات وراء

ثروة مناجم الفوسفاط في بوكراع ؟ إن المعلومات المتوفرة لدينا حاليا لا تفيدنا بشيء عن عبور جيش جودر للصحراء ولا عن الخسائر التي مني بها قبل أن يقترب من هدَفه .

ونحن إنما نعرف خبر عبوره إلى الضفة الصحراوية الأخرى بعد شهور من السير المضني حين برز لعيني مالك جمال ، ربما كان من الطوارق ، في مكان بالقرب من أروان على مسيرة بضعة أيام في شمال تمبكتو . وهذا الطارقي هو الذي سارع لإبلاغ سلطان جاو خبر الغزو المغربي للمملكة . ولعل هذا الطرقي كان من بين الضحايا الذين استولى جودر على إبلهم لكي يُعوِّض الجمال التي نفقت في الطريق . وهناك في أروان زالت مصاعب أخرى أمام الجيش المغربي الذي ترك أخطار الصحراء وراءه ، لأن المياه والمراعي متوفرة هناك وفي طريقه كلما اقترب من نهر النيجر ، وذلك على الرغم من أن المسافة التي تفصل تغازى عن تاوديني لا تزال صعبة وموحشة .

والمنطقة التي تمتد بين آبار أروان التي تبعد عن تمبكتو بنحو 150 ميل (230 كلم) هي التي وصفها الحسن بن محمد الوزان في العبارات التالية : «توجد في هذه المنطقة صحراء ذات طابع خاص . إنها قاحلة جرداء ولا يجتازها الناس إلا بمشقة كبيرة وتسمى أزواد . والكثيرون ممن يسافرون في هذه الصحراء يموتون من الحرّ والعطش كما سبق أن ذكرت ذلك» .



يقول المؤرخ السوداني ، محمود كعت في كتابه «تاريخ الفتاش» إنه لم يشترك في أول قتال نشب بين الصنغاي والمغاربة من جيش جودر الذي قدرت قوته الأصلية بما يتراوح بين 3 و 4 آلاف ، سوى ألف مقاتل . فماذا كان مصير بقية الجيش المغربي ؟

من الصعب أن نتصوَّر أن يكون جودر قد خسر ثلثي قواته أو أكثر في الطريق الصحراوي وقبل الدخول في المعارك ، ولو أن بعض الكتاب يرون ذلك . ولكن ما نقله بوفيل في كتابه «تجارة المغاربة الذهبية» نقلا عن لورنس مادوك من أن جيشا مغربيا كسب خبرة ملائمة في عبور الصحراء ، يتكون من 1700 مقاتل ،

قد فقد أثناء عبوره في مرحلة تالية ثلث مجموع رجاله في الطريق ، يمكن اعتباره مؤشرا ودليلا على فداحة الخسارة التي حاقت بجيش جودر.

ومهما يكن من أمر ، فبعد مسيرة نحو خمسة أشهر وصل جودر إلى ضفاف النيجر عند منعطفة وضرب معسكره في مكان يقرب من مدينة بامبا الحالية وترك لجيشه فرصة للراحة والاستجمام كان أحوج ما يكون إليها ، وبعد بضعة أيام انحدر مع مجرى النهر متجها إلى هدفه ، وهي مدينة جاو.

وفي مملكة صنغاي كانت الروح المعنوية ، فيما يبدو ، ضعيفة كما كان الشعب يتشكك في المرحلة الأولى من الأخبار القائلة بأن المغاربة قطعوا الصحراء بقصد غزو المملكة ، ومع ذلك ، فإن المغاربة تعرضوا لهجمات هنا وهناك ليلا قام بها رجال جاءوا في قوارب من عدد من جزر نهر النيجر . ومما زاد من شدة وطأة هذه الهجمات أن المغاربة لم يكونوا يملكون قوارب ليستعملوها لصد تلك الهجمات أو لمطاردة المهاجمين .

وفي هذه الأثناء ، استعد الاسقيا إسحاق الثاني للدفاع عن عاصمة ملكه ببناء المتاريس والتحصينات ، وجمع جيشا يتكون في تقدير بعض المؤرخين مما يزيد عن 30 ألفا (وفي رواية كعت 18000 من الفرسان و 9700 من المشاة) وسار على رأسه إلى تنديبي (Tondibi) التي تبعد بمسافة 35 ميلا إلى الشمال عن العاصمة ، جاو .

ولما رأى جودر جيش الزنوج بعث إلى الاسقيا اسحاق برسالة . يعرض عليه فيها الاستسلام حقنا للدماء ، ولكن الملك رفض العرض المغربي .

وهكذا دخل الطرفان في معركة في اليوم التالي . وعلى الرغم من صدق حملة مقدمة الجيش السوداني من الفرسان الذين ربطوا أنفسهم الى جيادهم بأحزمة من الجلد حتى لا يتركوا لأنفسهم فرصة للهروب من المعركة ، فقد ظهر منذ اللحظات الاولى أنه لا سبيل إلى مقاومة المغاربة الذين كانوا يستعملون أسلحة نارية فتاكة . وقد كان مفعول هذه الأسلحة السيكولوجي لا يقل عن فعاليته في الابادة ، ولذلك ، فإن الذين لم يسقطوا في ميدان القتال لاذوا بالفرار تاركين وراءهم موتاهم وأسلابا وغنائم كثيرة . وقد عبرت بقية الجيش المنهزم نهر النيجر إلى جُرْمَه حيث لم يستطع المغاربة ملاحقتهم .

وفي جاو التي غادرها كثير من سكانها السودانيين ، استقبل التجار الاجانب جودر وجيشه بحماس ، ولكن مفاجأة كبيرة كانت تنتظر القائد المغربي الذي كان يتوقع أن يجد في عاصمة صنغاي كنوزا من الذهب وثروة طائلة . فإنه سرعان ما أدرك الوضعية في أبعادها الحقيقية . فالعاصمة المغلوبة على أمرها عبارة عن أكواخ مبنية بالطوب ، مثل بقية المدن الصحراوية ، وأما الذهب فلم يجد له أثرا . ومما زاد من خيبة أمل المغاربة انتشار الأمراض في صفوف الجيش وموت كثير من الحيوانات التي تحمل أثقاله والتي لا يستطيع حركة بدونها .

ولهذه الاعتبارات كلها ، فإن جودر لم يتردد في قبول شروط الاسقيا اسحاق الثاني الذي كان يتخوف من استقرار سيطرة المغاربة بصفة نهائية على بلده . وهذه الشروط تقضي بأن يقدم طاعته للسلطان ويترك للمغاربة استغلال موارد الملح والأصداف ، في مقابل انسحاب الجيش المغربي .

وهكذا انسحب جودر إلى تمبكتو التي كانت أفضل من جاو من الناحية المعمارية والتي كانت مزدهرة الثقافة واسعة التجارة والثراء . ومن المآثر التي تذكر لصالح الحملة المغربية ، أن جودر لم ينهب مدينة تمبكتو ولم ينتهك حرمة سكانها ، وقد كان هذا الإجراء مبعثه تخوف القائد من إثارة عداوة السكان الذين وثقوا في المغاربة ولم يجلوعنها ، كما صنع سكان جاو.

التنظيم السياسي والاقتصادي

كان التنظيم السياسي في أمبراطورية صنغاي أكثر تعقيدا من مثيله في مالي . فعلى رأس هذا النظام يقف الأمبراطور الذي يتلقى لدى تتويجه ختما وسيفا ونسخة من مصحف القرآن الكريم . وبلاط الأمبراطور بلاط فخم فيه ألوان من الترف والبذخ . وفي استقبالات يوم الجمعة توحد مراسم تحدد بدقة ما يلبسه الموظفون من الأكسية وما يضعونه على رؤوسهم من الأغطية ، وعدد الابواق التي يعزف عليها . وفي طريقه إلى المسجد ترافق الأمبراطور حاشية تتكون من 700 رجل يسيرون وراءه . وكل من يراه يتحتم عليه أن يخلع غطاء رأسه ويسجد ويذري التراب على رأسه وجسده .

وقد كان الاسقيا محمد الأول هو أول من أنشأ جيشا محترفا تمكن من رفع مستوى تدريبه وكفاءته العسكرية . وكان الجيش الذي وضع تحت قيادة دينا كوي قد قسم إلى عدة فرق تشكل احداها الحرس الأمبراطوري ، بينما وزعت الفرق الأخرى في مختلف الولايات . وكان الجنود مسلحين بالحراب وبالأقواس والرماح المسمومة . وبعض الفرق كانت مزودة بالدروع .

وتحت الأمبراطور كان يدبر البلد عدد من كبار الموظفين الذين يشغل بعضهم مناصب ذات مسؤوليات والبعض الآخر يتمتعون بمناصب شرفية . وكان الفريقان يحملون ألقاب «كوى» أو «فارى» . فالقاضي مثلا ، يحمل لقب «كوي» وقد كان حامل هذا اللقب والي ولاية تمبكتو.

والإدارة في أمبراطورية صنغاي كانت إدارة لا مركزية ، ولكنها مع ذلك إدارة دقيقة . والولاة لم يكونوا من الأمراء والملوك السابقين للولاية ، بل كان يعينهم ويعزلهم الملك من بين رجاله ، ومن هنا سيطرته التامة على إدارة المملكة ، مادام الجيش خاضعا لإدارته .

كان الملك يملك ضياعا ومزارع مترامية الأطراف يعمل فيها العبيد والعمال المأجورون . وكان يقدّر أن الضيعة التي يعمل فيها مائة عبد ينبغي أن تنتج ألف «سوموس» (نحو 250 طن) من الارز. وهذا المحصول الذي يقدم الملك بذوره ، يفرغ في مخازن الأمبراطورية . وأما المزروعات فقد كانت متنوعة نسبيا وتشمل الذرة والأرز والسورغو والقطن وأنواعا من الخضروات والفواكه ، وكان الأرز يشكل طعام الأغلبية من السودانيين .

وفيما يتعلق بنظام الضرائب ، فيبدو حسبما نستخلص مما قاله مؤرخو السودان ، انه كان خفيفا ، بحيث أن المحصل كان يقتصر على أخذ 30 كيل من مزرعة ، وذلك حتى لو كان المستحق ألف كيل . وأما الفائض فيتركه للمزارع سواء كان عبدا أو حرا . على أن هذا الوضع قد تغير في عهد الاسقيا داود الذي كان هو وأفراد أسرته يرهقون المزارعين بالضرائب ، الأمر الذي أدّى إلى حدوث كثير من الاضرابات ولا سيا بين مربي الحيوانات .

وفيما يتعلق بالضياع الواسعة التي كان يقطعها ملوك صنغاي للمرابطين ، وهي من الاهمية بحيث تذكرنا بالأملاك التي كان يقطعها الملوك والأباطرة

الموازين هي المثقال (= 72 حبة من القمح) والدرهم (= سبعة أعشار الدينار) والأتاوات المفروضة على المزارعين .

كان يوجد في كل مدينة وفي كل منطقة في الريف محصل للضرائب . وهذه الضرائب ، مثل الضرائب والجزية التي يدفعها الملوك والامراء التابعون ، تؤل إلى خزينة الاسقيا بعدما تتحول إلى عملة من الذهب أو الملح . ولتجنب الغش والمغالطة التجأ الملوك إلى توحيد الموازين المستعملة في المملكة . وأهم الموازين هي المثقال (= 72 حبة القمح) والدرهم (= سبعة أعشار الدينار) والدينار (= أربعين درهما) والأوقية (= حوالي 27,5 جرام) .

وكذلك أنجز ملوك جاو عددا من أعمال المياه ، فشقوا قنوات متفرعة عن نهر النيجر واستجلبوا متخصصين في هندسة الحدائق والبساتين من بين يهود توَّات ، وذلك بقصد تحسين الإنتاج الزراعي في البلد بتوفير الري .

وقد ازدهر عدد من المدن في المملكة يتجاوز عدد سكان بعضها 100000 نسمة ، وأهمها ، جاو وولاته وجني وتمبكتو ، وكلها كانت عامرة بالمساجد والمدارس التي كان يدرس فيها فطاحل العلماء والفقهاء ، وبعضهم جاء من الحجاز ، مثل الشيخ عبد الرحمن التميمي الذي استقدمه مسني موسى في سفرة عودته من الأماكن المقدسة . وبعض هؤلاء العلماء كان يخشاهم ملوك جاو ويَهَابُونهم لعلمهم وتقواهم ولشجاعتهم في كلمة الحق . ومن أشهر هؤلاء القاضي محمود ، قاضي تمبكتو الذي كان وزراء الاسقيا يقصدون إليه لزيارته ، فلا ينهض من مقعده لاستقبالهم ، بل ولا يدير رأسه في اتجاههم ، وكان القاضي لا يتردد في توبيخ الملك ووعظه وتقريعه عند الحاجة . ومركز القاضي من الناحية الرسمية يساوي مركز قائد الجيش . ومن أعظم مؤرخي السودان ، أحمد بابا الذي ولد في 26 أكتوبر 1556 ، والذي وضع فيما قيل ، 700 كتابا في مختلف العلوم والفنون ، وكان يملك مكتبة تحتوي على 1600 عنوان ، وعبد الرحمن السعدي الذي ألف كتابا في تاريخ السودان والذي ولد سنة 1596 م ، ومحمود كعت ، صاحب كتاب «تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس» . وقد توفي القاضي كعت في سنة 1593 م (1002 هـ) .

الفصل الخامس عشر

الاسترقاق والاستعمار

كانت حرب المائة سنة قد استنزفت كل موارد أوربا من العملة الصعبة التي هي الذهب ، فكانت عاجزة عن دفع تكاليف وارداتها من آسيا ، ولا سيما من التوابل (مثل الفلفل والقرفة والزنجبيل) ومن مواد الترف الأخرى (مثل الأقمشة والحرير الخ ..) وأما معدن الذهب فقد كان يستخرج خصوصا ، من القارة السوداء . ولكن أوربا إنما تحصل على هذا الذهب بواسطة المسلمين المغاربة . والحل الوحيد أمامها ، حسبما تقضي النظرية السائدة في ذلك العصر والتي لا تزال لها قيمتها حتى في وقتنا هذا ، هو زيادة الصادرات الأروبية إلى الشمال الافريقي وتخفيض وارداتها من هذه المنطقة لكي ترفع رصيدها من الذهب .

وهكذا اعتبر ترجيح الميزان التجاري مع المغرب في صالح أروبا الوسيلة الوحيدة لإعادة بناء رصيد الدول الأروبية من الذهب ، والأداة الأساسية لموازنة الميزان التجاري الأروبي مع آسيا .

وأما التوابل التي كانت تأتي إلى أروبا من الشرق الأقصى عن طريق ماليزيا لتصل إلى إيطاليا بعدما تمر بعدد من الوسطاء من التجار الصينيين والفرس والعرب والارمن والجنويين ، وبعدما يجني كل منهم حظه من الربح في العمليات . وبعبارة أخرى ، فإن التوابل الشرقية تكون عندما تصل إلى مطبخ ربة البيت الأروبية ، قد تكلفت مبالغ كبيرة ، ويزيد من غلائها ان ثمنها يدفع بالذهب ، ومن هنا فكرة تخطي التجار الوسطاء من العرب بالاتصال مباشرة بالهند لشراء التوابل من

المنتجين ، وذلك بالبحث عن طريق بحرية تدور حول القارة الافريقية إلى المحيط الهندي .

ولكن تنفيذ هذا المشروع كان محاطا بأعظم الأخطار ، بسبب ما يعزوه الجغرافيون العرب إلى المحيط الأطلسي الذي يسمونه « بحر الظلمات » من عتو الأمواج والعواصف ، وخصوصا ، لجبل « الندامة » الذي يمتد في أقصى القرن الافريقي ، من المغناطيسية التي تجذب إليه السفن التي تتحطم على سفوحه الهائلة قبل أن يبتلعها اليمّ .

على أن التقدم الذي سجلته الملاحة في مجال دفة المراكب واستخدام البوصلة واعتماد البارود الذي اخترعه الصينيون لاستخدامه في المدافع ، وخصوصا في التحسن الكبير الذي طرأ على صناعة الأشرعة ، قد قلل من هذه المخاطر ووفر الوسائل التقنية الكفيلة بتحقيق أحلام الأروبيين . أضاف إلى ذلك ما اكتشف من وجود تيارات بحرية في المحيط الأطلسي تساعد الملاحة في اتجاه المناطق الاستوائية . فإن واحدا من هذه التيارات ، مثلا ، ينطلق من جزر الاصور ، ويسير موازيا للشواطىء الافريقية حتى ينتهي إلى خليج غينيا .

ربما كانت هذه الشروط ضرورية ، ولكنها لم تكن كافية في نظر الملاحين البرتغاليين الذين استوعبوا القصص والأساطير التي انحدرت إليهم عبر الأجيال عن أهوال الملاحة حول الشواطىء الافريقية . فإن أولئك الرجال كانوا دائما يسمعون امهاتهم ونساءهم يرددن مثلا مأثوراً : « من يتجاوز رأس افريقيا قد يعود أو لا يعود ! » .

ومع ذلك فقد وجد بين البحريين من تغلب على مخاوفه وتجاهل نصائح اليهود والعرب الذين يعرفون الشواطىء الافريقية وتحدوا هذه الأخطار . وفي مقدمة هؤلاء الملك هنري الملقب « بالملاح » .

ولكن المحاولات التي بذلت خلال العشرين سنة الأولى من القرن الخامس عشر الميلادي لم تسفر إلا على نتائج ضئيلة ، كان أهمها اكتشاف جزيرة مادير في سنة 1420 م . وتجاوز الملاح ، « جيل إينس » لرأس بوجادور في سنة 1443 م . واكتشاف جزر الأصور في سنة 1437 م .

وفي غضون الفترة بين 1441 ـ 1445 م ، كانت السفن والمراكب التي تتجول في عرض البحر للبحث والاستكشاف تعد بالعشرات . وفي سنة 1448 ، أقيمت قلعة برتغالية على شواطىء أرجوين .

ولكن الخطوة التالية الهامة في استكشاف الشواطىء الافريقية على المحيط الأطلسي ، هي اكتشاف «داصاموستو» في سنة 1450 لمصب نهر السنغال ونهر كازاماس ونهر جامبيا في المحيط .

وفي سنة 1487 م ، وصل «بارثيلمي دياز» إلى رأس افريقيا الذي أسماه «رأس العواصف» ، ولكن الملك هنري «الملاّح» أطلق عليه اسم «رأس الرجاء الصالح» ؛ وهو الإسم الذي لا يزال يحمله إلى يومنا هذا . واستمرت الاكتشافات بحيث أن البرتغاليين وصلوا إلى سيراليون عند وفاة هنري الملاح .

وفي سنة 1481 م ، بني البرتغاليون حصن المينا (El Mina) كما أعلن الملك جان الثاني نفسه ، باتفاق مع البابا ، حاميا لغينيا .

وسواء أكانت غينيا تحريفا لاسم جيني ، كما يرى الحسن بن محمد الوزان ، أو لإسم غانة ، كما يرى بعض المحدثين ، فإن هذا الإسم كان مرسوما على الخريطة التي وضعها الملاح الجنوي ، جيوفاني دي كارينجوانو ، في سنة 1320 .

وباختصار ، فإن النتوء الضخم من القارة الافريقية الضارب في عرض المحيط أصبح معروفا في أواخر القرن الخامس عشر .

وهذه الاكتشافات والنشاط البحري بصفة عامة ، كانت لها رُدُود فعل قوية لم تلبث أن تحولت إلى حمّى في بلاط اسبانيا الذي وافق في نهاية الأمر على مشروع ملاح من جنوة اسمه كريستوف كلومب ، لاستكشاف طريق إلى الهند . وبدلا من الهند اكتشف الملاّح لحساب العرش الاسباني القارة الأمريكية في سنة 1492 م .

وبعد هذا التاريخ بست سنوات ، استكشف الملاح البرتغالي ، فاسكودوجاما ، رأس الرجاء الصالح واجتازه حتى على شواطىء افريقية الشرقية والجزر المقابلة لها . ومن هناك اتجه إلى الهند . وهذا الحدث ستكون له آثار عميقة في إعادة توجيه

التجارة الدولية على حساب العرب ، ولكن أيضا ، سوف يؤدي إلى توغل الاستعمار الأوربي ، والبرتغالي بصورة خاصة على شواطيء المحيط الهندي ، في غضون العقود التالية .

وفي سنة 1500 م ، ارتكب الملاح البرتغالي ، بيدور الفاريز كابرال ، غلطة في الملاحة كان من نتائجها اكتشاف البرازيل التي ستتحول إلى مستعمرة برتغالية .

وبهذه الاكتشافات تضاعفت الرقعة المعروفة من المعمورة ، أوكادت ، وقد كان من الممكن أن يكون هذا التعارف والتقارب في مصلحة البشرية جمعاء ويكون من نتائجه توثيق الاتصال والتعاون بين أروبا والمناطق الجديدة . ولكن ما حدث في القرون التالية اثبت ان هذه الاكتشافات لم تكن إلا الخطوة الأولى في طريق الجشع الاستعماري واستغلال الإنسان للإنسان .

كان الأروبيون في البداية كما سبق أن أشرنا يبحثون عن الذهب لتغطية عجز موازين مدفوعاتهم مع آسيا . ومعدن الذهب الذي استغله الأنجليز في غينيا وسكّوا منه أو الجنيه من الذهب (ومن هنا اسمه جينيه) يثبت ذلك بجلاء ، ولكنهم بدلا من ذلك اكتشفوا قارات وامتلكوا ثرواتها الطبيعية والبشرية .

والسؤال الذي لا يزال يتردد على ألسنة الباحثين ، هوكيف وصل الأروبيون إلى تنظيم تجارة بالجملة في الرقيق الافريقي ؟

وفي محاولة الإجابة عن هذا السؤال ، يذكر البعض بـأن الأروبـيـين لم يصنعوا أكثر من تقليد أوضاع كانت سائدة في افريقية في العهود القديمة . وأكثر من ذلك ، فهم يقولون ان الاسترقاق ظاهرة لا تتميز بها القارة الافريقية وحدها ، فقد كان الاسترقاق في جميع البلدان مظهرا من مظاهر التطور الاجتماعي والاقتصادي . وكلمة «العبد» (esclave بالفرنسية Slave بالأنجليزية) نفسها مشتقة من كلمة صقلب ، أي العبد الصقلي . والصقالبة الذين يأتون من أروبا الوسطى يشكلون فئة ممتازة وثمينة من العبيد في الشرق الأوسط في العصور الوسطى . بل إن أباطرة مالي وغانة أنفسهم كانوا يملكون عبيدا من البيض في عصور ازدهار هاتين الأمبراطوريتين .

وكان الرق يأتي من مصدرين : ما يتداول منه في الأسواق ، وما يؤخذ سبيا في الحروب . وهذا النوع الأخير إذا لم يُفْد بطريقة أو أخرى ينتهي به الأمر إلى أن يندرج في النوع الأول .

ويلاحظ البعض أيضا أن بعض المناطق الافريقية التي شهدت ازدهارا اقتصاديا وعمرانيا خاصا ، مثل جني وتمبكتو كانت تمتاز باستغلال العبيد فيها بصورة واسعة . وقد كان من غير النادر أن يمتلك أمير أو تاجر كبير قطيعا يتكون من مائة عبد أو أكثر .

وكذلك كان الرقيق منتشرا ، فيما يقولون ، في الجزر العربية الافريقية ، مثل زنجبار .

ونحن نذكر في هذا السياق ببعض الحقائق التي تتعلق بالرق في هذه المناطق وفي البلدان الإسلامية ، بصفة عامة ، ونوضح هذه النقطة من وجهة نظر الإسلام ، حتى يمكننا أن نقارن وضع العبد كما تضبطه الشريعة والتقاليد الإسلامية ، ووضعه في النظام الاستعماري الأروبي الذي سنقدم خطوطه الرئيسية في الصفحات التالية .

كان العبد عندما جاء الإسلام لبنة أساسية في النظام الاقتصادي في العالم كله ، بما في ذلك الجزيرة العربية . فهو يحرث الأرض ويسقيها ويجني غلاتها ويقوم بالتجارة لحساب سيده كما يحمل السلاح إلى جانبه في حروبه . ولكن وضع العبد الشخصي لم يكن يضبطه نظام اجتماعي أو قانون معروف ، وإنما هو يعامل طبقا لإدارة سيده ومشيئته التي لا تأخذ في الاعتبار . عادة ، سوى صلاحيته للعمل ومردوده الاقتصادي .

ولما جاء الإسلام لم يلغ هذا النظام بجرة قلم ومرة واحدة . ولو فرض إلغاء الرق لوجد مثل هذا الإجراء مقاومة لا هوادة فيها من ملاك العبيد الذين يعتبرون الأموال التي اشتروا بها تلك العبيد استثمارات من نفس النوع الذي اشتروا به أراضيهم ومنازلهم . ولو رضوا بمثل هذا الإجراء لأدى تحرير العبد فجأة ومرة واحدة إلى توقف الأعمال الزراعية والبناء والتجارة ولكان ذلك كارثة للجميع ، بما في ذلك العبيد أنفسهم . ثم هناك أسرى الحرب الذين يصبحون عبيدا إذا لم يقم بلدهم بتحريرهم أو مبادلتهم فهؤلاء غنائم ويمثلون جزءا من الخسائر

الحربية للعدّو الذي لا ينتظر منه أن يحرر الأسرى المسلمين الذين أخذهم ، لو قام المسلمون من جانبهم بعتق من في يدهم من الأسرى .

وهكذا وجد الإسلام أن العبد ضحية لنظام عالمي قاس يمثل شبكة مرتبطة الحلقات ولم يكن في وسعه أن يلغيه ، ولكنه قادر على التخفيف من بؤس العبد وشقائه بفرض معاملته معاملة حسنة وبإدخال وضعه في النظام القانوني العام ، فحدد له حقوقا لم تكن له من قبل ، كما وضع استراتيجية عامة لتحرير الرقيق بعتق الرقبة كعمل للتكفير عن ذنب أو للتقرب إلى الله .

وفي ظل هذا النظام الذي يستهدف تحرير المجتمع البشري كله وجد العبد أمامه جميع الفرص متاحة ليرتقي في السلم الاجتماعي ليصبح كاتبا أو معنيا أو قائدا حربيا بارزا ، بل وان يستولي على زمام الأمور السياسيّة أيضا ويرتقي سدة الحكم ويصبح أميرا أو مالكا دون أن يجد حوله من يذكره بأصله أو بلونه .

والعبد في البلدان الافريقية وفي البلدان الإسلامية ، من جهة أخرى يشعر بأنه جزء لا يتجزأ من الأسرة التي يرتبط بها بصلات عاطفية كما يرتبط وضعه الاجتماعي بوضع الأسرة والقبيلة التي يعيش معها . وكثيرا ما يصبح العبد رئيسا للأسرة بعدما يختفي الأب أو الشخص الذي يقوم مقامه .

وفي النظام القبلي في افريقيا ، ولا سيما في الكونغو ، كان للعبد الحق في أن يملك ممتلكات خاصة به ، بل إنه كان يملك العبيد أيضا . وكذلك كان العبد يلقب « نفانا » ، أي « الإبن » وقد كان من أعقد الأمور التمييز بين الابن الحقيقي والابن العبد ، حتى اقتضى الأمر استعمال صيغة « ابن البطن » في بعض اللغات الافريقية .

بدأ البرتغاليون عمليات خطف السود واسترقاقهم منذ سنة 1442 ، حين قام حاجب الملك هنري الملقب بالملاح ، واسمه أنطوان جونزالف ، باختطاف رجل وامرأة على الشواطىء الافريقية . وبعد ذلك بسنتين قام الملاح البرتغالي لانزروت لاجوس بخطف مائة وستين من السود الذين تمكن من بيعهم بسهولة . وكذلك اختطف عدد من المسلمين من السود بعد ذلك وأخذوا عبيداً إلى البرتغال .

كان الدافع إلى هذه العمليات في المرحلة الأولى ، هو محاولة الملاحين البرتغاليين أن يثبتوا لمواطنيهم أنهم زاروا ، فعلا ، الشواطىء الافريقية ، ولكن

البرتغاليين لم يلبثوا أن اقتنعوا بأن الفائدة ستكون أكمل وأوفر متى عادوا بشحنات من السود إلى جانب شحناتهم من التبر والعاج والصمغ العربي والفلفل ، ولا سيما وأنهم لا يعدمون زبائن لشراء اللحم البشري في ليشبونه وغيرها من المدن البرتغالية ، حيث أصبح من مظاهر الرقي الاجتماعي امتلاك العبيد السود الذين يخدمون في المنازل أو يسيروا على أقدامهم بجانب عربة « السيد » ، أو يعملون في الاصطبلات وهكذا فلم يكد ينتهي القرن الخامس عشر الميلادي حتى كان عشر سكان ليشبونة من السود .

ولكنه على الرغم مما نلاحظه من ارتفاع هذه النسبة ، فإن الظاهرة نفسها كانت استمرارا لما يجري العمل به في الشرق أنجلترا وفرنسا .

ولكن أمريكا أصبحت مستعمرة اسبانية منذ أواخر القرن الخامس عشر . وهناك في أمريكا الجنوبية دمّر الإسبان بوحشية وضراوة حضارة الانكا وحضارة الازتيك من الهنود الحمر ومحوا حتى معالمها ، بعدما سخروا السكان الأصليين للعمل الزراعي في السهول الساحلية . ولكن الاسبان وجدوا مقاومة بين الهنود الحمر ، الأمر الذي أدّى إلى مذابح مريعة .

وفي هذه الأثناء قصد إلى أروبا مبشر مسيحي يدعى «لاس كازاس» ليدعو ، بدافع من الشفقة على الهنود ، إلى إرسال معمرين من الاسبان ليحرثوا ويخففوا من عناء الهنود البؤساء ، فأقترح عليه بدلا من ذلك ، نقل العبيد السود إلى أمريكا اللاتينية ، حيث أن لهم أجساما قوية ويمكن أن يتأقلموا بسهولة في مناخ المناطق الحارة هناك . وقد قبل المبشر هذه الفكرة باعتبارها تمثل أهون الشرين ، ولكن أيضا على أمل أن يصبحوا في نهاية حياتهم في الرق مسيحيين . وأما الباقي ، فهو من عمل الأسلحة النارية الأروبية .

ولهذه الغاية اتجه الاسبان إلى البرتغاليين ، أصحاب « الحق الشرعي » الذي كرسه البابا نيقولا الخامس على الشواطىء الافريقية مند سنة 1454 م ، ذلك الحق الذي ستكرسه أيضا معاهدة « توردزيلاس » (Tordesillas) التي عقدت في سنة 1494 م برعاية البابا الاسكندر السادس ، والتي تفصل بين ممتلكات اسبانيا والبرتغال وتضع افريقيا في يد الأخيرة ، على الرغم من معارضة فرانسوا

الأول ملك فرنسا لها . وهذا التقسيم سيظل موضوع منازعات حادة بين الدول الأروبية في النصف الأول من القرن السادس عشر.

طرق الأروبيين لاسترقاق السود :

كان الأروبيون يعتمدون طرقا من الدعاية والوعود المغرية تذكرنا بصورة مأساوية بالطرق التي تستخدمها وكالات الدعاية في البلدان الافريقية ، ولا سيما في بلاد السودان وفي البرتغال نفسها ، لإغراء العمال بالسفر للعمل في البلدان الصناعية . وفي الحالة الأولى يجد الافريقي الأسود نفسه مقيدا بالأغلال والسلاسل بمجرد ما يضع قدمه في السفينة التي تقله إلى أمريكا اللاتينية ، بينما يجد العامل نفسه في الحالة الثانية عاطلا وبدون مأوى ، أو مرتبطا بعمل يمثل أحط الأشغال التي تترفع عنها اليد العاملة الأروبية ، والعبودية الحديثة لا تقل قسوة واهدارا الكرامة الإنسان من الاسترقاق القديم الذي تحرمه القوانين الدولية في عصرنا .

ولكنه إلى جانب القصص الخلابة التي تجوز على عقل الافريقي البسيط لإغرائه بقبول السفر عن رضى ، توجد الوسائل الكبرى : الديبلوماسية . والمثال الذي يتبادر إلى الذهن في هذا السياق ، هو ملك « أرْدَرْ» الذي بعث إليه « دولبي » ثوبا من الساتان وبغالا مثقلة بالهدايا ، قبل أن ينظم سفر السفيره ماتيولوييز ، إلى باريس ، حيث استقبل في قصر التْويلري وقرأ « دولبي » خطبة على « لويس » الرابع عشر تنازل فيه باسم ملكه وبالنيابة عنه لفرنسا على مساحات من الأراضي وعلى عدد من الموانيء وعلى احتكار التجارة . وبعدما تلقى السفير ضياقة ملكية فخمة في قصر رامبويي اقتيد في موكب يتكون من ثماني عربات لسماع «كونسرت » من المزامر أقيمت تكريما له ، وذلك قبل أن تقام حفلة لتسليته ولبعث الحنين والشوق في نفسه إلى وطنه ، وهي ألعاب قام بها قردة . وقد أعيد إلى القصر في موكب يضاء طريقه بالمشاعل ، ويقال إن باريس قلما رأت في تاريخها قبل ذلك حدثا أعظم وأفخم من استقبال السفير الافريقي .

ولكنه متى عجزت الديبلوماسية نطقت الأسلحة النارية ، وكذلك نازع الهولنديون البرتغاليين في امتلاك موانيء الكونغو وأنجولا ، وضربوا بالمدافع القرى التي تجرأت على المتاجرة مع الفرنسيين في السنيغال .

وفي هذا المضمار ، كما هو الشأن في جميع الشؤون الاستعمارية ، لم تختلف بريطانيا كثيرا عن البرتغال واسبانيا وهولندا . في سنة 1562 ، أرست سفينة بقيادة القبطان ، جون هاوكينز ، في جون غينيا تحمل اسم «المسيح» واستولت بالقوة على شحنات عدد من السفن من العبيد وأخذتهم وباعتهم لأمريكا في مقابل شحنات من السكر.

وبعد هذه العملية «المشجعة» ، ازداد طموح هاوكينز واتصل بملك أفريقي وعقد اتفاقات معه لشراء الأسرى المحتجزين لدى ذلك الملك ، ولكنه بعد وضع الأسرى في الحديد استولى على الملك نفسه وعلى نسائه وحاشيته ووضع الأغلال في أيديهم وأرجلهم . وبهذه العملية وغيرها أصبح من أثرى التجار في أنجليترا . وبعدما وبّخته الملكة اليزابيت الأولى على هذه الأعمال التي لم يكن يبدو لها أنها تتفق مع شرف «جتلمان» ، واصل التاجر هاوكينز ارتقاءه في السلم الاجتماعي ولمع نجمه خصوصا حينما عينته نفس الملكة أمينا على خزانة الأسطول البريطاني ، وحينما خلعت عليه لقبا أريستوقراطيا ، ربما كان القصد منه حمل الناس على نسيان ماضيه الأسود . ولكن هاوكينز أبى بكل عناد أن ينسى الناس شيئا من ذلك ، فرسم على شعار أسرته الايستوقراطية صورة عبد أسود مقيد بالحبال .

تلك قصة تاجر واحد من تجار الرقيق الذين لم يكونوا دائما يصلون إلى مراتب الأريستوقراطية ، ولو أنهم في الغالب ينتهون مثله إلى جمع ثروات طائلة . والأسماء التالية : أرجوين ، وجوري ، والمينا ، وصاوثومي ، ولواندا ، التي تبادلتها الدولة الأروبية مرارا ، ستبقى دائما نقطاً سواء على الخريطة وفي تاريخ التجارة في الرق ، إن نهب الثروات الطبيعية ، بل والسيادة نفسها على فضاعتها ليست جرما فضيعا بالكفاية بالقياس إلى خطف الإنسان ووضعه في الحديد ونقله من محيطه ليعمل ، في السخرة ، هو وأبناؤه وأحفاده من بعده . وإذا كان من الممكن وضع قائمة تصاعدية لجرائم الاستعمار فإن المؤرخ النزيه سوف لا يتردد في أن يضع في رأس تلك القائمة جريمة خطف الإنسان الافريقي واستعباده .

كانت الشركات البحرية الأروبية تشكل اتحادات لكي تواجه الأخطار والخسائر التي تنطوي عليها العمليات . فقد يحدث أن تبقى سفينة في البحر بدون حركة ثمانية أو عشرة أشهر كاملة قبل أن تقوم بعملية . وبهذه الطريقة تحصل

تلك الشركات على احتكار من سلطات بلدها لميناء معين . والشركة الفرنسية الأولى التي منحها ريشليو الاحتكار في سنة 1626 ، هي المسماة «كومباني روانيز» .

وفي سنة 1665 م ، أنشأ كولبير شركة «جزر الهند الغربية» ومنحها امتيازات واحتكارا لهذه الطريق التجارية لمدة أربعين سنة . وقد شمل الاحتكار الطريق والشواطيء الأفريقية الواقعة عليها بين الرأس الأخضر ورأس الرجاء الصالح . وبعدها أنشأ كولبير شركة السنغال للملاحة وأعطاها امتيازات هامة ، وقد كان من اكبر حملة الاسهم فيها علم الفكر والفيلسوف الفرنسي المعروف ، فولتير ، الذي كان يرى ، مثل العديد من مواطنيه أن المال إذا كان له لون ، فهو لا رائحة له .

وفي أنجلترا ، حصلت «شركة المغامرين الملكية» منذ سنة 1661 م على احتكار التجارة في الرقيق في منطقة «الكاب»،أو رأس الرجاء الصالح . وأكبر المساهمين في هذه الشركة ، هم من اللوردات وكبار رجال الأريستوقراطية ودوائر الأعمال البريطانية .

ولكن هذا الاحتكار ألغاه البرلمان البريطاني في سنة 1697 م ، وبذلك انفتح المجال أمام كل مغامر بريطاني يريد المشاركة في رياضة اقتناص العبيد السود .

وهذا الإجراء القانوني كان له مفعول سريع في ازدهار التجارة في اللحم البشري . فإن الشركة الملكية المحتكرة لم توجه سوى 259 سفينة في غضون الفترة بين 1680 ـ 1689 ، ولم تأسر سوى 46,396 عبدا ، بينما بلغ مجموع ما أسرته سفن الخواص في ظرف سنتين فقط (1698 ـ 1700) 42000 عبداً اتجهت بهم إلى جمايكا .

ومن أشهر أنواع الاحتكار وأكثرها تخصصا في هذه التجارة البائسة ، ذلك الذي كانت تبيعه اسبانيا لبلد أو لشركة بحرية للتجارة في مستعمراتها على أساس عدد العبيد ، بل وأحيانا ، على أساس عدد الأطنان المشحونة . وهذا الاحتكار يطلق عليه اسم «أسِيِنْتو» ، وقد بيع لأول مرة في سنة 1518 لتاجر فلامانكي ، ونص الاتفاق على عشرة آلاف طن من العبيد . وكان الملك المسيحي الذي وقع

على هذا الاتفاق ، هو ذلك الأمبراطور ، شارل كينط ، الذي لم تترك الجزائر له ولأسطوله الفرصة للمزيد من التجارة في لحم الافريقيين السود ، حيث بددت ذلك الأسطول في ميناء الجزائر في سنة 1642 ، وانتهى الأمر به إلى التنازل على العرش والانزواء في أحد الأديرة .

دور الأساطيل :

كانت الأساطيل البحرية تلعب دورا حيويا في التجارة في الرقيق . وكانت السفن التي تقوم بالعمليات تحمل أسماء ذات دلالة واضحة على اتجاهاتها وأهدافها ، مثل : « الافريقي » و « الملك دهومي » ، و « السنغال » الخ . ، وكانت تجهز خصيصا للغاية التي بنيت من أجلها ، بمختلف أنواع السلاسل والحبال والمسامر المزدوجة والأغلال والقيود وغير ذلك من الآلات والأدوات الضرورية لإخضاع الإرادة ولشل العزيمة والقضاء على مقاومة الإنسان ثم لحمل السلعة البشرية بأقل ما يمكن من الخسائر.

وكذلك يزود الربابنة بتعليمات تمثل تفاصيلها صفحة فضيعة من الأدب الأسود ، وتشتمل على كل ما تنطوي عليه العملية مثل سعر العبد وحمل الأدوية اللازمة لعلاج الإسهال والعناية بنظافة القدر ، وخصوصا ، عدم التساهل فيما يتعلق بأداء صلاة الصبح وصلاة المساء . وكذلك يجب على الربّان أن يشرف بنفسه على غَرْغَرَة العبيد بعصير الليمون وبالخل لتجنب إصابتهم بدأء الحفر (scorbut)..

وفي مقابل ما تتكبده هذه السفن من العناء في السفر بين القارات الثلاث ، تجني أرباحا طائلة في كل رحلة تقوم بها . وكذلك قامت ثروات عدد من المدن والموانيء الأروبية ، وفي مقدمتها نانت وبوردو وسان مالو وليفربول على ما تجنيه من الأرباح في تجارة العبيد والآبنوس .

وأما الموانيء الواقعة على الشواطيء الافريقية فهي لا تتميز بترف مبانيها ولا بمظاهر الثروة التي تتحلى بها مقابلتها من الموانيء الأروبية . وأهم هذه المباني عبارة عن مستودع صغير ، محصن أشبه ما تكون بسجن يستعمل لإيواء العبيد أثناء فترة انتظار وصول السفينة التي تنقلهم إلى أروبا وأمريكا .

وحول هذا الحصن يحوم جمع من الوسطاء والمترجمين والسحرة والمشعوذين ، وكل ينتظر بجشع ونهم ما يكسبه من العملية . إنهم خليط من السود والبيض والمولدين ، ولكنهم يعيشون في تفاهم ووئام في انتظار اللحظة الحاسمة من تلك الطقوس الفضيعة . والمكاسب المنتظرة معروفة مقدما . فهناك العوائد التي يجنيها الأمير أو الملك الافريقي ، وهي تساوي ما نسميه اليوم ضريبة التصدير ، والهدايا التقليدية التي يوزعها القبطان ، والحقوق الملكيَّة في بيع العبيد ، وهي تجبي على أساس كل رأس من العبيد ، وعمولة الوسيط الخ .

وفي مقابل هذه التجارة الرسمية التي تجري في الموانيء ، يفضل بعض التجار ممارسات مرتجلة بواسطة الملاحة الشاطئية ، ولا سيما حينما يكون عدد الموانيء التي يسمح بالتجارة فيها قليلا ، كما كانت الحالة بالنسبة إلى الفرنسيين . ولكن هذه الطريقة تستغرق وقتا أطول ، وهي لا تخلو من بعض المخاطر . فإن كثيرا من تجار الرقيق الاروبيين الذين ساروا عليها تعرضوا للاعتداء وسلبت منهم اموالهم وحتى ملابسهم ، بل إن البعض منهم لقوا مصيرهم في قِدْر القبيلة ... فإن من المعترف به أن بعض قبائل الأدغال كانت تمارس فعلا اكل اللحم البشري .

وهكذا ، فإن التيار الأساسي للتجارة في الرق كان في جملته ينطلق من مرسى أو محطة بحرية من المحطات الكثيرة المنتشرة على طول الشواطىء الافريقية (أفريقيا السوداء) . وكثير من هذه المحطات أقيمت في جزر مقابلة للشاطيء ، أو على أرض مرتفعة قريبا من الشاطىء يمكن الدفاع عنها .

ويمكننا أن نذكر من بين أهم هذه الجزر التي كانت تستعمل قواعد لتجارة الرقيق أسماء : أرجوين ، وجوري ، والمينا ، وفرناندويووصأوتومي ، ولواندا الخ .

وأما الموظفون الذين يشرفون على إدارة القاعدة من الأروبيين ، فعددهم قليل ، وهم عادة من نوع منحط ، ومن بينهم قسيس يبارك العمليات وطبيب ورئيس للعمال ، وأمين للمخازن وضابط عسكري وعدد من الجنود .

كان الأسطول الاسباني في عهد فليب الثاني قد بددته العواصف عندما وجهه لغزو الجزر البريطانية ، تماما كما حدث لأسطول أبيه ، شارل كينط ،

عندما جاء لإخضاع الجزائر . وأما البرتغال فإن أسطولها لم يكن قط ذا قوة تذكر . وبالتالي ، فإن البلدين قد اضطرا ، بعد الاكتشافات الجغرافية العظيمة التي حققاها في العهد السابق ، إلى إفساح المجال لأساطيل الدول الأروبية الأخرى ، وفي مقدمتها بريطانيا وفرنسا ، لممارسة تجارة الرقيق في المرحلة الأولى ، ثم لاستعمار الشواطيء الافريقية في مرحلة تالية .

وإلى جانب العبيد كان المغامرون الأروبيون ينقلون من أفريقيا السوداء منتجات أهمها التِّبر والآبنوس .

ولكي نعطي فكرة للقاريء عن عناصر حمولة سفينة أروبية ، نقدم كمثال ، حمولة سفينة تابعة لشركة « السنغال » الفرنسية أقلعت من أفريقيا متجهة إلى فرنسا واستولى عليها دائنون ايرلانديون في عرض البحر واحتجزوها ، هي ومنقولاتها التي تتكون من 17 ألف جلد من جلود مختلف الحيوانات و 38 برميل من الصمغ العربي وأكثر من طن من العاج ، وذلك بالإضافة إلى العبيد .

وأهم ما يجري به تبادل المنتجات الافريقية هي : الكحول ومنتجات الحديد والزجاج . والتجار الأروبيون الذين يحملون هذه المنتجات ، ولاسيما الأشياء المصنوعة من الزجاج ، يمكنهم أن يشتروا بها كل ما يريدون من المنتجات الافريقية بما في ذلك الذهب نفسه : والمنادل التي تصنع من قماش أحمر لها قيمة كبيرة عند السود ويحقق بها التاجر الأروبي أرباحا وراء ما يتصوره الخيال . ومثل ذلك الأقراط والأقمشة الملونة . والشيء الذي يستهوي الملوك والأمراء الافريقيين من المنتجات الأروبية بصفة خاصة ، هي الملابس المسرحية القديمة ذات الألوان الزاهية ...

ولكنه بغض النظر عن ضئالة قيمة المنتجات التي يحملها التجار الأروبيون بالقياس إلى قيمة البضائع التي يتبادلونها بها ، فهم كثيرا ما يخلطونها ويغشون بها . فهم ، مثلا يضيفون للكحول كميات من الصابون الاسباني الذي يعطيه رغوة يعتبرها الملوك الافريقيون الدليل القاطع على جودة نوع الخمرة .

والكثير من المنتجات إنما يجري تبادلها بالخمر ، الخمر الذي يقدمه حرس الحصن أيضا لعابر سبيل من الافريقيين ، مجانا وبدون أي مقابل ، وبالكميات

التي تشتهيها نفسه . ولكنه متى استيقظ من سكرته ، وجد نفسه مقيدا بالأغلال والسلاسل ليشحن في أول سفينة قادمة .

وفي وقت لاحق ، أصبحت الأسلحة النارية من أهم المنتجات الأروبية التي يجري بها تبادل المنتجات الافريقية . ولكن الغش شائع أيضا في مجال البنادق والمسدسات التي كثيرا ما تكون من النوع القديم يجري إصلاحها وترميمها ببساطة ، وقد يكون خطرها على مستعملها أكبر من ضررها على من تسددَ إليه من الأعداء ...

وفي مقابل هذه المنتجات التي هي كلها من نوع حقير ، يعود الربابنة الاروبيون إلى بلادهم بسفن مشحونة بالتبر والعاج والصّمغ العربي . وخصوصا بالعبيد الذين تحتاج إلى سواعدهم القوية زراعة القطن وقصب السكر في امريكا ، وإلى سَحْناتهم السوداء ورشاقة أجسامهم وخفتهم قصور الأمراء والتجار في أروبا .



قُسِّمتْ شواطيء افريقيا على المحيط ، كما تبرزها خريطة «دانفيل» التي وضعت في سنة 1729 م ، في امتدادها من جزيرة أرجوين حتى أنجولا ، إلى سبع مناطق ، وهي :

السنغال ، وسييراليون ، وبلاد الغالم ، وغينيا وساحل العاج ، وبلاد الكاوكاو، وساحل الذهب (غانة حاليا) .

ويلاحظ أن الكونغو غير وارد في هذه القائمة على الرغم من طول شواطئه ، وذلك لأن أنجولا التي تتصل بالكونغو قد ظلت تتلقى سَيْل العبيد المتفق من ذلك البلد أجيالا متوالية .

وكل واحدة من المناطق السبع تقدم نوعا خاصا بها من العبيد له شهرته وأسعاره الخاصة به في أسواق النخاسين في أروبا وأمريكا . فبينما اشتهر عبيد ساحل العاج ، مثلا ، بأنهم مزارعون أقوياء السواعد ولكنهم يميلون إلى الإنتحار ، عرف عبيد الكونغو بالجد في العمل وبسعة الصدر والمرح .

وأفضل العبيد وأغلاهم سعرا ، هم الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والعشرين ، ويملكون كل جوارحهم وأسنانهم كاملة وليس على عيونهم

غشاوة ، ويتمتعون بصحة جيدة . وهكذا ، فإن عبدا واحدا من هذا النوع الممتاز يساوي طفلين بين الثالثة والسابعة من العمر .

وشراء العبيد كان يجري على أساس المقايضة وقتا من الزمن ، ولكنه في نهاية الأمر توصل التجار في بعض القواعد إلى اتفاق حول وحدات التعامل النقدية .

وبمجرد ما تصدر السلطات المحلية الافريقية ترخيصا للعمليات تجري المعاملة في العبيد بصورة شبه روتينية . فالعبيد الذي يقتادون من الداخل أو يؤخذون على الشواطيء يجمعون في مخازن قذرة تسمى « باراضون » . وحول هذه المستودعات الفضيعة تجري مناظر جهنمية لا يطيق القلب البشري التفكير فيها فضلا عن روايتها فهناك أمهات فقدن أطفالهن يعولن لفلذات أكبادهن ، والأب الذي خطف من أسرته ، وغير هؤلاء وأولئك ، والقائمة طويلة .

ونحن نحجم عمداً عن التعرض لتفاصيل هذا الموضوع ، ولكننا مع ذلك ننقل قصة تغني عن كل تعليق ، وهي ذات دلالة على أن الإنسان قد يتحوّل إلى وحش متى توفرت لديه الدوافع الكافية . ونحن ننقلها كما هي وبدون تصرف عن كتاب برونو Pruneau pomegorge الذي نشر في سنة 1789 تحت عنوان (description de la Nigritie) ، أو « وصف الزنوجية » ، وكان هذا المؤلف موظفا لشركة الهند التي تعمل في تجارة العبيد مدة 22 سنة على الشواطيء الافريقية . يقول برونو :

« قدِّم إليّ عدد من الأسرى الذين من بينهم امرأة يتراوح عمرها بين العشرين والرابعة والعشرين ، بدت لي وكأنها تمثال للحزن وقد عطب الأسى ملامحها . وكان ثديها المكتنز يوحي إليّ بأنها لابد وأن تكون أمّا فقدت طفلها . ولما كنت أعرف أنني لو سألت المرأة وأجابت عن سؤالي لكلفها ذلك حياتها ، فقد وجهت السؤال إلى النخاس الذي أجاب بالنفي قائلا إنه لا طفل لديها . وعند ذلك خطر لي أن أضغط على ثديها الذي خرج منه الحليب ما يكفي لتغذية طفل رضيع وبذلك تيقنت أن المرأة فقدت رضيعا ولما تضايق النخاس الافريقي من إلحاحي قال لي عن طريق المترجم إنه لا يوجد ما يمنعني من شراء المرأة لأن طفلها سوف يقدم في نفس الليلة طعاما للذئاب . وقع هذا الكلام على أذني وقع الصاعقة ،

وكنت على وشك أن انسحب لكي أتأمل هذا العمل الفضيع ، ولكن فكرة أخرى خطرت في بالي ، وهي أن أشتري المرأة وأنقذ الطفل . ونتيجة لذلك قلت للنخاس إنني على استعداد لشراء المرأة بشرط أن يسلم إلي الرضيع . وعلى الفور أحضر لي الطفل وسلمته إلى أمه التي أرادت أن تشكرني وتعترف لي بالجميل ، فأخذت حفنة من التراب على طريقة الافريقيين وذرتها على رأسها وعلى جبهتها» انتهى .

وهذا الكاتب نفسه يصف لنا شعور العبيد الذين يحملون استعدادا لإبحارهم . ويروي الحادثة التالية التي وقعت وشاهدها في جزيرة جوري .

«تآمر خمسمائة من العبيد لقتل جميع البيض الذين يوجدون في الجزيرة . ولكن طفلا صغيرا يتراوح عمره بين 11 و 12 سنة كان قد سجن معهم لسرقة صغيرة ارتكبها ، قد كشف سرّ المؤامرة للبيض . ولما رجع العبيد من العمل إلى المعسكر الذي كانوا معتقلين فيه ، أحاط بهم البيض ووضعوهم جميعا في الأغلال . وفي الغد أجرى التحقيق لمعرفة المسؤولين عن حبك تلك المؤامرة

ومن الاستجوابات الأولى ، اعترف إثنان من الزعماء بصراحة وشجاعة نادرة قائلين أنهما هما المسؤولين عن المؤامرة ، وأنهما بالفعل كانوا يريدون قتل جميع البيض لا لكرههم ، بل حتى لا يعترضوا طريقهم للفرار وللانضمام إلى قوات ملكهم الشاب ليحملوا السلاح وليقاتلون من أجله» . وهذا التصريح وافق عليه جميع الأسرى بصيحة مدوية : «دنقلة ! دنقلة !» (هذا صحيح !) .

وبعد ذلك أضاف الزعيمان قائلان :

«أمَا وقد اكتشف الأمر الآن ، فنحن نفضل الموت على العبودية» .

«وإثر ذلك قرر البيض إعدام الزعيمين في ساحة عمومية وعلى مشهد من الأسرى ومن جميع سكان الجزيرة ، حتى يكون ذلك عبرة لمن تحدثه نفسه بالثورة .

ولهذه الغاية جمع الأسرى كلهم والسكان في الغد في ساحة عمومية في شكل دائرة بيضاوية الشكل وتركت فتحة في نهاية الدائرة ، ووضع في آخر الفتحة قطعتان من المدافع الصغيرة عبِّئتا بالبارود فقط دون القنابل . وفي مقابل المدفعين وضع الثائران وقتلا بالبارود أمام أنظار جميع الأسرى .

وتحت تأثير هذا الحادث الفضيع والذي ملأ نفوس الأسرى بالرعب ، عاد هؤلاء جميعا في هدوء تام إلى المعتقل .

وبعد خطف الافريقي من أحضان أسرته والتغلب على مقاومته الفردية بقوة السلاح ، وبعد قمع كل مناورة أو ثورة يحاول القيام بها بصفة جماعية لتخليص نفسه من الأغلال ، يكون الجلاد الأروبي قد سيطر الآن على العملية تماما .
وعندئذ تبدأ المرحلة التالية .

يؤخذ الأسرى واحدا بعد واحد وترسم على صدورهم وعلى أفخاذهم علامات العبودية بالحديد المحمر بالنار ، وهي عبارة عن الأحرف الأولى من إسم المالك . وهذه العلامة لا تزول مدى الحياة من جسم العبد البائس .

وبعدما تكتمل الشحنة يجري فرز جديد ويفصل بين الأقارب والأصدقاء ، فيشحن البعض في السفينة بينما يبقى الذين لم يجدوا بعد مشتريا في المستودع (أو البّراصون) . وقد يكون الراحل زوجا أو إبنا أو أخا أو قريبا فيتجه الراحل إلى قارة وربما اتجه الباقي إلى قارة أخرى . وعندئذ يخطو العبد الخطوة الأولى على المعبر إلى السفينة تاركا وراءه وطنه وأسرته إلى الأبد ، يكون بؤسه وشقاؤه قد بلغ أوجه . وبعض العبيد يستغلون في هذه اللحظة قلة انتباه النخاسين فيلقون بأنفسهم في البحر ويغرقون ، بينما يقوم آخرون بخنق أنفسهم . وأما الآخرون فيوضعون في قاع السفينة ويكدّسون عراة ما عدا خرقة لستر العورة للنساء ، ويبدءون الرحلة نحو المجهول .

تأثير الرقيق في التنمية في أروبا وأمريكا :

كانت السفن التي تستخدم لشحن العبيد تمثل خمس مجموع السفن التي تتردد على الشواطيء الافريقية ، بعدما تزايد الطلب والاقبال على العبيد للأغراض المنزلية في أروبا ، وللأغراض الصناعية في الولايات المتحدة الأمريكية . وكذلك أصبح العبد في الثورة الصناعية أكبر عامل لتجميع وتركيم رأس المال .

وبفضل الأرباح المرتفعة التي تحققها تجارة الرق والتي تتراوح بين 300 و 800 ٪ ، استطاع هذا القطاع من التجارة أن يساهم بصورة معتبرة في التنمية الاقتصادية ، وبصفة خاصة في تمويل المشروعات الصناعية . ومساهمة افريقيا

السوداء باليد العاملة التي لا تكلف شيئا من العبيد ، لا تعادلها إلا المساهمة التي ستقدمها في مرحلة تالية بالمواد الخام للصناعة الأروبية في عهد الاستعمار .

وباختصار ، لو استمرت التجارة في الرقيق ونزيف الدم الافريقي في اتجاه أروبا وأمريكا قرنا آخر ، لاختفى جنس الافريقيين السود ، كما اختفى جنس الهنود الحمر من الوجود في أمريكا الجنوبية وفي أمريكا الشمالية تحت وطأة الاستعمار الأروبي .

وقد أثبت البحث الحديث ، كما يقول الكاتب الافريقي ، جوزيف كي زيربو ، أن دور السود في الصناعة في أمريكا الجنوبية ، وفي أمريكا الشمالية ، وفي البرازيل ، كان بمثابة المحرك الدافع . والأمر كذلك فيما يتعلق بتنمية الزراعة والصناعة في جزر بحر الكرايب أيضا حيث كانت نسبة العبيد 11 مرة أعلى من البيض الذين كان دورهم لا يتجاوز توجيه السود للعمل ومراقبتهم (250000 في مقابل 20000) في غضون القرن الثامن عشر كله . وكذلك كان عدد السود في البرازيل أكبر كثيرا من البيض في القرن التاسع عشر ، ولكنهم كانوا ضعفي البيض في أواخر القرن التاسع عشر.

أما في أمريكا الشمالية ، فإن السود لم يجدوا المناخ الذي يستطيعون الحياة فيه إلا في الولايات الجنوبية . وهناك كان العبيد يشكلون العمود الفقري لقوة اليد العاملة في المنازل وفي مزارع وضياع القصب والقطن على السواء . وتبعا لذلك ، وبفضل سواعد العبيد الافريقيين ، ظلت الولايات الجنوبية أكثر الولايات ازدهارا ورخاء حتى حرب الاستقلال . وإذا تناسى الأمريكيون الآن دور الافريقي الأسود في تنمية بلدهم في الوقت الحاضر . فذلك لأن الآلة قد حلت محل اليد العاملة غير المدربة بنسبة معتبرة حتى في الأرياف .

ومع ذلك ، فإن بعض الباحثين الأمريكيين أنفسهم يعترفون بأن «محرّك الآبنوس» كان هو الآلة الوحيدة للتنمية في غضون القرنين السابع عشر والثامن عشر.

فقد كان مالك الأرض في الولايات الجنوبية كثيرا ما يملك مجموعة من العبيد يبلغ عددها 500 وأحيانا 1000 عبد.. وهؤلاء كانوا يعملون ورديات متعاقبة في حقول القصب والأرز والقطن والنيلة والقهوة . وأما في البرازيل حيث

وجد السود أرضا أخصب من الأرض الافريقية فوضعوا فيها كل خبرتهم في زراعة المناطق الحارة ، فقد قيل بحق إن العبيد قد مدنوا تلك البلاد التي كانت تمارس زراعة بدائية قبل وصولهم إليها .

وإذا كان الباحثون يعترفون بدون تحفظ بالدور الهام الذي قام به العبد الافريقي في التنمية في أمريكا ، فهم قلما يشيرون إلى دور المرأة الافريقية التي كانت تؤدي وظيفتها في ظروف قاسية كأم وكزوجة ، وتعمل في نفس الوقت في الأشغال المنزلية وفي الحقل . والنساء الافريقيات كانت نسبتهن لا تتجاوز 2 على 5 بالقياس إلى الرجل ، والمرأة كانت أقوى حنينا من الرجل إلى الكرامة المفقودة والقارة الضائعة ، وقد كانت بمثابة جسر بين العبد الافريقي ووطنه الأصلي .

وفي مرحلة معينة من تاريخ الرق ، تمكن بعض العبيد بفضل صبرهم وذكائهم من الحصول على حريتهم ، واحترفوا مختلف الحرف ، فكان منهم البناء والإسكاف الخ . ، بل كان من هم من أصبح مقاولا ، أو مساعدا لصاحب الضيعة ويحسن استعمال السوط في الحقول وهو يراقب إخوانه سابقا في قيد العبودية وهم يهمهمون بالأغاني الافريقية القديمة .

وفي هذه الأثناء كانت افريقيا ومغنى القبيلة وحياتها دائما في ذهن العبد الافريقي . ومتى نضب الدمع في عينيه وفقدت الأناشيد الافريقية معناها في نفسه ، تحول إلى رجل عنيف وأقدم على الانتحار أو قطع أحد أعضائه ، أو التجأ إلى تخريب ممتلكات سيده ، وأحيانا إلى تسميمه أو قتله بما يقع في يده من الأسلحة .

وهذه الأعمال وما قد يعقبها من التضامن والتعاضد للجاني ، كثيرا ما تنجم عنها أعمال العنف والقمع مع الملاك . وهذا القمع كثيرا ما أدى بدوره إلى ثورات وإلى إبْق العبيد . وقصة العبد الأبق في أمريكا قصة طويلة ومتنوعة في نفس الوقت ولكن هذا المجال لا يتسع إلاّ للاشارة إلى بعض نتائجها السياسية الهامة . فإن جويان الهولندية (سورينام حاليا) إنما نالت استقلالها الذاتي بفضل نواة من العبيد الابقين الذين اعتصموا بالادغال وتكاثر عددهم واشتدت مقاومتهم للسلطة حتى أحرزوا النصر . ونفس الحالة هي حالة « الكيلومبوس » أو زنوج كلومبيا والبيرو وجوتمالا . وهذا أيضا هو ما حدث في جمهورية بالمريس التي تقع في الشمال

الشرقي من البرازيل . وهذه الجمهورية أقيمت على نمط الزعامة الافريقية ، حيث أن السلطة قد انتقلت من رئيسها الأول ، «جانجا زومبيا» إلى ابن أخيه «زومبي» . وكذلك نظم كل شيء في هذه الجمهورية : العدل والأسواق الخ . ، على الطريقة الافريقية . ولما حاول البرتغاليون غزوها واجههم العبيد بحرب الأدغال واستمرت المقاومة بعد ذلك قرنا كاملا ولم يخضعوها إلا في سنة 1697 م .

وفي جزيرة كوبا كان الجنرال أنطونيو ماسيو الذي ينحدر من أصل من العبيد الافريقيين هو الذي قاد ثورة التحرير حتى النصر ضد الاسبان المستعمرين . ولما نصحه أحد الكوبيين بأن يشكل كتائب من السود وأخرى من البيض في جيش كوبا أجابه قائلا :

ولو لم تكن أبيض اللون لأمرت بإطلاق الرصاص عليك حالا ، فأنا لا أريد أن أتهم بالعنصرية مثلك . أغرب عن عيني ، وأنا أحذرك بأنني لن أجد في نفسي الصبر الكافي لو جئتني مرة أخرى بفكرة كهذه ، فإن الثورة لا لون لها ...» .

كانت العقبة الكبرى التي تعترض السود في طريق إقامة دولة خاصة بهم في أمريكا هي عدم وجود لغة مشتركة يتفاهمون بها . ولكنهم على الرغم من ذلك ، استطاعوا إقامة دولة لهم في هايتي في سنة 1804 ، عقب ثورة مظفرة قاموا بقيادة الجنرال «توسان لوفرتور» .

وأما المجتمع البرازيلي فقد نمى وتطور على أساس تخطي اللون والعنصر ، وبعد إلغاء الرق في سنة 1836 ، اختفت فيه كل آثار التفرقة العنصرية .

والافريقيون البرازيليون نجحوا في عدد من المهن والتقنيات وخصوصا في التجارة عبر المحيط مع القارة الافريقية ، وهم يذكروننا في هذا المجال بالعنصر اللبناني في المهجر ، مع الفارق بين الجماعتين لا في اللون وإمكانيات التأقلم فحسب ، ولكن أيضا في البيئة الثقافية والفرص الأصلية . وبعد انحسار النفوذ الاستعماري البرتغالي والانجليزي ، انصهر المجتمع البرازيلي ليشكل أمة متميزة على الرغم من أنها قد اعتمدت النظام الاستعماري القديم إطارا لحياتها .

إلغاء الرقيق :

بدأ الشعور يتبلور في أوربا بالجرائم التي يرتكبها الأروبيون في تجارة الرقيق منذ القرن الثامن عشر ، وكان في طليعة الذين ينادون بإلغاء التجارة في الرق ، عدد من الفلاسفة ، من بينهم فولتير . وكذلك أنشأ إثنان من القساوسة الفرنسيين ، الأب رينال ، والأب جريجوار ، جمعية «أصدقاء السود» التي أقامت بحركة واسعة النطاق لتحرير العبيد . وقد توجت جهودها بقرار اتخذته الجمعية التأسيسية المنبثقة عن الثورة الفرنسية في سنة 1794 م . ولكن القنصل الأول ، نابوليون بونابَرت الذي اشترى عددا كبيرا من العبيد للعمل في جيشه أثناء حملته على مصر ، نقضة . وقد استمر العبيد يشكلون قاعدة للعمل في جيش نابليون المسمّى «الكبير» حتى أصيب بالهزيمة المنكرة التي عرفها عند أبواب موسكو.

وأما البَابَاوات ورؤساء الكنيسة ، فقد باركوا الرّق بشرط تعميد العبيد . ولكنهم في النهاية أدركوا أن هذه الشكلية لم تكن تهم أحدا ، وحتى القساوسة الذين يسافرون في رحلات وسق العبيد لم يكونوا يشكلون سوى عنصرا آخر حزينا في ذلك الديكور الفضيع .

وفي انجلترا ظهرت حركة مقاومة الرق ، أول ما ظهرت ، في صفوف «الكواكرز» و «الميثوديين» ولكن هذه الحركة لم يكن تأثيرها يذكر في الرأي العام قبل أن تسجل بريطانيا تقدما كبيرا في التصنيع . فإن الآلة قد حلت محل اليد العاملة وأدت إلى انتشار البطالة بين البيض ، فأية فائدة من السود ؟ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن الذي تريده بريطانيا هو إكساء القارة السوداء بمنتجات مانشيستر القطنية وتزويدها بالأدوات والآلات التي تنتج في بيرمينجهام ، وبعبارة : فهي تريد تسويق منتجاتها الصناعية في البلدان الافريقية . وعند هذه النقطة التقت المثالية والعواطف الإنسانية السائدة في بعض الأوساط البريطانية بالمصالح الاقتصادية والسياسية القومية العليا .

وهذه المصالح هي التي دفعت بالحكومة البريطانية إلى إنتهاج سياسة القمع ضد تجارة الرق في مستعمراتها الواقعة على ضفاف المحيط الأطلسي . بل أنها كانت توجه سفنا حربية لتبحث في عرض البحر عن السفن التابعة للدول الأروبية الأخرى

والتي تنقل العبيد . ومتى قابلت احدى هذه السفن اعترضت طريقها وضايقتها ، وكثير ما تأسرها .

وهكذا ، فلم تكد تحل سنة 1772 م حتى حرمت الحكومة البريطانية الرقيق في بريطانيا ، وفي سنة 1807 طبقت إجراءات لمنع التجارة في الرقيق في مستعمراتها . وفي سنة 1834 ، حررت بريطانيا جميع العبيد في جميع أنحاء الأمبراطورية .

لقد دامت تجارة الأروبيين في الرقيق أربعة قرون كاملة (من القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر) . وفي غضون هذه الفترة امتصت أروبا أنهارا من دماء الافريقيين ، ولا سبيل إلى معرفة عدد الافريقيين الذين فقدوا حريتهم ووضعوا في السلاسل والأغلال ، وبيعوا في أسواق النخاسين . وأما عناصر الإحصاء التي استخلصها بعض الباحثين من سجلات سفن النخاسين ، فإنها لا تمثل إلا تقديرات تقريبية .

وعلى أساس هذه العناصر وغيرها قدّر «دوبوا» (W. Dubois) مجموع عدد الافريقيين الذين وضعوا في قيد العبودية وبيعوا بخمسة عشر مليونا . وهذا الكاتب يقدر أنه في مقابل كل عبد يصل حيا إلى أمريكا يفقد أربعة حياتهم في الطريق . وهذا معناه أن عدد الأفارقة الذين وضعوا في قيد العبودية يبلغ مجموعه نحو ستين مليون نسمة ، أي أكثر من عدد سكان فرنسا حاليا . ولكنه يجب أيضا إضافة عدد العبيد الذين كانوا يباعون في الشرق (شرق افريقيا) في نفس الفترة . وقد قدّر «لاروسيير» مجموع العبيد الذين وقعوا في قيد العبودية في هذه الفترة حتى سنة 1848 وبما يتراوح بين 90 و100 مليون نسمة .

ويرى برونو يومجورج الذي سبق أن اقتبسنا فقرة من كتابه أن الشاطيء الافريقي على المحيط الأطلسي كان يخرج 45000 عبدا في السنة . ولكنه من أجل أسر هذا العدد كان الأروبيون يقتلون عددا لا يحصى من الرجال .

وقد قدّر «فورسار» الذي كان يكتب في القرن الثامن عشر مجمل ما خسرته افريقيا السوداء في العبارة التالية :

« إذا قدرنا عدد العبيد الذين يستوردون سنويا من عينيا إلى أروبا بـ 36000 ، وضربنا هذا العدد في السنوات السابقة منذ بداية التجارة في الرقيق ، وصلنا إلى رقم فضيع ، وهو عشرة ملايين نسمة » .

ولكن تقديرات هذا الكاتب اتضح فيما بعد أنها وراء الحقيقة كثيرا حيث كان الرقم السنوي للعبيد المستوردين إلى أروبا في عهده هو 100000 وليس 36000 كما خمن هو.

ويمضي هذا الكاتب فيقول :

«ولكننا إذا عرفنا أن في مقابل كل عبد يصل حيا إلى أروبا يقتل أو ينتحر خمسة رجال آخرين . أدركنا أن جشع أروبا وقسوتها قد كلفت افريقيا نحو ستين مليونا من أبنائها . وهذا رقم فضيع حقا » .

وأما الدكتور «كوناي» فقد أورد تقديرا في أطروحته لمجموع العبيد الذين أخذوا من افريقيا وبلغ الرقم 80 مليونا ، بينما يرتفع الرقم الذي وصل إليه «دوكاس» ليبلغ 100 مليون نسمة . وهكذا نرى أن الحد الأدنى للتقديرات هو 50 مليون والحد الأعلى 100 مليون رجل وامرأة . وهذا الرقم تبدو لنا خطورته إذا قارناه لا بعدد سكان افريقيا السوداء في الوقت الحاضر ، بل بعدد سكان تلك البلاد خلال الفترة بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر.

وإلى جانب الأضرار الهائلة التي لحقت بأفريقيا السوداء نتيجة لاستنزاف دمها البشري ، عانت هذه البلاد أيضا نتائج اقتصادية وخيمة . فإن تجارة الاروبيين في الرقيق حرمتها من اليد العاملة الضرورية في الحقل الزراعي . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن العديد من القبائل الافريقية كانت تهاجر من السواحل والمناطق ذات القيمة الاقتصادية خوفا من غارات النخاسين وتلجأ إلى الداخل لتعتصم بالجبال وتعيش في مغارات عيشة البؤس والنكد .

وبالنظر إلى أن تجارة الرقيق كانت ترافقها ، كما أسلفنا ، تجارة في المواد الافريقية ، مثل الذهب والعاج ، التي تدفع في مقابلها منتوجات غير ذات قيمة إطلاقا ، فقد استنزفت تلك المواد الطبيعية وأصيبت الثروة الحيوانية الافريقية ، ولا سيما الفيلة ، بإضرار بالغة .

وزيادة على ذلك ، فقد تسببت تجارة الرقيق في انتشار الحروب بين القبائل التي تسعى كل واحدة منها للانتصار على الأخرى ولأخذ أكبر عدد من الأسرى الذين سيباعون بثمن بخس للأروبيين . وحيث أن السلاح الحديث هو الذي يستعمل في تلك الحروب ، فقد كانت أضرارها أضعاف التي كانت تحدثها الحروب التقليدية . وهكذا يزداد عدد المحاربين الذين يقعون في الأسر بالقدر الذي تزداد به كميات الأسلحة النارية التي تشتريها القبيلة المنتصرة بثمن الأسرى الذين تبيعهم للأروبيين .

وفي هذا السياق كتب يرونو يوميجورج يقول :

«لقد تحولت شعوب افريقيا السوداء نتيجة لجشعنا الإجرامي إلى وحوش ضارية . فالقبائل لا يحارب بعضها بعضا ولا يفتك أحدها بالآخر إلا من أجل الحصول على أسرى لبيعهم إلى الأروبي البربري . بل إن الملوك انفسهم لا يرون في رعاياهم إلا منتجات يبيعونها في مقابل ما يرضي نزواتهم وشهواتهم» .

وهكذا نجد أن أثر تجارة الرقيق في تخريب الأخلاق ونسف القيم الافريقية كان أقوى وأخطر من أي أثر آخر .

التقسيم والغزو والاستغلال :

تختلف خريطة افريقيا في سنة 1882 عن خريطة هذه القارة في سنة 1902 ، اختلافا تاما . فبينما كانت الدول الأروبية في الأولى لا تحتل سوى الجزائر وشريطا ساحليا ضيقا على المحيط الأطلسي ، في الخريطة الأولى ، ترينا الثانية القارة كلها محتلة وقد غرست في مختلف مناطقها أعلام تمثل ثماني دول أروبية ، وهي : أنجلترا وفرنسا وألمانيا والبرتغال وبلجيكا وإيطاليا واسبانيا وتركيا (والبلدان الثلاثة الأخيرة لم تكن تحتل سوى مساحات محدودة) .

وفي سنة 1902 ، لم يبق محافظا على استقلاله سوى ثلاثة بلدان افريقية ، وهي المغرب الأقصى ، (لمدة عشر سنوات فقط) ، وأثيوبيا ، بعدما مرت بحماية إيطاليا لمدة سبع سنوات (1889 ـ 1896) وليبيريا .

وقد ظلت الخريطة الاخيرة بدون تغيير حتى الحرب العالمية الأولى حين تغير وضع المستعمرات الألمانية (توجو والكمرون وجنوب شرق وشرق افريقيا) فدخلت

في الاستعمار البريطاني والبلجيكي والفرنسي . وقد استمر هذا الوضع حتى سنة 1956 ، وهي السنة التي نال فيها السودان استقلاله ، وأعقبته تونس والمغرب الأقصى . وأما في الوقت الحاضر ، فإن خمسين بلدا افريقيا تتمتع باستقلالها ، بينما لا تزال الأعلام الأروبية تظلل عددا صغيرا من بلدان القارة .

والملاحظة الأولى التي تستحق التسجيل بشأن البلدان الافريقية المستقلة هي أنها قد احتفظت جميعها بالحدود التي رسمتها الدول الأروبية في غضون الفترة بين 1885 ـ 1900 ، وهووضع أيدته منظمة الوحدة الافريقية ولا يزال معمولا به .

كان التغيير الذي طرأ على خريطة افريقيا راجعا إلى نتائج مؤتمر برلين الذي عقد في شهر نوفمبر 1884 ، والذي ضم أربع عشرة دولة ، وهي ألمانيا والنمسا وبلجيكا والدانمارك وأنجلترا وفرنسا والبرتغال والولايات المتحدة وهولندا وإيطاليا وتركيا .

وفي يوم 23 فبراير ، 1885 ، أعلن المؤتمر النتائج التي توصل إليها والتي تشمل حرية الملاحة في نهري النيجر والكونغو ، وحرية التجارة في المناطق التي تمتد في أفريقيا الوسطى بين المحيط الأطلسي والمحيط الهندي .

وكذلك اضفت قرارات مؤتمر برلين التي تحدد فيها مصير القارة الافريقية في غياب الافريقيين طابعا رسميا على النظرية الألمانية التي تتعلق بداخل البلاد (Hinterland) ومؤداها أن لكل بلد أروبي يمتلك منطقة على الشواطيء الحق في أن يوسع تلك المنطقة إلى داخل البلد بدون أية حدود ، حتى يصل إلى منطقة تحتها دولة أروبية أخرى ، وذلك بشرط واحد ، وهوأن يبلغ الدول الأروبية الأخرى نصوص الاتفاقيات والمعاهدات التي يعقدها مع الأهالي .

وهكذا اعترفت الدول الأربع عشرة بتفوق القوة على الحقوق الشرعية . وقد اعتبرت قارة بأسرها ملكا شاغرا وأهلها بدون أية حقوق على أراضيهم ، وما على الدولة الأروبية التي تريد أن تقتطع لنفسها قطعة منها أو توسع أملاكها إلا أن تسارع إلى ذلك ، شريطة ألا تمس حقوق دولة أروبية أخرى . وهذا المقام لا يتسع لعرض تفاصيل الغزو الاستعماري لمختلف المناطق الافريقية ، فإن تبعية كل منطقة للدولة الأروبية التي استولت عليها أصبحت معروفة ، ولا تزال تحمل

آثار اللغة والثقافة بل والاتجاه السياسي أيضا في كثير من الحالات ، مما ورثته عن المستعمر الذي لم يرحل عن بعض البلاد إلا شكليا .

وما دامت البلدان الافريقية الواقعة على شواطيء الصحراء الجنوبية كان من سوء حظها أن وقعت كلها في قبضة الاستعمار الفرنسي ، فيبدو من الملائم أن نكرس فقرة لآثار هذا الاستعمار الوخيمة ، ولا سيما ما يتعلق منها بالناحية الاقتصادية والاجتماعية .

كانت الرقعة التي اقتطعتها فرنسا لنفسها في القارة الافريقية رقعة شاسعة ولكن لا تتوفر فيها سوى موارد طبيعية ضئيلة . وهذه الرقعة محرومة أيضا من منفذ إلى البحر ، ولا يمكنها أن تستغل المنافذ الموجودة في شمال افريقية على البحر بسبب الصحراء . ومع ذلك ، فإن الاستعمار سيستغل كل ما يمكن استغلاله في هذه البلاد ، على الأقل ، لكي يقطع أقوال المعارضة اليمينية للاستعمار ، بحجة أنه لا فائدة منه ولا ثمرة تجنى من ورائه .

والنظرية الأولى الصريحة والمتكاملة بشأن المستعمرات هي التي نادى بها البيرسارو (وهي تصدق على كلتا ضفتي الصحراء ، الشمالية والجنوبية) ، ومؤداها أن فرنسا لن تتخلص من عقابيل الحرب (العالمية الأولى) وتتغلب على آثارها الاقتصادية الوخيمة إلا بفضل موارد المستعمرات .

ولغاية استنزاف الأموال من المستعمرات الواقعة في جنوب الصحراء أنشيء عدد من البنوك والشركات الاحتكارية الكبرى التي تجد تأييدا ومساندة كاملة من الإدارة وأهمها : بنك افريقيا الغربية ، والبنك التجاري الافريقي ، والشركة الفرنسية لافريقيا الغربية ، والشركة الصناعية التجارية الافريقية ، وجمعية التجارة لافريقيا الغربية .

وقد كان المعيار الوحيد في التنمية وفي المشروعات العمومية ، مثل مدّ خطوط السكك الحديدية وشبكة الطرق والمواصلات البرية والنهرية ، هو مدى ما تستفيد الشركات الاحتكارية منها .

وبالإضافة إلى هذه المرافق وغيرها من التسهيلات التي تمنحها الإدارة ، ضمنت لها احتكار العمليات بفرض تعرفة جمركية تفضيلية للبيوت والشركات

الفرنسية ، كما أطلقت يدها وأعطتها الحرية لفرض الأسعار التي تشتري أو تبيع بها المنتجات .

وقد كانت النتائج الأولى للاجراءات الادارية التفضيلة القضاء على كل منافسة أجنبية لها ، ولا سيما منافسة الشركات البريطانية التي كانت تعمل من قبل في تلك البلدان . وبذلك عطل واحد من أهم قرارات مؤتمر برلين التي يقوم عليها الاستعمار ، ونعني بذلك القرار الذي ينص على حرية التجارة والملاحة من المحيط الأطلسي الى المحيط الهندي .

ومن جهة أخرى ، فقد منحت الشركات الاستعمارية الفرنسية امتيازات واسعة لملكية الأرض التي اعتبرت بدون مالك شرعي . وهكذا ، فبعد مؤتمر برلين بخمس سنوات فقط (1899 ، وزعت نسبة 70 ٪ من أراضي افريقيا الغربية ، أي مجموع 650000 كيلومتر مربع (وهي مساحة أكبر من فرنسا كلها) على الشركات الاستعمارية الكبرى لاستغلالها لمدة 30 سنة مبدئيا .

وشركة السلطانات وأوبانجوى الأعلى وحدها سوف تستحوذ على 140000 كيلومتر مربع .

وهذه الملكيات الضخمة سرعان ما قضت على الفلاحين والمنتجين الافريقيين الذين أصبح إنتاجهم عاجزا عن المنافسة ولم يعد أمامهم مجال للرزق إلا كعمال في خدمة الشركات الزراعية الاحتكارية .

والإدارة هي التي تقوم بنفسها بتوفير اليد العاملة الزراعية للشركات الاحتكارية، وذلك عن طريق العمل الإجباري . ونفس الإدارة التي هي الحكومة الفرنسية في الحقيقة ، تساند أسعار منتجات الشركات الاحتكارية . ففي أحوال الأزمات ، أي حينما يزيد العرض على الطلب وتنهار الأسعار في الأسواق الدولية ، تأخذ الحكومة المبالغ الضرورية لمساندة الأسعار من صندوق لتثبيت الأسعار تموله الخزينة العمومية .



وقعت أهم التطورات الاقتصادية على شواطيء الصحراء الجنوبية الغربية (الفرنسية سابقا) في غضون العشرية الثالثة من هذا القرن . والتطور الأول بدأ

عندما أعلن البيرساروزير المستعمرات في سنة 1920 سياسته لاستصلاح الأراضي . كانت هذه السياسة طموحة وتنطوي على عدة مشروعات ضخمة . ولكن أصحاب رؤوس الأموال من القطاع الخاص الذين تجعل منهم تلك السياسة الاستعمارية محور الجهود المخططة لم يؤمنوا بها ، وبذلك باءت تلك السياسة بفشل ذريع .

ومن أهم المشروعات التي خططتها الحكومة الفرنسية مشروع ديوان نهر النيجر الذي يقضي بتوفير المياه لري 1750,000 هكتار في منطقة منعطف النيجر ، يقوم باستغلالها مليون ونصف من المزارعين الذين ينقلون إلى المنطقة من الفولتا . وكان الإنتاج المخطط هو 300,000 طن من القطن سنويا ، بالإضافة إلى محاصيل أخرى .

ولكن هذا المشروع الذي استغرق العمل فيه عشرات السنين تقلص إلى حد لم يكن ينتج في سنة 1953 سوى 13000 طن من القطن ومثل تلك النسبة من المنتجات الأخرى ، لأن عدد الهكتارات التي شملها الري لم يكن يتجاوز 25000 هكتار .

ومع ذلك ، فقد أنفقت على المشروع مبالغ خيالية بقيمة العملة في ذلك الزمن ، أنفق معظمها في الأعمال التحضيرية للشركات التي قامت بها . وهذا النوع من مشروعات التنمية عرفته الجزائر وحربته في عهد الاستعمار ، ونحن نكتفي منها بالإشارة إلى مشروع قسنطينة ، وبالتالي ، فليس هناك ما يدعو إلى الدهشة أكثر مما ينبغي .

ولما قامت الأزمة الاقتصادية العالمية في سنة 1929 ، وكان من نتائجها انهيار أسعار الصادرات واجهت تلك البلاد أزمة خانقة كان من أهم أعراضها البطالة ونقص الدخل من الجمارك .

وفي سنة 1934 ـ 1935 ، بدأت أعراض الانتعاش الاقتصادي واضحة ، وقد بلغ مستوى إنتاج المنطقة لزيت الاراشيد نفس المستوى الذي كان عليه في سنة 1930 . وقد استمر هذا الإنتاج في الإرتفاع ليصل في سنة 1937 ـ 722600 طن ، ولكن اقتصاد المنطقة المرتبط بعجلة السياسة الفرنسية سوف يرتطم بالاستعداد للحرب وبقطع الميزانية الفرنسية للمساعدة التي كانت تقدمها للانتاج .

وهكذا انخفض إنتاج الأراشيد الذي هو الإنتاج الرئيسي في المنطقة بحيث لم يكن يتجاوز في سنة 1942 مجرد 231000 طن .

ولكن مصائب قوم عند قوم فوائد ... فإن انقطاع الصلة بفرنسا أثناء الحرب كان من نتائجه ظهور صناعة محلية في بعض بلدان المنطقة ، وخصوصا ، في السنغال . ومع ذلك ، فإن البنية الاقتصادية في المنطقة سوف تحتفظ بطابعها الاستعماري ، حيث أن الزراعة وتسويق المواد الأولية الآتية من المزروعات الصناعية والمعادن ، تشكل 95 ٪ من الناتج المحلي الإجمالي للمنطقة .

وبعض المواد الأولية مرت بأزمة مخربة . وهذه هي الحالة ، خصوصا ، بالنسبة إلى المطاط في غينيا الذي قضى عليه مطاط آسيا ، في سنة 1911 ، وزيت الأراشيد الذي كان في وقت ما يشكل 87 ٪ من قيمة الصادرات سيواجه منافسة الكاوكاو الذي أدخلته السلطات الاستعمارية تعسفا إلى ساحل العاج في سنة 1908 . وأما القطن فقد ظل دائما محصولا ثانويا في المنطقة بحيث لم يكن يتجاوز إنتاجه 16,000 طن في سنة 1938 . وفي مقابل ذلك ازدهرت زراعة الموز في غينيا قبل الحرب العالمية الثانية ، كما أصبح إنتاج الخشب ذا أهمية خاصة ، ولا سيما في ساحل العاج .

كانت نتائج السيطرة الاستعمارية على اقتصاد المنطقة وخيمة بالنسبة إلى الافريقيين الذين جردوا وسلبوا ممتلكاتهم بمختلف الآليات التي أهمها الضرائب الثقيلة وكذلك الرسوم الجمركية على الواردات ، ولا سيما من الآلات الزراعية ، الأمر الذي يضطر معه الفلاح إلى بيع محصولاته التي تشتريها منه الشركات الاستعمارية بأبخس الأسعار ، وذلك قبل أن يبيع الأرض نفسها .

وعندئذ يصبح الافريقي عاملا ويفرض عليه العمل الإجباري في ضيعة الضابط الفرنسي أو في مشروع عمومي ، مثل تعبيد الطرق وبناء المرافق العمومية . وخطوط السكك الحديدية التي تمتد إلى المحيط تنتشر على جنباتها المقابر بشكل لا يزال يسترعي انتباه المسافرين حتى الآن .

والطريقة الأخرى لسلب المزارعين تتمثل في مستودعات البذور التي انشأتها السلطات الاستعمارية والتي تديرها شركة تعاونية كانت قد قامت على مبدإ

اجتماعي سليم ولكنها لم تلبث أن تحولت في كل مكان إلى جماعة للنهب والسلب ، حيث أن البذور التي يقدمها المزارعون على سبيل الاحتياط لا تعود إليهم إلا نادرا .

وبينما يدفع المزارع ثمنا غالبا للاسمدة والآلات التي يستوردها ، تمتص الشركات الاستعمارية كل الأرباح التي يحققها في السلع التي ينتجها للتصدير .

ومطاردة الفلاح بهذه الصورة كثيرا ما تنتهي به إلى الهجرة إلى المدن بحثا عن العمل في المصانع أو في التجارة ، أو يعيش في الأحياء القصديرية .

وهكذا كان سكان السودان يهاجرون إلى السنغال ليعملوا في زراعة الأراشيد ، وسكان الفولتا والنيجر يقصدون إلى ساحل الذهب وساحل العاج .

وهجرة السواعد لا تقل خطورة على الحياة الاقتصادية في البلد من هجرة الأدمغة على الحياة الثقافية . وقد كانت هذه الهجرة مضرة خصوصا ، وأن المهاجرين لا يتقاضون إلا أجورا ضئيلة لا تسمح لهم بتحويل شيء منها إلى بلدهم .

والحربان العالميتان والأزمة الاقتصادية العالمية تركت آثارا لا تمحى في اقتصاد البلدان الواقعة على الضفة الجنوبية من الصحراء . فإن المجهود الإضافي الذي كانت السلطات الاستعمارية تطالب به السكان لتدعيم المجهود الحربي الفرنسي واستيلائها على المواد الغذائية ، والمنتجات التي تسمى استراتيجية ، مثل النفط والقطن والأرز كلها أمور كانت تزيد في فقر السكان وتعاستهم .

وذكريات المجاعات المتوالية في ودّاي والكانم وأوبنجوي والجابون وبلاد دونجون وفي فولتا العليا والنيجر حيث مات من الجوع 15000 نسمة في سنة 1931 ، لا تزال حية في أذهان السكان وتراود مثل كابوس ثقيل . وهذه المجاعات كانت تعقبها ثورات في بعض الأحيان ولكن القوات الاستعمارية كانت دائما تقمعها بدون رحمة ولا شفقة .

وأما الحركة النقابية فيضبطها مرسوم سنة 1937 ، الذي لا يسمح للعامل بالحصول على عضوية في نقابة إلا إذا كان يحسن الكلام والقراءة والكتابة باللغة الفرنسية . ولما قام عمال بإضراب جزئي ألقي القبض على زعماء الإضراب وقتلوا بالرصاص . وعلى إثر ذلك أعلن العمال إضرابا عاما في دكار . ولمقاومة

هذا الإضراب أحضرت السلطات فرقة من جنود بَامْبرا وأمرتهم بإطلاق النار على المضربين . وعندما رفضوا تنفيذ الأوامر ، تراجعت السلطة الاستعمارية عن موقفها ورضيت بإجراء تسوية المشاكل التي أدت إلى الإضراب . ولكنه في سنة 1938 ، وقع إضراب عام آخر في دكار قتل فيه ستة من العمال قبل أن تتنازل السلطات الفرنسية للمفاوضة .

البنية الإدارية الاستعمارية :

كانت الإدارة الاستعمارية الفرنسية في البلدان الواقعة على الضفة الجنوبية الغربية للصحراء تسيطر على منطقة تبلغ مساحتها تسعة أضعاف الأراضي الفرنسية (وعلى التحديد 5 ملايين كيلو متر مربع) . وهذه الأراضي تمتد من صحراء الحوض الجرداء حتى أدغال بلاد «جزي» الكثيفة وما يوبي . وهذا الامتداد وتنوع السكان ، هو الذي حمل الفرنسيين على وضع إدارة مركزة صارمة رغبة في المحافظة على تماسك هذه الأراضي .

ولكنه إلى جانب هذا الاعتبار ، يوجد أيضا اعتبار تاريخي يفسر تصلب الإدارة الاستعمارية ، وهو أن الجمهورية الثالثة ورثت نظامها الاستعماري عن نظام نابليون الثالث المستبدّ .

ونحن نعرف أن الإدارة الفرنسية قد حققت نوعا من الإندماج في السنيغال بسهولة ، بسبب صغر رقعة هذا البلد ، وأن السنغال قد كان القاعدة التي انطلق منها الاستعمار لغزو مختلف بلدان المنطقة . وكذلك حاولت الإدارة الاستعمارية تعميم تجربة السنغال دون أن تعتبر الفوارق العنصرية والثقافية التي تميز كل واحد من تلك البلدان عن الأخرىٰ . وتميزها كلها بالقياس إلى السنيغال .

وهذه النظرة المبسطة هي السبب في فشل سياسة الإندماج في المرحلة الأولى ، ثم سياسة «الارتباط» ((association)) في المرحلة الثانية .

ومن جهة أخرى ، وكما حدث على ضفاف الصحراء الجزائرية ، فإن الأراضي التي احتلتها فرنسا في افريقيا الغربية قد ظلت خاضعة للحكم العسكري مدة طويلة . وهذه الوضعية فرضت نظاما هَرَميّا عموديا يبدأ بحاكم المنطقة العسكرية وتنتهي قمته عند وزير المستعمرات .

كانت افريقيا الغربية في مبدإ الأمر ، تشكل مستعمرة واحدة تتكون من سبع (ثم من ثماني) بلاد ، ولكنه في سنة 1919 ، فصل عنها أعالي السنغال والنيجر لتشكل مستعمرة أخرى (السودان والفولتا العليا) . وأما باقي البلدان ، فهي السنيغال وموريطانيا وغينيا وساحل العاج والنيجر ودهومي . وأما أراضي أفريقيا

كانت افريقيا الغربية في مبدإ الأمر ، تشكل مستعمرة واحدة تتكون من سبع (ثم من ثماني) بلاد ، ولكنه في سنة 1919 ، فصل عنها أعالي السنيغال والنيجر لتشكل مستعمرة أخرى (السودان والفولتا العليا) . وأما باقي البلدان ، فهي السنيغال وموريطانيا وغينيا وساحل العاج والنيجر ودهومي . وأما أراضي أفريقيا الاستوائية الفرنسية (سابقا) ، وهي الكونغو وجابون وأوبنجوى ـ شاري وتشاد ، فقد ضمت في مبدإ الأمر في إطار مستعمرة واحدة . ولكن هذا النظام سرعان ما بدت صعوبة تطبيقه .

والمفروض من الناحية النظرية أن الوزير (وزير المستعمرات) مسؤول تنفيذي أمام الجمعية الوطنية ، وأن هذه الجمعية هي التي تصدر التشريعات التي تتعلق بالمستعمرات ، ولكنه عمليا كان الوزير هو الذي يشرع بواسطة المراسيم . ولما كان الوزير بعيدا عن هذه المستعمرات وكانت سلطته تشمل أيضا مدغشقر وشمال افريقيا والمستعمرات الأسيوية ، فقد كان من غير الممكن أن يحيط علما بشؤون المستعمرات كلها ، ولذلك فقد كان الحكم الحقيقي في يد الإدارة المحلية وعلى رأسها الوالي العام .

وهكذا ، فالوالي العام الذي يمثل الحكومة الفرنسية هو المسؤول عن وضع الميزانية ، وفي نفس الوقت هو القائد الأعلى للقوات المسلحة ورئيس الإدارة الأعلى واعتبارا لهذه السلطة التي تشمل جميع الميادين ، كان المرسوم الذي يصدره الوزير لا يطبق إلا بعد تصديقه عليه ، وهي نفس الوضعية التي كانت تعاني منها الجزائر حيث كان البرلمان يصدر قوانين متحررة في الظاهر ، ولكنه بمجرد ما تشتم منها رائحة الحرية يمارس المعمرون الأروبيون ضغوطا على الوالي العام ، فيجمد القانون والمرسوم على صعيد التطبيق . وبعبارة أخرى ، فإن الوالي العام هنا وهناك كان يتمتع بسلطات تساوي حق النقض لقوانين الجمهورية التي لا تعجبه أو لا تعجب المعمرين الأروبيين .

وأما مجلس الحكومة الذي يتكوّن من مديري مختلف المصالح والذي يساعد الوالي العام ، فقد كان في افريقيا الغربية أشبه ما يكون بمثيله في الجزائر ، نوعا من ختم الشمع ، أو على أحسن تقدير ، جهازا استشاريا .

ولكن محور الإدارة على صعيد الحكم والتنفيذ ، هو في الحقيقة حاكم المنطقة ، فهو الرئيس الأول المهم بالنسبة للأهالي ، لأنه هو المكلف بإعداد القرارات وصياغتها لتعود إليه بعدما يصادق عليها الوالي العام ، ليتولى تنفيذها . إنه في نفس الوقت هو القاضي وفي يده ميزانية منطقته ، وهو المسؤول عن تنفيذ المشروعات العمومية ، وعن قوات البوليس والأمن العسكري ، ومفتش التعليم والصحة ، وفي يده مفتاح مخازن الحبوب ، وباختصار ، فهو كل شيء في كل شيء : إنه الحاكم .

ومما يزيد من تعقيد المشاكل الإدارية التي يواجهها الحاكم بعد المسافات التي تفصل بينه وبين رؤسائه ، من جهة وكثرة تغيير الحكام من جهة أخرى ، بحيث لا يكاد يستقر المقام بالحاكم الجديد ويتعرف على الناس وعلى شؤونهم حتى يصله الأمر بنقله ، وهكذا دواليك .

ولكن الوضعية التي يجد فيها نفسه الحاكم الذي تتراكم في يده السلطات والأموال تجعله عرضة للفساد والرشوة ، بحيث أن سكان هذه المناطق لا يذكرون سوى عدد صغير من الحكام الذين اتسم عهدهم بالنزاهة ، وهم ، لقلتهم يعتبرونهم أبطالا من نوع خاص .

وأما الأغلبية الساحقة من الحكام ، فهم بعدما تنتهي مدة حكمهم يكونوا قد جمعوا ما يسمح لهم برغد العيش طول حياتهم .

على أنه توجد عادة في جنوب الصحراء الغربي لم نعرفها بلادنا لحسن الحظ . وهي أنه عندما يقوم الحاكم الفرنسي بجولة تفتيشية في إحدى المناطق التابعة لإدارته يجتمع السكان ويهنئونه ، وإلى جانب المائدة المتعارفة ، يقدمون إليه ضيافة من نوع خاص يتحدث عنها كاتب افريقي من الفولتا العليا بالعبارات التالية :

«يجمعون أجمل فتيات المنطقة ويدخلونهن إلى الحمام ويزيَّنَّ بالثياب والعطور ، ويقدمن إلى الحاكم لكي يقوم بالاختيار بنفسه . ويقال إن بعض هذه الفتيات يرتعشن كريشة في مهب الرياح ، لأنهن يتصورن أنهن مقبلات على الموت . وذلك لأن البياض في الديانات الافريقية والأساطير القديمة هو لون الكفن ، أي لون الجنازة ...» .

وبعض الحكام الفرنسيين ، فيما يقول نفس الكاتب ، امتنعوا عن استخدام كل ما في أيديهم من السلطة والقوة ، وذلك حتى يثبتوا قوتهم أو ليفرضوا سلطة أبوية ، ولكن الأغلبية الساحقة منهم لم يستطيعوا مقاومة الإغراء واستخدموا القوة للضغط والقمع . والملفات الرسمية مثل ذاكرة السكان الذين عاشوا العهد الاستعماري كلها مليئة بقصص تبعث الرعب في النفوس وتقشعر لها الجلود . وضحايا هذا العهد يروون ما وقع لهم وهم يهزون رؤوسهم التي اشتعلت شيبا بعد الحوادث التي تعرضوا لها مباشرة . هؤلاء لهم فكرة خاصة عن العدل والمساواة والأخوة الفرنسية ...



كان الافريقيون في ظل الاستعمار ينقسمون إلى فئتين أساسيتين : المواطنون الفرنسيون ، وهم سكان الأحواز الأربعة السنيغالية ، والأهالي . فالمواطنون السنيغاليون يتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون . وقد كان لديهم مجلس عمالة ويشكلون دائرة انتخابية ويمثلهم نائب في مجلس النواب الفرنسي ، ولكنهم كانوا يحتفظون بوضعهم الشخصي فيما يتعلق بتعدد الزوجات والارث الخ .

وأما الفئة الثانية من الافريقيين فهم الرعايا ، ووضعهم هو وضع الأهالي (indigénat) . وبموجب مرسوم صدر في سنة 1924 ، تتمتع السلطة المحلية بحق تأديبهم ومعاقبتهم (بالسجن والغرامات) متى ارتكبوا واحدة من سلسلة من المخالفات كالامتناع عن تحية حاكم المنطقة أو العلم الفرنسي . وعقوبة السجن التي استحقها مرتكب المخالفة كثيرا ما تستخدم وسيلة لفرض عمل إجباري عليه بدون أجر .

وفيما عدا ذلك ، لا يتمتع الرعايا بنفس الحق الذي يتمتع به المواطنون الفرنسيون فيما يتعلق بالعلاج في المستشفيات وإنما هم يلجؤون إلى مستوصفات خاصة بهم . ومتى كان الأهلي يعمل في الجيش فإنه قلما يحصل على رتبة عسكرية ، وأعلى رتبة يسمح له القانون بالوصول إليها هي رتبة النقيب .

وأخيرا ... وفي سنة 1937 فتح باب الحصول على الجنسية الفرنسية ، ولكن بعد توفر أحد عشر شرطا ... ولكن هذه الشروط لم تكن تتوفر إلا في

الأقل من القليل . وتبعا لذلك ، فإنه لم يحصل على الجنسية الفرنسية بموجب ذلك القانون سوى 2000 شخص من مجموع 15 مليون نسمة الذين يعنيهم الأمر.

وفيما يتعلق بزعماء المناطق فقد حلت مشكلتهم بطريقة حاسمة . فقد كانت فرنسا ترتبط بعشرات من معاهدات الحماية مع الزعماء الافريقيين ، ولكن هذه المعاهدات مُزِّقت تمزيقا بمرسوم وزاري صدر في 23 أكتوبر ، 1904 ، ويلغي جميع هذه المعاهدات من طرف واحد .

وعقب ذلك وقعت حركة تطهير واسعة النطاق أبعد أثناءها جميع الرؤساء والزعماء الذين لم يقبلوا هذا الاجراء بما كان ينتظر منهم من الرضى والترحيب وفي نطاق هذه الحملة ضد الزعماء الافريقيين ، اختطف ألفَا يَحْي في كوناكري ، على الرغم من أنه كان قد ساند الفرنسيين ، أثناء غزوهم لبلاد «جونياجي» وأرسل إلى دهومي في سنة 1905 . وبعد عودته إلى بلده بوقت قصير ، اختطف مرة أخرى ونقل إلى فورايتيان ، وبقي هناك حتى مات .

ونفس المصير كان ينتظر والي جومبا ، تييرنو عليو الذي اعتقل ونقل إلى جزر «لوس» حيث مات في سنة 1912 .

كانت فرنسا عندما احتلت البلاد لا تملك الإطارات الضرورية ولذلك ، فقد كانت مضطرة إلى الاعتماد على الزعماء المحليين لإدارة الشؤون العامة ، وكل في منطقته . ولكنه في سنة 1910 ، أعلن الوالي العام ، فولهوفن ، أن هذه الزعامات تشكل حاجزا بين فرنسا ورعاياها ولذلك لابد من إلغائهم . وبعد ذلك أصبح الرئيس أو الزعيم الافريقي ، مثل القايد والباشاغا في الجزائر ، لا تتجاوز أهميته كونه أداة طيعة ووسيلة لتنفيذ القرارات على أحط المستويات .

وأما مجلس أعيان الأهالي الذي صرح بإنشائه مرسوم وزاري صدر في سنة 1919 ، فإنه لم يكن له سوى صفة استشارية . والاحواز المختلطة لم يكن عددها في سنة 1939 يتجاوز 23 حوزا (14 منها موجودة في السنيغال) .

كان الجيش وسيلة هامة من وسائل السلطة لمختلف الأغراض . من منا لم يسمع بقناصة السنيغال وبأعمالها في لبنان وفي أماكن أخرى أثناء الحرب العالمية الثانية ؟ والقناصة السنيغالية يجند أفرادها إجباريا ويستخدمون في الحرب

وفي الأشغال العمومية على السواء . كانت حياتهم قاسية ومحفوفة بالأخطار ، مثل اللفيف الأجنبي . وكانوا مثلهم يتسمون بالجرأة والقسوة معا . ولكن العديد من الشبان السنيغاليين كانوا يهربون من الجيش ، ولا سيما بعدما رأوه في الحرب من المشوهين والمعطوبين الذين عادوا إلى بلدهم وهم أشباح ممسوخة في معارك « فيردون » وجحيم « الصوم » وغيرهما .

بل إن الجنود السنيغاليين قد قاموا بعدة ثورات قمعتها السلطات الفرنسية بكل صرامة وعنف ، كما حدث في بلاد « بيليدوجو » وفي « صومبا » .

وفي مقابل ذلك ، وجدت بعض الشعوب الافريقية التي تعودت حياة الحرب في الجيش مجالا واسعا لتحقيق مطامحها . وهكذا بلغ عدد القناصة من أفريقيا في الجيش الفرنسي في سنة 1918 ـ 211000 ، وهي نخبة شباب هذه المناطق .

وعندما يعود هؤلاء القناصة إلى الحياة المدنية يشكلون فئة اجتماعية خاصة تتمتع بفضل المعاش الذي تتقاضاه بحياة مريحة ، متى تجنب الواحد منهم تبديد موارده ، ولكن هؤلاء الجنود المتقاعدين ، يفقدون المكانة الاجتماعية التي كانوا يحتلونها من قبل ، بسبب طول المدة التي يقضونها في الجيش والتي قد تصل إلى 15 سنة .

وكذلك يعود هؤلاء القناصة بأفكار جديدة يعتبرها الحكام ثورية ويتضايقون منها ، وهم ، على كل حال لا يحملون فكرة عالية عن البيض الذين لا يرون فيهم مثالا اخلاقيا يحتذى .

والعامل الآخر الذي استعانت به السلطة الاستعمارية ، هو البعثات التبشيرية . وإذا لم يكن المبشرون قد لعبوا دورا حاسما في الكونغو البلجيكي وفي المستعمرات البرتغالية ، فهم قد قاموا بأدوار متنوعة وهامة في أفريقيا السوداء الفرنسية . ووصول البعثات التبشيرية إلى هذه المنطقة قد وقع في نفس الفترة التي تم فيها غزوها . والمبشرون كانوا في أغلب الأحيان من الفرنسيين ، وعندما يستقرون في الأدغال في عزلة عن العالم الخارجي لا يجد الحكام والمعمرون الفرنسيون شيئا من الإنس إلا في الكنيسة ، وهم بعد ذلك لا يلبثون أن يستغلوا القساوسة والكنيسة نفسها لأغراض سياسية ولتحقيق مئارب شخصية .

وفي مقابل ذلك يستغل المبشرون سلطاتهم لنشر الدّين المسيحي ولجمع الأموال لمشروعاتهم الدينية . أضف إلى ذلك أن بعض الكنائس كانت تمارس الفصل بين البيض والسود والتمييز العنصري .

وأما الدين الإسلامي فقد اعتبره بعض الحكام الفرنسيين مرحلة ضرورية يمرّ بها الافريقيون قبل أن يصلوا ، في رأيهم ، إلى الحضارة الأروبية . ومع أنهم كانوا يشجعون التبشير ، فقد امتنعوا عن مقاومته صراحة . ولكن ضغط الإدارة في مرحلة تالية نجم عنه غلق معظم المدارس القرآنية التي كانت تمثل الإشعاع الثقافي الوحيد في موريطانيا والسنغال وغينيا . ويقول الأستاذ مونتاي المسلم والذي يعتبر في طليعة المتخصصين في شؤون هذه المنطقة ، إن السلطات الفرنسية كانت ترى أنه يجب إدماج المرابطين في المنظور السياسي الفرنسي . ومتى أبدى أحدهم ما يدل على روح الاستقلال وعدم الميل إلى خدمة الأغراض الاستعمارية ، اعتبروه ثائرا .

وهذا بالفعل ما حدث للشيخ حمى الله الذي اشتهر بتقواه وزهده واجتذب عددا كبيرا من الأنصار . فلما رفض العمل بوحيهم سلطوا عليه جمعا من الطرقيين الذين يعملون بأوامرهم ووقعت معركة بين الطرفين قتل فيها 400 شخصا . وإثر ذلك نفي الشيخ إلى الجزائر ثم إلى فرنسا حيث مات .

وكذلك أبعد إلى جابون واتهم بالتحريض على الثورة ، أحمدو بَامْبا ، شيخ الطريقة الموردية الذي أسس مدينة طوبا ، معقل الطريقة ، في باول ، والذي قدر عدد أتباعه بنصف مليون . وعلى الرغم من الصلات الوثيقة التي كانت تربطه بلات ديور ، ملك الباول ، فقد نفوه في المرحلة الأولى إلى جولوف ، قبل أن يبعد إلى جابون .

وقد مات أحمدو بَامبا في سنة 1927 وهو لا يزال تحت الاعتقال المنزلي

وفي مقابل ذلك يستغل المبشرون سلطاتهم لنشر الدّين المسيحي ولجمع الأموال لمشروعاتهم الدينية . أضف إلى ذلك أن بعض الكنائس كانت تمارس الفصل بين البيض والسود والتمييز العنصري .

وأما الدين الإسلامي فقد اعتبره بعض الحكام الفرنسيين مرحلة ضرورية يمرّ بها الافريقيون قبلِ أن يصلوا ، في رأيهم ، إلى الحضارة الأروبية . ومع أنهم كانوا يشجعون التبشير ، فقد امتنعوا عن مقاومته صراحة . ولكن ضغط الإدارة في مرحلة تالية نجم عنه غلق معظم المدارس القرآنية التي كانت تمثل الإشعاع الثقافي الوحيد في موريطانيا والسنغال وغينيا . ويقول الأستاذ مونتاي المسلم والذي يعتبر في طليعة المتخصصين في شؤون هذه المنطقة ، إن السلطات الفرنسية كانت ترى أنه يجب إدماج المرابطين في المنظور السياسي الفرنسي . ومتى أبدى أحدهم ما يدل على روح الاستقلال وعدم الميل إلى خدمة الأغراض الاستعمارية ، اعتبروه ثائرا .

وهذا بالفعل ما حدث للشيخ حمى الله الذي اشتهر بتقواه وزهده واجتذب عددا كبيرا من الأنصار. فلما رفض العمل بوحيهم سلطوا عليه جمعا من الطرقيين الذين يعملون بأوامرهم ووقعت معركة بين الطرفين قتل فيها 400 شخصا . وإثر ذلك نفي الشيخ إلى الجزائر ثم إلى فرنسا حيث مات .

وكذلك أبعد إلى جابون واتهم بالتحريض على الثورة ، أحمدو بَامْبا ، شيخ الطريقة الموردية الذي أسس مدينة طوبا ، معقل الطريقة ، في باول ، والذي قدر عدد أتباعه بنصف مليون . وعلى الرغم من الصلات الوثيقة التي كانت تربطه بلات ديور ، ملك الباول ، فقد نفوه في المرحلة الأولى إلى جولوف ، قبل أن يبعد إلى جابون .

وقد مات أحمدو بَامبا في سنة 1927 وهو لا يزال تحت الاعتقال المنزلي



الفصل السادس عشر

الشعوب الصحراوية في طريق الاستقلال

برزت مشكلة المستعمرات الواقعة على الشواطيء الجنوبية للصحراء بصورة قوية في الفترة التي أعقبت الحربية العالمية الثانية تحت تأثير عدة عوامل ، أولها ما شاهده سكان هذه المستعمرات من أن فرنسا التي طالما قيل أنها لا تقهر إنما كانت تحكمهم بسيف من خشب لم يلبث أن تفتت بعد مقارعة الألمان له . وثانيها أن الشعور الوطني قد نمى بسرعة في هذه البلدان ، وثالثها أن الآلاف من أبناء المستعمرات الذين خاضوا غمار الحرب من أجل الحرية والديمقراطية كانوا يبحثون عبثا عن أي أثر للمباديء التي وهبوا حياتهم من أجلها ، في أوطانهم التي لا تزال ، كما كانت في القرن الماضي ، ترزح تحت أثقال نظام السخرة والتمييز العنصري وغير ذلك من مظاهر الجور والظلم . وهذه الروح الساخطة حاولت الجمهورية الرابعة أن توجهها في قنوات حتى لا تتحول إلى ثورة عارمة لا تبقى ولا تذر ، في وقت لا تزال تلحس فيه فرنسا جراحها .

وهكذا تفتقت العبقرية الفرنسية عن حلول لمشكلة المستعمرات كانت تبدو في الظاهر كلها جديدة ، ولكن الأيام لم تلبث أن كشفت أن الصيغ والمشروعات القانونية المتحررة ليس لها قيمة أكبر من الأوراق التي كتبت عليها إذا لم تكن تعبر عن تحول جذري في عقلية الذين يضعونها . ولكنه فيما يتعلق بأفريقيا الغربية كان للقرارات التي صدرت عن السلطة المركزية في مختلف المراحل ، على الأقل ، أثر واحد ، وهو أنها معالم في طريق التقدم نحو الحرية والاستقلال .

وضعت الجمعية التأسيسية التي انبثقت عن المقاومة الفرنسية مشروعا (في أبريل 1946) تقدميا يعتبر فاصلا بين الماضي والمستقبل حيث تنص المادة 41 منه على أن :

« فرنسا وبلاد ما وراء البحار ، من جهة ، والدول المرتبطة (Etats associes) من جهة أخرى تشكل اتحاد متفقا عليه بالتراضي » .

ولكن هذا المشروع سيكون مصيره الرفض في الاستفتاء الذي جرى بعد ذلك ، تحت تأثير تخاذل الأحزاب اليسارية الفرنسية وضغط القوى الاستعمارية اليمينية .

وبعد ذلك ، لم يكن هناك بدّمن أن يصبح الدستور الذي اعتمد في أكتوبر 1946 ، نسيجا من المتناقضات التي تبرز نياب أفلاطونية إلى جانب سياسة استعمارية تقوم على المراوغة وذر الرماد في العيون سعيا لكسب الوقت ، وريثما تستعيد فرنسا بناء قوات القمع التي تستخدم في تنفيذ تلك السياسة .

وعلى سبيل التصريح بحسن النيات ، ورد في ديباجة ذلك الدستور ما يلي :

« إن فرنسا الوفيه لرسالتها التقليدية تنوي أن تقود الشعوب التي تكلفت بها إلى الحرية لكي تدير شؤونها بنفسها وتسير أمورها بطريقة ديمقراطية » .

وهناك نص آخر يقرر أيضا : «وتنسيق مواردها وجهودها لتطوير حضارة كل منها» .

ولكن الذين فسروا هذه النصوص تفسيرا في اتجاه الحرية والاستقلال ، لم يلبثوا أن أدركوا أنهم وقعوا في خطإ كبير ، لأن نفس الدستور يصرح أيضا « ان فرنسا والعمالات والأراضي الواقعة وراء البحار تشكل وحدة غير قابلة لتجزئة » .

وكذلك يخول الدستور السلطة للبرلمان للتشريع فيما يتعلق بالقوانين الجنائية وتنظيم الحريات العمومية وتنظيم الشؤون الإدارية والسياسية لبلاد ما وراء البحار (المادة 72) .

وبعبارة أخرى ، فإن البرلمان لا يستطيع تغيير أوضاع بلاد ما وراء البحار ما لم يعدل الدستور.

وإذا كان الدستور يتوقع تمثيل تلك الأراضي في البرلمان الفرنسي ، فهو لا ينص على الاقتراع العام لاختيار النواب الذين تنتخبهم . وهكذا ستعين الحكومة الناخبين ممن لا يتمتعون بالجنسية الفرنسية سابقا بين الأعيان وقدماء المحاربين والمثقفين بالفرنسية .

وعلى الرغم من أن الدستور ينص على أن سكان بلاد ما وراء البحار يتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون ، فإن تمثيلهم في البرلمان ليس بنفس النسبة التي يمثل بها الفرنسيون ، لأن هذه النسبة حددت بصفة تحكمية ، وذلك حتى لا تصبح فرنسا ، كما قال إدوارد هيريو ، «مستعمرة للمستعمرات» .

وهكذا كان يجب ، إذا اعتبرنا نسبة عدد سكان بلاد ما وراء البحار ، أن تكون نسبة الذين يمثلون تلك البلاد في البرلمان الفرنسي 60 ٪ من مجموع النواب.

ولكن القانون الذي صدر في أكتوبر 1956 ، حدد عدد النواب الذين يمثلون بلاد ما وراء البحار 38 نائبا فقط ، أي بنسبة نائب واحد لكل 800000 نسمة من السكان ، بينما يبلغ عدد النواب الذين يمثلون فرنسا نفسها في الجمعية الوطنية 544 نائبا ، أي بنسبة نائب واحد لكل 80000 نسمة .

وهكذا ظهر زيف أسطورة الإندماج الذي كان ينادي به بعض الساسة كحل لمشكلة المستعمرات . فلو تحقق الإندماج وجرى الاقتراع لانتخاب مجلس النواب ومجلس الشيوخ الفرنسي بطريقة حرة وعلى أساس «صوت لكل فرد» لوجد الفرنسيون انفسهم أقلية في برلمانهم . ومن هنا التحايل لاختراع صيغ تغطي المشكل حتى لا يتحتم حله .

وهذا الوضع انتقده واحد من غلاة المستعمرين في العبارة التالية :

«إنهم (أي نواب بلاد ما وراء البحار) أكثر مما ينبغي حينما يكون الاقتراع في شؤون تخص فرنسا ، ولكن عددهم لا يكفي لتمثيل بلادهم حينما يتعلق موضوع التشريع بشؤون المستعمرات وبلاد ما وراء البحار . . . » .

وكما عبرت عنه احدى الصحف الفرنسية في ذلك الوقت ، «فإن الفرنسي لا يمكنه أن يقبل تشريعا في شؤون الأسرة تصدره أغلبية من النواب يدينون بتعدد الزوجات » .

وللدوران حول مشكلة نسبة التمثيل وتخطيها ، أنشئت مجالس ، على غرار المجلس الجزائري ، في جميع بلدان افريقيا الغربية منذ سنة 1952 ، زودت بسلطة للمداولة في شؤون الميزانية المحلية وفي الاشغال العمومية ، وفيما عدا ذلك ليس لها سوى صفة استشارية .

وعلى غرار هذه المجالس المحلية أنشىء مجلسان فيدراليتان احدهما في دكار ، لافريقية الغربية ، والثاني في برازفيل لافريقيا الاستوائية ، وقد زودا بصلاحيات مماثلة .

وكما حدث في الجزائر ، فإن الناخبين لهذه المجالس قد قسموا إلى قسمين : الفرنسيين والافريقيين الذين يحملون الجنسية الفرنسية ، من جهة ، والأهالي من جهة أخرى ، وذلك حتى يضمن المعمرون لأنفسهم أغلبية مريحة في تلك المجالس . وهذا التقليد اتبع في جميع المستعمرات وأراضي ما وراء البحار ، وذلك على الرغم من أنه يتناقض مع حرف وروح المادتين 3 و 82 من الدستور المتعلقتان بالمساواة في الحقوق .

وهذه المجالس توجت بمجلس يسمى «مجلس الإتحاد الفرنسي» كانت الجزائر ممثلة فيه ، مثل بلدان افريقيا الغربية ويتكون من 76 عضوا يمثلون بلاد ما وراء البحار و 76 يمثلون فرنسا . ولكن هذا المجلس لم تكن له سوى سلطة استشارية ، على الرغم من أن الدستور يحدد له اختصاصا ، وهو تكييف القوانين لأوضاع بلاد ما وراء البحار الخاصة . وقد ملىء بنواب من هذه البلاد ممن أرادت فرنسا تجميد نشاطهم السياسي في بلادهم ، فأصبح ، على حد تعبير أحد الكتاب «الافريقيين» «حظيرة» للساسة الذين سيتقاعدون» .

***

تعرض الاستعمار الفرنسي لرجات عنيفة في منتصف الخمسينات هزت كيانه كله في آسيا وافريقيا ، وقد كان من غير الممكن الاّ تسري روح التحرر والخلاص عبر الصحراء الى البلاد والأراضي الواقعة في جنوبها الغربي ـ وأهم الأحداث التي وقعت في هذه الفترة وأشعرت فرنسا بأن الاستعمار يحتضر وانه لن يلبث أن يصبح حركة تاريخية ، هي معركة ديان ـ بيان ـ فو التي الحق الفيتناميون فيها هزيمة منكرة بالجيش الفرنسي في سنة 1954 ، وثورة نوفمبر الجزائرية التي ستتردد

أصداؤها في العالم الثالث كله ، ومؤتمر باندونج (سنة 1955) ، ثم استقلال المغرب الأقصى وتونس في سنة 1956 .

وبعد ذلك مباشرة انتشرت عدوى الاستقلال عبر الصحراء فكانت غانة أول بلد في عالم السود ينال حريته واستقلاله (سنة 1957) .

حاولت فرنسا في مبدإ الأمر أن تتجاهل رياح التجديد والحرية على الرغم من أنها قد تحولت إلى عواصف هوجاء لا تبقى ولا تذر في بعض المناطق (مثل الجزائر) ، وظهرت فكرة جمعت حولها أنصارا عديدين في الدوائر الاستعمارية تقول : «لنُطَلّق آسيا ونحتفظ بأفريقيا» . وعلى ضوء هذا الفرض أخذت رؤوس الأموال الفرنسية تنسحب من الهند الصينية لتبحث عن مكان أمين لها في أفريقيا السوداء .

ولكن هذه الدوائر لم تفكر في فرض حجر صحيّ يمنع انتشار الأفكار المتحررة في أفريقيا ، بل إنها لم تفكر حتى في تعديل دستور سنة 1946 الذي ينص على اندماج المستعمرات ، والذي تجاوزته الأحداث كثيرا بعد عمر لم يزد على عشر سنوات . وأما وجود بعض النواب السود في البرلمان الفرنسي وشغل هوفويت بواني لمقعد وزاري في الحكومة الفرنسية ، فهي أمور لا تتجاوز كونها عناصر من «الديكور» في أجهزة الحكم الفرنسية ، في نظر الرأي العام الافريقي .

وفي هذه الظروف كان يتولى وزارة بلاد ما وراء البحار رجل لم يكن ينقصه الخيال والذكاء ، وهو جاسطون دوفير ، أدرك أن الامبراطورية الفرنسية سوف تنهار حتما إذا انتظرت الحكومة تعديل الدستور لكي تتخذ الإجراءات السياسية العاجلة لتدارك الموقف . وكذلك سارع بوضع نظام مؤقت للمستعمرات ريثما يتم تعديل الدستور ، عرف باسم «القانون الإطار» (la loi cadre) . وقد تمت المصادقة على هذا القانون الذي يشكل إطارا للتغيير والإصلاح السياسي ، في 23 يونيو 1956 .

وأهم إجراء اتخذته الحكومة الفرنسية في نطاق هذا القانون . هو ذلك الذي يتعلق بمنح جميع الافريقيين حق الاقتراع . وقد كان لهذا الإجراء أثران هامّان أسرع كل منهما بالمسيرة نحو الاستقلال :

أولهما أن الفلاح والعامل قد أصبح يشعر الآن بكرامته وبأنه لم يعد مواطنا هامشيا من الدرجة الثانية . وثانيهما أن الساسة المحترفين الذين كان كل همهم في الماضي السعي لإرضاء الفرنسيين الذين كانوا سندهم الوحيد ، أصبحوا الآن يتقربون من الشعب ويخطبون وده . وفي نفس الوقت وسع القانون الإطار صلاحيات المجالس المحلية ، ولو أنها لا تزال تابعة للجمعية الوطنية الفرنسية وهي كذلك لا تتمتع بحق لاتخاذ قرار بإنقاذ السلطات التنفيذية المحلية . وبالإضافة إلى ذلك كان القانون الإطار يسوده كثير من الغموض بقدر ما كان إطارا لإصدار مراسم تطبيقية متناقضة .

ومع ذلك ، فإن هذا القانون أسرع بحركة التحرير الافريقي ، خصوصا لأنه عاد بالمداولات والمناقشات من باريس إلى الأرض الافريقية ، وظهرت نتيجة لهذا التطور ثلاثة أحزاب أساسية : «الاتفاقية الافريقية» التي كان يتزعمها سينجور ، «والتجمع الديمقراطي» الافريقي الذي يقوده هوفويت بواني «والحركة الاشتراكية الافريقية» بقيادة الأمين جي .

وفي 31 مارس 1957 ، أجريت انتخابات عامة لشغل مقاعد المجالس المحلية ، وقد نالت فيها حركة هوفويت بواني فوزا كبيرا حيث حصلت على 241 مقعدا من مجموع 474 مقعدا في الأراضي الثلاثة : ساحل العاج وغينيا والسودان (مالي) . ولكنه بالنظر إلى العلاقات المتينة التي كانت تربط زعيم هذا الحزب بالدوائر الاستعمارية ، فقد اعتبر الرأي العام الافريقي انتصاره بفضل نظام للاقتراع ملائم له ، انتصارا لفرنسا .

وبينما كان النزاع على أشد ما يكون بين زعماء التجمع الديمقراطي الافريقي (ذلك النزاع الذي أوشك أن يفجر هذا الحزب في مؤتمره الثالث) بشأن النهج الذي ينبغي لهذه الأراضي أن تسلكه لتحقيق المزيد من الحرية ، تدخلت حوادث الثورة الجزائرية مرة أخرى في مصير هذه الأراضي وعجّلت بالأحداث التي ستدفعها في طريق الاستقلال على الرغم من تردد بعض زعمائها ومعارضة البعض الآخر .

في 13 مايو . 1958 ، أعلن جماعة من قواد الجيش الفرنسي في الجزائر ، وعلى رأسهم شال ، ثورة على الحكومة الفرنسية وهددوا بالانفصال . وقد كان

من نتائج ذلك التجاء فرنسا إلى السياسي العجوز الذي يسكن في «كلومبي ليدوز انجليز» لتسلم إليه مقاليد مصيرها ، وبذلك انهارت الجمهورية الرابعة ، وقامت مكانها الجمهورية الخامسة .

وقد كانت أهم مسألة واجهتها الجمهورية الجديدة هي مسألة المستعمرات التي استنزفت واحدة منها (الجزائر) كل قوى الجمهورية الرابعة .

وكذلك أجري استفتاء لوضع دستور جديد ولتحديد نوع العلاقات بين المستعمرات وفرنسا في نطاق ما كان يسمّى «الجماعة الفرنسية الافريقية» . وطبقا للنصوص الجديدة . تقام جمهوريات تتمتع بالاستقلال الذاتي في أفريقيا وترتبط بفرنسا في الأمور الحيوية ، والمستعمرات التي يجيب سكانها بالسلب في الاستفتاء يكون لها الحق في الاستقلال وتخرج نفسها بنفسها من الجماعة المقترحة»

وفي غمرة هذه الأحداث احتد الجدال والنقاش بشأن ما إذا كان يجب اختيار الاستقلال أو الدخول في الجماعة المقترحة ، وظهور عدد من الأحزاب التي نشطت في الدعوة إلى الاستقلال في جميع هذه الأراضي ، من أهمها حزب الاستقلال الافريقي وحركة التحرير الافريقية التي أنشئت في صيف سنة 1958 والتي كانت لها فروع في جميع هذه البلدان ، بما في ذلك دهومي والفولتا العليا والسنيغال ، ورغم هذه الحركة ، أحمدو ديكو ، هو الزعيم الافريقي الأول الذي رفع صوته عاليا بالدعوة إلى اختيار الاستقلال الوطني على الدخول في مساومات جديدة مع الاستعمار.

وقد حذا حذوه أيضا زعيم الحركة الاشتراكية الافريقية ، الأمين جي ، الذي أعلن أنه هو أيضا يفضل الاستقلال بدون قيد ولا شرط . وأما حزب التجمع الافريقي ، فقد احتد الجدال في صفوفه ولم يستطع الوصول إلى قرار حاسم في الموضوع ، فسمح لكل واحد من فروعه في مختلف البلدان باتخاذ القرار الذي يراه .

وبعد جولة قام بها رئيس الجمهورية الخامسة في مختلف البلدان الواقعة على الشواطيء الجنوبية الغربية للصحراء ، تمكن من إقناع جميع هذه البلدان بالدخول في الجماعة الفرنسية الافريقية ، ما عدا بلد واحد ، وهو غينيا التي صوت

شعبها بالسلب في الاستفتاء . وفي التصريح الذي أدلى به سيكوتوري عقب فرز الأصوات ، قال هذا الزعيم « إننا نفضل الفقر والحرية على الثروة والعبودية ! » .

***

عرفت بلدان افريقيا الغربية (الفرنسية سابقا) مصائر مختلفة في غضون العقد السادس . فأما الاتحاد الفيدرالي الذي أقيم في سنة 1959 ، والذي كان يضم مالي والسنغال ، فقد سار بسرعة في طريق الانهيار باستقلال مالي بزعامة موبيدو كايطا . والواقع أن الجماعة الفرنسية الافريقية قد فشلت تماما في تحقيق أماني
كايطا . والواقع أن الجماعة الفرنسية الافريقية قد فشلت تماما في تحقيق أماني
البلدان التي صوتت « نعم » في الاستفتاء . والذين كانوا يمنون انفسهم بأن ينعموا برخاء مع فرنسا ويساهموا في ازدهارها ويتمتعوا بالحرية والاستقلال في نفس الوقت. لم يلبثوا أن أدركوا أنهم يتعلقون بالأحلام . فبينما ظلت حالة الجماهير الكادحة كما كانت ، تعاني البؤس والحرمان ، بقي العلم الفرنسي المثلث الألوان يرفرف على هذه المناطق كلها (فيما عدا غينيا) ، كما ظلت اللغة الفرنسية اللغة الرسمية ، ونشيد «المارسييز» هو النشيد الوطني للافريقيين ، كما كان منذ بداية الغزو الاستعماري .

وأما الجنسية المكتوبة على جوازسفر الافريقي ، فهي جنسية الجمهورية الفرنسية ،

ومنذ 9 فبراير ، 1959 ، تقرر أن تكون سياسة فرنسا الخارجية هي سياسة الجماعة الفرنسية الافريقية ، وان تكون سفارات فرنسا في الخارج هي سفارات بلدان الجماعة . وأما الجيش الذي يدافع عن الجماعة ، فهو جيش واحد وضع تحت قيادة واحدة ، كما وضعت مصلحة الأمن الداخلي تحت سلطة رئيس وزراء الجمهورية الفرنسية .

وفي الدورة التي عقدها مجلس الجماعة في سان لوي ، في ديسمبر سنة 1959 ، لمس رئيس الجمهورية الفرنسية روح التذمر التي تسود بين زعماء هذه البلاد وخيبة آمالهم في هذا الاتحاد الذي هو اسم بدون مسمي ، ولذلك عجل باستقلال مالي . ولكنه بعد إعلان استقلال مالي مباشرة ، انقسم اتحاد مالي إلى بلدين بفعل عوامل ، منها اختلاف الرأي بين زعماء المنطقتين ودرجة تطور كل منهما ، وخصوصا نتيجة لاصطدامات شخصية .

في السنغال تولى تسيير دفة الحكم الشاعر المعروف ليوبولد سينجور ، على الرغم من وجود معارضة لا تزال قوية حتى الآن . وقد واجه البلد أزمة داخلية منذ المرحلة الأولى من استقلاله ، كان من نتائجها إقامة مَامَدُو ديا من منصب رئيس الوزراء والحكم عليه مدة طويلة بالسجن . وعقب ذلك أعلن قيام نظام للرئاسة لا يزال سينجوريتربع على قمته حتى اليوم .

وأما جمهورية مالي فقد أعلنت استقلالها في 22 سبتمبر 1960 . وقد واجه هذا البلد الشقيق عقب ذلك كثيرا من الصعوبات الاقتصادية كما قام بتضحيات كبيرة بسبب اختياره الاشتراكية نظاما للحكم .

وأما فولتا العليا والدهومي ، فبعدما انضما إلى اتحاد مالي وقتا قصيرا خرجتا منه وشكلتا مع النيجروساحل العاج « مجلس التفاهم » (le conseil de l'Entente).

وعلى عكس ساحل العاج الذي يملك موارد طبيعية هامة ويستقبل كثيرا من رؤوس الأموال التي توظف في التنمية ، فإن الفولطا العليا لا تملك إلا موارد طبيعية ضئيلة ، ولو أنها في مقابل ذلك ، تقع في موقع جغرافي ممتاز ، وسكانها من أنشط السكان في القارة الافريقية .

والدهومي بلد صغير لا يزيد عدد سكانه عن مليوني نسمة . ولكنه بلد غني بالكفاءات والإطارات الجيدة التكوين . وموارد البلد الاقتصادية ضعيفة ، حيث أنها تعتمد أساسا على زيت النخيل . وكذلك عرف هذا البلد كثيرا من الاضطراب السياسي منذ استقلاله في أول أغسطس ، 1960

وأما جمهورية موريطانيا الإسلامية (7,100000 نسمة) التي نالت استقلالها سنة 1966 . فقد دخلت إلى الاستعمال الفرنسي قطعة ، فبعد المعاهدة التي عقدها فيديرت (Faibherbe) حاكم السنيغال مع قبيلة الطرارزة في سنة 1958 ، والتزمت بموجبها بعدم الاقتراب بغاراتها من حوض نهر السنيغال ، تدخلت فرنسا في شؤون البلد الداخلية مستغلة الشقاق بين العرب والبربر ، فأغروا بعض القبائل بطلب الحماية ، وضموها إلى قبائل الطرارزة في سنة 1903 . واستمر الفرنسيون في ابتلاع البلد قطعة بعد أخرى ، ولم تكد تحل سنة 1920 ، حتى اعتبروا موريطانيا وحدة إدارية وواحدة من أراضي افريقيا الغربية الثمانية .

وبعد الاستقلال ، صدر دستور ينص على النظام الرئاسي (الذي يكون فيه رئيس الجمهورية رئيسا للوزارة أيضا) .

وموريطانيا فقيرة من حيث الموارد الطبيعية ، حيث أن معظم أراضيها جزء من الصحراء ، وتنحصر المناطق الزراعية في حوض نهر السنيغال ، في الجنوب . وأغلب السكان بدو يعيشون على الرعي وتربية الماشية . وأهم المزروعات في المناطق الجنوبية هي الدّخن والفاصوليا والبطاطا ، كما تنتج التمور للاستهلاك المحلي (والبلد يملك نحو نصف مليون نخلة) . وقد قامت الحكومة عقب الاستقلال بتنفيذ بعض المشروعات لاستصلاح الأراضي ، وخصوصا في منطقتي كيفا وكانكوسة .

ولكن موريطانيا بلد المراعي وتربية الحيوانات في المكان الأول ، وقد قدرت ثروتها الحيوانية في الأعوام الأخيرة كما يلي : 100,000 جمل و2000000 من المواشي ، و200000 حمار . وكذلك يوجد في أرضها الحديد الخام الذي يتراوح إنتاجه بين 10 و14 مليون طن في الأعوام الأخيرة . وهذه المناجم التي تقع في فورجورو ، تبلغ درجة النقاوة في معدنها 60 ٪ ومعدن النحاس الذي يقع في منطقة أكجوج ذو إنتاج طيب في حدود 6 ملايين طن سنويا .

والتشاد من البلدان الصحراوية التي تحدها ليبيا شمالا وجمهورية افريقيا الوسطى جنوبا ، والنيجر غربا والسودان شرقا . وفي غرب البلاد تقع البحيرة التي تحمل نفس الإسم الذي أطلق على البلد باسم أحد أنواع أسماكها . وهذه البحيرة هي الحد الفاصل بين شرق افريقيا وغربها . والبلد يمثل حلقة اتصال بين مجموعة من الأجناس والثقافات ومنها الثقافة الإسلامية التي تسود بين سكان الشمال . والمسلمون يمثلون 55 ٪ من مجموع سكان البلد . وهم من العرب الذين يشتغل معظمهم بالرعي والهوسا الذين يعملون خصوصا في التجارة . أما السكان غير المسلمين فمعظمهم من الساراس والماسا والموندانج وتنتشر بين أغلبيتهم الوثنية إلى جانب المسيحية . وانتشار الإسلام في التشاد يرجع إلى القرن الخامس الهجري ، ولا سيما في عهد مملكة الكانم . وآخر سلاطين التشاد الذين صارعوا الاستعمار الفرنسي والاستعمار البريطاني في نفس الوقت ، هو رابح الزبيري الذي انهزم في سنة 1900 في معركة «كسوري» وقد كان التشاد في نظر الاستعمار الفرنسي

ذا أهمية استراتيجية حيث يفصل بين افريقية ومستعمراتها في وسط افريقيا وغربها . والتشاد يشكل جزءا مما يسمى بأفريقيا الاستوائية ، مع الجابون وجمهورية افريقيا الوسطى والكونغو برازفيل .

واقتصاد التشاد يعتمد أساسيا على الرعي والإنتاج الزراعي ، ولا سيما من القطن ، وصيد السمك من البحيرة .

وأول حزب سياسي قام في التشاد هو الذي أنشأه جبريال ليزبت في سنة 1947 ، والذي ثبت قواعده خصوصا في الجنوب وعقب انتخابات سنة 1957 ، حصل هذا الحزب الذي يسمى «الحزب التقدمي التشادي» على نجاح هام ، وأصبح زعيمه نائبا لرئيس الوزراء . ولكن المسلمين في الشمال كانوا لا يخفون معارضتهم له ولذلك اضطر إلى التخلي عن زعامته لواحد من مساعديه ، وهو طومبل باي . وأثر ذلك تكتل المسلمون في الحزب الوطني الافريقي . وقد نال التشاد استقلاله في 2 أغسطس ، 1960 . ولكن البلد لا يزال يعاني حتى الآن من أزمة النمو ، وليس هناك ما يدل على أن البلد قد وصل الى المرحلة الاخيرة باستيلاء حسين هبري على زمام الأمور في نجمانه .

السودان :

فتح المسلمون السودان من الشمال منذ القرن الأول للهجرة واستقر كثير من العرب في أرض النبوية . وقد استمرت الهجرة العربية إلى هذه المناطق عبر البحر الأحمر بعد ذلك لتختلط بالسلالات الافريقية وتعطي لشمال السودان تكوينه العنصري الحالي . وإذا كانت القبائل العربية الكبيرة ، مثل البشارين وبني عامر تقطن الجبال المطلة على البحر الأحمر ، فإن مجموعة من القبائل العربية ، مثل الكبابيش والكواهلة قد توغلت في جميع مناطق السودان الأوسط .

على أن الجنوب سيظل بمعزل عن التأثير العربي الإسلامي وسيظل سكانه على الوثنية إلا من اعتنق منهم المسيحية تحت المبشرين الأروبيين ، أو بفضل توسع الكنيسة القبطية في مصر.

والفصل بين شمال السودان الإسلامي وجنوبه الوثني المسيحي بدأ في عهد الاستعمار البريطاني ، حين كان البريطانيون يعتبرون الجنوب منطقة محرمة

على سكان الشمال وراحوا يغرفونه بالبعثات التبشيرية ، في الوقت الذي كانوا فيه يحاربون اللغة العربية ويقاومون التأثير الإسلامي .

كان السودان خلال الفترة بين 1899 ـ 1945 تحت الحكم المشترك ، المصري والبريطاني ، ولكنه بالنظر الى أن مصر كانت محمية بريطانية خلال معظم هذه الفترة ، فإن من البديهي أن حكم مصر للسودان لم يكن إلا إسميا .

ومهما يكن من أمر ، فإن البلدين قد رسما حدود السودان واتفقا على امتداد أراضيه منذ سنة 1899 ، كما اتفقا على أن يكون حاكم السودان بريطانيا تعينه مصر بناء على اقتراح الحكومة البريطانية ، وكان أول حاكم بريطاني للسودان هوكيتشنر الذي كان يساعده عدد من مديري المصالح والإدارات الكبيرة . وهذا المجلس الذي يرأسه الحاكم العام ، كان يمثل الجهاز المركزي للحكم في السودان . وقد قسم السودان إلى سبع ولايات ، وهي : دنقلة وبربرة وكسالى وسيناروفاشوده والخرطوم وكوردفان ، وكانت كل ولاية تقع تحت حكم ضابط بريطاني يساعده ضابط مصري .

وقد كانت أهم الاعتبارات التي يقوم عليها الحكم البريطاني هي تحقيق التنمية الاقتصادية على الطريقة الاستعمارية والقضاء على الاضطرابات التي تعكر الأمن العام .

ومنذ سنة 1910 ، حل الموظفون المدنيون محل الضباط العسكريين على رأس الولايات وفي المصالح الإدارية ، مثل العدل والبوليس والأشغال العمومية والصحة الخ .

ومن أهم المؤسسات التي وضعت أسسها منذ سنة 1902 ، كلية غوردون ، التي كانت في البداية في مستوى مدرسة ثانوية ومدرسة للمعلمين كما ألحق بها في مرحلة تالية قسم تقني لتخريج المهندسين .

وأما في الجنوب فقد ترك التعليم في يد البعثات التبشيرية المسيحية .

ومنذ سنة 1922 ، اتجهت الإدارة البريطانية إلى الاستعانة بالرؤساء المحليين الذين كانوا يتمتعون بنفوذ بين السكان قبل ثورة المهدي لتحقيق ما يسمى « الحكم

غير المباشر» وهذا الاتجاه تعزز ، خصوصا ، بعد تعيين السيرجون ما فّاي حاكما عاما على السودان في سنة 1927 .

وفي سنة 1937 تبلورت هذه السياسة بمرسوم ينص على مجالس للبلديات وعلى وحدات إدارية في الأرياف تتمتع بالاستقلال الذاتي في تسيير شؤونها المحلية .

ومنذ بناء خزان سِنار على النيل في سنة 1925 ، اتجهت الإدارة جديا إلى استصلاح الأراضي ، وكان مشروع الجزيرة الذي يضم مناطق واسعة لزراعة القطن أهم مشروعات التنمية في الفترة التالية ، وكذلك أصبحت زراعة القطن في المناطق الشمالية تنتج بعد ذلك أهم المحاصيل السودانية . وبالتالي ، فقد كانت أثار الأزمة الاقتصادية العالمية التي انهارت فيها أسعار القطن في البورصات العالمية (سنة 1929) وخيمة على الاقتصاد السوداني .

وأما الأمن العام فقد استتبّ في ظل الحراب البريطانية ولم يعرف البلد إلا ثورة واحدة مهمة قامت في منطقة الجزيرة حيث كانت ذكريات مقاومة المهدي لا تزال حية في نفوس السكان ، وقد قمعها الجيش البريطاني بكل قسوة وشنق زعيمها .

وفي سنة 1931 ، خفضت مرتبات الموظفين المحليين من خريجي كلية غوردون نتيجة للأزمة الاقتصادية التي كان يعاني منها البلد . ولكن هؤلاء لاحظوا أن المرتبات التي تدفع للأجانب لم يشملها التخفيض . وللدفاع عن حقوقهم قاموا بإضراب وسويت القضية بحل وسط بينهم وبين الإدارة . ولكن هذا النجاح جعل الخريجين يدركون ما يملكونه من إمكانيات العمل .

وفي سنة 1936 توصلت بريطانيا إلى اتفاق مع مصر يقضي بمنح البلد الأخير بعض التعويضات عن الحقوق التي فقدتها نتيجة لقيام اضطرابات في السودان بنشاط بعض المصريين ، وقد اغتاض الخريجون السودانيون لأنهم لم يستشاروا في هذا الأمر . وكذلك أنشئوا في سنة 1938 المنظمة التي ستتحول إلى حزب سياسي يعرف باسم «مؤتمر الخريجين» .

وفي سنة 1942 تقدم هذا المؤتمر بعريضة إلى الحكومة البريطانية تشتمل على إثني عشر مطلبا في المجال الاجتماعي والسياسي ، أهمها المطالبة بحق تقرير

المصير للسودانيين عقب نهاية الحرب مباشرة ، ووضع تعريف للجنسية السودانية وتأسيس مجلس تشريعي سوداني . ولكن هذه المطالب رفضت أثناء المحادثات التي جرت بشانها بين الطرفين .

وإثر ذلك ظهر اتجاهان في مؤتمر الخريجين : المتشددون الذين طالبوا برد مكتوب من الحكومة البريطانية على العريضة والذين يتقربون من مصر ويرون أن بريطانيا تشكل العائق الأكبر في طريق استقلال السودان ، وقد شكلوا حزبا يسمى فيما بعد «حزب الأشقاء» ، والمعتدلون الذين وضعوا ثقتهم الكاملة في بريطانيا لتقود السودان طبقا لنظرية السودان للسودانيين» .

وعند إجراء التصويت في المؤتمر ، فاز «الأشقاء» بأغلبية كبيرة وتبلورت نظرية هذا الحزب السياسية إلى المطالبة بتشكيل حكومة سودانية تدخل في اتحاد مع مصر تحت التاج المصري .

وفي مقابل هذا الحزب ظهر حزب آخر باسم «الأمة» ينادي بالاستقلال وبالمحافظة على علاقات الصداقة مع بريطانيا ومصر على السواء ، وقد كان زعيم هذا الحزب الأخير هو عبد الرحمن المهدي حفيد المهدي الذي قاد الثورة السودانية التي تحدثنا عنها سابقا ، ووراءه طريقة الأنصار . وأما حزب الاشقاء الذي كان يتزعمه السيد علي الميرغاني ، فقد كانت تؤيده طريقة الختمية .

وفي سنة 1944 ، أنشأت الحكومة مجلسا استشاريا تحت رئاسة الحاكم العام مثلت فيه مختلف المصالح السودانية والأجنبية ولكنه لا يشمل إلا شمال السودان ، وهذا الإجراء عارضة مؤتمر الخريجين بشدة لعدة أسباب ، أهمها ابعاد الجنوب من هذه المؤسسة مما كانوا يفسرونه بنية بريطانيا لتقسيم البلد إلى بلدين ، أو بضم هذا الجزء من الأراضي السودانية إلى أوغندا .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن جميع أعضاء هذا المجلس هم إما من موظفي الحكومة أو من الرؤساء التقليديين الذي يخضعون لتوجيهها بدون قيد ولا شرط ، وبالتالي ، فهم ، في رأي الخريجين لا يمثلون الشعب .

وفي سنة 1946 ، قام حزب الأشقاء وحزب الأمة بمسعى مشترك لدى الحكومة المصرية بمناسبة المفاوضات المصرية البريطانية لتعديل معاهدة 1936 ،

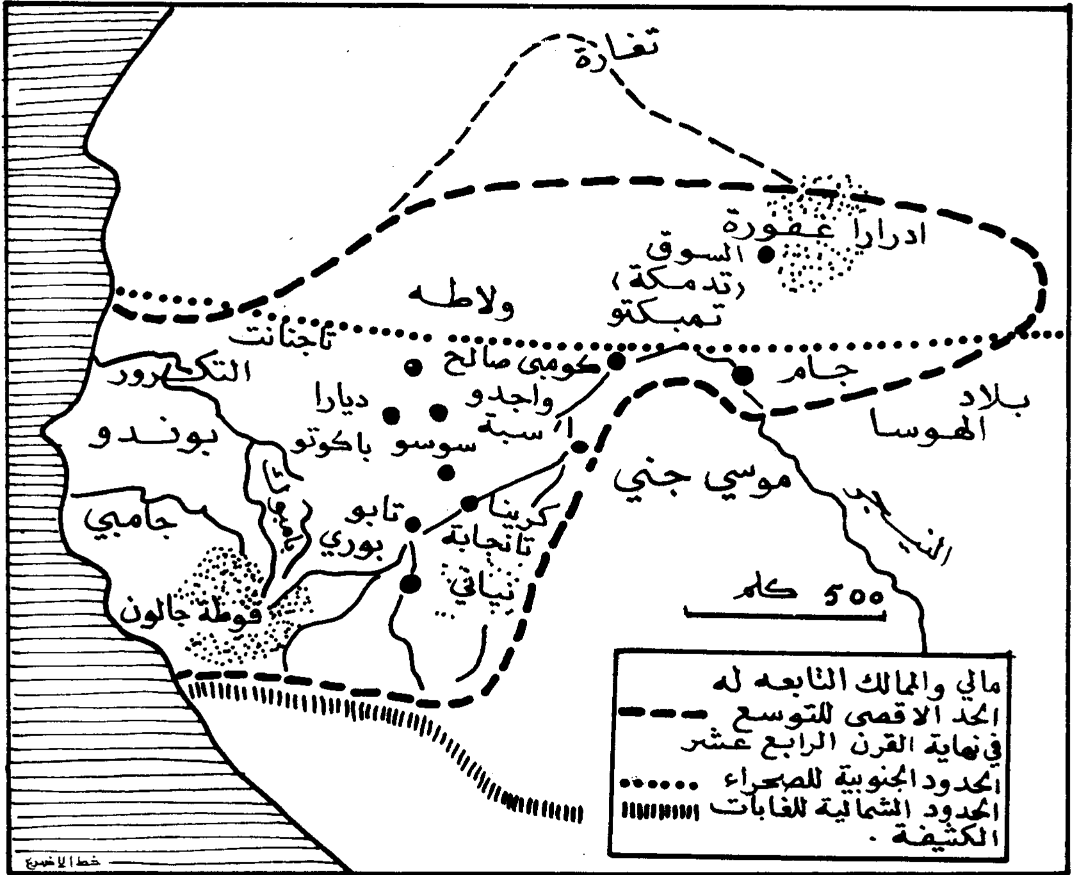
وعرضوا على الحكومة المصرية برنامجا يقضي بإنشاء حكومة ديمقراطية في السودان تدخل في اتحاد مع مصر وفي تحالف مع بريطانيا . وهذا المشروع رفضته الحكومة المصرية ، مما اضطر معه وفد حزب الأمة إلى مغادرة القاهرة . وبينما واصل هذا الحزب تعاونه مع البريطانيين من أجل الحكم الذاتي ، استمر حزب الأشقاء على مبدأ الاتحاد مع مصر ، وقاطع انتخابات سنة 1945 .

وبينما زج باسماعيل الأزهري زعيم حزب الأشقاء في السجن نتيجة للاضطرابات التي وقعت بتنظيم منه في المدن ، أصبح حزب الأمة يسيطر على الجمعية التشريعية التي سضم أيضا أحزابا صغيرة تنادي بالاستقلال .

وبعدما شاهدت الحكومة المصرية . اتجاه السودان الواضح نحو الاستقلال والانفصال ، قامت برد فعل عنيف ، فألغت معاهدة 1936 وأعلنت الملك فاروق ملكا على مصر والسودان . ولكن هذا الإجراء لم يمنع الحكومة البريطانية من منح الاستقلال الذاتي للسودان في سنة 1952 ، مع مجلسين للبرلمان . وبعد الانقلاب العسكري الذي طوح بالملك فاروق ، جرت بين البلدين محادثات أعقبتها انتخابات تولى بعدها اسماعيل الأزهري رئاسة الوزارة بتأييد من مصر .

وبعد جلاء القوات البريطانية عن السودان ، نال استقلاله في 1 يناير 1956 . وفي سنة 1958 ، قام اللواء عبود بانقلاب عسكري تحت ستار اضطرابات خطيرة في الجنوب ، ولكن أحداثا أخرى كانت تنتظر البلد ، حيث أن تحالفا بين الأحزاب السياسية طوح بنظام عبود العسكري في سنة 1964 ، وقد تولى حكم البلاد . وتولى الحكم بعد ذلك العقيد النميري الذي أسقطه انقلاب عسكري ثم أعادة انقلاب عسكري آخر إلى الحكم في سنة 1971 .

*
* *



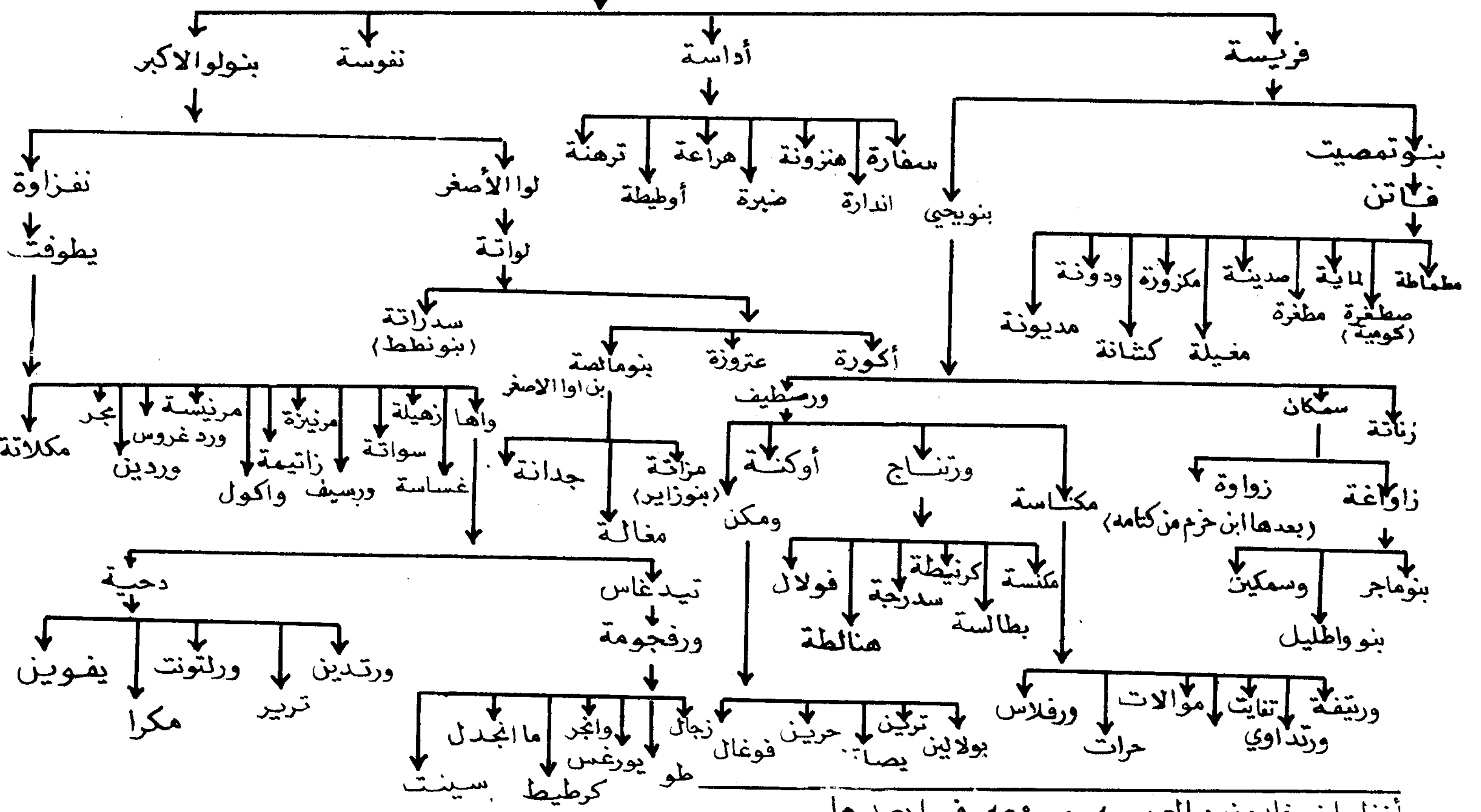
تغازة
ادرارا عفورة
السوق
(تدمكة)
ولاطه
تمبكتو
تاجنانت
التكرور
كومبى صالح
جام
واجدو
ديارا
بلاد
الهوسا
اسبة
بوندو
سوسو باكوتو
موسي جني
كرينا
تابو
بوري
تانجابة
جامبي
النيجر
نياني
500 كلم
قوطة جالون
مالي والممالك التابعه له
الحد الاقصى للتوسع
في نهاية القرن الرابع عشر
الحدود الجنوبية للصحراء
الحدود الشمالية للغابات
الكثيفة.

الصنغاي والممالك التابعه له
حوالي 1520
اقصى توسع لمملكة صنغاي
حدود الممالك التابعة
500 كلم



افريقية الرومانية في اتجاه الصحراء

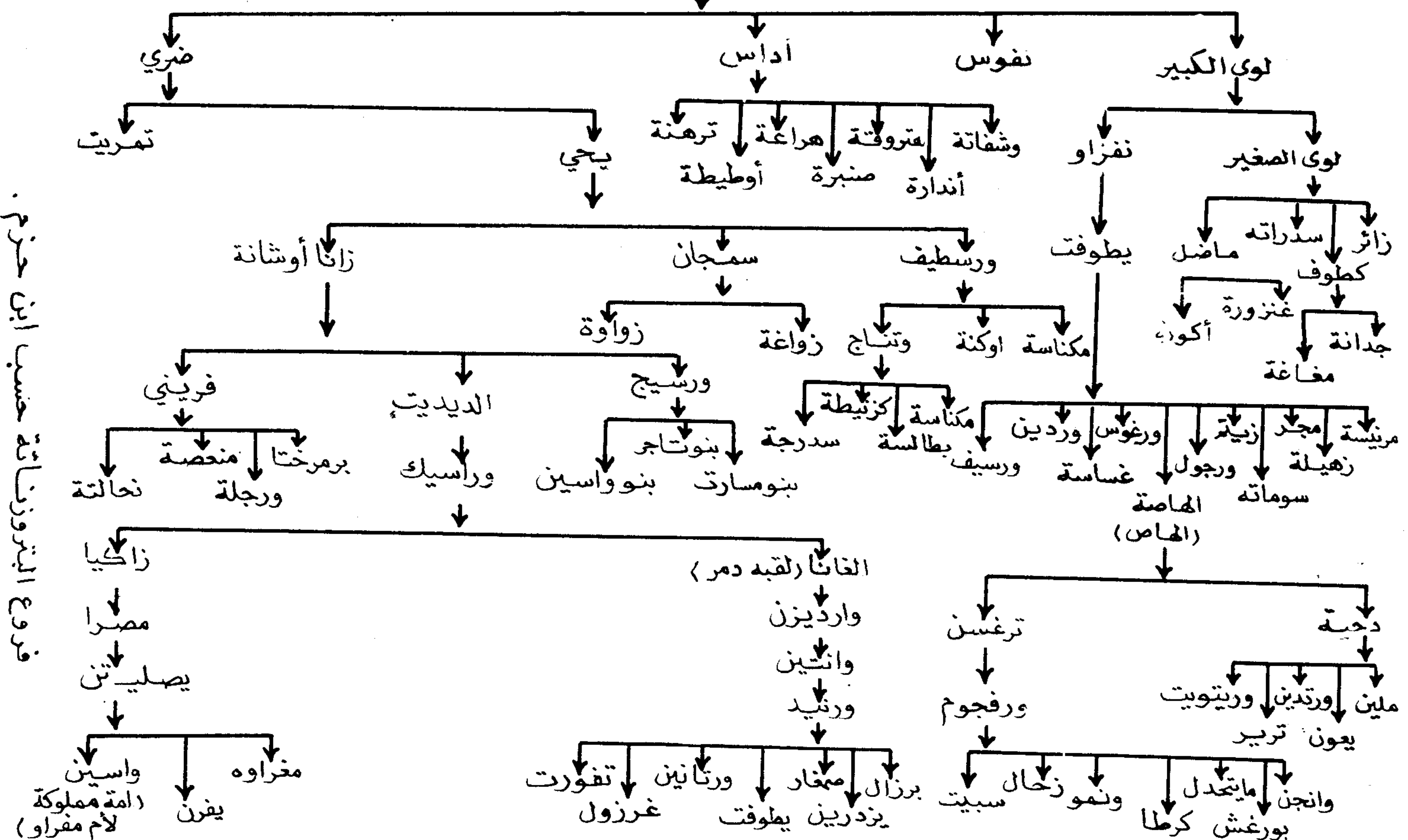
ملحق رقم 1



أنظر ابن خلدون: العبر - 1 - ص 158 فما بعدها.

* بخط الاضرع

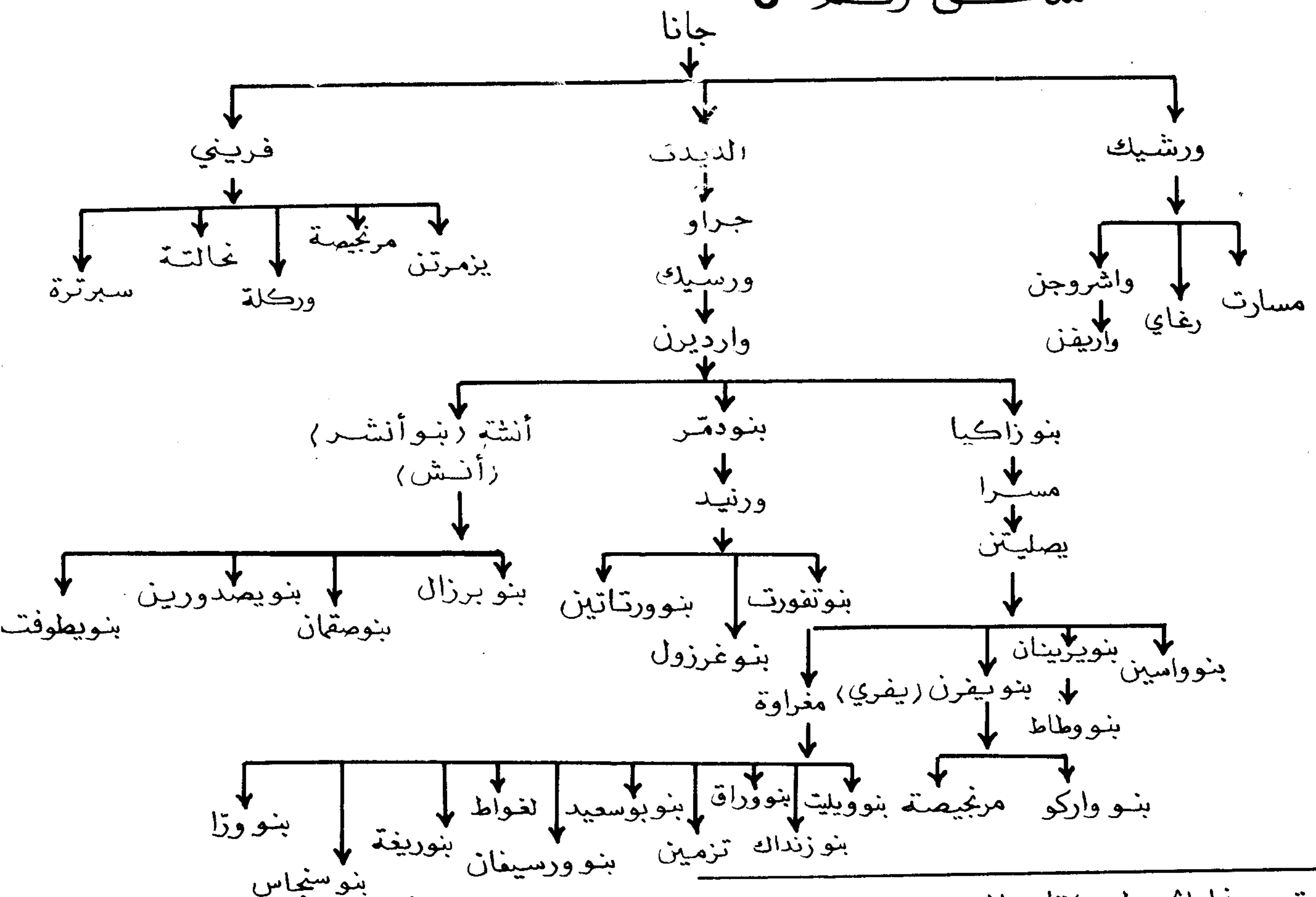
ملحق رقم 2



فروع البتروزناتة حسب ابن حزم.

أنظر ابن حزم : جمهرة انساب العرب، ص 461 فما بعدها.

ملحق رقم 3



فروع زناتة حسب ابن خلدون

(1) اقتبست هذا الجدول كتاب العبر، ج 2، ص 5-6 (ط. دوسلان)؛ وقد أهملت المقارنة التي قام بها ابن خلدون بين ابن حزم وبقية النسابه لأن ماأورده عن ابن حزم موجود في ملحق رقم (2).

* بخط الاضرع

المصادر العربية

أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، القاهرة ، مكتبة النهضة ـ 1972

اسماعيل العربي : المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1982

ابن بطوطة (محمد بن عبد الله) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار
تحقيق دافرامري وسكبنتي باريس 1853 ـ 4 أجزاء

التجاني (أبو عبد الله) : رحلة التجاني ـ تقديم حسن حسني عبد الوهاب
تونس 1958

ابن حوقـل (أبو القـاسم) : كتـاب صـورة الأرض
اعادة الطبع ـ بيروت مكتبة الحياة
الاستبصار في عجائب الأمصار ـ لكاتب مغربي مجهـول
تحقيق زغلول عبد الحميد الاسكندرية ـ 1958

ابن سعيـد (علي بن موسى) : كتـاب الجـغـرافيـا
تحقيق اسماعيـل العـربي
بيروت ـ المكتب التجاري للطباعة والنشر 1970

السـلاوي النـاصري : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ـ القاهـرة ـ 1312

أعلاه ابن خلدون (عبد الرحمن) : كتـاب العـبر
القاهـرة ـ بـولاق 1967
7 أجـزاء

الشاطر بصيلي عبد الجليـل : تاريخ وحضارة السودان الشرقي والأوسط القاهـرة
الهيئة المصرية العامة للكتاب 1972

الشريـف الادريـسي : القارة الافريقية وجزيرة الأندلـس
تحقيق اسماعيل العربي (مقتبس من نزهة المشتاق) الجزائر ـ الديوان الجامعي للنـشر ـ 1982

الاصطخـري : مسالك الممـالك
تحقيق دوخوية ـ ليدن 1927

صفي الدين (بن عبد المؤمن) :

مراصد الاطلاع
تحقيق محمد ابو النجار القاهرة ـ 1954

ابو عبيد اليكري :

المغرب في ذكر افريقية والمغرب .
تحقيق دوسلان
باريس - Maisoneuve - 1965

ابن عذاري :

البيان المغرب
تحقيق ليفي بروفنسال وج . كولان
بيروت ـ 1958
4 مجلدات

أبو الفدا (اسماعيل ـ الملك) :

تقويم البلدان
تحقيق رينو ودوسلان باريس ـ 1840

القلقشندى :

صبح الاعشى في صناعة الانشاء
القاهرة المؤسسة العامة للتأليف والترجمة .

المقدسي (ابو عبد الله) :

أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم
تحقيق دوخوية
ليدن ـ 1872

المقرى (احمد بن محمد) :

نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب
تحقيق احسان عباس
بيروت ـ دار صادر ـ 1968
8 مجلدات

المقريزي (تقي الدين) :
الخطط المقريرية
طبعة بالاوفسيت
بيروت ـ دار صادر في مجلدين

المقريزي :
اتعاظ الحنفاءَ
بيت المقدس ـ 1908

محمد عوض محمد :
الشعوب والسلالات الافريقية .
القاهرة
الدار المصرية للتأليف والنشر

المراكشي (عبد الواحد) :
المعجب في تلخيص اخبار المغرب

المسعودي :
مروج الذهب ومعادن الجوهر
باريس 1861
9 مجلدات

ياقوت الحموي :
معجم البلدان
بيروت ـ (اعادة الطبع) 5 أجزاء

اليعقوبي (احمد) :
كتاب البلدان
تحقيق دوخوية ليدن ـ 1892

المراجع الأجنبية

D'ARBAUMONT (J.). — *Le Tebesti et le domaine*, Tada-Daza, *Bull. ê.F.A.N*, Dakar, 16, 1954, série B., pp. 255-306.

Ahmed BABO MISKE. — *Front Polisario*, Paris, 1978, 381 p.

ANONYME. — *Le peuplement du Sahara*, suivi de : *Les Touaregs Tache-mekkel*, par Lhote ; *mes amis les Maures*, par Pugaudeau ; *Réflexion sur les Tobous*, par d'Arbaumont, Tropiques, Paris, aoot-sept., 1954, p. 23 et suivantes

BANKS (A.L.). — *The Developement of Tropical and sub-tropical countries with particular reference, to Africa*, London, 1954, 217 p.

BATAILLON (C.T.). — *Le Sauf. Etudes de géographie humaine*, Alger, *Pub. de I.R.S.*, 1955, mémoire, n° 2, 140 p. 25 ill., dont 2 cartes.

BELAIR (P.s. . — *Mission au Fezzan*, «Pub. Inst. hautes études.» de Tunisie, Tunis, 1953, 134 p.

BERNARD-VILLARDS (J.). — *L'Empire Gao. Un Etat soudanais au XV^e^ et XVI^e^ siècles*, Paris. Plon. 1942. 214 p.

BISON (J.). — *Le Gourara. Etude de géographie humaine*, Alger, *Bull. de l'I.R.S.*, 1957, mémoire n° 3, 222 p., dont 12 cartes.

BLAUDIN (Bernasd). — *Essai de bibliog. du Sahara*, Paris, arts et métiers, 1960, 261 p.

BLAUDIN (B.). — *Histoire des compagnies méharistes* (1902-1952), Alger, Jmpr., officielle, 1955, 127 p. ill., carte, bibliog.

BLANGUERMON (C.). — *Le Hoggar*, Grenoble, Arthaud, 1955, 56 p. photo.

BONET rMarie Anne). — *Désert apprivoisé*, Paris, Nouvelles Editions, 1933, 207 p.

BONIL (W.). — *Caravans of the old Sahara an introduction to the history of the westren Sahara*, Oxford university Press, 1930, 300 p.

BONIL (W.). — *The Golden trade of the Moora.*

BOUKHARI (M.). — *Tradition du Souf*, Bull. Liais. sah., Alger, t. IV, n° 14 oct. 1953, pp. 34-39.

BOLOI (Dr. J.). — *L'Empire de Gao. Histoire, coutumes et magie de Sonrai*, Paris, Maisonneuve, 1954, 185 p.

BOURELLE (F.). — *L'Evolution politique et juridique de l'Union française depuis* 1949, Paris, librairie générale, 1958, 499 p.

BOUSAC (C.). — *Cerambicidos del Sahara espagnol*. Tamud. 2. 1954. pp. 110-125.

BOUSQUET (G.H.).· — *Du droit coutumier et de ses rapports avec la vie économique dans le Souf*, IBID., t. XII, 2e sem., 1954, pp. 69-112.

BOUSQUET (G.H.s. — Subsiste-t-il des traces de droit coutumier berbère dans le Sud tunisien ? Trav. I.R.S., Alger t.X, 2- sem., 1953, pp. 193-198.

BRIGGS (L.C.). — *The living races of the Sahar desert*, New-York, 1969, 270 p.

CAMPS (Gabriel). — *Les civilisations pèéhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara*, Paris, Doin, 1974, 374 p.

CAMPERON (L.). — *L'idée du transsaharien*, Paris, Tropiques n° 385, juin, 1956, pp. 27-32.

CARETTE (A.H.). — *Exploration scientifique de l'Algérie* (1840-1841). Imps. royale, 1884, 355 p.

CARO-BOROJA (J.). — *Estudios saharianos*, Inst. de estbd. afr. 1953, 302 p. ill. dess.

CAUMEILLE (H.). — *Les Hassouna, tribu nomade du Fezzan*, Bull. liais. sah., Alger, t. IV, n° 19, janvier, 1955, pp. 31-41.

CAT (E.). — *A travers le Sahara*, Paris, 1892, 256 p.

CONONER (Helen F.). — *Africa South of Sahara*, Washington, library of Comgress, 1963. VI-354 p.

CORNEVIN (R. et M.). — *Histoire de l'Afrique* 1) — *Des origines à la Deuxième Guerre mondiale.* 2) — *De la Deuxième Guerre mondiale jusqu'à nos jours*, Paris, Payot, 1974, 19 cartes, 410 p. 445 p.

CORO (F.). — *Usa et costumi dér Tuaregh dei Ghat.* Rev. Etnografia, Naples VI, 1052, pp. 13-20.

CRUCIAN (M.). — *La Sanousya et la conquête des confuns libyens du Tehad surafrique*, Alger. n° 12, 1954, pp. 43-47.

EMRIT rM.). — *Les liaisons terrestres entre le Soudan et lAfrique du Nord au XVIIIe et XIXe siècle*, trav., I.R.S., Alger, t. XI, 1er sem., 1954, pp. 29-47.

ERROUX (J.). — *Les blés des oasis du Sahara*, Thèse science, Alger, 1962.

EYDOUX (H.P.). — *L'Exploration du Sahara*, Paris, Gallimard, 1938, 245 p.

DAVIDSON (Basil). — *L'Afrique ancienne*, Paris, Maspéro, 1978, 2 vol, 190 p. 156 p.

DAUMAS (Eugène). — *Le Sahara algérien*, Paris, Fortin, 1845, 339 p.

DAUMAS (E.). — *Le grand désert*, Paris-Michel-Lévy, 1856, 344 p.

DAUMAS (E.). — *Les chevaux du Sahara et les mœurs du déser!*, Paris, Michel-Lévy, 1858, 438 p.

DAUMAS (E.) et CHANCEL (A.). — *Le grand désert*, Paris, Chais, 1849, XVI, 445 p.

DELAVIGNETTE (R.). — *Chritianisme et colonialisme*, Paris, Fayard, 1960, 128 p.

DESPOIS (J.). — *Géographie de l'Afrique du Nord-Ouest*, Pasis, Payot, 1967, 571 p.

DESPOIT (J.). — *Le djebel Amour*, Paris, P.U.F., 1957, 134 p.

DESCHAMPS (H.). — *Peuples et nations d'Outre-Mer* (Afrique, Islam, Asie du Sud), Paris, Daloz, 1954, 475 p.

DESCHAMPS (H.). — *L'Union française, histoire et institutions*, Paris, Berger-Levreult, 1952, 215 p.

DIETERLEN (G.). — *Essai sur la religion Bambra*, Paris, P.U.F., 1952, 240 p.

DIOP (Cheikh-Anta). — Nations nègre et culture. (Coll. présence africaine), Paris, 1955, 390 p.

DIOP (Cheikh-Anta). — *Unité culturelle de lAfrique noire*. Paris . rprésence africaines. 1959. 205 p.

DIOLE (Pk.). — *Dans le Fezzan inconnu*. Paris, Albin Michel. 1956. 237 p.

FAVROD rCharles). — *Sahara à l'heure de la découverte*, Lausanne, éd. Clairefontaine, 1958, 106 p.

FERRY (J.). — *La fauconnerie dans le terri!oire de Ghardaïa*, Bull. liais. sah., Alger, t. VI, n° 21, 1955, pp. 117-124, 5 photos.

FURON (R.). — *Le Sahara, géologie, ressources minérales*, Paris, Payot, 1977, 300 p., cartes.

GARDI (R.). — *Monographie d'un grand désert* (Traduction d'allemand par Pièrre Chanpendl, Berne, 197, 130 p.

GARCIA (Lieuts. — *Mœurs et coutnmes des Teda*, Bull. Inst. et. centeraf, n° 10, 1955, pp. 167-211.

GARDAIRE (M.s. — *Contribution à l'étude de l'Islam noir*, Paris, Lechevalier, 1949, p. 121.

CARNARD (Octave). — *Au pays de la soif et de l2 peur*, Paris, Alsatia, 1939, 200 p.

GAUDIO (A.). — *Le Sahara des Africains*, Paris, Julliard, 1960, 299 p.

GAUTIER (E.F.). — *Le Sahara*, Paris, Payot, 1923, 174 p.

GAUTIER (E.F.). — *La conquête du Sahara*, Paris, Colin, 1910, 260 p.

GIDE (G.). — *Les nomades du Sahara*, Paris, la marche du monde, 1952.

GINESTOUS (P.). — *Travaux d'artisans à Gafsa*, I.B.L. Tunis, mai 1955, pp. 86-90.

GODARD. — *L'oasis moderne. Essai d'urbanisme saharien*, Alger, maison des livres, 1954, 227 p.

GORRE (G.). — *Sur les traces du père de Foucauld*, Paris, éd. du Vieux Colombier, 1953, 346 p.

COUROU (P.). — *Les pays tropicaux. Principes d'une géographie humaine et économique*, —Paris, P.U.F., 1947, 200 p.

GOUV. GÉNÉ. DE L'ALGÉRIE. — *Les territoires du sud d'Algérie*. Alger. 1930. 384 p.

GOUV. GÉNÉ. DE L'ALGÉRIE. — *Essai de bibliographie*. in : territoises *du sud de l'Algérie*. Alger, 1953, pp. 417-572.

GOUILLY (A.). — *L'Islam dans l'Afrique occidental française*, Paris Larose, 1952, 318 p. carte.

GRÉVIN (E.). — *Voyage au Hoggar*, Paris, Stock, 1936, 215 p.

GUERNIER (E.). — *L'Apport de l'Afrique à la civilisation humaine*, Pasis, Payot, 1952, 245 p.

GUERNIER (E.). — *L'Algérie et le Sahara*, Paris, Ency de l'Empire, 1948, 2 vol in 4°.

HANS GEORGE BANDI. — *L'Age de pierre*, Paris, Albin Michel, 1960, 243 p.

HARDI (G.). — *Le Sahara*, Paris, éd. Alemerre, 1930, 185 p.

HAYWOOD. — *Through Timbuctu and Across theGreat Sahara*. London. Stecleyserpice. 1912, 349 p.

HYDOUX (Henri). — *L'homme et le Sahara*, Paris, Gallimard, 1943, 207 p. pl. cartes.

JAQUES MEUNIER (D.). — *Sur le culte des saints et les fêtes rituelles dans le moyen Draa*, «Hespéris», t. XXXIII, 2e et 3e trim., 1951, pp. 365-381.

JOY (Charles). — *Desert caravans*, London, 1963, 121 p.

LARTTEGUY (J.). — *Sahara*, Paris, Gallimard, 1958, 281 p.

LE BEUF (Anné). — *Les populations du Tchad* (nord du 10e parallèle), P.U.F., 1959, 131 p.

LE LONG (M.H.). — *Le Sahara aux cent visage*, Paris, Alsatia, 1945, 308 p.

LÉON L'AFRICAIN. — *Description de l'Afrique*, Paris, éd. A. Epaulard, Maisonneuve, 1956, 2 vol.

LERUMEUR (G.). — *Saline d'Amador et le géographe El-Bekri*, Bull. liais. Sah, Alger, t. IV, n° 14, 1954, pp. 54-56.

LHOTE (H.). — *Contribution à l'étude de l'Air*, Paris Larose, Mém. I.F.A.N., 1950, pp. 504-507.

LHOTE (H.). — *Contribution à l'étude de touareg soudanais, le Sogmara, les Maghrebren, les expiditions de l'Askaia Mohammed en Air*. Bull., I.F.A.N., Dakar, t. XVII, série B, n° 4-5, juillet 1955, pp. 334-370.

LHOTE (H.). — *L'épopée de Ténéré*, Paris, Gallimard, 1961, 201 p.

LHOTE (H.). — *Expédition de Cornelius Babus au Sahara*, d'après le texte de Pline, *Rev. Af.* Alger, 1954, pp. 41-83.

LHOTE (H.). — *Le Sahara mystérieux*, Paris, Bourrelier, 1937, 128 p.

LEHURAUX (L.). — *La médecine au désert*, Bull. liais, Sah., Alger, t. VII, n° 46 mars-avril 1956, pp. 53-56.

MAIRE (A.) & SAVELLI (A.). — *Aïn Salah et Tidikelt oriental*, Arch., Inst. Pasteur, Alger, t. XXX, déc. 1955, pp. 367-435.

MARÇAIS (PH.). — *Note de sociologie et de linguisitique sur Beni Abbès*, trav. I.R.S., Alger, —t. XIII, 1er trim., 1955, pp. 151-174.

MASON (M.H.). — *The paradice of the fools*, London, Hodder and Stsoughton, 1936, 282 p.

MAUNY (R.s. — *A propos des monuments préhistoriques sahariens*, Bull. liais. Sah., Alger, t. VIII, n° 26, pp. 81-83, 4 ill.

MAUNY rR.). — *Tomboucou: une ville ancignne à trouver*, Tropique, n° 371, mars 1959.

MAUNY (R.). — *Tableau géographique de l'Ouest-africain* au Moyen Age d'après les sources écrites, la tsadition et l'archéologie, Dakar, I.F.A.N., 1961, 588 p.

MERCIER (M.). — *Note sur une architecture berbère saharienne* Hespéris, VIII, 1928, p. 414 et suiv.

MIKWALLY (M.). — *Historo of the relations between the Egyptign and the libyen dessert and the Nile valley.*

MONOD (Théodore). — *Madjâbal al-Koubrâ. Contribution à l'étude de l'Empty Quarter Ouest saharienne*, Dakar, 1958, 407 p.

MONOD (Théodore). — *Méhares, Exploration du sahara*, Paris, éd. Sers, 1937.

NICOLAS (F.). — *La langue berbère en Mauritanie*, I.F.A.N., Mém. n° 33, 1955, 476 p.

NORMAND (S.) et ACKER (h.). — *Sahara*, Paris, Horizons de France 1957, 168 p.

MAUNY (R.). — *Note sur les grands voyages de léon l'Afrique*, Hespéris, Paris, 1954, pp. 379-394.

MAUNY (R.). — *Un itinéraire, transsaharien du Moyen Age*, Bull. liais. Nah., Alger, t. IV, n° 13, juin 1953, pp. 31-41.

MAUNY (R.). — *La navigation médiévale sur les côtés sahariennes antérieures à la découverte portugaise* (1434), Lisbonne, Centro de estudio historico, 1960, 152 p.

MAUSELL (R.). — *People and land in Africa South of the Sahara*, New-York, Oxford Univessity Press, 1972, 335 p.

MAUSSET (P.). — *Ce Sahara qui voit le jour*, Paris, Presse de la cité, 1959, 283 p.

MERCADIER (G.) et RONDRAUX (R.). — *L'oasis rouge*, Alger, 1946, 201 p.

Mélanges Ethnologiques, Dakar, I.F.A.N., 1961, 412 p. bubliog.

MIGLIORINI Elio. — *Exploration du Sahar2*, Turin, 1961, 360 p.

PARRIBAUD (J.). — *Tindouf et le Sahara occidental*, Arch. Inst. Pasteur d'Algérie, Alger, t. XXX, 1952, pp. 223-318, 12 fig.

PANIS (J.C.). — *Le chemin de fer de la Méditerranée au Niger*, Bruxelles, 1956, 138 p. cartes. bibliogr.

PAQUE (Viviene). — *Les Bambra*, Paris P.U.F., 1954, 123 p.

PASSAGER (P.s et BARBAÇON (S.). — *Taghi! (Sud oranais), étude historique, géographique et médicale*, Arch. Inst, Pasteur d'Algérie, Alger, t. XXXIV, 1956, pp. 404-475.

PAULMA (Denise.). — *La civilisation africaine*, Pasis P.U.F., 1953, 128 p., (Coll-Que-sais-je ?)

PEYRÉ (Joseph). — *De sable et d'oè*, Paris, Flammarion, 1957, 220 p.

POLIGNAC (De). — *Exploration du Sahara*, Paris, Challamel, 1895, 342 p.

POMEROI (J.). — *L'Islam africain*, Paris, Fontemoing, 1911 *r*?), 370 p.

POPE (Margret). — *Sahara*, Lausanne, éd. Rencontre, 1968, 192 p.

POTTIER (R.). — *Le Sahara*, Paris-Grenoble, Arthaud, 1950, 190 p.

PROST (A.). — *Note sur le Songhai*, Bull. I.F.A.N., Dakar, t. XVI, 1954, série B. pp. 167-213.

REBILLET. — *Les relations commerciales de la Tunisie avec le Sahara et le Soudan*, Nancy Berge, Levault, 1895, 112 p.

REYASSE rM.). — *Contribution à l'étude des gravures rupestres et inscriptions Tifinar au Sahara*, Alger,Impr. Carbonel, 1932, 98 p.

REYNIER (C.). — *Tiout (Sud oranais), étude historique, géographique et médicale*, Arch. Inst. Pasteur d'Algérie, Alger, t. XXXII, n° 2, juin 1954, pp. 107-141. phot. 2 cartes. bibliog.

REZETTE (R.). — *Sahara occidental et les frontières marocaines*, Paris, Nouvelles éd. latines, 1975, 188 p.

RICHTER (N.B.). — *Uneversalisché Sahara*, Lepzig, F.A., Brockhaure, 1952, 188 p. 6 cartes, 25 dess.

RONODOT (P.). — *L'Islam et les musulmans d'aujourd'hui*, Pasis, éd. Loronte, 1958-1960, 2 vol, pp. 253-375.

ROUCH (J.). — *La religion et la magie songhai*, Paris, P.U.F., 1960, 325 p.

ROUX (J.P.). — *L'Islam en Occident*, Paris, Payot, 1959, 304 p.

ROZET (G.). — *Les premières Oasis et le M'Zab*, Paris, Horizons de France, 64 p.

SCHACHT (J.). — *Sur la diffusion des formes d'architecture religieuse musulmane à travers le Sahara*, trav. I.R.S., Alger t. XI, 1er sem., 1954, pp. 11-27.

SCHIFFERS (H.). — *Le Borkou et ses habitantc*, trav. I.R.S., Alger, t. XV, 1er sem., 1957. pp65-88. 5 fig. VI Pl.

SOLEILET (P.). — *Exploration du Sahara*, Paris. Impr. nationale. 1979. 83 p.

SORAS (A De.). — *L'Algérie et l'anti colonialisme*, Paris, éd. Sepes, 1957, 52 p.

Sutter (K.). — *Ouargla , Ein oase der algerische Sahara geographica*. Helvetica Heft 4, 1956.

SUTTER (K.). — *Etude sur la population et l'habitat d'une régiondu Sahara algérien* : le Touat, Rev. Géog. alpine., Grenoble, t. XII, 1953, 5 fig., pp. 443-474.

SURETS-CANALE (J.). — *L'Afrique noire, géographie et civilisation*, éd. Sociales, 1961, 323 p.

THOMAS (M. Robert). — *Sahara communauté*, Paris, P.U.F., 1960, 299 p.

TREYER (Claude). — *Sahara* (1956-62), Paris, les Belles Lettres, 1966, 344 p.

UROY (Y.). — *Histoire de l'Empire de Bornou*, Dakar, I.F.A.N., 1949, Mém. n° 7. 167 p.

UNESCO. — *Nomades et nomadisme au Sahara*, Paris, 1963.

VAN BERCHEM (M.). — *Sedrata, une ville du Moygn Age ensevelie dans les sables du Sahara*, Doc. Alg. (série monog.), Alger, n° 11, sept, 1953, 6p.

VERLET (B.). — *Le Sahara*, Paris, P.U.F., 1959, 128 p.

VERGNAUD (F.). — *Sahara*. Paris, éd. du Seuil, 1967.

VIOUX rMarcel). — *Au Sahara autour du grand Erg.*, Paris, Fasquelles, 1930, 180 p.

VUILLOT (P.). — *Des Zibans au Djrid, par les chotts algériens*, Rennes, Paris, 1893, 163p.

WEISS (P.). — *Le secret du Sahara*, Paris, Berger-Levault, 1937, 223 p.

WHEELER (M.). — *Les influences romaines au-delà des frontières impériales* (trad. de l'anglais par Marcel Thdmas). Paris, Plon, 1960, 232 p.

WETER Gustane. — *Les croyance sprimitives et leurs survivancec*,Paris, Colin, 1960, 216p.

WOSARD (A.). — *Monuments anti islamiques dans le Sahara occidental*. Bull. Liais. Sah.. Alger, t. VI, n° 21,nov.,1955, 4 ill., pp. 154-158.

ZOHRER (L.G.A.). — *La population du Sahara antérieur à l'apparition du chameau*. Newchâtel. extrait du Bull. soc., Newchateloire de géographie. 1952-53. 133 p.. 144 ill. 4 cartes.

ZOUEIDI (H.). — *Généalogie de Chamba et étymologie du vocable*. «Chamba». Bull. Liais. Sah.. Alger, t. V.n° 21,nov.1955, p.159-160.

* *

فهرس الكتاب

المقدمة صفحة

الخرائط :

كتب أخرى للمؤلف

الشؤون الدولية :

ـ التنمية الاقتصادية في الدول العربية في المغرب (طبعة ثانية)
ـ التنمية الاقتصادية في الدول العربية في المشرق (طبعة ثانية)
ـ التكتل والاندماج الاقتصادي بين الدول المتطورة (طبعة ثانية)
ـ التعاون الاقتصادي للتنمية في نطاق المنظمات الدولية (طبعة ثانية)
ـ هيئة الأمم المتحدة والتنمية الاقتصادية في البلدان المتطورة (طبعة ثانية)
ـ فصول في العلاقات الدولية ..
ـ المنظمات الدولية والاقليمية ـ دساتيرهان أو وظائفها
ـ نماذج من روائع الأدب العالمي (أربعة أجزاء)
ـ حاضر الدول الاسلامية في القارة الافريقية

التاريخ :

ـ دولة بني زيري ملوك غرناطة
ـ دراسات في تاريخ الجزائر الحديث
ـ المقاومة الجزائرية تحت لواء الامير عبد القادر
ـ العلاقات الديبلوماسية الجزائرية في عهد الامير عبد القادر
ـ دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة
ـ المدن المغربية في الادب الجغرافي العربي .
ـ جدول المطابقة بين التقويم الهجري والتقويم الميلادي (بالاشتراك مع الدكتور عبد القوي) .
ـ الاسلام والتيارات الحضارية في شبه القارة الهندية
ـ معجم الفرق والمذاهب الاسلامية
ـ حول العالم ـ مع رواد المجهول من المعمورة

- عواصم بني زيري ملوك أشير والقلعة وغرناطة وبجاية والمهدية .
- دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية
- فردريك نيتشه ـ حياته وفلسفته (بالانجليزية)

تحقيق التراث :

- كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي (الطبعة الثانية بصدد الانجاز)
- سير أبي زكرياء
- سير مشائخ المغرب لأبي الربيع الوسياني
- كشف الغمة الجامع لاخبار الامة (في تاريخ المذهب الاباضي) لمؤلف عماني مجهول .
- القارة الافريقية وجزيرة الاندلس (مقتبس من كتاب نزهة المشتاق للشريف الادريسي)
- تحفة الالباب لابي حامد الغرناطي
- نتيجة الاجتهاد (أوسفارة أحمد بن الغزال ورحلته الى الاندلس)
- تحت الاعداد : تقويم البلدان للملك الصالح اسماعيل أبي الفداء (مقارنة نسخ باريس ولندن) .

الترجمة :

- الفتوحات الاسلامية في فرنسا وايطاليا وسويسرا لجوزيف رينو
- كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي (من العربية الى الفرنسية)
- مذكرات الكلونيل سكوت الانجليزي عن اقامته في زمالة الامير عبد القادر
- الاسلام في مجده الاول لموريس لومبار .
- العلاقات الديبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة (1876 ـ 1816) لراي ايروين .
- مذكرات أسير الداي ، كاثكارت ، قنصل الولايات المتحدة في المغرب .
- الدراسات العربية في الجزائر خلال قرن من الاحتلال الفرنسي لماسي وآخرين .
- قصر الحمراء في الأدب والتاريخ لواشنطون ايرفينج .
- سقوط غرناطة آخر مغاقل الاسلام لواشنطون ايرفينج .

الناشرون : وزارة الثقافة السوريّة ـ المطبعة التجارية (بيروت) دار الآفاق الجديدة (بيروت) ـ دار الغرب الاسلامي (بيروت) دار الرائد العربي (بيروت) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر (ديوان المطبوعات الجامعية) ـ مطبعة البعث .

لقد كانت الصحراء في مختلف عهودها أرض الجفاف والحرمان ، وباستثناء القليل من التجار وشيوخ القبائل وأعوان السلطان ، كان سكانها يعيشون في شظف وتقشف ، ولكن حياتهم كانت دائما يسودها النبل وتخضع لقواعد الشرف وتدين بمبدإ الكرم والسخاء وحسن استقبال الضيف ، وهذه ، فيما تعرف ، خصائص عامة ، ومبادىء مشتركة بين سكان الصحراوات في جميع مناطق العالم ، ولايشذ عنها حتى الربع الخالي . وأنا لاأعرف الوضعية السائدة في الوقت الحاضر في المناطق الصحراوية الاخرى ، ولكنني لمست التطور الذي وقع في الصحراء الكبرى وفي بعض شواطئها بنفسي وكنت شاهد عيان لبعض الاحداث الدالة على الاتجاه ، واظن انني لوحاولت تسجيل مشاهداتي في هذه الرحلة ، كما يصنع الرواد والرحالة ، لا حتجت لاستيعابها الى سفر مستقل ، وهي بالتأكيد ، سيتغلب الجانب السلبي فيها على الجانب الايجابي ، على أن قلة رغبتي في الخوض في هذا الموضوع لاتعفيني من عرض بعض الامثلة هنا بطريقة موضوعية لياخذ القارئ فكرة عن نوع الانطباعات التي عدتُ بها من رحلة الصحراء .

السعر في الجزائر د.ج